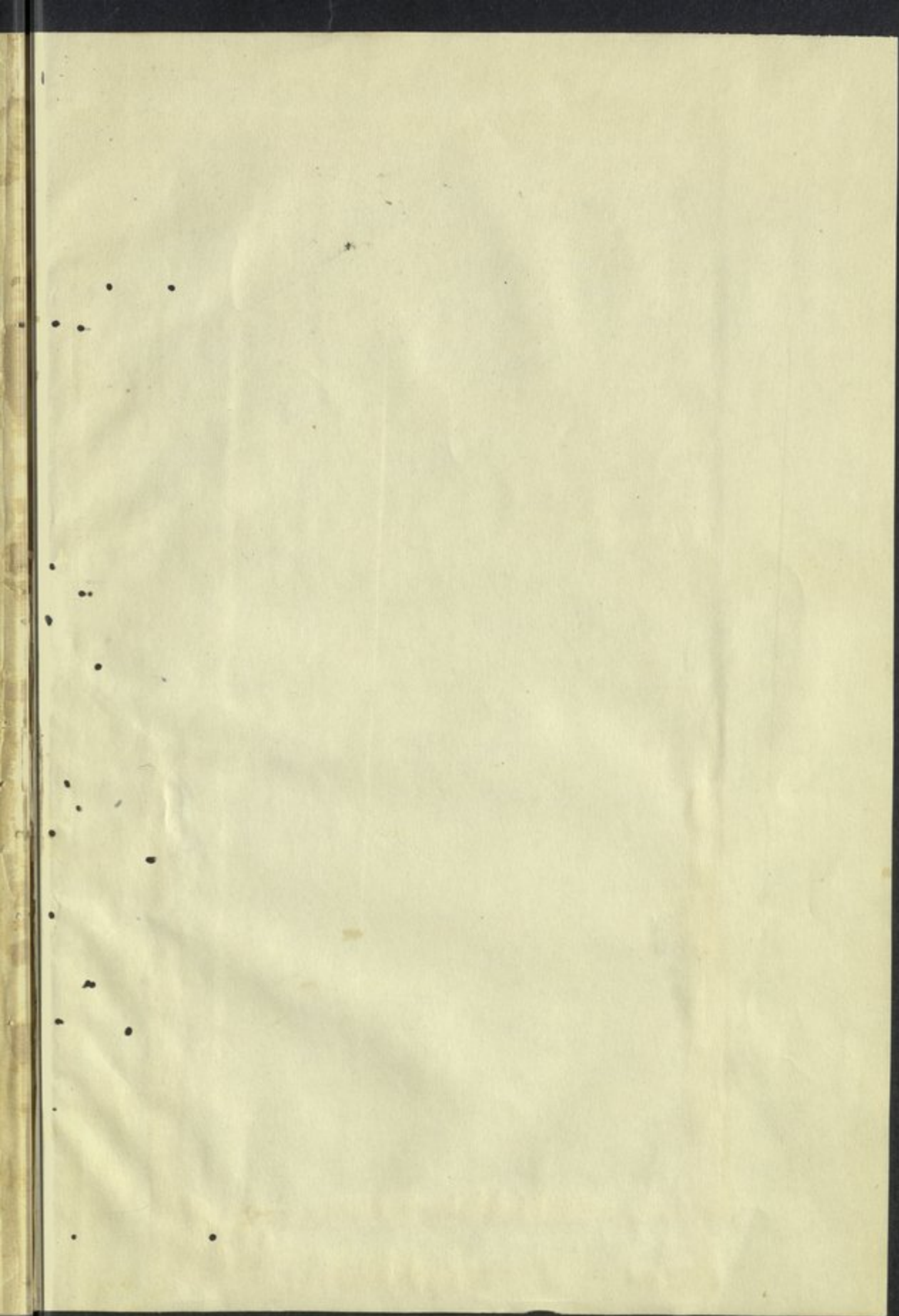




Saleh el-Dukr
Bindery

9
R

1875-1880



٤١٤٠
رقم ايكونا

297.09

R56a2A

v.3
c.1

عصر المأمون



بقلم

الدكتور

أحمد فريد زفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

Cat. No. 1930

المجلد الثالث

(حقوق الطبع محفوظة للزلف)

38644

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٧ - ١٣٤٦ م



ՀԱՅԱՍՏԱՆԻ ՀԱՆՐԱՊԵՏՈՒԹՅԱՆ
ԿՐԹԱԿՆԵՐՈՒԹՅԱՆ ՄԻՆԻՍՏԵՐԱՆ
ԵՐԱՅԱՆ ԳՐԱԴԱՐԱՆ

ՄԱՐԿԱԿԱՆ ԳՐԱԿԱՆՈՒՄ

ՀԱՅԱՍՏԱՆԻ ՀԱՆՐԱՊԵՏՈՒԹՅԱՆ
ԿՐԹԱԿՆԵՐՈՒԹՅԱՆ ՄԻՆԻՍՏԵՐԱՆ

ԳՐԱԿԱՆՈՒՄ

ՀԱՅԱՍՏԱՆԻ ՀԱՆՐԱՊԵՏՈՒԹՅԱՆ
ԿՐԹԱԿՆԵՐՈՒԹՅԱՆ ՄԻՆԻՍՏԵՐԱՆ

فهرست

المجلد الثالث من عصر المأمون

ملحق الكتاب الثالث - عصر الأمين والمأمون

صفحة	باب المشهور :
١	نصوص كتب الأمين والمأمون - نص كتاب الأمين الى المأمون
٢	نص كتاب الأمين الى أخيه صالح
٥	القول بخلق القرآن (ما كتبه المأمون الى ولاته)
١٧	عهد طاهر بن الحسين
٢٦	رسالة الخميس (ما كتبه المأمون الى أهل خراسان)
٣٨	ما كتبه السيدة زبيدة الى المأمون - ما كتبه المأمون اليها
٣٩	رسالة أحمد بن يوسف
	رسائل سهل بن هارون :
٤٨	وصفه وتاريخ حياته - ما حكاه الجاحظ عنه
٤٩	ما حكاه دعبل الخزازي الشاعر عنه
٥٠	كتبه وطرقته في التأليف
٥٢	من كلام له في كتابه ثعلبة وغفرة
٥٣	ما كتبه الى صديق له أبل من ضعف - رسالته في البخل
٥٧	شيء من شعره
	رسائل عمرو بن مسعدة :
٥٩	وصفه وتاريخ حياته
٦١	من كلام له - ما كتبه الى الحسن بن سهل - ما كتبه الى المأمون
٦٢	من حكمه

صفحة

٦٤ ما كتبه الى بعض الرؤساء
٦٥ شىء من شعره
٦٦ حكاية له
٥٧٠ ما قاله أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي فيه

رسائل الجاحظ :

٧٢ وصفه وتاريخ حياته — رسالته في بنى أمية
٨٠ ما كتبه الى بعض إخوانه في ذم الزمان
٨٢ وصفه لقريش وبنى هاشم
٨٣ ما كتبه في الاعتذار — ما كتبه في الاستعطاف
٨٤ ما كتبه في ذم الحسد — دفاعه عن مؤلفاته
٩٢ ما كتبه في أخذ البرى بذب المذنب
٩٨ ما كتبه في أقسام البيان
١٠١ ما كتبه في مدح الكتب
١١٥ ما كتبه في الترغيب في اصطناع الكتب

باب الرسائل :

١٢٨ الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة في كل فن — كتب رجل الى صديق له
١٣١ فصل لسعيد بن حميد
١٣٣ فصل في هدية — فصل في شفاعة — فصل لرجل ميمى — فصل لأحمد بن يوسف
١٣٣ فصل في الصفح لأبى على — فصل لأحمد بن يوسف
١٣٤ فصل لعقال بن شبة — فصل في التوديع — فصل في الصفح — جواب في فتح
١٣٥ فصل في الصفح عن الجفاء — فصل في الاعتذار
١٣٦ الى المأمون من تامل — فصل لابن الكلابي
١٣٧ فصل لابراهيم بن اسماعيل بن داود
١٣٨ فصل لعمر بن مسعدة
١٣٨ فصل لعيسى بن واضح الى الفضل بن ربيع — فصل لجبل بن يزيد
١٣٩ وله في المطر — وله الى بعض اخوانه
١٤٠ فصل لابن أعين كاتب الخيزران — فصل لأبى الكلابي — فصل لعلى بن عبيدة الى ابن الكلابي
١٤١ فصل لعامة — فصل لسعيد بن عبد الملك

صفحة	
١٤٢	فصل لجل بن يزيد الى بعض اخوانه — وله الى بعض اخوانه أيضا
١٤٤	— فصل في شكر... ..
١٤٥	— فصل في صفة الجند
	— ما كتبه جعفر بن محمد الأشعث الى رجل لم يكتبه — ما كتبه الفضل بن يحيى الى رجل
١٤٦	يشاوره في أمر حدث — ما كتبه أحمد بن يوسف الى اسحاق بن ابراهيم الموصلي — توسل
	ما كتبه طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل — ما كتبه محمد بن الجهم — ما كتبه
١٤٧	محمد بن مسعر — ما كتبه ابن وهب في الاعتذار

التحاميد :

١٤٨	التحميد الأول — التحميد الثاني
	صدر تحميد مفرد — صدر تحميد آخر — تحميد مختار لكتاب خزيمه بن خازم في فتح
١٤٩	الصنارية — تحميد لأحمد بن يوسف الى الولاية عن الخليفة
	تحميد لابراهيم بن العباس في فتح اسماعيل بن اسحاق — التحميد الثاني — تحميد له مبتدأ
١٥٠	مقام بين يدي الخليفة
١٥١	تحميد ثان — تحميد ثالث
١٥٣	تحميد في فتح لابن العباس
١٥٣	وله في فتح ابن العيث لما ظفريه
١٥٤	وله صدر كتاب الخميس في تحميد الله وتحميده
١٥٥	تحميد لأحمد بن يوسف في صدر رسالة الخميس التي كانت تقرأ بخراسان
١٥٦	تحميد للعباس في مقام له بين يدي المأمون — تحميد لعبد الحميد في أبي العلاء الخورري
	تحميد في فتح الى أمير لقمامة — صدر تحميد لسان بن عبد الحميد في خطبة موجزة — تحميد
١٥٧	لعبد الحميد في فتح
١٥٨	تحميد ثان
١٥٩	تحميد لأنس بن أبي شيخ — تحميد لعبد الحميد في فتح يعظم فيه أمر الاسلام
١٦٠	تحميد لعبد الحميد أيضا
١٦١	تحميد لقمامة — تحميد لزيد بن علي — تحميد في الاسلام
١٦٢	تحميد لأبي عبيد الله
١٦٣	صدر رسالة في الخميس لابراهيم بن المهدي
١٦٤	— تحميد في الاسلام وما آمن به علي أهله
١٦٥	تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم

صفحة

١٦٨	تحميد في فتح لسعيد بن حميد
١٦٩	تحميد لابن المقفع
١٧١	تحميد لفسان بن عبد الحميد — تحميد لأحمد بن يوسف في فتح السند
١٧٢	تحميد لأبي عبيد الله — تحميد لسعيد بن حميد
١٧٣	فيا يقترظ به الخليفة
١٧٧	تحميد لأبي عبيد الله
١٨٠	ما يكتب به في المخالفين وقت الهزيمة
١٨١	ما يكتب به في صفة الخالعين
١٨٤	ما يكتب به في العصابة — ما يكتب به في مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم
١٨٧	وصف الأولياء في الكتب
١٨٨	ما يقترظ به أمير المؤمنين في أواخر الكتب — سعيد بن حميد

التحاميد في أواخر الكتب :

١٨٨	تحميد لسعيد بن نصر — تحميد لابراهيم بن العباس — تحميد لأبي عبيد الله
١٩٢	الدعاء لأمر المؤمنين في أواخر الكتب

مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن :

		تهنئة خليفة بظفر — ما كتبه ابراهيم بن المهدي الى المعتصم بهته بخروجه عن أرض الروم
١٩٣	بعد فتح عمورية
١٩٤	ما كتبه أحمد بن يوسف الى عبيد الله بن طاهر بهته بظفر كتهنئة خليفة بجح
١٩٥	تهنئة بولاية — تهنئة لسعيد بن حميد الى بعض اخوانه
١٩٧	ما كتبه محمد بن مكرم الى أحمد بن دينار
١٩٨	تهنئة بعزل عامل عن عمله
١٩٩	ما كتبه محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر
٢٠٠	تهنئة بزويج وبناء بأهل
٢٠١	تهنئة بمولود كتبها العباس بن الحسن الطالبي الى المأمون
٢٠٤	ما كتبه ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية
٢٠٥	تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصراني أسلم

باب المنظوم :

٢٠٦	أبونواس
٢٤٩	العنان

صفحة	
٢٥٥	دعبل
٢٦٥	حسين بن الضحاك
٢٧٨	محمد بن عبد الملك الزيات
٢٨٣	ابن البواب
٢٨٦	الخرمى
٢٩٥	عبد الله بن طاهر
٢٩٨	ما قبل في هجاء الأمين وراثته
٣٠٣	هجاه يحيى بن أكرم
٣٠٥	وصف ثورة بغداد وحرقها

607
 608
 609
 610
 611
 612
 613
 614
 615
 616
 617
 618
 619
 620
 621
 622
 623
 624
 625
 626
 627
 628
 629
 630
 631
 632
 633
 634
 635
 636
 637
 638
 639
 640
 641
 642
 643
 644
 645
 646
 647
 648
 649
 650
 651
 652
 653
 654
 655
 656
 657
 658
 659
 660
 661
 662
 663
 664
 665
 666
 667
 668
 669
 670
 671
 672
 673
 674
 675
 676
 677
 678
 679
 680
 681
 682
 683
 684
 685
 686
 687
 688
 689
 690
 691
 692
 693
 694
 695
 696
 697
 698
 699
 700
 701
 702
 703
 704
 705
 706
 707
 708
 709
 710
 711
 712
 713
 714
 715
 716
 717
 718
 719
 720
 721
 722
 723
 724
 725
 726
 727
 728
 729
 730
 731
 732
 733
 734
 735
 736
 737
 738
 739
 740
 741
 742
 743
 744
 745
 746
 747
 748
 749
 750
 751
 752
 753
 754
 755
 756
 757
 758
 759
 760
 761
 762
 763
 764
 765
 766
 767
 768
 769
 770
 771
 772
 773
 774
 775
 776
 777
 778
 779
 780
 781
 782
 783
 784
 785
 786
 787
 788
 789
 790
 791
 792
 793
 794
 795
 796
 797
 798
 799
 800
 801
 802
 803
 804
 805
 806
 807
 808
 809
 810
 811
 812
 813
 814
 815
 816
 817
 818
 819
 820
 821
 822
 823
 824
 825
 826
 827
 828
 829
 830
 831
 832
 833
 834
 835
 836
 837
 838
 839
 840
 841
 842
 843
 844
 845
 846
 847
 848
 849
 850
 851
 852
 853
 854
 855
 856
 857
 858
 859
 860
 861
 862
 863
 864
 865
 866
 867
 868
 869
 870
 871
 872
 873
 874
 875
 876
 877
 878
 879
 880
 881
 882
 883
 884
 885
 886
 887
 888
 889
 890
 891
 892
 893
 894
 895
 896
 897
 898
 899
 900
 901
 902
 903
 904
 905
 906
 907
 908
 909
 910
 911
 912
 913
 914
 915
 916
 917
 918
 919
 920
 921
 922
 923
 924
 925
 926
 927
 928
 929
 930
 931
 932
 933
 934
 935
 936
 937
 938
 939
 940
 941
 942
 943
 944
 945
 946
 947
 948
 949
 950
 951
 952
 953
 954
 955
 956
 957
 958
 959
 960
 961
 962
 963
 964
 965
 966
 967
 968
 969
 970
 971
 972
 973
 974
 975
 976
 977
 978
 979
 980
 981
 982
 983
 984
 985
 986
 987
 988
 989
 990
 991
 992
 993
 994
 995
 996
 997
 998
 999
 1000

مُلْحَقَاتُ

الكتاب الثالث

باب المنشور

(١) نصوص كتب الأئمة والمؤمن

١ - نص كتاب الأئمة إلى المأمون؛ وهو الكتاب الذي أشرنا إليه في الجزء الأول. إذا ورد عليك كتاب أخيك - أعاده الله من - فقدك - عند حلول ما لا مرد له ولا مدفع، مما قد أخلف وتناخ الأئمة الخالية، والقرون الماضية، بما عزاك الله به. وأعلم أن الله جل شأنه، قد اختار لأمير المؤمنين أفضل الدارين، وأجزل الحظين، فقبضه الله طاهراً زاكياً، قد شكر سعيه، وغفر ذنبه، إن شاء الله. فقم في أمرك قيام ذى الحزم والعزم، والناظر لأخيه ونفسه، وسلطانه وعامة المسلمين. وإياك أن يغلب عليك الجزع، فإنه يُخبط الأجر، ويُعقب الوزر؛ وصلوات الله على أمير المؤمنين حياً وميتاً، وإنا لله وإنا إليه راجعون. وخذ البيعة على من قبلك، من قوادك وجُندك، وخاصتك وعاقمتك، لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها لك أمير المؤمنين: من نسخها له وإثباتها، فإنك مُقلد من ذلك، ما قلدك الله وخليفته. وأعلم من قبلك رأي في صلاحهم، وسد حلتهم، والتوسعة عليهم؛ فمن أنكرته عند بيعته، أو آتمته على طاعته، فابعث إلى برأسه مع خبره. وإياك وإقالته، فإن النار أولى

به . وأُكْتُبُ الى عُثْمَانَ نُغُورِكَ ، وَأَمْرَاءِ أَجْنَادِكَ ، بِمَا طَرَقَكَ مِنَ الْمَصِيبَةِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ الدُّنْيَا لَهُ ثَوَابًا ، حَتَّى قَبِضَهُ إِلَى رُوحِهِ وَرَاحَتِهِ وَجَنَّتِهِ ، مَغْبُوطًا مَحْمُودًا ، قَائِدًا لِجَمِيعِ خَلْفَائِهِ إِلَى الْجَنَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَمُرَّهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْبَيْعَةَ عَلَى أَجْنَادِهِمْ ، وَخَوَاصِهِمْ وَعَوَاتِقِهِمْ ، عَلَى مِثْلِ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ ، مِنْ أَخْذِهَا عَلَى مَنْ قَبْلَكَ ؛ وَأَوْعِزْ إِلَيْهِمْ فِي ضَبْطِ نُغُورِهِمْ ، وَالْقُوَّةِ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، إِنِّي مُتَّفَقٌ حَالَتِهِمْ ، وَلَا مُمْسِكٌ عَلَيْهِمْ ، وَمَوْسِعٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا آيٌّ فِي تَقْوِيَةِ أَجْنَادِي وَأَنْصَارِي . وَلَتَكُنْ كُتُبُكَ إِلَيْهِمْ كُتُبًا عَامَةً لِنُقْرَأَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَا يَسْكُنُهُمْ ، وَيَسْطُرُّ أَمَلَهُمْ . وَأَعْمَلْ بِمَا نَأْمُرُ بِهِ لِمَنْ حَضَرَكَ ، أَوْ نَأَى عَنْكَ مِنْ أَجْنَادِكَ عَلَى حَسَبِ مَا تَرَى وَتُشَاهِدُ . فَإِنَّ أَخَاكَ يَعْرِفُ حَسَنَ اخْتِيَارِكَ ، وَصِحَّةَ رَأْيِكَ ، وَبَعْدَ نَظَرِكَ ، وَهُوَ يَسْتَحْفِظُ اللَّهَ لَكَ ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَسُدَّ بِكَ عَضُدَهُ ، وَيَجْمَعُ بِكَ أَمْرَهُ ، إِنَّهُ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ . وَكُتِبَ بِكَرْبِنِ الْمُعْتَمِرِينَ يَدِي وَإِمْلَائِي فِي شَوَّالِ سَنَةِ ١٩٢ هـ

٢ — وهذا كتاب محمد الأمين الى أخيه صالح .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كِتَابِي هَذَا ، عِنْدَ وَقُوعِ مَا قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ ، وَنَقَذَ مِنْ قَضَائِهِ ، فِي خَلْفَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ ، وَجَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فَقَالَ : ((كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)) . فَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ عَظِيمِ ثَوَابِهِ وَمُرَافَقَةِ أَنْبِيَائِهِ ، صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ؛ وَإِيَّاهُ نَسْأَلُ أَنْ يُحْسِنَ الْخِلَافَةَ عَلَى أُمَّةٍ نَبِيهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَدْ كَانَ لَهُمْ عِصْمَةٌ وَكَهْفًا ، وَبِهِمْ رِءُوفًا رَحِيمًا .

فَشَمَّرَ فِي أَمْرِكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُلْقَى بِيَدَيْكَ ، فَإِنَّ أَخَاكَ قَدْ آخَرْتَهُ لِمَا آسْتَهْزِكُ لَهُ ، وَهُوَ مُتَّفَقٌ مَوَاقِعَ فُقْدَانِكَ ، فَحَقَّقَ ظَنَّهُ ، وَنَسَأَلَ اللَّهَ التَّوْفِيقَ . وَخَذَ الْبَيْعَةَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ ، مِنْ وَلَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَمَوَالِيهِ وَخَاصَّتِهِ وَعَامَتِهِ لِمُحَمَّدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ لِلْقَاسِمِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى الشَّرِيطَةِ الَّتِي جَعَلَهَا

أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسخها على القاسم أو إثباتها . فإن السعادة واليمن في الأخذ بعهدته والمضي على مناهجه .

وأعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأي في استصلاحهم ، ورد مظالمهم ، وتفقد حالاتهم ، وأداء أرزاقهم ، وأعطياتهم عليهم . فإن شغب شاغب ، أو نعر ناعرا ، فأسط به سطوبة تجعله نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للتقين . وأضُم إلى الميمون ابن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين وخدمه وأهله ، ومُرّه بالمسير معهم فيمن معه ، وجنده ورباطته ، وصير إلى عبد الله بن مالك أمر العسكر وأحداثه ، فإنه ثقة على ما يلي ، مقبول عند العامة ، وأضُم إليه جميع جند الشرط ، من الروابط وغيرهم ، إلى من معه من جنده ، ومُرّه بالحد والتيقظ ، وتقديم الحزم في أمره كله ، ليلته ونهاره . فإن أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يَغْتَنِمون مثل حلول هذه المصيبة ، وأقر حاتم بن هرثمة على ما هو عليه ، ومره بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين ، فإنه ممن لا يُعرف إلا بالطاعة ، ولا يدين إلا بها ، بمعاقدة من الله ، مما قدم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء ، ومُر الخدم بإحضار روابطهم ، من يُسَدُّ بهم وبأجنادهم مواضع الخلل من عسكرك ، فإنهم حد من حدودك ، وصير مُقدِّمك إلى أسد بن يزيد بن مزيد ، وساقك إلى يحيى بن مُعاذ ، فيمن معه من الجنود ، ومرهما بمناوبتك في كل ليلة .

وأزم الطريق الأعظم ، ولا تُعدو المراحل ، فإن ذلك أرفق بك ، ومر أسد بن يزيد ، أن يتخير رجلا من أهل بيته أو قواده ، فيصير إلى مقدمته ، ثم يصير أمامه ، لتهيئة المنازل ، أو بعض الطريق ، فإن لم يحضر في عسكرك بعض من سميت ، فاختر لمواضعهم من تثق بطاعته ، ونصيحته وهيئته ، عند العوام ، فإن ذلك لن يعوزك ، من قوادك وأنصارك ، إن شاء الله .

وإياك أن تُنفذ رأيا ، أو تُبرم أمرا ، إلا برأي شيخك ، وبقية آبائك ، الفضل بن الربيع ، وأقرر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ؛

ولا تُخْرِجَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ ، مِنْ ضَمْنِ مَا بِي ، أَلَى أَنْ تَقْدَمَ عَلَيَّ . وَقَدْ أَوْصَيْتُ بِكَرْبِنِ الْمُعْتَمِرِ
بِمَا سَيُتْلَفُكَ ؛ وَأَعْمَلُ فِي ذَلِكَ بِقَدْرِ مَا تَسَاهَدُ وَتَرَى . وَإِنْ أَمَرْتَ لِأَهْلِ الْعَسْكَرِ بِعَطَاءٍ
أَوْ رِزْقٍ فَلْيَكُنِ الْفَضْلُ بِنِ الرَّبِيعِ الْمُتَوَلَّى لِإِعْطَائِهِمْ ، عَلَى دَوَاوِينَ يَتَّخِذُهَا لِنَفْسِهِ ، بِمُحْضَرٍ
مِنْ أَصْحَابِ الدَّوَاوِينَ ؛ فَإِنَّ الْفَضْلَ بِنِ الرَّبِيعِ لَمْ يَزَلْ مِثْلَ ذَلِكَ لِمَهْمَاتِ الْأُمُورِ . وَأَنْفَذْتُ
إِلَيْكَ عِنْدَ وَضُوءِ كِتَابِي هَذَا إِلَيْكَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ صَبِيحٍ ، وَبِكَرْبِنِ الْمُعْتَمِرِ ، عَلَى مَرَكَبَيْهِمَا
مِنَ الْبَرِيدِ ؛ وَلَا يَكُونُ لَكَ عُرْجَةٌ وَلَا مُهْلَةٌ ، بِمَوْضِعِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ ، حَتَّى تُوجَّهَ إِلَى
بِعَسْكَرِكَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْخِزَائِنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . أَخُوكَ يَسْتُدْفِعُ اللَّهُ عَنْكَ ، وَيَسْأَلُهُ لَكَ
حَسَنَ التَّأْيِيدِ بِرَحْمَتِهِ . وَكُتِبَ بِكَرْبِنِ الْمُعْتَمِرِ بَيْنَ يَدَيَّ وَإِمْلَأْنِي فِي شَوَّالِ سَنَةِ ١٩٢ هـ .

(ب) القول بخلق القرآن

وهاك مثلاً مما كتبه المأمون إلى ولاته في الأخذ بمذهبه في القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عالمه إسحاق بن إبراهيم وما يرويه لنا الطبري مما حصل .
 أما الكتاب فهو :

أما بعد، فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم، وموارث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم، والعمل بالحق في رعيته، والتشمير لطاعة الله فيهم، والله يسأل أمير المؤمنين، أن يوقفه لعزيمة الرشد وصريته، والإسقاط فيما وآه الله من رعيته، برحمته وميته، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر، من حشو الرعية، وسفلة العاقبة، ممن لا نظر له ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيد الإيمان به، ونكويب عن واضحاته وأعلامه وواجب سبيله، وقصور أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفترقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكير والتذكر، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى، وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين، وآتفقوا غير متعاجمين، على أنه قديم أول، لم يخلقه الله، ويحدثه ويخترعه، وقد قال الله عز وجل في مُحْكَم كتابه، الذي جعله لما في الصدور شفاءً، وللؤمنين رحمةً وهدى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ . فكل ما جعله الله فقد خلقه، وقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ . وقال عز وجل : ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ . فأخبر أنه قصص لأمر أحدثه بعدها، وتلا به متقدمها، وقال : ﴿الرَّكَّابُ أَحْكَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ . وكل مُحْكَم مُفْصَّل، فله مُحْكَم مُفْصَّل، والله مُحْكَم كتابه ومفصَّله، فهو خالقُه ومبتدعه،

ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلَّتْهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ؛ فاستطالوا بذلك على الناس ، وغرَّوا به الجهال ، حتى مال قومٌ من أهل السُّمت الكاذب ، والتخشع لغير الله ، والتعشُّف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيِّئ آرائهم ، تزيئاً بذلك عندهم ، وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتَّخذوا دون الله وليجةً إلى ضلالتهم ، فقبِلت بتركيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم ، على دغل دينهم ، ونغل أديمتهم ، وفساد نيَّاتهم و يقينهم ؛ وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا ، وإياها طلبوا في متابعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ، ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمَّهم الله ، وأعمى أبصارهم ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ . فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأئمة ، ورعوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظاً ، والمختسوسون من الإيمان نصيباً ، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الناطق في أوليائه ، والهائل على أعدائه ، من أهل دين الله ، وأحق من يئهم في صدقه ، وتُطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام ، وإخلاص التوحيد ؛ ومن عمي عن رشده وحظّه ، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده ، كان عمّا سوى ذلك من عمله ، والقصد في شهادته ، أعمى وأضلَّ سبيلاً ؛ ولعمر أمير المؤمنين أن أحمى الناس بالكذب في قوله ، وتخرَّص الباطل في شهادته من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وأن أولاهم ردَّ شهادته ، في حكم الله ودينه من ردَّ شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله ، فاجمع من بحضورتك من القضاة ، وأقرا عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فأبدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون ، في خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق

فيا قلده الله، وأستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيدده وبقينه، فإذا أقرتوا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فُرِّمَ بَنَصُّ مَنْ يَحْضُرُهُمْ مِنَ الشُّهُودِ عَلَى النَّاسِ، وَمَسْأَلَتُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، وَتَرَكَ إِثْبَاتَ شَهَادَةِ مَنْ لَمْ يُقَرِّأَهُ مَخْلُوقٌ مُحَدَّثٌ وَلَمْ يَرَهُ، وَالْإِمْتِنَاعُ مِنْ تَوْقِيعِهَا عِنْدَهُ؛ وَأَكْتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَأْتِيكَ، عَنْ قُضَاةِ أَهْلِ عَمَلِكَ فِي مَسْأَلَتِهِمْ، وَالْأَمْرُ لَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ، ثُمَّ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، وَتَفَقَّدَ آثَارَهُمْ، حَتَّى لَا تُتَّفَقَ أَحْكَامُ اللَّهِ، إِلَّا بِشَهَادَةِ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فِي الدِّينِ، وَالْإِخْلَاصِ لِلتَّوْحِيدِ؛ وَأَكْتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَكُتِبَ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون، الى إسحاق بن ابراهيم، في إشخاص سبعة نفر، منهم : محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستمل ي زيد بن هارون، ويحيى بن معين، وزهير بن حرب أبو خيثمة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدورقي، فأشخصوا اليه، فامتحنهم، وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق، فأشخصهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق بن ابراهيم داره، فشهَّر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء، والمشايخ من أهل الحديث، فأقرتوا بمثل ما أجابوا به المأمون فغلى سبيلهم، وكان ما فعل إسحاق بن ابراهيم من ذلك بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن ابراهيم :

أما بعد، فإن من حق الله على خلفائه في أرضه، وأمنائه على عبادده، الذين آرتضاهم لإقامة دينه، وحملهم رعاية خلقه، وإمضاء حكمه وسننه، والائتمام ببدله في بريته، أن يجهدوا لله أنفسهم، وينصحوا له فيما أستحفظهم وقلدهم، ويدلوا عليه — تبارك اسمه — وتعالى — بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفة التي جعلها فيهم، ويهدوا إليه من زاغ عنه، ويردوا من أدبر عن أمره، وينهجوا لرعاياهم سبيل نجاتهم، ويقفوا على حدود إيمانهم، وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم، ومشتبهاتها

عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبينه على كافةهم ؛ وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذ كان جامعا لفنون مصانعهم ، ومتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكروا أن الله مُرْصِدٌ من مساءلتهم عما حُمِّلوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه ، وقدموا عنده ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين ، إلا بالله وحده ، وحسبه الله وكفى به . ومما بينه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيمَ خطره ، وجليلَ ما يرجع في الدين من وكفه وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماما لهم ، وأثرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم باقيا لهم ، وأشباهه على كثير منهم ، حتى حَسُنَ عندهم ، وترَّينَ في عقولهم ، ألا يكون مخلوقا ، فتعترضوا بذلك لدفع خلق الله ، الذي بان به عن خلقه ، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته ، التي لا يُبْلَغُ أولها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شيء دونه ، خلقا من خلقه ، وحدثا هو المُحْدِثُ له ، وإن كان القرآن ناطقا به ، ودالا عليه ، وقاطعا للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى ، في أدعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ . وتأويل ذلك : إنا خلقناه ، كما قال جل جلاله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْلًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ . فسوى عز وجل ، بين القرآن ، وبين هذه الخلائق ، التي ذكرها في شبيهة الصنعة ، وأخبر أنه جاءه وحده ، فقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ . فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يُحَاطُ إلا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ . وقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ ﴾ . وقال : ﴿ فَنَنْظُرُ إِلَيْهِ أَمَّنْ أَمْرًا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ . وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم ، أنهم قالوا : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشِيرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . ثم أكذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾ . فسعى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرا ، وإيمانا ونورا وهدى ومباركا وعربيا

وقصصا، فقال : ((نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ)) .
 وقال : ((قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ)) .
 وقال : ((قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ)) . وقال : ((لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
 وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)) . فغسل له أولا وآخرا ، ودل عليه ، أنه محدود مخلوق ، وقد عظم هؤلاء
 الجهلة بقولهم في القرآن ؛ التلم في دينهم ، والخرج في أماتهم ، وسهلوا السبيل لعدو
 الإسلام ، وأترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفوا ، ووصفوا خلق الله وفعله
 بالصفة التي هي لله وحده وشبهوه به ، والإشبه أولى بخلقته ، وليس يرى أمير المؤمنين ،
 لمن قال بهذه المقالة حظا في الدين ، ولا نصيبا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يُحِلَّ
 أحدا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق في قول ولا حكاية ، ولا تولية
 لشيء من أمر الرعية ؛ وإن ظهر قصد بعضهم ، وعُرف بالسداد مُستد فيهم ، فإن الفروع
 مردودة الى أصولها ، ومحمولة في الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه ، الذي
 أمره الله به ، من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل
 سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين ، بما
 كتب به إليك ، وانصصهما عن علمهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين
 على شيء من أمور المسلمين ، إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يُقر
 بأن القرآن مخلوق ، فإن قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدم اليهما في امتحان من يحضر
 مجالسهما ، بالشهادات على الحقوق ، ونصهم عن قولهم في القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه
 مخلوق ، أبطلا شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله ، وان ثبت عنافه بالقصد والسداد في أمره ،
 وأفعل ذلك بمن في سائر عمالك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة
 في بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، وأكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك
 في ذلك إن شاء الله .

ثم لننظر ما حصل بعد ذلك مما يرويه لنا الطبري قال :

فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين ، وأحضر
 أبا حسان الزبدي ، وبشر بن الوليد الكندي ، وعلى بن أبي مقاتل ، والفضل بن غانم ،
 والذبال بن الهيثم ، وسجادة ، والقواريري ، وأحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وسعدويه الواسطي ،
 وعلى بن الجعد ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وأبن الهريش ، وأبن عيسى الأكبر ، ويحيى
 ابن عبد الرحمن العمري ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب ، كان قاضي الرقة وأبا نصر
 التمار وأبا معمر القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن نوح المصروب ، وابن
 الفرخان ، وجماعة منهم النضر بن شميل ، وابن علي بن عاصم ، وأبو العوام البنزاز ، وابن
 شجاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق ، فأدخلوا جميعا على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا
 مرتين ، حتى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن؟ فقال : قد عرفت
 مقالتي لأمر المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال :
 أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو؟ قال : الله خالق كل شيء ،
 قال : ما القرآن شيء؟ قال : هو شيء ، قال : فمخلوق؟ قال : ليس بمخلوق ، قال : ليس
 أسألك عن هذا ، أمخلوق هو؟ قال : ما أحسن غير ما قلت لك ، وقد استعهدت
 أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ، وليس عندي غير ما قلت لك ، فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعة
 كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا
 لم يكن قبله شيء ، ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا
 وجه من الوجوه ، قال : نعم ، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكتاب :
 أكتب ما قال .

ثم قال لعل بن أبي مقاتل : ما تقول يا علي؟ قال : قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين
 في هذا غير مرة ، وما عندي غير ما سمع ، فمدحته بالرقعة ، فأقر بما فيها ، ثم قال : القرآن
 مخلوق؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، قال : هو كلام الله وإن
 أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا ، فقال للكتاب : أكتب مقالته .

ثم قال للذيال نحواً من مقالته لعلّ بن أبي مقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبي حسان الزبّادي : ما عندك ؟ قال : سلّ عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ، ووقفه عليها فأقرّ بما فيها . ثم قال : من لم يقل هذا القول فهو كافر ، فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فصار يُقيم حجّتنا وصلاتنا ، وتؤدّي إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا أتمرنا ، وإن نهانا آتتهينا ، وإن دعانا أجبنا ، قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال : إن هذه مقالة أمير المؤمنين ، قال : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ، ولا يدعوهم إليها ، وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتني به ، فإنك الثقة ، المأمون عليه ، فيما أبلغتني عنه من شيء ، فإن أبلغتني عنه بشيء صرّت إليه ، قال : ما أمرني أن أبلغك شيئاً ، قال علي بن أبي مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والموارث ، ولم يحملوا الناس عليها ، قال له أبو حسان : ما عندي إلا السمع والطاعة ، فمرني آتّم ، قال : ما أمرني أن آمرك ، وإنما أمرني أن أمتحنك .

ثم عاد الى أحمد بن حنبل ، فقال له : ما تقول في القرآن ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أم مخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها ، فامتحنه بما في الرقعة ، فلما أتى الى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وأمسك عن لا يشبهه شيء من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر ، فقال — أصلحك الله — : إنه يقول : سميع من أذن ، بصير من عين ، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله سميع بصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : فما معناه ؟ قال : لا أدري هو كما وصف نفسه ، ثم دعا بهم رجلاً رجلاً كلهم يقول : القرآن كلام الله ، إلّا هؤلاء نفر : قتيبة ، وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن علية الأكبر ، وابن البكاء ، وعبد المنعم بن إدريس

ابن بنت وهب بن مُنَبِّه، والمُظَفَّر ابن مُرَجَّأ، ورجلا ضريرا ليس من أهل الفقه، ولا يُعرف بشيء منه إلا أنه دُس في ذلك الموضوع، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة، وابن الأحمر، فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال: القرآن مجعول لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، والقرآن مُحَدَّثُ لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ﴾ قال له إسحاق: فالمجعول مخلوق؟ قال: نعم، قال: فالقرآن مخلوق؟ قال: لا أقول مخلوق ولكنه مجعول، فكتب مقالته، فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهم أعترض ابن البكاء الأصغر فقال - أصلحك الله - : إن هذين القاضيين أئمة، فلو أمرتهما فأعادا الكلام! قال له إسحاق: هما من يقوم بحجة أمير المؤمنين، قال: فلو أمرتهما أن يُسمِعانا مقالاتهما لنحكي ذلك عنهما! قال له إسحاق: إن شهدتهما عندهما بشهادة فستعلم مقالاتهما إن شاء الله؛ فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ووجهت الى المأمون، ففكث القوم تسعة أيام ثم دعا بهم . وقد ورد كتاب المأمون، جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم . وهالك هو ما نجعله ختاماً لكلمتنا .



بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه، كان اليك فيما ذهب إليه متصنعة أهل القبلة، ومُتمتسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة، من القول في القرآن، وأمرك به أمير المؤمنين، من امتحانهم، وتكشيف أحوالهم، وإحلالهم محالهم، تذكر إحضارك جعفر بن عيسى، وعبد الرحمن بن إسحاق، عند ورود كتاب أمير المؤمنين، مع من أحضرت ممن كان ينسب الى الفقه، ويُعرف بالجلوس للحديث، وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام، وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن، والدلالة لهم على حظهم، وإطباقتهم على نفي التشبيه، واختلافهم في القرآن، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإسماك عن الحديث والفتوى، في السر والعلانية، وتقدمك الى السندي، وعباس مولى أمير المؤمنين بما

تقدّمت به فيهم الى القاضيين بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين، من امتحان من يحضر مجالسهما من اليهود، وبت الكتب الى القضاة في النواحي من عملك بالقدوم عليك، لتحمّلهم وتمتحنهم على ما حده أمير المؤمنين، وتثبتك في آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتضت، وأمير المؤمنين يمد الله كثيرا كما هو أهله، ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويرغب الى الله في التوفيق لطاعته، وحسن المعونة، على صالح نيته برحمته.

وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن، وما رجعت اليك فيه كل أمرئ منهم، وما شرحت من مقالتيهم؛ فأما ما قال المغرور بشرب الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وأدعى من تركه الكلام في ذلك وأستعهاد أمير المؤمنين، فقد كذب بشرفي ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك، ولا في غيره، عهد ولا نظرا أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق، فادع به إليك، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وانصصه عن قوله في القرآن، واستتب منه، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقاتته إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصر على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده، فأضرب عنقه، وأبعث الى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم بن المهدي فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا، فإنه كان يقول بقوله، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالع، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره وأكشفه، وإلا فأضرب عنقه، وأبعث الى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله.

وأما علي بن أبي مقاتل فقل له: ألسنت القائل لأمر المؤمنين إنك تحلل وتحرم والمكلم له بمثل ما كلمته به، مما لم يذهب عنه ذكره، وأما الذبيل بن الهيثم، فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسيرقه في الأنبار، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين

أبي العباس ما يشغله ، وأنه لو كان مقتنيا آثار سلفه ، وسالكا مناهجهم ، ومُتخذيا سبيلهم ، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه ؛ وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العَوام ، وقوله إنه لا يُحسِّن الجواب في القرآن ، فأعلمه أنه صبيٌّ في عقله ، لا في سنه ، جاهل ، وأنه إن كان لا يُحسِّن الجواب في القرآن فسَيُحسِّنُه ، إذا أخذه التأديبُ ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

وأما أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرّف حَقْوَى تلك المقالة ، وسبيلَه فيها ، وأستدلَّ على جهله ، وآفته بها ؛ وأما الفضل بن غانم ، فأعلمه أنه لم يُخَفِّ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما آكتسب من الأموال في أقلَّ من سنة ، وما شَجَرَ بينه وبين المُطَلِّب بن عبد الله في ذلك ، فإنه من كان شأنه شأنه ، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته ، فليس بمُسْتَنَكِر أن يبيع إيمانه طمعا فيهما ، وإيثارا لعاجل نفعهما ، وأنه مع ذلك القائلُ لعلِّي بن هشام ما قال ، والمخالفُ له فيما خالفه فيه ، فما الذي حال به عن ذلك ، ونقله الى غيره ؛ وأما الزَّيَادِيّ ، فأعلمه أنه كان مُتَحِلًّا لأَقْوَلِ دَعْيٍ كان في الإسلام خُولِفَ فيه حَكْمُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان جديرا أن يسلك مسلكه فانكر أبو حسان أن يكون مولَى لزيد ، أو يكونَ مولَى لأحد من الناس ، — ودُكِرَ أنه إنما نُسِبَ الى زياد لأمر من الأمور — وأما المعروف بأبي نصر التمار ، فإن أمير المؤمنين شَبَّه خِساسَةَ عقله بخِساسَةَ مَتَجَرِه ؛ وأما الفضل بن الفَرُّخَان ، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذَ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره ، تَرَبُّصًا بمن أستودعه ، وطمعا في الاستكثار لما صار في يده ، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، وإثمتانك إياه ، وهو معتقِدٌ للشرك ، منسلخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبي مَعْمَر ، فأعلمهم أنهم مشاغل باكل الربا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحلَّ محاربتهم في الله ومجاهدتهم ،

إلا لإربابهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا، وصاروا للنصارى مثلا؛ وأما أحمد بن شجاع، فأعلمه أنك صاحبُه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجته من المسال الذي كان استحلّه من مال علي بن هشام، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه؛ وأما سعدويه الواسطيّ فقل له: قبّح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث، والترين به، والحرص على طلب الرياسة فيه، أن يتمي وقت المحنة فيقول بالتقرب بها: متى يتمنُّ فيجلس للحديث؛ وأما المعروف بسجادة، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث، وأهل الفقه، القول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النسوي، وحقه لإصلاح سجّادته، وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وأهله، ثم سلّه عما كان يوسف بن أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما؛ وأما القواريريّ ففيا تكشف من أحواله، وقبوله الرشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه، وسوء طريقته، وبخافة عقابه ودينه، وقد آتمى إلى أمير المؤمنين أنه يتولى جعفر بن عيسى الحسنيّ مسائله، فتقدّم إلى جعفر بن عيسى في رفضه، وترك الثقة به، والاستئمانه إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمريّ، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب بفجوابه معروف؛ وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم فإنه لو كان مقتديا بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة التي حكيت عنه، وإنه بعد صبيّ يحتاج إلى تعلم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبي مشير، بعد أن نصّه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن، فحجم عنها، وبلّج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقر ذميا، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيا عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله؛ ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمر المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي، فأحلمهم أجمعين، مؤتقين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم في طريقهم ، حتى يؤدبهم الى
عسكر أمير المؤمنين ، ويُسلمهم الى من يُؤمر بتسليمهم اليه ، لينصهم أمير المؤمنين ، فإن لم
يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ، وقد أنفذ
أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بُندارية ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية مُعجلا
به ، تقربا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما أعتد ، وإدراك ما أمل ،
من جزيل ثواب الله عليه ، فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعجل إجابة أمير المؤمنين
بما يكون منك في خريطة بُندارية مفردة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه
إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ هـ .

(ج) عهد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور : ولما عهد طاهر بن الحسين الى عبدالله ابنه هذا العهد ، تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، وقال : ما أبق أبو الطيب شيئاً من الدين والدينا ، والتدبير والرأى ، وإصلاح الملك والرعية ، وحفظ البيعة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه ، وأوصى به ، وتقدم فيه . وأمر أن يكتب بذلك الى جميع العمال في نواحي الأعمال . ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره على ما فيه من طول رغبة منا في ألا يخلو كتابنا من هذا الأثر العظيم القيمة والخطر ، وهآكه :

« عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ومزاولة سخطه ، وحفظ رعيته ، وألزم ما ألبسك الله في العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر اليه ، وموقوف عليه ، ومسئول عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله ويُنجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن اليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن آسترعك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل عليهم ، والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم وبيضتهم ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسبيلهم ، وإدخال الراحة عليهم في معائشهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك ، وموقفك عليه ، ومساءلك عنه ، ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ، وفرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويتك ، ولا يذهلك عنه ذهل ، ولا يسغلك عنه شغل ، فإنه رأس أمرك وملاك شأنك ، وأول ما يوقفك الله به لرشدك ، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتُنسب اليه فعالك ، المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سننها في إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله فيها ، وترتل في قراءتك ، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، وتصدق فيها لربك نيتك ، وأحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وآداب عليها فإنها كما

قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمثابرة على خلائفه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه، ولزوم ما أنزل الله في كتابه، من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وإتمام ما جاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قم فيه بما يحق لله عليك، ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت، لقريب من الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله، والدين وحملته وكتاب الله والعامين به، فإن أفضل ما تزين به المرء الفقه في دين الله، والطلب له والحث عليه، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله، والقائد له، والأمر به، والنهي عن المعاصي والموبقات كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفةً بالله، عز وجل، وإجلالا له ودركا للدرجات العلى في المعاد، مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمره والهيبه لسلطانك، والأئسنة بك والثقة بعدك. عليك بالاعتقاد في الأمور كلها فليس شيء أئين نفعاً ولا أحضر أمناً ولا أجمع فضلاً من القصد، والقصد داعية إلى الرشده، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق متقاد إلى السعادة، وقوام الدين والسنن الهادية بالاعتقاد، فأثره في دنياك كلها، ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة، والسنن المعروفة ومعالم الرشده، فلا غاية للاستكثار من البر والسعى له، إذا كان يطلب به وجه الله ومرضاته، ومرافقة أوليائه، في دار كرامته.

وأعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز، ويحصن من الذنوب وأنتك لن تحوط نفسك ومن يليك، ولا تستصليح أمورك، بأفضل منه، فاته، وأهد به تم أمورك، وتزد مقدرتك، وتصلح خاصتك وعامتك، وأحسن الظن بالله عز وجل، تستقم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها، تستدم به النعمة عليك، ولا تنهض أحدا من الناس، فيما توليه من عملك، قبل تكشف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم مأثم، وأجعل من شأنك، حسن الظن بأصحابك، وأطرد عنك سوء الظن بهم، وآرفضه عنهم، يُعنك ذلك على أصطناعهم ورياضتهم، ولا يحددن عدو الله الشيطان في أمرك مغمزاً،

فإنه إنما يكتفى بالقليل من وَهْنِكَ فَيَدْخُلُ عَلَيْكَ مِنَ الْغَمِّ، فِي سُوءِ الظَّنِّ، مَا يُنْقِصُ عَلَيْكَ لَذَاذَةَ عَيْشِكَ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ تَجِدُ بِحَسَنِ الظَّنِّ، قُوَّةَ وَرَاحَةٍ، وَتُكْفَى بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِفَايَتَهُ مِنَ أُمُورِكَ، وَتَدْعُو بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ، وَالْأَسْتِقَامَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا لَكَ. وَلَا يَمْنَعُكَ حَسَنُ الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ، وَالرَّأْفَةُ بِرَعِيَّتِكَ، أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْمَسْئَلَةَ وَالْبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ، وَالْحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالنَّظَرَ فِيهَا يُقِيمُهَا وَيُصَلِّحُهَا، بَلْ لِيَتَكَيَّنَ الْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ، وَالْحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالنَّظَرَ فِي حَوَائِجِهِمْ، وَحَمْلَ مَوْثِقَاتِهِمْ، آثَرَ عِنْدَكَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ أَقْوَمُ لِلدِّينِ، وَأَحْيَا لِلسَّنَةِ، وَأَخْصِي تَيْتَكَ فِي جَمِيعِ هَذَا، وَتَفَرَّدَ بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ، تَفَرَّدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا صَنَعَ، وَمُحْزَى بِمَا أَحْسَنَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدِّينَ حِرْزًا وَعِزًّا، وَرَنَعَ مَنْ أَتْبَعَهُ وَعَزَّزَهُ، فَاسْأَلْكَ بَيْنَ تَسْوِسِهِ وَتَرْعَاهُ، نَهْجَ الدِّينِ، وَطَرِيقَةَ الْهُدَى، وَأَقِمِّ حُدُودَ اللَّهِ فِي أَصْحَابِ الْجَرَائِمِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ، وَمَا اسْتَحَقُّوهُ، وَلَا تُعْطَلْ ذَلِكَ وَلَا تَهَؤُنْ بِهِ، وَلَا تُؤَخَّرْ عِقَابُهُ أَهْلَ الْعُقُوبَةِ، فَإِنَّ فِي تَفْرِيطِكَ فِي ذَلِكَ، لِمَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حَسَنَ ظَنِّكَ، وَاعْزِمِ عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسَّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ، وَجَانِبِ الشُّبُهَةِ وَالْبِدْعَاتِ، يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ، وَتَقُمْ لَكَ مَرْوَةٌ، وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا فِيفِ بِهِ، وَإِذَا وَعَدْتَ الْخَيْرَ فَانْجِزْهُ، وَأَقْبَلِ الْحَسَنَةَ، وَأَدْفَعْ بِهَا، وَأَغْمِضْ عَنِ عَيْبِ كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ، وَأَشْدُدْ لِسَانَكَ عَنِ قَوْلِ الْكُذْبِ وَالزُّورِ، وَأَبْغِضْ أَهْلَهُ، وَأَقْصِ أَهْلَ النِّيمَةِ، فَإِنَّ أَقْلَ فُسَادِ أَمْرِكَ فِي عَاجِلِ الْأُمُورِ وَأَجْلَهَا، تَقْرِيبُ الْكُذُوبِ، وَالْجُرْأَةُ عَلَى الْكُذْبِ، لِأَنَّ الْكُذْبَ رَأْسَ الْمَآثِمِ، وَالزُّورَ وَالنِّيمَةَ خَاتِمَتُهَا، لِأَنَّ النِّيمَةَ لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهَا، وَقَائِلُهَا لَا يَسْلُمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لِمَطِيعِهَا أَمْرٌ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالصَّلَاحِ، وَأَعْنِ الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ، وَوَاوِلِ الضَّعْفَاءَ، وَصِلِ الرَّحِمَ، وَأَبْتَغِ بِذَلِكَ وَجَهَ اللَّهِ، وَعِزَّةَ أَمْرِهِ، وَأَلْتَسِ فِيهِ ثَوَابَهُ وَالْدَارَ الْآخِرَةَ، وَاجْتَنِبِ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجُورَ، وَأَصْرِفْ عَنْهُمَا رَأْيَكَ، وَأَظْهِرْ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ، وَأَنْعِمِ بِالْعَدْلِ سِيَاسَتَهُمْ، وَقِمِ بِالْحَقِّ فِيهِمْ، وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْهَى بِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى، وَأَمْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَآثِرِ الْوَقَارَ وَالْحِلْمَ، وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّيِّشَ وَالغُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ، وَإِيَّاكَ أَنْ

تقول : إني مُسَلِّطٌ أَفْعَلُ ما أشاء فان ذلك سريعٌ فيك إلى نقص الرأي ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له ، وأخْلِصْ لله وحده النية فيه ، واليقين به ، وأعلم أن الملك لله ، يعطيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة ، وحلول النعمة ، إلى أحدٍ أسرع منه ، إلى حملة النعمة ، من أصحاب السلطان ، والمبسوط لهم في الدولة ، إذا كفروا بنعم الله وإحسانه وأستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخائرُك وكنوزك التي تدخر وتكثر ، البر والتقوى ، والمعدلة ، وأستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقد لأموالهم ، والحفظ لدائمهم ، والإغاثة للمهوفهم ، وأعلم أن الأموال إذا كثرت ودُنِحَتْ في الخزائن ، لا تُثْمَرُ ، وإذا كانت في إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم ، وكف المؤونة عنهم ، تمت وربت ، وصلحت به العامة ، وترينت به الولاية ، وطاب به الزمان ، وأعتقد فيه العز والمنفعة ، فليكن كثر خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووقر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيّتك من ذلك حصصهم ، وتعهد بما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قوت النعمة عليك ، وأستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية نجاجك ، وجمع أموال رعيّتك وعملك أقدر ، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسس لطاعتك ، وأطيب نفسا بكل ما أردت ، فاجهد نفسك ، فيما حدثت لك في هذا الباب ، ولتَعْظُمَ حِسْبُكَ فيه ، فإنما يبقى من المال ، ما أنفق في سبيل حقه ، وأعرّف للساكرين شكرهم ، وأثبهم عليه ، وإياك أن تُنسيك الدنيا وضرورها هَوْلَ الأثرة ، فتهاون بما يحق عليك ، فان التهاون يوجب التفريط والتفريط يورث البوار ، وليكن عملك لله ، وفيه تبارك وتعالى ، وآرجُ الثواب ، فإن الله قد أسغ عليك نعمته في الدنيا ، وأظهر لديك فضله ، فاعصم بالشكر ، وعليه فاعتمد ، يزدك الله خيرا وإحسانا . فان الله يشيب بقدر شكر الساكرين وسيرة المحسنين ، وقضاء الحق فيما حمل من النعم ، وآلبس من العافية والكرامة ، ولا تحتقرن ذنبا ، ولا تمالئن حاسدا ، ولا ترحمن فاجرا ، ولا تصالئن كفورا ، ولا تداهنن عدوا ، ولا تصدقن تماما ، ولا تأمنن غدارا ، ولا توالين فاسقا ، ولا تبعن غاويا ، ولا تمدن

مُرائياً ، ولا تحقِر إنساناً ، ولا تردن سائلاً فقيراً ، ولا تجبن باطلاً ، ولا تلاحظن مضحكا ، ولا تُخلفن وعدا ، ولا تذهبن نفرا ، ولا تظهرن غضبا ، ولا تأتين بذخا ، ولا تمشين مَرَحاً ، ولا تركبن سفهاً ، ولا تُفِرطن في طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عيانا ، ولا تُغمِضن عن الظالم رهبة منه ، أو مخافةً ، ولا تطابن ثواب الآخرة في الدنيا ، وأكثر مشاورة الفقهاء ، وأستمعِل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تُدخِلن في مشورتك أهل الذقة والبخل ، ولا تسمعن لهم قولا ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شيء أسرع فسادا لما استقبلت في أمر رعيّتك من الشح ، وأعلم أنك إذا كنت حريصا ، كنت كثير الأخذ ، قليل العطيّة ، وإذا كنت كذلك لم يَسْتَقِم لك أمرك إلا قليلا ، فإن رعيّتك إنما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم ، وترك الجور عليهم ، ويدوم صفاء أوليائك لك ، بالإفضال عليهم ، وحسن العطيّة لهم ، فاجتنب الشح ، وأعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه ، وإن العاصي بمزلة نخزي ، وهو قول الله عز وجل ، **(وَمَنْ يُوَقِّحْ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** فسهّل طريق الجود بالحق ، وأجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظا ونصيبا ، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعدده لنفسك خُلُقاً ، وأرض به عملا ومذهبا ، وتفقد أمور الجند في دواوينهم ، ومكاتبهم ، وأدرر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في معاشهم ، ليذهب بذلك الله فاقتهم ، ويقوم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك ، خلوصا وانشراحا ، وحسب ذى سلطان من السعادة ، أن يكون على جنده ورعيّته ، رحمة في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته ، وشفقته وبرّه وتوسّعته ، فزایل مكرهه إحدى البليّتين ، باستشعار تكلمة الباب الآخر ولزوم العمل به تلقى ان شاء الله نجاحا وصلاحا وفلاحا .

وأعلم ان القضاء من الله ، بالمكان الذى ليس مثله شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى تعتدل عليه الأحوال فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتؤمن السبل ، وينصف المظلوم ، يأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق

الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجري السنن والشرائع، وعلى مجاريها يُنتج الحق والعدل في القضاء. وأشدت في أمر الله وتوزع عن النطف وآمض لإقامة الحدود، وأقل العجلة، وأبعد من الضجر والقلق، وأقع بالقسم، ولتسكن ريحك، ويفر جذك، وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، وأسدد في منطقك، وأنصف الخصم، وقف عند الشبهة، وأبلغ في الحجّة، ولا يأخذك في أحد من رعيّتك مُحابة ولا مُجاملة، ولا لوم لائم، وتثبت وتأن، وراقب وأنظر، وتدبر وتفكر، وأعتبر وتواضع لربك، وأراف بجميع الرعيّة، وسأط الحق على نفسك، ولا تسرعن الى سفك دم، فان الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكاً لها بغير حقها، وأنظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعيّة، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة، ولأهله سعة ومنّعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعموم فيه، ولا تدفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه، وعن غنى لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصتك، فلا تأخذن منه، فوق الاحتمال له، ولا تكلفن أمراً فيه شطط، وأحمل الناس كلهم على مَرِّ الحق، فان ذلك أجمع لألئقتهم، وألزم لِرِضى العامة، واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً، وراعياً، وانما سمى أهل عملك رعيّتك، لأنك راعيتهم، وقيمتهم، تأخذ منهم ما أعطوك، من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أودهم، فاستعمل عليهم في كور عملك، ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل، والعلم بالسياسة والعفاف، ووسع عليهم في الرزق، فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت، وأسند اليك، ولا يشغلنك عنه شاغل، ولا يصرفنك عنه صارف، فانك متى أثرته، وقمت فيه بالواجب، استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأحدثوة في عملك، وأستجرت به المحبة من رعيّتك، وأعنت على الصلاح، فدرت الخيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحيّتك، وظهر الخصب في كورك، وكثرت خراجك، وتوفرت أموالك، وقويت بذلك على ارتباط جندك، وإرضاء العامة، بإفاضة العطاء فيهم من

نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مرض العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ، ذاعل وقوة ، وآلة وعدة ، فنافس في هذا ، ولا تقدم عليه شيئاً ، ثمَّ مدَّ مغبةً أمرك ، إن شاء الله ، وأجعل في كل كورة من عملك أميناً ، يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، معاًين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع ، والنصح والصنع فأمضه ، وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم ، ثم خذ فيه عدته ، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره ، قد واتاه على ما يهوى ، ففقواه على ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ، ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك ، في جميع أمورك ، وأفرغ من عمل يومك ، ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرة بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تُلهيك عن عمل يومك الذي أخرت ، وأعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فشغلك ذلك حتى تُعرض عنه ، فاذا أمضيت لكل يوم عمله ، أرحت نفسك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طويتهم ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك ، فاستخلصهم ، وأحسن اليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤوتهم وأصلح حالهم ، حتى لا يجدوا خلقتهم مساً ، وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك ، والمحقر الذي لا علم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أخفى مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتامهم وأراملهم ، وأجعل لهم أرزاقاً من بيت المال آقتداءً بأمر المؤمنين أعزه الله في العطف عليهم والصلة لهم ، ليصلح الله بذلك عيشتهم ، ويرزقك به بركة وزيادة ، وأجر للأمرء من بيت المال ، وقدم حَملة

القرآن منهم ، والحافظين لأكثره ، في الجراية على غيرهم ، وأنصب لمرضى المسامين دُورا
تؤويهم ، وقواما يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ، ما لم يؤد ذلك
إلى سرف في بيت المال ، وأعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم ، وأفضل أمانيتهم لم يرضهم
ذلك ، ولم تطب أنفسهم ، دون رفع حوائجهم إلى ولايتهم ؛ طمعا في نيل الزيادة ، وفضل
الرفق منهم ، وربما برم المتصفح لأموار الناس لكثرة ما يرد عليه ، ويشغل فكره وذهنه ، ومنها
ما يناله به مؤونة ومشقة ، وليس من يرضب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل
وفضل ثواب الآجل ، كالذى يستقبل ما يقتر به الى الله ، وياتمس رحمة به ، وأكثر الإذن
للناس عليك ، وأبرز لهم وجهك ، وسكن لهم أحراسك ، وأخف لهم جناحك ، وأظهر لهم
بشرك ، ولن لهم في المسألة والمنطق ، وأعطف عليهم بجدك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط
بمراحة وطيب نفس ، وأتمس الصنعة والأجر ، غير مكدر ولا منان ، فإن العطية على ذلك
تجارة مُرِيحة ان شاء الله ، وأعتبر بما ترى من أمور الدنيا ، ومن مضى من قبلك ، من أهل
السلطان والرياسة ، في القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله ،
والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه ، وأجتنب ما فارق ذلك
وخالفه ، ودعا الى سخط الله ، وأعرف ما تجمع عمالك من الأموال ، وينفقون منها ،
ولا تجمع حراما ، ولا تُنفق إسرافا ، وأكثر مجالسة العلماء ، ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن
هواك آتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها ، وليكن أكرم دُخلائك وخاصتك
عليك من إذا رأى عيبا فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك اليك ، في سِرِّ ، وإعلامك
ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومُظاهريك ، وأنظر عمالك الذين يحضرتك ،
وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبته ومؤامراته
وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يُورده عليك من ذلك
سمعا وبصرك ، وفهمك وعقلك ، وكرّر النظر اليه والتدبير له ، فما كان موافقا للجزم والحق
فامضه وأستخر الله فيه ، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى التثبت فيه والمسألة عنه ،

ولا تمنُّ على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه اليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا
الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضع المعروف إلا على ذلك ،
وتفهم كتابي اليك ، وأكثر النظر فيه ، والعمل به ، وأسعن بالله على جميع أمورك وأسخره ،
فإن الله مع الصَّالِحِ وأهله ، وليكن أعظم سيرتك ، وأفضل رغبتك ، ما كان لله رضا ،
ولدينه نظاما ، ولأهله عزّا وتمكينا ، وللذمة وإلّة عدلا وصلاحا ، وأنا أسأل الله أن يحسن
عونك وتوفيقك ، ورشدك وكلاءك ، وأن ينزل عليك فضله ورحمته ، بتمام فضله عليك ،
وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبا ، وأوفرهم حظا ، وأسناهم ذكرا وأمرأ ، وأن
يهلك عدوك ومن نأواك وبغى عليك ، ويرزقك من رعيتك العاقبة ، ويمحز الشيطان
عنك ووساوسه ، حتى يستعلي أمرك بالعزّ والقوّة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

(د) رسالة الخميس

من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، الى المبايعين على الحق، والناصرين للدين، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام : سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يحمّد اليكم الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يُصَلِّيَ على محمد عبده ورسوله .

أما بعد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذى العِزِّ والسلطان، والنور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمتقدّم بالمنِّ والطول على أهلها، قبل استحقاقهم لمثوبته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذى جعل ما أودع عباده من نعمته، دليلاً هادياً لهم الى معرفته، بما أفادهم من الأبواب، التى يفهمون بها فصل الخطاب، حتى آقتنوا علم موارد الاختبار، وتقفوا مصادر الاعتبار، وحكوا على ما بطن بما ظهر، وعلى ما غاب بما حضر، وأستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومثقفين صنعته، وحاجة مترايل خلقه ومتواصله، الى القوم بما يئمه ويصاحبه، على أن له بارئاً أنشأه وأبتدأه، ويسر بعضه لبعض . فكان من أقرب وجودهم، ما يباشرون به من أنفسهم فى تصرف أحوالهم، وفنون آتقائهم، وما يظهرون عليه من العجز عن التأتى لما تكاملت به قواهم، وتمت به أدواتهم، مع أثر تدبير الله عز وجل وتقديره فيهم، حتى صاروا الى الخليفة المحكمة، والذورة المعجبة، ليس لهم فى شىء منها تلطف يحمونه، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم، فإنه قال تعالى ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَجَّكَ﴾ . ثم ما يتفكرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخرات، على مسير لا يثبت العالم إلا به من تصاريف الأزمنة التى بها صلاح الحرث والنسل، وإحياء الأرض، ولقاح النبات والأشجار، وتعاور الليل والنهار، ومر الأيام والشهور والسنين التى تُخصى بها الأوقات، ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طبقات السقف المرفوع، والمهاد الموضوع، باختلاف أجزائه وألوانها، ونحو الأنهار، وإرساء

الجبال . ومن البيان الشاهد ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق ، وحدوثه بعد أن لم يكن متريفاً في السماء ، وثباته إلى أجله في البقاء ، ثم محاربه مُتَضَيِّباً إلى غاية الفناء . ولو لم يكن له مُفْتَسِحٌ عدد ولا مُنْقَطِعُ أمد ، ما ازداد ينشوء ، ولا تَحْيَفُه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان ؛ لأن ما لا حد له ولا نهاية ، غير ممكن الاحتمال للنقص والزيادة . ثم ما يوجد عليه منفعة من ثبات بعضه لبعض ، وقوام كل شيء منه بما يسر له ، في بدء استمداده إلى منتهى نفاذه ؛ كما احتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ . وكل ما تقدم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته في سمواته التي تحي ، وأطباق الأرض التي دحا ، وآثار صنعه فيما برأ وذراً ، ثابت في فطر العقول ، حتى يُسَخَّرَ أولى الزرع ما يُدْخَلُونَ على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد والانداد . جل عما يُشركون . ولولا توحيده بالتدبير ، عن كل معين وظهير ، لكان الشركاء جُدرَاءَ أَنْ تَخْتَلِفَ بِهِمْ إِرَادَتُهُمْ فِيمَا يَخْلُقُونَ ، ولم يكن التخلف في إثباته وإزالته ليخلو من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص مما أتاه وبرأه . جل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ؛ كما قال سبحانه : ﴿ مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ . ثم من عظيم نعمة الله عز وجل على خلقه آفتقاده إياهم ، وأنه يُسَدِّدُهُمْ وَيُدْهِمُهُمْ عَلَى مَنَافِعِهِمْ ، وَيُجَنِّبُهُمْ مُضَارَّهُمْ ، وَيَهْدِيهِمْ لِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ ، وَيُرْغِبُهُمْ فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، الَّذِي جَعَلَهُ عِصْمَةً لَهُمْ وَحَاجِزاً بَيْنَهُمْ .

ولولا ما تقدم به من تلافيمهم وأستدراكهم بفضل رحمته ، لاجتاحهم التلّف ، لقصور معرفتهم عن التائي لأقواتهم ومعايشهم ، ولم يكونوا ليقْتَصِرُوا على حظوظهم وأقسامهم عما بنوا عليه من الجمع والرغبة ، ولتأالكوا يبغي بعضهم على بعض ، وعدوان قوتهم على ضعيفهم ، ولكنه بعد تعريفه إياهم مُلْكُ قُدْرَتِهِ وَجَلَالَةِ عِزَّتِهِ ، بعث إليهم أنبياءه ورسله مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ،

بالآيات التي لا تآلها أيدي المخلوقين؛ فرضوا بما قُسطَ بينهم، وأرتدعوا عن التباغي والتظالم،
 لما وعدوا من الثواب الجسيم وخوفوا من العقاب الأليم؛ ولم يكونوا ليطيعوا أمرا
 لأمر ولا نهيًا لنهي، إلا بحجة يتبين بها الحق على من خالفه من المبطلين، وتخويف
 يتقون به مقارفة ما حرم عليهم، ورجاء يتجشمون له مؤونة ما تُعبدوا به. فافتتح الله عز
 وجل بأبيهم آدم عليه السلام، فعلمه الأسماء كلها، وأمر الملائكة بالسجود له —
 كما اقتص في وحيه المنزل — وكرم ولده وفضلهم، فقال جل وعز: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ
 وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ .
 وجعل ما فطرهم عليه من العطف على ذراريهم وأبنائهم سببًا لما أراد من بقائهم وتناسلهم،
 وما آختصهم به من العلم والفهم حجة عليهم، ليمتحن طاعتهم، ويبلوهم أيهم أحسن
 عملا. ولم تزل رسل الله عز وجل إلى خلقه تترى بالنور الساطع، والبرهان القاطع،
 لا يجيدون لما يُوردون عليهم من الحق القاهر مرادًا ولا مدفعًا؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِخَبْرِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ
 حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . فلم يجد المكذبون مساعًا إلى دفع ما أقيم عليهم من لازم الحجّة،
 إلا المعاندة والمجاهدة. وكان أنبياء الله صلوات الله عليهم، يُعصون في أعصار الحقب،
 نذرا للآمم، حتى ختمهم الله عز وجل بالنبى الأسمى محمد صلى الله عليه وسلم، فبعثته فردا
 وحيدا لا عاضد له ولا رافد، إلى قوم يعبدون أصناما بكمًا، وحجارة صماء، فكذب به
 القوم الذين بُعث فيهم أول ما دعاهم، ورامه ملوك أقطار البلاد بتوجيه الأجناد،
 ومُرافدة القوة والعتاد وبغى الغوائل، ونصب الجبائل، وهو يدعو إلى سبيل ربه
 بما أمره به، إذ يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ
 بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ . ثم جاهد بمن أطاعه من عصاه، وبمن آتبعه من خالفه، حتى
 أعز الله كلمته، وأظهر دعوته، وأكل لعباده دينهم الذي ارتضى لهم. فلما اختار الله له
 ما لديه، وأختصه بما عنده: من النعيم المقيم، والجزاء الكريم، بعد استقامة الدين

ودخول الناس فيه أفواجا، خلفه، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة النجباء من أدانيه ومُحتمه، لإقامة الشرائع المُفترضة، وإنفاذ حكم الله المنزل، واقتفاء السنّة المسأورة وحفظها له في قرابته ومحبي دعوته، وإتمام ما أوجب له من الفضيلة، وقريب الوسيلة، وانجازا لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذي أصطفاه وأرتضاه. وكان اختيار أولى الفضل من مُحمته وعصيته لإرث خلافة، ومن عظيم الزلف التي رغب الى الله فيها أنبياءه، وبما اقتص في مُنزل وحيه، واختص تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودته في القربى جزاء ممن تبعه على الرسالة، وهداه من الضلالة؛ فكانت فضيلتهم عزيمة من الله عز وجل، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ألزمه تاديته الى خلقه وألزمهم أداءه، فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. ودل بما أخبر به وأظهره من تطهيره إياهم وإذهايه الرجس عنهم، على أصطفائه لهم؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وكان مما أوجب لهم به حقّ الوراثه في محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. ثم قرّن طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وأحلهم من النباهة والصيت بالمحل الذي أعلى به أمرهم ورفع به ذكركم، لما أحب من التبسين في الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ولو كان الأئمة المُقلدون أمر عباده خاملة أنسابهم، متقطعة أسبابهم، غير مخصوصين بفضيلة يروّضهم بها دون غيرهم، لم تعد طلبتهم عقد الخلافة لهم، وأن تكون من المُفترضات على كافة الأمة، أو على بعض دون بعض؛ فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوى النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فليس في اجتماع آرائهم مع تفرقهم واختلافهم طمع آخر أيام الدهر. وإن كان الى خاصية دون عامية، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال الى مثل ما احتاجوا اليه في أمتهم، إذ لم يكن أهل الأرتياب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطؤوا على اتفاق،

لنفاد آجالهم قبل بلوغهم غاية الاجتهاد في الفحص والتكشيف ، وحاجتهم الى اختبار البلدان ، وتمحيص أولي الفضائل بالامتحان ، وما هو حاق عليهم من الشبه في اختيارهم ، والاختلاف فيمن عَسَوْا أن يحبوه ويُقدّموه ، حتى تتمالك الرعية بتظالمها بينها ، ويَطْرُق من يليها من الأمم إياها ؛ إذ لا ذائد عنها ولا مُحامى . فإذا ألزمت الأمة الحاجة إلى نَصَب الحُكّام لإقامة الدين ، وتقسيم الحقوق من المسلمين ، ومُجاهدة عدوّهم من المشركين ، لم يكن لهم في الإمام عليهم مجاز إلى التخلص من حقه إليهم ، ولا ريب عند المعرفة برأفة الله ورحمته ، ولطفه وحكمه ، في دفعه عن عباده ما لم يجعل في حيلتهم له وسعاً ، ولا في حيلتهم له دركاً ، وكفايته إياهم ما يُعجزهم من البحث والتنقيب عن ولاية أمرهم ، بنصبه إياهم ، وما رفعهم إليه من الدرجة التي أعلاها وأسناها ، إذ وصل نسبهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقرض مودتهم على خلقه ، ولم يشنهم جهلهم للغرض الذي لزمهم له ، ولم يجب عليهم فرض في معرفة من سواهم . ولم يزل سياق أئمة الهدي مطرداً ، ونظامهم متصلاً ، يتلقاه كابر عن كابر ، ويؤديه أول الى آخر ، حتى تنسأ الى أمير المؤمنين ، وهو حال دار دعوته ، وبين أنصاره من أهل نراسان ، فنظربه خيرهم ، وعرفوا ما تصرفت به أحوالهم ، وظهر لهم من بيان حجته على من نازعه في الأمر ، وشاهدوا من إبلاغه في العذر ، وأستظهاره بالتأني والصبر ، ما أزاح عنهم الشبهة وكسّط الحيرة ، حتى استرلوا نهوضه بحقه ، وخافوا الزيع على أديانهم فيما أعطوه من صفة إيمانهم ؛ وهو ماض على عادته ، مستديم للوادعة ، متلوم على المراجعة ، بالغ غايته ما في وسعه من الرخصة في دفع الولاية التي نهته بها الرعية ، حتى ضاق عليه في دينه ترك القيام بما أنهضه الله به من ثقلها وقلده من حملها ، وخاف المخلوغ فانبعث بالشرّة والغرّة ، فتناول أولياء الحق باغيا طاغيا ، لما أراد الله من تأييدهم عليه بالبيان والحجة التي يجب لها قلبه ، ويفت بها في عضده ، ويقبل الله ما شرفكم به من النصر والغلبة فيه التي جعلها الله للمتقين . فاجتمع

لكم معشر أهل خراسان في دولة أمير المؤمنين ثلاث خلال آخضكم الله بفضيلتها، وسني مراتبها، دون ثلاث شمتكم وغيركم .

أما الأولى من اللواتي خضكم الله بهن، فما تقدم لأسلافكم من نصرة أهل بيت النبي، والقائمين بمراته من آباء أمير المؤمنين .

وأما الثانية، فما آثركم الله به من نصرته في دعوته الثانية .

وأما الثالثة، فما تقدمتم به من صحة ضمائمكم، ومحض مناصحتكم .

وأما الثلاث اللواتي هن لكم ولغيركم :

فمنهن ما أكد الله لأمر المؤمنين في أعناق المساميين : من العهد الذي أخذ إصره، وألهمهم الوفاء به والتمسك بوائقي عصمته، عند محاولة الخلوغ ماحاول من الإعلان بالردة، وألتمس من تبديل معالم الدين وتغفية آثاره، فلم يلف الرعية سدى مهملين، لا جامع لأمرهم، ولا ضام لنثرهم .

ومنهن ما أفادكم الله وإياهم من العبر، عند حلول الغير بمن غدر وخر، تذكرة لأولى النهى، وحجة بالغة على من أدبر وتولى، ليتهدى متحيراً ويتعظ مرديجراً، ﴿ وَيُلِحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُحَقِّقَ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومنهن اجتماع أهل الفضل من المساميين : ممن لم يكن له نصر ولا أزر في الدعوة الأولى على المشايعة في الدعوة الثانية؛ فأصبح دعاة أمير المؤمنين من أهل الحرمين والمصريين ومدينة السلام والمشرق والمغرب ممن غار أو أنجد من المتمسكين بدمهم الموفين بسدورهم، من إخوانكم؛ وإن كان الله قد قدمكم في الأمرين جميعاً بتفوق حالكم على غيركم، يعتدون من معاضدكم ومكانتكم بما جعله الله عز وجل ألفة لكم ومودة بينكم، يبديها ما كان الشيطان يترغ به بين أهل التباعد في الأنساب، والتناهي في الأوطان من إيقاع العداوة والبغضاء، والانتطواء على الأحقاد والدمن، وطلب تقديم الإحن، وصار أهل السمو إلى الدرجة العليا والاعتصام بالعروة الوثقى من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، منسرحة صدورهم بمكانته، منبسطة أيديهم بمعاونته على حقه،

منفسحة آمالهم في إذكاء ناره على عدوه والإثخان في بلاده وأفتاح ممتنع حصونه ، بما جمعهم الله عليه من الألفة ، ورفع عنهم من الحمية والعصبية ؛ راجين عودتهم الى أحسن ماضى عليه سلفهم ، في عهد نبيه صلى الله عليه وسلم ، من سلامة الصدور ، وصلاح ذات البين ، واجتماع القوى على مجاهدة من شاقهم ؛ قد أفرد الله عنهم نفرة التعارب والتجاذب ، وجعل ما كان يسعى به بعضهم من الإعداد لبعض ، زيادة في ريبهم ، وحدًا في شوكتهم ، لا تتلافهم في دولة أمير المؤمنين المجدودة المؤيدة بصدق الضمائر ، ونفاذ البصائر . والى الله يرغب أمير المؤمنين في إعانتة على صالح نيته ، وتبليغه منتهى سُؤله وغاية همته ، في اعزاز دينه وإدلال من صد عن سبيله ؛ إنه سميع قريب .

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تذكّر ما كانت عليه الحال قبلها ، فاستديموا الإفاضة فيما رفع الله من خُساستكم وأعلى من أقداركم ، بُنصرة أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وما أبلاكم الله في الدعوة الأولى مما لا يؤدي حقه إلا بعون الله وتوفيقه ، فإنه ارتاح لهم بلطفه وتوفيقه ، فأنا لهم رغائب الأقسام وسنيّ الحطوات ، ورفع درجاتهم ودرج خلوهم وأعقابهم من بعدهم ، بعد إذ هم مُستضعفون يخافون أن يتخطّفهم الناس ، مُدعّون بقهر عدوهم واستثنائه عليهم ، ثم لم يلبثوا أن صاروا الى الحال التي يرونهم بها من الغبطة والبهجة ، إلا أنهم أخذوها بحقها ؛ وكانت في أيدي الظلمة من أهل بيت اللعنة وأتباعهم بحده الباطل ومحنة الابتلاء ، ﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .^(١)

وليس أحد منكم بخارج من المحنة بما أليس من النعمة ، وإن كنتم أهلها الآخذين لها بحقها ، بل الذي يلزمكم استدامتها والقيام بحفظها ، على حسب ما أولاكم الله منها ، فربما كان الذي يُعقِب أهلها من الغفلة والاعتقار ويُلهيهم بها من جورها وسرورها ، أعظم إثمًا وحوَبًا مما يخاف على أهل البطالة والصبر من ضعف العزم وقلة الصبر ، لما يستولي عليهم من استكانة الدّلة ، والاعتقار بالتقصير ، والفرع الى ربه في تفتيس كُرْبهم ، فإنه

(١) كذا في الأصل .

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُوْدُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ . فحاجتكم اذا أنجح الله سعيكم وأظفركم ببطبتكم ، الى حياطة ما أودعكم الله من مننه وحراسة ما آتاكم من فضله ، بالشكر الممتري للزيد . فتعهدوا معشر شيعة أمير المؤمنين أنفسكم بتذكّر ما سهّل الله لكم من الحزونة ، وذلل لكم من الصعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مُراق الملة ومُخالفي أهل القبلة ، وأباحكم من ديارهم وأموالهم ، فأصبحتم بمنّ الله عليكم حمّة الدين ، وأنصار الأئمة الراشدين ، وحصون كافة المسلمين ، بعد ما آجث الله بكم قرون النفاق ، وأباد بكم صناديد الضلالة ، وشرّد من لم تستحمله سيوفكم ، وأضرع اليكم من أذعن وأستسلم ، وقد استشرّفكم معشر شيعة أمير المؤمنين أهل الشتان ، ولا حظوكم بأعين الحسد والمنافسة ، فبين ذلك مجهر معالين ، ومُسْتَسِرّ مدهان ، وداخل في عدادكم ، وواجب في سوادكم ، يرى أمنه بين ظهوركم ، فطعنه عليكم في دولتكم بريسة التويه وخُدع التشبيه ، أيسر عليه كلفة وأعظم فيكم جرحا ونكايه ؛ فتوقّوا هذه الطبقة أشدّ التوقى ، فإن أكثر من يلجا الى استباحة الحيلة ، من عجز عن المباداة والإصحار ، وعند ظهور الحازم وغلبته يتحترز من لطيف الخُدع وخبى الاستدراج .

وأحذروا معشر شيعة أمير المؤمنين من آستمراء الطراءه ، والركون الى راحة الدعة ما قد رأيتم وباله عاد على أهله ، وأورثتهم عواقبه طول الندم والحسرة ؛ فإنكم قد كنتم في حال المراقبة لعدوكم ، والخوف لبائقة متيقظين متحفظين لما كان يرومكم به من ختله وحيله ، ثم أفضيتم الى الجح وهدمتم السعى ومسّم النصب ، وسيلق الشيطان في أمانيتكم أن قد اكتفيتم بسالف ما قاسيتم ، ويجد من ضعف العزائم معيننا داعيا الى اغتنام الخفض ، والإخلاد الى الأرض ، ما لم تعتصموا بما عايتم من الاعتبار ، وتمتثلوا مواضى الآثار فيمن سلف من القرون الخالية ، وما أفضت به اليه العزة من زوال النعم ووقوع الغير ، فإن جميع ما خولكم الله وأفادكم مُرتبته بما ألزمكم من حياطته واستنائه ؛ فقد وجبت عليكم المحجة بما حضّمكم الله

عليه ، وعظمت عليكم المنّة بما هداكم اليه ، وأراكم من آياته ومثلاته فيمن خلا قبلكم ما فيه أبلغ الإعذار والإنذار لكم . ومن أجمع له اقتناء صواب من تقدمه الى ما ينبعث من نفسه ، فكأنه قد آخبر بالتجربة ، مع استمداده بما يستفيد ، ويستريد ما يفتح لبه ورأيه ، وأيقنوا أنكم لن تصلوا الى من سواكم ، ممن هو أعسر طاعةً عليكم وأعذر بمعصيتكم ، حتى تبدءوا باستصلاح أنفسكم ، وأنه لن يرجي لكم القوة على مجاهدة عدوكم حتى تقووا على مجاهدة أهوائكم ، فإن على كل امرئ ريبه من أمره ، وغطاء من غيبه ، لا يكشفه إلا صحة المعرفة ، والإذعان بالتصنيف ، فهناك يؤمن عليه الجهل والمعاندة ، وإذا أمنت هاتان الخلتان آسدت بإذن الله ثلم الآفات ، وفوق المكاره ، فإنه لا يخاف الضلال على من آتدى ، ولا اعتماد الجور على من آتصف من هوى .

ولكن أوّل ما نتعهدون به أنفسكم ، وتشاربون عليه من صالح أدبكم تناصف الحق بينكم ، بتقديم أهل الفضائل والآثار المحمودة منكم وتفخيم أمركم ؛ فقد علمتم أن منكم المبرز القات الذي لا يدرك شأوه ولا يوازي بلاؤه ، حين كشف الإبلاء ضمائر القلوب وجلا مشتمبات الظنون ، فصرح بالمحاربة بعد التقدم في الحجّة ، وفاءً بمؤكّد العهد وركوباً منه لهائل الخطر ، غير هائب مع صحبة الحق ما برق لديه الناكس المخلوع ورعد ، ولا مستوحش فيما تفرد به الى من تولى وأدبر ، حتى أتى الغاية التي أجزى إليها في الله عز وجل وفي خليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المشايعة والمكائفة والنصرة والحظ الجزيل والأثر المبين ، ثوابهم واجب وحقهم لازم ؛ ثم منكم من يحفظ لسلفه وأقوله من الآباء الذين يحفظون ولايتهم ، فإن الله عز وجل يقول في ذكر اليتيمين : ((وَأَمَّا الْإِطْرَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ)) الآية . وقال على لسان يعقوب لابنه يوسف : ((وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)) الآية . وأمير المؤمنين يرى توريث الحكمة والذمام سنة عليه في أخلاقه التي يراها ويحافظ عليها ؛ كما أنه يرى وراثته التركة فريضة واجبة ، فيخلف السلف الصالح عنده من المزية والفضل ما يتلون به أهل الغناء بأنفسهم ، ثم

يتلوهم من أقدى [بهم] وأهتدى بهديهم . والسابق المتقدم من أعتد ببلَاء نفسه الى بلاء سلفه ، ثم يتبعه بعد الميلي بنفسه ، ثم يتلوها المتوسل بأبائه ، ثم الصاعد به هواه ورأيه ، طبقةً فطبقة ؛ فليقتصر كل أمرى منكم على المرتبة التي أحله بها سعيه ، وليسلك الى الأزدباد فيها بالزيادة من نفسه ؛ فإن من الفتوق العظيمة على أهل الدول ما ينزغ به الشيطان بينهم ، ويكثر عندهم ما يكون منه ، فيوافق من الحيف للائتمس ما يجد به مساعا الى ما يروم من إيقاع الشحنة بينهم ، وتثبيت الإحن في صدورهم ، بعد التآزر والتناصر . ومتى يجمع المرء لمزية من فوقه ، واعتباط من دونه كفي مارك . وان تخلص نيآتكم . وتسلم ضمائرکم ، حتى تمحصوا شكر ما أوليه إخوانكم ، وتعتدوا ما نالهم شاملا لكم ، وتجنبوا طريقة من اقتصر بأمنيته على خاصته ، وتعتب فيما أوثر به أهل الفضل دونه . وكفى عظة فيما نهاكم الله عنه من ذلك ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ الآية . ولا يلتمس أحد مودته عن سوء نية بحسن مداراة في ظاهره ، فإن الله مقلد كل امرى ربة عمله ومطوقه طوق سريره . ولا يغدرك فيما يلزمه لإمامه ؛ فإنه إنما يغدر في حظه ويغس قسمة ، ويغس نفسه . ثم لا يقتصر على استصلاحها حتى يتناول من كانت مته عليه من أقربيه وحسويه ، فإن يسير ما هو معان من تأديتهم لا ينشب أن يتجاوز أدنى المراتب الى أقاصيها ، وقربها الى متناهيها ، حتى يستفيض شاملا علما ، بعد أن بدا محلا خاصا .

واعلموا أن أمير المؤمنين متفقد من تقيفكم وتقويمكم على صالح الأدب ومجود السيرة ، ما لا يتفقد به من سواكم ؛ فإنه إن كان يُوجب على نفسه استصلاح الرعية وحملهم على ما فيه رشدهم وقوامهم ، لما يلزمه من فضل العناية بالأخص والأولى فالأولى ، فإن في أخلائكم من التقديم في التأديب والتعهد ، وجوها من الضرر : منها : أنكم أولى بحسن الطاعة وسرعة الإجابة ، للطف محلكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

ومنها : أنكم يأنس بكم المؤمنون ويقتدي بكم التابعون ، فقتى قصرتم وأخلتم ، آقتنى
أثركم من نصبتم له أعلاما ، ثم لم يكن لكم أن تزرروا عليه ، ولا أن تأخذوا فوق يده ، بل كان
قَمِينًا أن يكون يسومكم الرضا بمثل ما سمعتموه ، ثم تجرى هذه العادة في الطبقات ، حتى يطرد
السياق ، الى أن يستفيض الفساد في حشو الناس وعامتهم ، فلا تُعنى قوة ولا حزم ولا
شدة ، إلا العجز والاضاعة ؛ ثم يجد الأعداء مَسَاغًا الى الطعن والعيب ، فلا يملكون أن
يُرهقوكم ويستولي عليكم الفشل ؛ فإن الأيدي إنما تُبسط بِنفاذ العزائم ، والعزائم إنما تُنفذ
بثبات الحجّة ، والحجّة إنما تثبت إذا كانت عن الحق . وإذا أُضيع أول هذه الرسوم ، التي
رسم لكم أمير المؤمنين ، تبعته تواليه وشفعته لواحقه ، ووجد العدو الملاحظ مكان العورة ،
مطمعا في إهمال ما كان يُعدله من العزة ، ويتوقف به من مناهزة الفرصة ، وليكن ما تُفوضون
فيه وتعدونه ظهيرا على طاعين إن طعن في دولتكم ، ما أطم الله أمير المؤمنين : من شمول
رعيته بالعدل ، وفرش الأمر في مضمراتها ومنقلبيها ، ورفع به عنهم من سير الجود ، وبسط
به يده من إثابة أهل البلاء ، وتعمد الجرائم لأولى الزلل ، والإبلاغ في دعاء من عاند وشاق
الى التوبة والإنابة ، وإقالة العثرة بعد القدرة ، والحقن لمباح الدماء ، فلم تعلموه صبر محملا ،
ولا هتك لأحد ممن أظفره الله به سترًا ، ولا وقفه على عورة . ثم تولى الله أمير المؤمنين ،
في حروبه شرقا وغربا ، التي أغناه الله عن الإطتاب في وصف صنع الله لكم فيها ،
لاستفاضة أخبارها في دهمائكم ، مع ما أحب من مطالعته إياكم ببالح أدبه وشافي
عطفه ، أن يتنكب من الإسهاب ، في غير ما صمد له ورأى من تقرير أسماعكم وأذهانكم ،
لوعى ما التمس أن تعوه من تبصيركم حطكم ، وتبهيكم على رشدكم . وحسب أمير المؤمنين
في نفسه وفيكم الله ، وكفى به مينا .

وإن أمير المؤمنين مع ما تقدم به اليكم لعل ثقة من حياطة الله خلقتسه التي جعلها
عزرا لدينسه وقواما لخلقه ، وأنه ليس بها ممن أدبر عن حقها آخلاق بل من خلغ
ربقتها وأضاع حظه منها ، جلب الخلة والحاجة وخسران الدنيا والآخرة . وإنما أتى

المُقَصِّرُونَ فِي إِعْظَامِ حَقِّهَا مِنْ ضَعْفِ الرَّوِيَةِ عَنْ بُلُوغِ مَا تُقْضَى بِهِمْ إِلَيْهِ مَصَادِرُ الْعَوَاقِبِ ، وَتُؤَدِّيهِمْ إِلَيْهِ رَوَاجِعُ مَا قَدَّمُوا ، فَلَا يَكُونُونَ بِعَمَلِهِمْ غَيْرَ مُتَجَاوِزِينَ بِمَهْمِهِمْ ، وَفِيهِمْ الَّذِي هُمْ فِيهِ إِلَى مَا يَمْنَعُهُ ^(١) .

وَاسْتَدِيمُوا مَعَشَرَ الْمُسْلِمِينَ سَابِغَ النِّعْمَةِ بِمُحَمَّدٍ مُوَلِّيَهَا وَالْمُنْتَطَوِّلِ بِهَا . وَقَدْ تَرَوْنَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ قَبْلَهَا وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ حَالٌ مِنْ سُلْبِهَا ، ثُمَّ يُعَقِّبُ النَّدَامَةَ حِينَ لَا مُسْتَعْتَبٌ وَلَا نَظْرَةٌ يُمْكِنُ فِيهَا اسْتِقَالَةُ الْفَارِطِ بِتَقْصِيرٍ وَلَا هَفْوَةٌ زَلَلٍ . وَنَقُوا مِنْ رِعَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٍ أَنْتَارَكُمْ ، وَمَا مَضَى مِنْ بَلَاءٍ كُلِّ أَمْرٍ مِنْكُمْ ، بِمَا تَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ وَتَتَوَقَّعُونَ عَادَتَهُ ، بِأَسْنَى مَا تَرْفَعُ إِلَيْهِ أَمَا لَكُمْ وَتَسْمُو إِلَيْهِ هَمُّكُمْ ، إِلَى مَا يَدْحِرُ اللَّهُ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِدَاهِ ، وَاعْتَصَمَ بِتَقْوَاهِ ، وَجَاهَدَ عَنْ حَقِّهِ ، وَافِيَا بِأَمْرِ عَهْدِهِ مِنْ جَرِيلِ ثَوَابِهِ وَكَرِيمِ مَأْبِهِ ، إِلَى الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ : وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا .

أَحَبُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّعِدَكُمْ بِعِظَةٍ تَبْهَيْكُمْ عَلَى حِطِّكُمْ ، وَتُثَبِّتَ مِنْ بَصَائِرِكُمْ ، وَتَقْطَعَ مِنْ طَمَعِ الشَّيْطَانِ وَحَزْبِهِ فِيكُمْ ، لِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ إِرْشَادِكُمْ ، وَيَرْجُو مِنْ تَأْدِيَةِ حَقِّ اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ فِيكُمْ ، وَلِمَا يَرَى مِنْ آتِصَالِكُمْ بِجَبَلِهِ ، وَمَا يَشْمَلُهُ مِنَ الصَّنِيعِ فِيهَا وَلَا كَمِ اللَّهِ بِهِ ، وَتَوَلَّاهُ لَكُمْ .

وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي دَلَّ عَلَى الدَّعَاءِ تَطَوُّلًا ، وَتَكْفُلُ بِالْإِجَابَةِ حَتْمًا ، فَقَالَ عِزُّ وَجَلِّ : ﴿ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، أَنْ يَجْمَعَ عَلَى رِضَاهِ الْفَتَى ، وَأَنْ يَصِلَ عَلَى الطَّاعَةِ حَبْلَكُمْ ، وَأَنْ يُتَمَّعَكُمْ بِأَحْسَنِ مَا أَوْدَعَكُمْ مِنْ مَنْنِهِ ، وَيُوزِعَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ شُكْرِهِ ، مَا يُوَاصِلُ لَكُمْ مِنْ زَيْدِهِ ، وَأَنْ يَكْفِيَكُمْ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ، وَحَسَدَ الْبَاغِينَ ، وَيَحْفَظُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ بِأَفْضَلِ مَا حَفِظَ بِهِ أَمَامَ هَدْيٍ فِي أَوْلِيَائِهِ وَشِيعَتِهِ ، وَيَجْعَلُ عَنْهُ ثَقْلًا مَا حَمَلَهُ مِنْكُمْ . وَبِاللَّهِ يَسْتَعِينُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى مَا يَنْسُو مِنْ جَزَائِكُمْ بِالْحُسْنَى ، وَحَمَلِكُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُنْتَلَى ، وَبِهِ يَرْضَى نَاصِرًا وَوَلِيًّا ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وللمأمون — لما كتبت إليه السيِّدة زُبَيْدة بعد مقتل ولدها الأمين خطابها
الآتي تستعطفه :

كُلُّ ذَنْبٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ عَظُمَ صَغِيرٌ فِي جَنْبِ عَفْوِكَ . وَكُلُّ زَلٍّ وَإِنْ جَلَّ
حَقِيرٌ عِنْدَ صَفْحِكَ . وَذَلِكَ الَّذِي عَوَّدَكَ اللَّهُ ؛ فَأَطَالَ مَدَّتَكَ ، وَتَمَّ نِعْمَتَكَ ، وَأَدَامَ بِكَ الْخَيْرَ ،
وَرَفَعَ بِكَ الشَّرَّ .

هذه رُفْعَةُ الْوَالِدِ الَّتِي تَرْجُوكَ فِي الْحَيَاةِ لِنَوَائِبِ الدَّهْرِ ، وَفِي الْمَمَاتِ لِجَمِيلِ الذِّكْرِ . فَإِنَّ
رَأَيْتَ أَنْ تَرْحَمَ ضَعْفِي ، وَأَسْتَكْفِي ، وَقَلَّةِ حِيلَتِي ، وَأَنْ تَصِلَ رَحْمِي ، وَتَحْتَسِبَ فِيمَا جَعَلَكَ
اللَّهُ لَهُ طَالِبًا وَفِيهِ رَاغِبًا فَافْعَلْ ، وَتَذَكَّرْ مَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ شَفِيعِي إِلَيْكَ .

فكتب إليها المأمون :

وَصَلَّتْ رُفْعَتُكَ يَا أُمَّهُ ، أَحَاطَ اللَّهُ وَتَوَلَّىكَ بِالرَّعَايَةِ ، وَفَقَّتْ عَلَيْهَا وَسَاءَنِي — شَهِدَ
اللَّهُ — جَمِيعَ مَا أَوْضَحْتِ فِيمَا ، لَكِنَّ الْأَقْدَارَ نَافِذَةً ، وَالْأَحْكَامَ جَارِيَةً ، وَالْأُمُورَ مُتَصَرِّفَةً ،
وَالْمَخْلُوقِينَ فِي قَبْضَتِهَا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دِفَاعِهَا ، وَالدُّنْيَا كُلَّهَا إِلَى شَتَاتٍ ، وَكُلَّ حَيٍّ إِلَى مَمَاتٍ ،
وَالْغَدْرَ وَالْبَغْيَ حَتْفُ الْإِنْسَانِ ، وَالْمَكْرُورَ رَاجِعٌ إِلَى صَاحِبِهِ . وَقَدْ أَمَرْتُ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا أُخِذَ
لَكَ ، وَلَمْ تَفْقِدِي مِمَّنْ مَضَى إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا وَجْهَهُ . وَأَنَا بَعْدَ ذَلِكَ لَكَ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا
تَخْتَارِينَ ؛ وَالسَّلَامَ .

(١)
(هـ) أحمد بن يوسف

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور في اختيار المنظوم والمنثور وهي :

أما بعد فالحمد لله القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذي أحاط بكل شيء علما، ونطق به خبرا، وأتقنه حكمة وعالما، وألف بين مختلفه ومُتَّفَقِه، ليدل بقوام بعضه على بعض، على اتصال تدير مشيئته ومبتدعه، وانه أحد صمد، لا يصد له ولا يد، إذ قدر له حاجته ثم شدّها ببلاغها الى الغاية التي جعلها، فقال جل وعز ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وحكى عن نجيّه موسى عليه السلام، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، وقال الله تعالى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَانُهُ فَفَصِيلًا﴾ ثم لم يكلف العباد من شكره كفاء نعمته، بل رضى منهم باليسير، وقبل منهم العفو، وجعل طاعتهم إياه عائدة عليهم يجزى الحظ في دينهم ودنياهم، لغناه عن عبادتهم، وأنساع قدرته بالتطول عليهم، مُفْتَتِحًا وخَاتِمًا، وبادئًا وعائداً .

والحمد لله الذي أصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم، نبياً لرسالته، وأتمته على وجهه، وأنزل عليه كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تزييل من حكيم حميد، فأدى الى خلقه الرسالة، وأستفدّهم من الضلالة، وصدّع بأمر ربه وجاهد في سبيله، ونصح لأئمة حتى أتاه اليقين من ربه، بعد استنارة الحق، وظهور الحقّة، فصلى الله عليه بشيرا ونذيرا، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا قد تلافى من الهلكة، وجمع الألفة بعد الفرقة، وأوضح الهدى بعد الدروس، ومعالم الرشيد بعد الظموس، وكان بالمؤمنين رجيا .

والحمد لله الذي قفى على آثار المرسلين، والأئمة الراشدين، الهاديّ التقي، الطاهر الزكي، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعز الله نصره، فسدّ ثمتهم، ورأب صدعهم وقلده خلاقهم، وجعله لكافة المسلمين غيانا ورحمة، وجعل ما أئمه من العدل والإحسان

(١) راجع ما كتبناه عنه في الفصل العاشر من الكتاب الثالث في المجلد الأول .

اليهم ، مِنَّةً عَلَيْهِ وَرَحْمَةً ذَرَّهَا لَهُ ، دُونَ الْخُلَفَاءِ قَبْلَهُ ، فِيمَا أَظْهَرَ مِنْ فَضْلِ زَمَانِهِ عَلَى الْأَزْمَنَةِ ،
 وَسِيَاسَةِ مَنْ تَقَدَّمَه ، وَمَنْحِ الرَّعِيَّةِ مِنْ عَطْفِهِ وَنَظَرِهِ ، مَا لَا يَجْمَلُ عَنْهُمْ أَوْ بِهِ وَلَا يُؤَدِّي عَنْهُمْ
 شُكْرَهُ ، إِلَّا هُوَ لَا شَرِيكَ لَهُ ؛ وَأَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَثُوبَتَهُ ، عَلَى صَلَاحِ رَحِمِ
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّتِي هِيَ رَحِمُهُ وَقَرَابَتُهُ ، وَأَخْتِيَارِهِ لِدَوْلِيَّةِ عَهْدِهِ الْأَمِيرِ الرَّضِيِّ
 عَلِيِّ بْنِ مُوسَى ، حَفِظَهُ اللَّهُ ، حِينَ أَحْمَدَ سِيرَتَهُ ، وَرَضِيَ مَحَبَّتَهُ ، وَعَرَفَ اسْتِقْلَالَهُ ، بِمَا قَلَّدَهُ
 فِي هَدْيِهِ ، وَدِينِهِ وَوَفَائِهِ ، بِمَا أَكَّدَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ ، مِنْ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُ اللَّهُ ، فِي اعْتِيَامِهِ
 مِنْ أَزْرِهِ وَأَسَاةٍ بِمَا شَفَّعَ رَأْيَهُ ، وَأَنْفَذَ تَدْبِيرَهُ ، حِينَ هَمَّ لِاسْتِصْلَاحِ مَا اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ ، مِنْ
 أُمُورِ عِبَادِهِ ، لَمَّا آتَقَى الْقَائِمَ بِدَعْوَتِهِ ، وَرَيْسَ شَرِيعَتِهِ ، الْأَمِيرَ ذَا الرِّيَاسَتَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ ،
 فَاتَّخَذَهُ مَكَانِفًا ظَهِيرًا وَوَزِيرًا دُونَ مَنْ سِوَاهُ ، فَاتَّبَعَ مِنْهَا جِوَارِيَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُ اللَّهُ ، وَسَارَ بِسِيرَتِهِ ،
 شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَغُورًا وَنَجْدًا ، مُؤَفِّيًا بِعَهْدِهِ ، قَائِمًا بِدَعْوَتِهِ ، مُقْتَفِيًا لِأَثَرِهِ وَسُنَّتِهِ ، فَحَسَمَ اللَّهُ بِهِ
 الْأَدْوَاءَ ، وَقَعَّ بِهَ الْأَعْدَاءَ ، مِنْ عُنَاةِ الْأُمَمِ ، وَطَوَّاعِيَةِ الشَّرِكِ ، وَأَبَادَ عَلَى يَدِهِ ، أَهْلَ الشَّقَاقِ
 وَالنَّفَاقِ ، فِي كُلِّ أَفْقٍ وَطَرْفٍ ، بِجِدِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ ، وَبَرَكَتِ سِيَاسَتِهِ وَدَوْلَتِهِ ، وَنُجِّحَ
 سَعْيَ مَنْ قَامَ بِنُصْرَةٍ مِنْ قَامَ بِحَقِّهِ ، وَأَنَارَ بَرَهَانَهُ ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ ، حِينَ بَلَغَ هَمَّتَهُ
 وَغَايَتَهُ ، وَحُمَّ أَجَلُهُ ، وَأَنْقَطَعَتْ مَدَّتُهُ ، سَعِيدًا حَمِيدًا ، شَهِيدًا فَقِيدًا ، عِنْدَ إِمَامِهِ أَكْرَمِهِ اللَّهُ ،
 وَعِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، وَكَانَ مِنْ إِجْلَالِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، الْحَادِثُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ ، فَأَحْيَا آثَارَهُ ،
 بِوَصْفِ مَحَاسِنِهِ ، فِي مَشَاهِدِهِ وَمَجَامِعِهِ ، وَتَرَحَّمَهُ عَلَيْهِ عِنْدَ ذِكْرِهِ ، وَحَفِظَهُ فِي حُجَّتِهِ ، وَأَهْلَ
 حُرْمَتِهِ ، وَفِي مَنْ كَانَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى طَاعَتِهِ وَنُصِيحَتِهِ ، مَا أَتَمَّ بِهِ نِعْمَتَهُ ، عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ مَعَشَرَ
 الشَّيْعَةِ ، فَقَدْ أَصْبَحَ أَمْرُهُ بِكُمْ مَتَّصِلًا ، وَمَوْقِعُهُ مِنْ جَمَاعَتِكُمْ مَتَمِّكًا ، يَقْبِضُكُمْ مَا قَبَضَهُ ،
 وَيَسْطُكُمُ مَا بَسَطَهُ مِنْ لَوْمَةِ الْمَصِيبَةِ ، وَحَسَنِ الْعُقُوبِ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَعَشَرَ أَهْلِ الْحِجَا وَالنُّهْيِ ،
 وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ وَخَلِيفَتِهِ ، وَذَوَى الْغِنَاءِ وَالْبَلَاءِ فِي دَعْوَتِهِ مِنْ أَهْلِ خِرَاسَانَ وَغَيْرِهِمْ
 مَنْ حَضَرَ مَنْ آمَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِوَفَاءِ الْعَهْدِ وَالِاسْتِبْصَارِ فِي حَقِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبْقَاهُ اللَّهُ ،
 وَالْمُجَاهِدَةَ دُونَهُ ، وَالصَّبْرَ عَلَى مَوَاطِنِ الصَّدْقِ وَالْأَدْوَاءِ ، وَالذَّبَّ عَنِ الْبَيْضَةِ وَالْحَرِيمِ ،

والمتحمّلين للتَّصَبِّبِ، والمصائب التي آنجَلَتْ، حتى كأن لم تكن، وبقى أجرها على الله عز وجل، ومحمودٌ ذكرها شائعا في الناس، إن نِعَمَ الله، قد جَلَّتْ ولَطُفَتْ، وخصّت وعمّت، وعلت وسمّقت، وتمّت ودامت، حتى قصرنا عن موازينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لنا معشر إخواننا سببٌ الى مكافأة بلائه بالعمل، فنحن جُدراء أن نجتهد في القول، ونُظنِّب في الوصف إن شاء الله جلّ وعزّ، فقد جعل ذكر النعم من أسباب الشكر، وقد جدّد لنا أمير المؤمنين أيده الله من الحياة والكرامة، وجزيل الحِيطَة، وسنّي الرتبة التي قرئ بها عليكم كتابه ما يستغريق جهّدها، ويستفرغ وسعنا، وفرغ إلى الله عز وجل، ولي الرغبة، ومؤتى السؤل والطّلبة، في إعانتنا على تأدية ما وجب له، فيما منحنا من فوائده ونحوه، ثم نسترفدكم ونستعينكم على شكره، وإمدادنا بما بلغت طاقتم في السعى له فقد آدنا نقل ما حملنا، ونقل ما طوّقنا، وعظمت فافتنا الى استعمال القوي من الأنفس والحامّة، والخاصة والعامة، في جزاء ما جَلَّلَ أمير المؤمنين فينا من سنّته، وشيئنا من ناله أيديه وطارفها، وقديمها وحدثها، وكيف يوجد الى موازاة أمير المؤمنين سبيل ببذل جهّد، أو بلوغ حشد، فإنما تقتدى بهاده، ونعشو بنوره في ديننا، وليس عجّزنا عن أن نجزي حقه، بواضع عنا مؤونة الدؤوب في التحزّي لتأديته، فإن الله عز وجل، قد أخبر بفضائل الشكر ومناقبه، وجعله من أسمائه، ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، وقد قال تعالى ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. وقال تعالى ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾. ولولا أن الله عز وجل رضي لنفسه، لأجلنا عن التسمية إذ كان أكثر ما نستعمله، ونعرفه في مكافأة من من وتطول، ثم حتى بذكر فضله في العباد، فإن الله تبارك وتعالى أفتح أول ما علم خلقه بالحمد، وجعله بدء كتابه، وخاتمة دعوة أهل جنته، فقال عز وجل، ﴿وَاحْرُدْ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وخلق الله السموات والأرض، ومن برأ وذرا في الحياة ليلو عباده بشكره، وأعد الجنة في الآخرة لمن شكره، والنار لمن كفره، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لِلْكَافِرِينَ﴾.

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَدَائِي لَشَدِيدٌ» ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرِّ وَأَنْتُمْ أَدْلَةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴾ ، بجمال التقوى واقعةً ، والشكر مرجؤاً ليدل على ارتفاع رتبته ، وعلو درجته عنده ، وقال لنبيّه موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي نَحْدُ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ . فلم يكلفه الا أخذ ما أعطاه ، والشكر على ما أتاه ، وأخبر بعزته في العباد ، فقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ ، فأية نعمة أجل قدرًا ، وأسى أمراً ، معشر الشيعة من نعمة أمير المؤمنين ، أيده الله ، عند الأمير ذى الرياستين ، ومراتبه التي رتبها ، فإنه أعطاه رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وعقد له على رأسهما علماً في رواية دعوته ، وقلده سيفهما وختمه بخاتم الخلافة ، وخاتم الدولة ، وجعل صلاته بين صاحب حرّسه ، وصاحب شُرطته ، ومسيره بين أمير المؤمنين وبينهما ، أمامه وحلقه ، وصير له الجلوس على الكرسي بحضرتة ، في صدر كل مجلس جلس ، الا أن يؤثر به من أحب من أبناء الخلفاء ، وقدمه في دخول دار الأمير راجباً الى أقصى مكان ينتهي إليه أحد من بني هاشم ، لأنه منهم ، وأعظمهم غناء عنهم ، فسماه صاحب دعوته وسيفه على عدوه وبابه الذي يدخل اليه منه ، وولاه خيوله في أقطار الأرض ، ومقدمته بحضرتة ، وقلده من الثغور ما قد علمت ، بما أفردته في عهده ، الى ما أنفذه من أمره ، في جميع سلطانه ومملكته ، من مشارق الأرض ومغارها ، وأين يأتي الوصف على ما فضله به ، وقدمه وشرفه على الناس كافة ، ولكنا نخاطر بذكره ، ثم نكل السامعين الى ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبلغها الصفة ، ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته ، تولى غسله وتكفينه ، ومباشرته لجهازه ، إلى حفرتة بيده ، وقاسى من الغصص ، وبرحاء الحزن ، وإذراء العبرة ، وإراقة الدمعة ما حال بينه وبين الكلام ، وكاد يمنع من القول والدعاء في صلته نليه ، من الحكم ، وحفظ أهل الحرمة ، به رعاية له فيهم ، ووفاء بعهده من بعده ، وأقر خاصته ، وقواده وعماله . وكتابه على مراتبهم ، وحمد بحمده ، وذم بذمه ، وجدد لجنده ، وتل كريتته ، نظراً وعظفاً ، فلم يبق عليه في إحياء ذكره ، وبلوغ كل ما يحبه في حياته غاية الا أتى من ورائها ،

وأمر بقراءة فُتُوْحِه ، كما كانت تُقرأ على عهدِه ، وأضاف كل ما حَدَّث من بعده الى ما تقدّم من سَعِيهِ ، وأخبر أنه كان سببِه ، والمفتتح به ، وولي محمد بن الحسن خِلافته ، ونصبه منصبه ، وأقامه مُقامه الى أن جَدَّد العهد لي ، فاستخلفته على ما ولي بحضرته ، ثم تتابعت كتب أمير المؤمنين ، أكرمه الله بعد مصاب الأمير ذى الرّياستين ، بما لا يقارب التفضيل ، والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبلغكم ، فلم يكن يرى وراءه مجاراة ، ولا فوقه مَصْعَداً ، حتى جدّد لنا من كرامته ، ما قد قرئ عليكم فى كتابه ، فبلغ بنا ما لم تكن المهتم تبُلُغُه ، والأمانى لِتُحِيط به ، لولا ما منحنا الله عز وجل من الترقى فى الفضل ، الى ما تَحْتَسِر من دونه الأبصار ، وتتقطع دونه الآمال ، وإنما اقتصصناه وذكّرنا ما أبلانا وأصطنع عندنا من بلائه بدعائنا الى الله عز وجل ، والى طاعته بالعدل والإحسان الى رعيتِه والنظر بالصفح ، والأخذ بالفضل ، والأمر بالمعروف ، وصِلَّة المروءة بالوفاء بالعهد ، والشكر للئن ، ورياسة الأخلاق المحموده ، وإحطاء أهلها ، وإقامة سوقها ، حتى تنافسوها وتساخروا فيها ، وصارت هى الذرائع اليه ، والوسائل عنده ، فلو تأمل متأمل أهل الرِّفْقَة ، والأثره لديه ، لو جدّ الأخصّ فالأخصّ ، والأعلى قدرا عنده هو الأفضل ديناً ومروءة ، فلم يكن فى الحظوة عنده إلا إيجابها لصاحبها صحّة المحبة ، والتراحم عن كل ظنّه ، لكان فيها أعظم الغبطة ، وأعدل الشهادة والدلالة ، وسنقّص عليكم بما أخبرناكم عنه مالا سبيل الى جحدِه وإنكاره ، بوضوح معالِمِه ومنازله ، أو ليس المجاهد عن دين الله ، والمحامى عن بيضة المسلمين ، والمواتى لأغلظ عدوهم شوكة ، وأخوفهم عداوة ، والمنجى فى بلادهم ، بمن كان لا يرام ، ولا يحاول لاستصعابه وشِدَّة مقاساته ، حتى أذعن جيغويه بالعبودية له ، ثم أباح حريمه حين تمزّد عليه ، حتى بلغ السبى الى ولده ، وحاربونا به ، وتغلّغَت خيولُه ، حتى توصلت الى قُبْتِه ، ومنتهى عزّه ، أو ليس مُسْكِن التهبج بالمشرق ، حتى خبّت النيران فيه ، وأذعن رؤساؤها وقادتها . أو ليس غازى بلادِ بابل حين طغى أميرها ، وبَدَل ، ونكث ونقض ، حتى أجنّثت أرومته ، وأباح حريمه ، وأراح المسلمين من معرّته ، أو ليس سادّ الثغور ، ومُحَصَّن

عَوْرَاتِهَا ، وَالْمُبَاشِرَ لِتُدْبِيرِهَا ، وَالْمُسْعِدَ الْمُكَيِّدَةَ الْمُتَجَحِّحَ فِيمَنْ أَرَادَهَا ، وَفَالِكَ الْعُنَاةَ ، مِنْ رِقِّ
 الْإِسَارِ ، وَنَاشِرَ الرَّحْمَةَ عَلَى فَقْرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَضُعْفَائِهِمْ وَأَهْلِ الْمَسْكِنَةِ ، وَانْخَلَّةَ مِنْهُمْ ، وَقَاسِمَ
 الصَّدَقَاتِ فِي أَهْلِهَا ، وَعَامِرَ الْمَوْسِمِ وَمَحْصَنَهُ مِنَ الْآفَاتِ حِيَاطَةَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي حُجَّتِهِمْ ،
 وَمَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ ؛ وَهَلْ أَقْتَرْنَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُئِمَّةِ مَا أَقْتَرْنَ لَهُ فِي الْمَلِكِ وَالذِّينِ وَالْعِزِّ ،
 وَالتَّوَاضُعِ وَالسَّعَةِ ، وَالبَدَلِ وَالتَّقْدِرَةِ ، وَالْعَفْوِ وَالْغُلْظَةِ ، وَالبَّيَانِ فِي مَوَاضِعِهَا ، وَالنُّسْكِ مَعَ
 الْهَمَّةِ ، وَالسُّطُوَّةِ مَعَ الْإِقَالَةِ ، وَهَلْ تَرَكَ مَعْشَرَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْإِخْوَانَ فِي الدِّينِ غَايَةَ لَمْ يَسْمُ بِنَا إِلَى
 شَرَفِهَا ، وَعَلَى مَرَاتِبِهَا ، وَمَسْتَرَادِ الْخَطِّ فِي عَاجِلٍ وَأَجَلٍ ، لَمْ يَبْلُغْنَا وَنَخْتَارُ لَنَا خَاصَّ مَكْرَمَتِهِ ،
 وَمُدَّخِرَ عَاقِبَتِهِ . أَرَشَدْنَا إِلَى الدِّينِ ، وَسَلَّكَ بِنَا سُبُلَ الْخَيْرِ ، حَازَ لَنَا الْمَلِكُ ، فَلَمْ يَبْقَ وَرَاءَ
 مَا مَلَكَهَا غَايَةَ ، وَوَرَدَ بِنَا الْحُرُوبَ وَسَامَهَا لِنَا ، فَلَمْ يَدَعْ غَايَةَ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبَةِ ، سُلَّطَ عَلَيْنَا
 بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي أَمَّاهُ فَلَمْ يَدَعْ غَايَةَ فِي التَّقَلُّدِ وَالفَقْهِ ، فَكَمْ عَلَمْنَا الْفَضَائِلَ ، ثُمَّ فَضَّلْنَا بِهَا ،
 غَلَبَ لَنَا الْأُئِمَّةَ ، ثُمَّ خَوَّلَنَاهَا . عَلَمْنَا طَرَائِقَ الشَّرَفِ ، ثُمَّ شَرَّفْنَا بِهَا . أَخْبَرْنَا عَنِ الْأَنْبَاءِ فَكَفَّانَا
 مَوْوَنَةَ التَّمَاثِمَا ، وَأَغْنَانَا بِمَا عِنْدَهُ فِيهَا ، أَخَذَ عَلَى أَيْدِينَا الْخَيْرَ لِلرَّعِيَّةِ ، فَوَهَّبَ لَنَا شُكْرَهَا ، وَصَدَّقَ
 مَقَالَتَنَا عِنْدَ الشُّبُهَةِ ، وَأَنْفَذَ أَمْرَنَا فِي التَّدْبِيرِ .

فِيهَا أَيُّهَا الْإِمَامُ الْمَنْصُورُ الْمَهْدِيُّ الرَّشِيدُ حُرِّتَ فَضَائِلُ الْآبَاءِ ، وَأَهْتَدَيْتَ بِهَدْيِ
 الْأَنْبِيَاءِ ، أَنْشَكَرَكَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَأَنْتَ الْقَائِمُ بِهِ الدَّاعِي لَهُ ، وَالتَّائِي لِحَقِّهِ ، أَمْ نَشَكَرَكَ
 عَنِ الْأَمْصَارِ ، فَأَنْتَ الْمُفْتَبِحُ لِمَتْنَعِهَا عَنَّا ، وَالتَّطَوُّلُ عَلَى أَهْلِهَا بِالرَّحْمَةِ ، وَالتَّعَطُّفُ عَلَيْهِمْ
 بِحَسَنِ الْفَائِدَةِ بَعْدَ مَا هَيَّجَتْ مِنْكَ سُورَةُ الْغَضَبِ ، فَأَطْفَأْتَ نَارَهَا ، وَأَحْمَدْتَ لَهَا ،
 وَعُدْتَ عَلَى مَنْ سَفِهَ ، وَأَضَاعَ حِظَّهُ ؛ أَمْ نَشَكَرَكَ عَلَى الْمَسَاجِدِ ، فَأَنْتَ الَّذِي أُسِّسْتُهَا عَلَى
 التَّقْوَى ، وَعَمَّرْتَهَا بِسَلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَطَهَّرْتَ الْمَنَابِرَ وَرَكِبْتَهَا ، تَعَلَّوْهَا صَائِمًا ، وَتَطِيقُ عَلَيْهَا
 صَادِقًا ، وَتَدْعُو إِلَى الرَّشْدِ عَلَيْهَا نَاصِحًا ، وَتَحْتَمُّ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَهَا مُحْسِنًا ، وَتَتَلَوُ مِنْ قَوَارِعِهِ ،
 مَا تَصِيخُ لَهُ الْأَسْمَاعُ وَتَلِينُ لَهُ الْقُلُوبُ ؛ أَمْ نَشَكَرَكَ عَلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَالرَّكْنِ وَالْمَقَامِ ،
 وَالْحَجَرِ وَزَمْرَمِ ، وَمَشَاعِرِ الْحَجِّ ، وَأَنْتَ ذَبَبْتَ عَنْهَا ، وَأَعَدَّتْ إِلَيْهَا عَهْدَهَا ، فِي مَبْعَثِ نَبِيِّهَا ،

صلى الله عليه وسلم ، فأمنتَ النازع اليها ، من كلِّ فج عميق ، والحالين بها من الركوع
والسجود ، أم نسرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حفظت فيه من عِترته ،
بعفوك عن مجرمهم ، ومضاعفتك ثواب محسنهم ، وإحيائك من أمرهم ، ما كان قد آندرس
وأنظمس ، بعد اللقاء بنبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقد راعيت منه في قرابته وقربتك ،
وذوى رحمه ورحمك ، ماضيع الناس . ووصَّلتَ منهم ما كان وصله ، إذ كان الله عز وجل ،
قد فرضَ صِلَةَ الأرحام ، فكان أطوع خَلَقَ الله عز وجل فيما فَرَضَ عليه . أم نسرك
عن العوام ، فقد ألبست المسلمين ثوبَ الأمن ، وأذقتهم طعم السَّعة والرِّفاة ، وعدلت
بينهم بالإنصاف ، وتولَّيت دونهم النَّصَب ، وآثرتهم الراحة . أم نسرك عن الملوك والقواد
والأجناد ، فأنت الذي رفعتَ منازلهم ، ووقرتَ عددهم ، فلم يكن في دهر أحدٍ من الخلفاء
أسعدَ ولا أحظى منهم في سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المَعاون ، وولَّيتهم من الثغور
والأمصار ، وأدررت عليهم من الأرزاق والحواص ، أم نسرك عن الأحكام والسُّنن ، فأنت
الذي أنهجتَ سبيلها ، فأوجبتَ فرضها ، ونافستَ في أهلها ، أم نسرك عن الأعداء فأنت
الذي بدأتهم بالهجرة ، ودعوتهم إلى الفِئمة والإناة ، ثم ثبَّتَ معقبا بالعفو ، ونعشتهم بعد
البؤس ، وأنستهم من الوحشة ، أم نسرك على مكارم الأخلاق ، وأنت الذي ثبَّتَ وطأتها ،
ونقيتَ عنها أصدادها ، ولو نطقتَ بالفضل ، لنطقتَ بشركك ، في إزالتك إياها عن اللثام ،
وإخطائك من آتري إليها . أم نسرك عن الثغور ، فأنت الذي تممتها ، وحصنت عوراتها ،
أم نسرك عن السلف ، فأنت الذي أشدَّتْ بفعالهم ، وحفظتَهم في أبنائهم ، أم نسرك عن
بُرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن القضيب الذي شخَّص به ، حتى جعلتهما زينتك ،
وسموتَ بهما في أعيادك ، عند حشدك ، على الطَّهر والزكاة ، والنسك والتقوى ، أم نسرك
عن المسلمين في رعايتك إياهم ، وما تُرعيهم من جنابك ، وتنفى عنهم من الآفات ، ونفل
عنهم من جباة الكفر ، وتفضَّض من جيوش الشُّرك والنُّكث ، وتفتح من الحصون
المُستصعبة ، وتسهل من الطُّرق الوعرة ، أم نسرك عن تواضعك لله عز وجل وإصالح

المسلمين طلبا للرفعة عند الله. أم نشكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عبدا وقائدا ومنقذا . وكان مأمورا بجعلته أمرا ، وآلة للقوة فجعلت القوة له آلة ، فيأمن أتصل شكره بشكر الله عز وجل ، ونعمته بنعمة الله تعالى وطاعته ، بطاعة الله فوهب الله لك شرف المنازل ، ورقاك درج الفضائل ، وجزاك الله عنا وعن غيرنا ، مما شكر من ناطق أو صامت ، جزيل الثواب ورفيع الدرجات ، وأمتعك ما أتاك وأمتع الأئمة ما آتاهم منك ، والحمد لله ذى الرغبات ، ومتم الصالحات ، شكرا لرب العالمين ، فإنه مبلغ طاقتنا ، ومُتَمِّى جَهْدنا ، وبه نستعين على تادية فرائضه ، أنه لا يعين على ذلك الا هو ، أحببت أن نشكر اليكم أمير المؤمنين أيده الله ، اذ ورد على من أنعمه وافضاله ، مالا أبلغه بالفعل ، وأن يكون ما أقتصنا عليكم ، داعيا لكم ، الى أن تشكروه عنا ، وعن أنفسكم ، وعن الإسلام والمسلمين ، ورجوت بما وقفنا الله له ، فيما شرحنا وأوضحنا ، من الدلالة والبيان أن يكون مجتمعا يتفجع به من حضرنا ، ومن عسى أن يؤدى اليه الخبرُ عنا ، أو حدث بعدنا ، وضننت بهذه المكرمة الرائعة ، والمائرة البارعة ، التي آدتها الله لأمير المؤمنين ، أعز الله نصره ، وأفرده بها ، دون الأئمة والخلفاء ، أن تمر بالأسماع صفحا ، وتجتاز على القلوب سهوا ، حتى تؤكّد بالشواهد والبرهان ، ليبقى ذكرها ونفعها في الخُلوْف والأعقاب ، ونحن نسأل الله عز وجل الذى جمع بأمر المؤمنين — مد الله فى عمره — ألفتنا ، وعلى طاعته أهواءنا وضمائرنا ، وأنالنا من الغبطة فى دولته وسلطانه ، ما لم تحوّه شيعة إمام ، ولا أنصار خليفة ، أن يتم نور أمير المؤمنين ، ويُعلّى كعبه ، ويمتّعنا ببقائه ، حتى يبلغه سؤاله وهمته فى الاستكثار من البرّ وآدخار الأجر ، وأسْتِجَاب الحمد والشكر ، وأن يلمّ به الشعث ، ويرأب به الصدع ، ويُصلح على يديه الفساد ويرتقّ به فُوق هذه الأمة ، ويُتخّن بسياسة ونكايته فى عدوها ، ويتابع الفتوح ببلدانهم حتى يؤتبه من تُجج السعى ، ورغائب الحظ فى الدنيا ، ما يُجزل عليه ثوابه فى الآخرة ، وأرشد نجباءه واصفياؤه ، الذين يقول لهم ، ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسْنَ تَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

ومن توقيعاته نقلاً عن كتاب الصولى .

وقع الى عامل ظالم « الحق طريق واضح لمن طلبه تهديده محبته ولا تخاف عثرته
وتؤمن في السر مغبته فلا تستقل منه ولا تعدل عنه فقد بالغت في مناصحتك فلا تحوجنى
الى معاودتك فليس بعد التقدمة اليك إلا سطوة الإنكار عليك » .

ووقع في عناية بيانسان الى بعض العمال « أنا بفلان تام العناية وله شديد الرعاية وكنت
أحب أن يكون ما أرعيت طرفك من أمره في كتابي مستودعاً سمعك من خطابي فلا تعدل
بعنايتك الى غيره ولا تمنحن بعقدك سواه حتى تنيله إرادته وتجاوز به أمنيته إن شاء الله » .

وفي كتاب ابن طينفور من توقيعات أحمد بن يوسف الشيبى الكثير فارجع اليه
إن شئت .

(و) رسائل سهل بن هارون^(١)

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — لقي رجل سهل بن هارون فقال : هب لي ما لا ضررَ به عليك ؛ فقال : وما هو يا أحمى ؛ قال : درهم ؛ قال : لتسد هونتَ الدرهم وهو طائع الله في أرضه

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة في دولتي الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتابا حاكى به كتاب قابله ودمته وسماه « ثعلبة وغفرة » . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) في عهد المأمون . ولد سهيل بن هارون في مدينة ميسان بين واسط والبصرة ، وفي رواية في دسمة كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني تقديرا ، ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هرون بن راهبون (راهبون) وكنيته أبو عمرو ، فارسي الجنس ، أهوازي أو خوزي المولد ، عراقى المنشأ ، تحوّل الى البصرة في سنّ لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم في الدولة الإسلامية ، بل مدينة العلم في العالم كله ، أو كما قيل فيها « قبة الإسلام ، وخرابة العرب » حوت من العلم الانساني أصوله وفروعه ، ومن القامخين على تيممه مصانعه ونحوه ، فغذى روحه بلبان مجالسها ومجامعها ، واستنار عقله بما اقتبسه من نور معارفها فتخرج بعبائها ، ولا شك أنهم كانوا طبقة عالية جدا ، في كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل : أن سهل بن هارون كان شيعيا ، وشيعة العراق في زمنه كانوا على الاطلاق معتزلة ، ولم يؤثر عنه أنه تنقص أحدا من الصحابة الكرام ، بل عرف بالاعتدال مع الأموات ، باعتداله مع الأحياء ، وما أزرعته أنه خاض غمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها إذ ذاك ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد ، وأتهموه بأنه كان مع الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العميم فضلا ، وإذا صححت هذه التهمة فن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعبوية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذي فسر به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلا في نفسه ، عشيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيدا من الغدامة (العي) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة ، قبل الخبرة ، و برقة الذهن ، قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب ، قبل الامتناع ، وبالنبيل ، قبل الكشف (الظهور) » . وكان الجاحظ مازجه وثافته . وقيل للحراني ولعله ابراهيم بن ذكوان كاتب الهادي ووزيره : بينك وبين سهل بن هارون صداقة فأنته لنا كي نعرف ، فقال : « هو كالخير ، وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حوّد لم يكذب ، وإن موزح لم يفضب ، كالغيث أين وقع ، تقع ، وكالشمس حيث أولت ، أحييت ، وكالأرض ما حملتها حملت ، وكالماء طهور للمنسه ، ونافع لغده من أحرّ إليه ، وكالغواء الذي تقطف منه الحياة بالنسم ؛ وكان النار التي يعيش بها المرقور ، وكالسبأ التي قد حسنت بأصناف النور » . ٥٠١ . صورتان جميلتان في وصف سهل صورهما مصوّران مبدعان عاشا بقر به ، وفتنهما بخلقه وخلقه .

وأتهموا سهل بن هارون بالبخل وأوردوا له قصصا ونوادير ، وربما كان اتهامه بالبخل مبالغا فيه تراد به التكنة والنادرة . ٥٠١ . من محاضرة للاستاذ الباحث السيد محمد كرد علي ألقاها بالمجمع العلمي العربي بدمشق ونشرها بمجلتي المجمع والمقتطف .

لا يعصى ، وهو عُشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى الى أين انتهى الدرهم الذى هونتته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم ! فانصرف الرجل ؛ ولولا أنصرفه لم يسكت .

وحكى دَعْبِل الخزاعى الشاعر قال : أقننا يوما عند سهل بن هارون ، وأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع ، فدعا بغذائه فَأَتَى بِصَحْفَةٍ فِيهَا مَرَّقٌ تَحْتَهُ دِيكٌ هَرِمٌ ، فأخذ كسرةً وتفقد ما فى الصحفة فلم يجسد رأس الديك فسقى مطرفا ، ثم قال للغلام : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ؛ قال : ولم ؟ قال : لم أظنك تأكله ؛ قال : ولم ظننت ذلك ! فوالله إنى لأمُتُّ من يرمى برجله فكيف برأسه ! ولو لم أكره ما صنعت إلا للطيرة والغال لكرهته ، أما علمت أن الرأس رئيس يُتَّعَلُّ به ، وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذى يُتَبَرَّكُ به ، وعينه التى يضرب بصفتها المثل فيقال : شرابُ كعين الديك ، ودماغه عجب لوجع الكلىة ، ولم أرَ عَظْمًا قَطُّ أَهَشَّ تَحْتَ الأَسنان منه ، وإن كان بلغ من نُبُلِكَ أنك لا تأكله ، فعندنا من يأكله ، أو ما علمت أنه خيرٌ من طرف الجناح ومن رأس العُنُق ! أنظر أين رميته ؛ فقال : والله ما أدرى ؛ قال : أنا والله أدرى ! إنك رميتَ به ، والله فى بطنك ، فوالله حسبيك .

ومن مؤلفاته كتابُ البخلاء .

ولما صنَّف سهلٌ كتابه فى البخل أهداه الى الحسن بن سهل وأستماحه ، فكتب إليه الحسن : قد مدحت ما ذمه الله ، وحسنت ما قبَّحه الله ، وما يقوم بفساد معنك صلاح لفظك ، قد جعلنا ثوابَ مدحك فيه قبولَ قولك ، فما تُعْطِيكَ شيئاً .

وآتهم سهلٌ بن هارون بالبخل وأورد له فى ذلك قِصَصٌ ونوادِرٌ وعدّه الجاحظ من "متعاقلي البخلاء وأشجعاء العلماء" قال : ما علمتُ أن أحدا جرَّد فى البخل كتابا إلا سهل بن هارون ، وأبا عبد الرحمن الثورى ، والبخل فى الفرس غالب فى الجملة ، غلبة الكرم على

طبائع العرب ، فاقتضى ذلك التفريط الذى رآه سهل فى تبذير العرب ، أن يبدل لقومه بأرائه المفرطة فى الاقتصاد والإمساك . وما شُهد قط تفريطُ آلا وإلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهل بن هارون مُنقطع القرنين فى صنوف العلم والآداب ، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ كان يؤلف الكتابَ الكثير المعانى ، الحسن النظم ، فينسبُه الى نفسه فلا يرى الأسماع تُصغى اليه ، ولا القلوب تيممُ نحوه ثم يؤلف كما قال عن نفسه ، ما هو أنقصُ منه مرتبةً وأقلُ منه فائدةً ، فينحلهُ عبد الله بن المقفع ، أو سهل بن هارون ، فيقبلُ الناس عليها ، ويسارعون الى نسخها :

ويقال إن طريقة سهل فى كتابته طريقة أمير المؤمنين على بن أبى طالب لا يتكلف للكلامه ، فلا يُشاهد فيه الناقد أثر التعمُّل ، بل لا يكلف بغير إرسال النفس على سيجتها ، فهو وأبنُ المقفع والجاحظ على غيرِ واحد .

وقيل إن سهلاً كاتبُ سلاطين ، والجاحظ مؤلفُ دواوين . وكان كلامه نعمةً موسيقيةً تعرف آتباءَ بجمته من رتبتها بعد أن ملكت عليك مشاعرك ، لا يخجلُ بالأبجاء إلا إذا جاءت عقو الخاطر ، شأنُ بلغاءِ الصدرِ الأول . وكان يقول الشعر وأكثُر شعره مما أملاه قلبه ، فى غرض من أغراض المجتمع . وعده الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصاص ، والكتب الجبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والأخبار المدونة . ولقبه مرةً بالكاتب ، ولعل لقب الكاتب فى شرفه أكبرُ من عالم . وذكره ابن النديم فى البلغاء وقال : إنه شاعرٌ مُقلٌّ ، وعده فى الشعراء الكتاب . وقال : إنه كان ممن يعمل الأثمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهايم هو وعبدُ الله بن المقفع وعلى بن داود كاتب زبيده . وشعره خمسون ورقةً . أما الدهشة ففى تأليفه ، فله ديوان رسائله ، وكتاب النمر والثعلب ، وكتاب اسباسيوس (أسانوس) فى آتخاذ الإخوان ، كتاب أسد بن أسد ، كتاب سحرة العقل ، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أبان

في القضاء، كتاب الفرس، كتاب الغزالين، كتاب ندود وودود ولدود، كتاب الرياض، كتاب ثعلة وعفراء، (وفي رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمينة، قلده في أبوابه وأمثاله .

وقال المسعودي: يزيد عليه أى على كليلة ودمينة في حسن نظمه وقد صنفه للمأمون .
ومن تأليفه: كتاب الهزلية والخزومي، كتاب الوامق والعذراء الى غير ذلك من المصنفات التي لم تبق الايام وبالأسف على واحد منها فيما علمنا .

دخل سهل على الرشيد وهو يضحك المأمون؛ فقال: اللهم زد من الخيرات، وأبسط له من البركات، حتى يكون في كل يوم من أيامه مريباً على أمسه، مقصراً عن غده، فقال الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لا يعجزه القول؟ فقال سهل: يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن أحداً تقدمنى الى هذا المعنى، قال بل أعشى همدان حيث يقول:

رأيتك أميس خير بى لوى * وأنت اليوم خير منك أميس

وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً * كذلك تزيد سادة عبد شمس

وقد شهيد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧ هـ وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال: إن تتجاعى الخطب، ومجبرى القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلام يتصور درأ، ويحمله المنطق السرى جوهراً، لكان كلامهما، والمتقى من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديته وتوقعاته في كتبه، فدمين عيين، وجاهلين آميين، ولقد عمرت معهم، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل الا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا آتت الا لهم، وأنهم محض الأنام، وأبواب الكرام، وملح الأيام، عشق منظر، وجودة مخبر، وجرالة منطلق، وسهولة لفظ، ونزاهة نفس، وأكتمال خصال، حتى لو فانرت الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور

من خصالهم ، كثير أيام من سواهم من لدن آدم أيهم الى النسخ في الصور ، وأبتعات أهل القبور ، حاشا أنبياء الله المكرمين ، وأهل وحيه المرسلين ، لما باهت إلابهم ، ولا عولت في الفخر إلا عليهم ، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم ، وكريم أعرافهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول مذاقهم ، وبهاء إشراقهم ، ونقاوة أعراضهم ، وتهذيب أعراضهم ، وآكتمال خلال الخير فيهم ، الى ملء الأرض مثلهم في جنب محاسن المأمون كالتفتة (التفلة) في البحر ، والخرذلة في المهمة القفر .

قيل : وهذا الكلام على ما فيه من حقيقة في بيان سجايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يختم بالنصفة الحقة ، ومال به سهل الى المصانعة ، ونحزجه على نحو مبالغة الفرس ، في الإطراء والملق لولى الأمر .

وروى بعض الرواة أن المأمون كان استقل سهل بن هارون ، وقد دخل عليه يوما والناس على مراتبهم ، فتكلم للمأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فلما فرغ من كلامه أقبل سهل بن هارون على الجمع فقال : ما لكم تسمعون ولا تعون ، وتشهدون ولا تفقهون ، وتفهمون ولا تتعجبون ، وتتعجبون ولا تتصفون ! والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل ، عربكم كجكم ، وعجمكم كبيدكم ، ولكن كيف يعرف بالدواء من لا يشعر بالداء . فرجع المأمون فيه الى الرأي الأول ، وعرف أنه الرجل كل الرجل ، فقر به وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده .

ومن كلام له في كتابه ثعلة وعفرة :

”اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقبداً قبل الذي تجودون به من تفضلكم ، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء في الفريضة شاهد على وهن العقيدة ، وتقصير الروية ، ومضرب بالتدبير ، ومحل بالاختيار ، وليس في نفع تعدد به عوض من فساد المروءة ، ولزوم النقيصة“ .

وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر :

عَدُوُّ تِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يَنْسُوهُ * مَنُوعٌ إِذَا مَا مَنَعَهُ كَانَ أَحْرَمًا
مُدَّلُّ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ غَيْرَ أَنْ تَرَى * مَكَارِهِ مَا تَأْتِي مِنَ الْعَيْشِ مَغْنَمًا

وكتب الى صديق له أبل من ضعف :

” بلغني خبر الفترة في المسامها وأنحسارها ، والشكاة في حلولها وارتحالها ، فكاد يشغل القلق بأوله عن السكون لآخره ، وتذهل الحيرة في آتدائه ، عن المسرة في آتتهائه ، وكان تغيرى في الحالين بقدرهما آرتياغاً للأولى ، وآرتياحا للأخرى “ .



وكتب في البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمركم وجمع شملكم وعاممكم الخير وجعلكم من أهله . قال الأحنف بن قيس :
يا معشر بني تميم ، لا تُسرِعوا الى الفتنة فإن أسرع الناس الى القتال أقلهم حياء من الفرار .
وقد كانوا يقولون : اذا أردت أن ترى العيوب جمّة فتأمل عيأاً فإنه إنما يعيب الناس
بفضل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب . وقبيح أن تنهى
مرشداً وأن تُغري بمشفيق . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإصلاح فاسدكم ،
وإبقاء النعمة عليكم . وما أخطأنا سبيل حُسن النية فيما بيننا وبينكم . وقد تعلمون
أنا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه لكم ، ولأنفسنا قبلكم ، ومُشهرنا به في الآفاق دونكم ؛ ثم نقول
في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ
إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ فما كان أحقنا
منكم في حرمتنا بكم أن ترعوا حق قصدينا بذلك اليكم على ما رعيتناه من واجب حَقِّكم ؛
فلا العُدْرَ المبسوط بلغتم ولا بواجب الحرمة قُتتم . ولو كان ذكركم العيوب يرادُ به نخر رأينا
في أنفسنا من ذلك شغلا .

عَبْتُمُونِي بِقَوْلِي لِحَادِي : أَجِيدِي الْعَجِينَ فَهُوَ أَطْيَبُ لَطْعَمِهِ وَأَزِيدُ فِي رَيْعِهِ ^(١) . وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَمَلِكُوا الْعَجِينَ فَإِنَّهُ أَحَدُ الرَّيَعِينَ ^(٢) .

وَعَبْتُمُونِي حِينَ خَتَمْتُ عَلَى مَا فِيهِ شَيْءٌ ثَمِينٌ مِنْ فَاكِهِةٍ رَطْبَةٍ نَقِيَّةٍ وَمِنْ رَطْبَةِ غَرِيْبَةٍ عَلَى عَبْدِ نَهْمٍ وَصَبِيٍّ جَشِيعٍ وَأَمَةٍ لِكَمَاءٍ وَزَوْجَةٍ مُضِيْعَةٍ ^(٣) .

وَعَبْتُمُونِي بِاللَّحْمِ وَقَدْ خَتَمَ بَعْضُ الْأَيْمَةِ عَلَى مِرْوَدٍ سَوِيْقٍ وَعَلَى كَيْسِ فَارِغٍ . وَقَالَ : طَيْنَةٌ خَيْرٌ مِنْ طَيَّةٍ ، فَأَمَسَكْتُمْ عَمَّنْ خَتَمَ عَلَى لَأْشَيْءٍ وَعَبْتُمْ مِنْ خَتَمٍ عَلَى شَيْءٍ ^(٤) .

وَعَبْتُمُونِي أَنْ قُلْتُ لِلْغُلَامِ : إِذَا زِدْتَ فِي الْمَرْقِ فَزِدْ فِي الْإِنْضَاجِ لِيَجْتَمَعَ مَعَ التَّائِدِ بِاللَّحْمِ طَيِّبُ الْمَرْقِ .

وَعَبْتُمُونِي بِخِصْفِ النَّعْلِ وَبِتَّصْدِيرِ الْقَمِيصِ وَحِينَ زَعَمْتُ أَنْ الْخُصُوفَةَ مِنَ النَّعْلِ أَبِي وَأَقْوَى وَأَشْبَهَ بِالشَّدِّ وَأَنْ التَّرْقِيْعَ مِنَ الْحَزْمِ وَالتَّقْرِيطَ مِنَ التَّضْيِيعِ . وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيُرَقِّعُ ثَوْبَهُ وَيَقُولُ : لَوْ أَهْدَى إِلَى ذِرَاعٍ لَقَبِلْتُ ، وَلَوْ دُعِيْتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ . وَقَالَتِ الْحِكْمَاءُ : لَا جَدِيدَ لِمَنْ لَمْ يَلْبَسِ الْخَلْقَ . وَبَعَثَ زِيَادُ رَجُلًا يَرْتَادُ لَهُ مُحَدَّثًا وَأَشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا فَأَتَاهُ بِهِ مُوَافِقًا فَقَالَ لَهُ : أَكُنْتُ بِهِ ذَا مَعْرِفَةٍ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي رَأَيْتَهُ فِي يَوْمٍ فَأَنْظُ يَلْبَسُ خَلْقًا وَيَلْبَسُ النَّاسَ جَدِيدًا ، فَتَفَرَّسْتُ فِيهِ الْعَقْلَ وَالْأَدَبَ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْخَلْقَ فِي مَوْضِعِهِ مِثْلَ الْجَدِيدِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَسَمًّا بِهِ مَوْضِعًا كَمَا جَعَلَ لِكُلِّ زَمَانٍ رَجُلًا وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا . وَقَدْ أَحْيَا اللَّهُ بِالسَّمِّ وَأَمَاتَ بِالْذَّوَاءِ وَأَغْصَصَ بِالْمَاءِ . وَقَدْ زَعَمُوا أَنْ الْإِصْلَاحَ أَحَدُ الْكَاسِبِينَ كَمَا زَعَمُوا أَنْ قِلَّةَ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِينِ . وَقَدْ جَبَرَ الْأَحْنُفُ بْنُ قَيْسٍ يَدَ عَتْرَ وَأَمْرَ مَالِكُ بْنُ أُنْسٍ

(١) الرِّيعُ : النِّعَامُ وَالزِّيَادَةُ . (٢) إِمْلَاكُ الْعَجِينِ : إِعْنَامُ بَعْضِهِ . (٣) الْكَمَاءُ : الْخَمَاءُ .

(٤) الْمِرْوَدُ : عَوَاءُ الزَّادِ . وَالسَّوِيْقُ : طَعَامٌ يَتَّخَذُ مِنَ الْخِنْطَلَةِ أَوِ الشَّعِيرِ . (٥) خِصْفُ النَّعْلِ : نَزْرُهَا .

(٦) تَصْدِيرُ الْقَمِيصِ : أَنْ يَجْعَلَ لَصَدْرِهِ بَطَانَةَ .

بَقْرُكَ النَّعْل . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بَيْضَةً فقد أكل دَجَاجَةً .
ولبس سالم بن عبد الله جِلْدَ أُصْحِيَّة . وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أهدى إليك
دجاجة . فقال : إن كان لابد فاجعلها بِيُوضًا .

وعبتمونى حين قلتُ : من لم يعرف مواضع السَّرْفِ فى الموجود الرخيص لم يعرف
مواضع الاقتصاد فى الثَمَنِ العالى . ولقد أُتيتُ بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشدّ من
الكفاية ، فلما صرت الى تفريق أجرائه على الأعضاء والى التوفير عليها من وَضِيعَةِ المَاءِ^(١)
وجدتُ فى الأعضاء فَضْلاً عن الماء ، فعلمتُ أن لو كنتُ سَلَكْتُ الاقتصادَ فى أوائله
لخرج آخره على كفاية أوّله ولكن نصيبُ الأوّل كنصيب الآخر ، فعبتمونى بذلك وسنّعتم
على ؛ وقد قال الحسن وذَكَرَ السَّرْفَ : أما إنه لَيَكُونُ فى المَاءِ وَالكَلاّ فلم يَرْضَ بذكر
الماء حتى أردفه الكَلّا .

وعبتمونى أن قلتُ : لا يَغْتَرِّكَ أَحَدُكُمْ بطول عمره وتَقْوِيسِ ظهره وورقة عَظْمه ووهن
قوّته وأن يرى نحوه أكثر ذُرِّيَّتِهِ ، فيدعوه ذلك الى إخراج ماله من يده وتحويله الى ملك
غيره والى تحكيم السَّرْفِ فيه وتسليط الشهوات عليه ، فاعله يكون مَعْمَراً وهو لا يدرى ،
وممدوداً له فى السنّ وهو لا يَشْعُرُ ، ولعله أن يُرْزَقَ الولدَ على اليأس ويحدث عليه من آفات
الدهر ما لا يَحْتَضِرُ على بال ولا يُدْرِكُه عقل ، فيسترده ممن لا يرده ويُظهِرُ الشكوى الى من
لا يرحمه أَضْعَبَ ما كان عليه الطّلب وأقبح ما كان به أن يَطْلُبَ ، فعبتمونى بذلك ؛
وقد قال عمرو بن العاص : ” اِعْمَلْ لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وَاَعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كأنك
تموت غداً “ .

وعبتمونى بأن قلتُ : باتّ السَّرْفِ والتبذير الى مال المواريث وأموال المملوك وأن
الحفظَ لِمَالِ المكتسب والغنى المجلب والى من لا يُعْرَضُ فيه بذهاب الدّين وأهتضام
العرض ونصيب البدن واهتمام القلبِ أسرع ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله

(١) الوضیعة هنا : النقص .

ومن لم يحسب الدخول فقد أضاع الأصل . ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أودن بالفقر وطاب نفساً بالذل .

وعبتموني بأن قلت : إن كسب الحلال يضمن الإنفاق في الحلال . وإن الخبيث يتزعج إلى الخبيث ، وإن الطيب يدعو إلى الطيب ، وإن الإنفاق في الهوى حجاب دون الهدى ؛ فعبتم عليّ هذا القول ، وقد قال معاوية^١ : لم أرتبذيراً قط إلا وإلى جنبه حق مضيع . وقد قال الحسن : إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله فانظروا فيما إذا يتفق فإن الخبيث إنما يتفق في السرف . وقلت لكم بالشفقة عليكم وحسن النظر مني لكم وأنتم في دار الآفات ، والجوائح غير مأمونات : فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلا إلى نفسه . فاحذروا النقم باختلاف الأمكنة فإن البلية لا تجرى في الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمة والشاة والبعير : فزقوا بين المنايا . وقال ابن سيرين لبعض البحرّيين : كيف تصنعون بأموالكم ؟ قالوا : نفزقها في السفن فإن عطب بعض سلم بعض . ولولا أن السلامة أكثر ما حملنا أموالنا في البحر . قال ابن سيرين : "تحسبها خرّقاء وهي صناع"^١ .

وعبتموني بأن قلت لكم عند إشفاق عليكم : إن للغنى لسكراً وللسال لزوة^٢ فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المال لخوف الفقر فقد أهمله .

فعبتموني بذلك وقد قال زيد بن جبلة : ليس أحد أقصر عقلاً من غنى من الفقر ، وسكر الغنى أكثر من سكر الخمر . وقد قال الشاعر في يحيى بن خالد بن برمك :
وهوبُ تلاد المال فيما يتوبه * منسوع إذا ما منعه كان أحزماً

وعبتموني حين زعمتم أني أقدم المال على العلم ، لأن المال به يفاد العلم وبه تقوم النفس قبل أن تعرف فضل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالتفضيل من الفرع ، فقلتم :

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وهو فطن يقظ . (٢) الزوة : التوزة أو الوثبة .

كيف هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء: الأغنياء أفضل أم العلماء؟ قال: العلماء. قيل له: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال وجهل الأغنياء بحق العلم. فقلت: حالهما هي القاضية بينهما. وكيف يستوى شيء حاجة العامة إليه وشيء يعنى فيه بعضهم عن بعض.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم والفقراء باتخاذ الدجاج. وقال أبو بكر رضى الله عنه: إني لأبغض أهل بيت يُنفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد. وكان أبو الأسود الدؤلى يقول لولده: إذا بسط الله لك الرزق فابسط وإذا قبض فاقبض.

وعبتمونى حين قلت: فضل الغنى على الثبوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت إذا احتيج إليها استعملت وإن استعني عنها كانت عُدَّة. وقد قال الحصين بن المنذر: وددت أن لى مثل أحد ذهباً لا أتفنع منه بشيء. قيل له: فما كنت تصنع به؟ قال: لكثرة من كان يخدمنى عليه لأن المال مخدوم. وقد قال بعض الحكماء: عليك بطلب الغنى فلو لم يكن فيه إلا أنه عز في قلبك ودل في قلب عدوك لكان الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً.

ولسنا ندع سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب اللهو؛ ولستم على تردون ولا رأي تُفندون، فقدموا النظر قبل العزم وأدركوا مالكم قبل أن تُدركوا مالكم. والسلام عليكم.

وسهل هو القائل:

تَقَسَّمَنِي هَمَانٍ قَدْ كَسَفَا بِأَلِي * وَقَدْ تَرَكَأ قَلْبِي مَحْمَلَةً يَلْبَلَالِ
هِمَا أَذْرِيَا دَمَعِي وَلَمْ تُذَرِ عِبْرَتِي * رَهِينَةُ خَدَّ ذَاتِ سِمِيطٍ وَخَلْخَالِ
وَلَا قَهْوَةَ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى الذِي * عَلَى أَنْ تُحَاكِيَ النُّورَ فِي رَأْسِ ذِيَالِ

تحلّ منها جرّؤها وتماسكت * لها نفس معدوم على الزمن الخالي
 ولكنها أبكي بعين سنيّة * على حدّث تبكي له عين أمالي
 فراق خليل لا يقوم به الأسي * وخلة حرّ لا يقوم بها مالي
 فواحسرتي حتى متى القلب موجع * لنفر خليل أو تعذر إفضال
 وما الفضل إلا أن تجود بنائل * وإلا لقاء الخلل ذي الخلق العالي

وهو القائل :

إذا أمرؤ ضاق عني لم يضق خلقي * من أن يراني غنياً عنه باليأس
 لا أطلب المال كي أغنى بفضلته * ما كان مطلبه فقراً من الناس

(ز) عمرو بن مسعدة^(١)

كان كاتباً بليغاً، جَزَلَ العبارة وجيَّزها، سديدَ المقاصد، فضلهُ شائعٌ، وُثِّلَهُ ذائعٌ؛ أشهرُ من أن يُتَبَّه عليه، أو يُدَلَّ بالوصف إليه؛ قد وُلِيَ للمأمون الأعمالَ الجليلةَ، وألحقَ بذوي المراتبِ النبيلةِ. وسمَّاه بعضُ الشعراءَ وزيراً لعِظَمِ منزلته لا لأنه كان وزيراً، وهو قوله:

لقد أسعدَ اللهُ الوزيرَ بنَ مسعدِهِ * وُثِّتَ له في الناسِ سُكْرٌ ومُجَدِّه

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول . وصول (بضم الصاد) كان رجلاً تركياً وكان ملك وأخوه فيروز على جرجان ونجسا بعد التركية وتشبها بالفرس .

بدأ عمرو بن مسعدة في خدمة الدولة عاملاً من العمال فظهرت كفايته وبلاغته ، وبالبلغة توصل الى الخليفة فعده أحد أفراد قلائل في رجاله ، قال أحمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوماً على المأمون ويده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويصعد فيه ويصوب ، فلما مرت على ذلك مدة من زمانه التفت الى وقال : يا أحمد أراك مفكراً فيما تراه مني ، قلت : نعم ، فقال : ان في هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة ، زعم أن البلاغة إنما هي التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ ، على الكثير من المعنى ، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على ذلك . وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة اليها ، فتككته فإذا فيه : « كتابي الى أمير المؤمنين ، ومن قبلي من قواده ، ورؤساء أجناده ، في الاتقياد والطاعة ، على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، واتيقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلفت لذلك أحوالهم ، والثالث معه أمورهم » . فلما قرأته قال : ان استحساني اياك يعني أن أمرت ليجند قبله بأعطياتهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته . وفي رواية أن المأمون أمر لعمر بن مسعدة برزق ثمانية أشهر وأنه قال لأحمد بن يوسف : لله در عمرو ما أبلغه ! ألا ترى الى إدماجه المسألة في الأخبار ، وإعفائه سلطانه من الاثكار .

وكان عمرو بن مسعدة وكنيته أبو الفضل أبيض أحمر الوجه ، وكان المأمون يسميه الرومي لبياض وجهه وكان يخضب وتوفي بأذنة سنة سبع عشرة ومائتين . ولم نعرف منشأه ومولده وأساتيده ونفاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم — وكان كاتباً أيضاً — تربيتهم كل الإحسان حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة التي كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون ، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويخشلوان معه وبمازجانه . ولكي يصل الرجل الى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم في كل شؤونه يجب أن ينطوي على صفات عالية يعز مثلها في الأقران والأتراب .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي فرغ اليه غلثانه ورقة يستردونه في روايتهم فرمى بها الى وقال : أجب عنها فكتبت : « قليل دائم خير من كثير منقطع » فضرب بيده على ظهره وقال : =

فهو كما كتب الحسن بن سهل الى محمد بن سَمَاعَةَ القاضى وقد احتاج الى رجلٍ يُؤَيِّيه
بعض الأعمال فقال: إنه يريد رجلا جامعا لخصال الخير، ذا عِفَّةٍ ونزاهة طِعمَةٍ؛ قد هدَّبتَه
الآداب، وأحكمته التجارب، ليس بظنِّين في رأيه، ولا بمطعونٍ في حسبه إن أُوتِن على
الأسرار قام بها، وإن قُلِّد مُهمًّا من الأمور أجزأ فيه، له سنٌّ مع أدب ولسان، تُعقده
الرزانة، ويسكته الحلم، قد فُسر عن ذكاء وفِطنة، وعض على قارحة من الكمال، تكفيه
الخطئة، وتُرشده السكينة، قد أبصر خدمة الملوكة وأحكمتها، وقام في أمور فُحِّد فيها، له
أناة الوزراء، وصولة الأمراء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجواب الحكماء، لا يتبع
نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه، وحسن بيانه، دلائل
الفضل عليه لائحة، وأمارات العلم له شاهدة، مضطعا بما استنص، مستقلا بما حمل .

= أى وزير في جلدك . وقد شهد لعمر بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان في عصره ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه :
إنه أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد اذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله فاذا رآه بعد عليه . وهذا كما قيل لأحد
البلغاء : ما حد البلاغة ؟ فقال : التي اذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها ، فاذا رآها استصعبت عليه .

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف في موضوع خاص وأفرد مسألة في التأليف ، وعده ابن النديم في الشعراء الكتاب
ولم يذكر إلا أن له ولأخيه مجاشع نحسين ورقة من الشعر وهى من الضائع أيضا . والغالب أن مهام الدولة
لم تنزلك له وقتا بصرفه في درس خاص ، أو وضع كتاب أو رسالة : وما تلقفه العلماء والأدباء من كلامه ،
فهو مما صدر عنه بالمناسبات ، ورواه له المعجبون به ، وما أعظم المفقود منه . والمظنون أن لو كانت جمعت
له رسائله على إيجازها لكان منها ديوان كبير ، لأن من صرف أعواما طويلة وهو قابض على براعته بعالج بها
الموضوعات السياسية والادارية في ذلك المجتمع العظيم لا شك أنه مجتمع له صفحات كثيرة مهما كان مقلا
معروفا بالإيجاز . ١٠ هـ من محاضرة للاستاذ الباحث محمد كرد على نشرها بمجلة المجمع العلمى العربى . وفى عمرو بن
مسعدة قال محمد البيهقي وقد اعتل :

قالوا أبو الفضل معتل فقلت لهم * نفسى الفداء له من كل محذور

يا ليت علمه بى غير أنت له * أجر العليل وإنى غير مأجور

وتجد ترجمته في معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ١٨٨) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والوافى بالوفيات
للصغدى (ج ٥ ص ٥٠٢ قسم ثالث من الأصل الفتنوغرافى المحفوظ بدار الكتب المصرية) .

(١) فى الأساس : ومن المجاز فلان طيب الطعمة وخبيث الطعمة (بالكسر) وهى الجهة التى منها يرتقى
(بوزن الحرفة) . (٢) أجزاء كذا : كفانى . (٣) فرعن ذكاء ، وفطنة ، أى جرب واختبر

فيها . (٤) وعض على قارحة ، كناية عن بلوغه درجة الكمال .

ومن كلام عمرو بن مسعدة :

أعظم الناس أجراً، وأنبههم ذكراً، من لم يرخص بموت العدل في دولته، وظهور الحجّة في سلطانه، وإيصال المنافع الى رعيته في حياته، وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق في أيامه، وبعد وفاته وانقراضه .

وقال : الخطّ صور الكُتُبِ تُردّ اليها أرواحها .

وقال : الخطّ صورة ضئيلة لها معانٍ جليلة، وربّما ضاق عن العيون، وقد ملاء اخطار الفنون .

وقال : لا تستصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك، أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائده علمه، ومن كانت غايته الاحتيال على مالك وإطراءك في وجهك، فإن هذا لا يكون إلا ردىء الغيب، سريعاً الى الذم .

وكتب الى الحسن بن سهل :

أما بعد، فإنك ممن اذا غرّس سقى، واذا أسس بنى، ليستمّ تشييد أسسه، ويحني ثمار غرّسه، وشأؤك عندي قد شارف الدروس، وغرسك مشف على اليوس، فتدارك بناء ما أسست، وسقى ما غرّست إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه في شخص يعز عليه :

أما بعد، فوصل كتابي اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُديروني عن سالم وأديرهم * وجلدة بين العين والأنف سالم

أى يحلّ مني هذا المحل .

وكتب الى المأمون في رجل من بني ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته وجعل كتابه تعريضا :

أما بعد، فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطوّلك على، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتقون به، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام .

فكتب اليه المأمون : "قد عرفنا توطئتكَ له ، وتعريضك لنفسك ، وأجبنك اليهما ، وواقفناك عليهما" . وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته" : من الكلام السري الذي يدل على مبلغ أدب عمرو وبعده غوره في السياسة ووقوفه على رُوح عصره ونفسية الخلفاء .

قَدِمَ رجل من أبناء دَهَاقِين ^(١) قريش ، على المأمون لِعِدَّة سلفت منه ، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تُوَصَّل مني رُقعةً إلى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها تكن لك على نعمتان . فكتب : "إن رأى أمير المؤمنين أن يَفُكَّ أسرَ عبده من رِبقة المَظَل بقضاء حاجته ، أو يَأْذَن له بالانصراف إلى بلده فعل إن شاء الله" .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً بفعل يعجب من حسن لفظها ، وإيجاز المراد . فقال عمرو : فما نتیجتُها يا أمير المؤمنين؟ قال : الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه ، لثلاثين تأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة مائة ألف درهم ، صلةً عن دناءة المَظَل . وسماعة الإغفال .

وهذا مما يدل على سعة عقل المأمون وولوعه بالبلاغة وقدره أهلها حق قدرهم ، دع ما هنالك من نقيس ما أحببت إلا الجود والعطاء .

ومن حِكَم عمرو بن مسعدة :

العبودية عبودية الإخاء . لا عبودية الرق . الود أعطف من الرحم . إن الكريم ليرعى من المعرفة ما رعى الوصل من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينة في الرخاء ، وعدة للبلاء . مثل الإخوان مثل النار ، قليلها متاع ، وكثيرها بوار . النفس بالصدق ، آس منها بالعشيق ، وغزل المودة ، أرق من غزل الصباية . من حقوق المودة ، عفو الإخوان ، والإغضاء عن تقصير إن كان . ذكر رجل رجلاً فقال : حسبك أنه حقيق كما تشبهى إخوانه . المودة قرابة

(١) الدهاقين : الزعماء أرباب الأملاك بالسواد ، وأحدهم دهقان (بكر الادل معرب) .

مستفاداً . ما تواصل اثنان فدام تواصلهما ، الا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرع الأشياء انقطاعاً مودة الأشرار . المحروم من حريم صالحى الإخوان . لقاء الخليل شفاء الغليل . قلة الزيارة ، أمان من الملالة . إخوان السوء كشجر النار يُحرق بعضه بعضاً . علامة الصديق اذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب ، ولا يتدبى بالكتاب . لا يُفسدك الظن على صديق قد أصاحك اليقين له . من لم يُقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأئس ، أثمرت مودته ندماً . اذا قدمت الحرمة ، تشبهت بالقرابة . العتاب حياة المودة . ظاهر العتاب خير من باطن الحقد . ما أكثر من يُعاتب لطلب علة ، ويبقى الود ما بقى العتاب . كمن الحقد فى القواد ككمن النار فى الزناد . القريب بعيد بعداونه ، والبعيد قريب بمودته . لا تأمن عدوك وإن كان مقهوراً ، واحذرهُ وإن كان مفقوداً ، فإن حدَّ السيف فيه وإن كان مغموذا لا تتعرض لعدوك فى دولته ، فإنها اذا زالت كفتك مؤونته . نصح الصديق تأديباً ، ونصح العدو تأنيباً .

روى البيهقي قال : أخبرنا بعض أصحابنا قال : شهدت المأمون يوماً وقد خرج من باب البستان ببغداد فصاح به رجل بصري : يا أمير المؤمنين إني تزوجت بامرأة من آل زياد وإن أبا الرازي فوق بيننا وقال : هى امرأة من قريش ؟ قال : فأمر عمرو بن مسعدة فكتب الى أبى الرازي :

إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزبادية وخلعك إياها إذ كانت من قريش . فتى تحاكت اليك العرب ؟ لا أم لك فى أنسابها ، ومتى وكلتك قريش يابن الخناء بأن تلصق بها من ليس منها؟ نخل بين الرجل وامراته ، فلئن كان زياد من قريش ، إنه لأبن سمية بنى عاهرة ، لا يُفتخر ، بقرابتها ولا يتناول بولادتها . ولئن كان ابن عبيد ، لقد باء بأمر عظيم ، إذ ادعى الى غير أبيه ، لحظ تعجله ، ومُلك قهره .

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرجل به عناية الى بعض العيال فى قضاء حقه ، وأن يختصر كتابه ما أمكنه ، حتى يكون ما يكتب به فى سطر واحد ، لا زيادة عليه . فكتب عمرو :

كُتِبَ إِلَيْكَ كِتَابٌ وَاثِقٌ بَيْنَ كَتَبْتُ إِلَيْهِ ، مَعْنَى بَيْنَ كُتِبَ لَهُ ، وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ الثَّقَةِ وَالْعَنَايَةِ حَامِلُهُ .

وكتب الى بعض الرؤساء، وقد تزوجت أمه فساءه ذلك ، فلما قرأها ذلك الرئيس تسلى بها، وزهد عنه ما كان يجده . وقيل : إن هذه الرسالة من إنشاء ابن العميد وهي : الحمد لله الذى كشف عنا ستر الحيرة ، وهدانا لستر العورة . وجدع بما شرع من الخلال أنف الغيرة ، ومنع من عضل الأمهات ، كما منع من وأد البنات ، استنزالا للنفوس الأبية ، عن الحمية حمية الجاهلية ، ثم عرض لجزيل الأجر ، من استسلم لواقع قضائه ، وعوض جليل الذخر من صبر على نازل بلائه ، وهناك الذى شرح للتقوى صدرك ، ووسع فى البلى صبرك ، وألهمك من التسليم لمشيئته ، والرضا بقضيته ، ما وفقك له من قضاء الواجب فى أحد أبويك ، ومن عظم حقه عليك ، وجعل الله تعالى جدّه ما تجرّعته من أنف ، وكظمته من أسف ، معدودا فيما يعظم به أجرك ، ويجزل عليه ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك بفعالها ، المتظر من ارتماضك بدفنها ، قستوفى بها المصيبة ، وتستكمل عنها المثوبة ، فوصل الله لسيدى ما استشعره من الصبر على عرسها ، بما يكتسبه من الصبر على نفسها ، وعوضه من أسرة فرشها ، أعواد نعشها ، وجعل تعالى جدّه ما ينعم به عليه بعدها من نعمة ، معرى من نعمة ، وما يوليه بعد قبضها من منحة ، مبراً من منحة ، فأحكام الله تعالى جدّه ، وتقدست أسماؤه ، جارية على غير مُراد المخلوقين ، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خير لهم فى العاجلة ، وأبقى لهم فى الآجلة ، اختار الله لك فى قبضها إليه ، وقُدومها عليه ، ما هو أنفع لها ، وأولى بها ، وجعل القبر ، كُفوءاً لها والسلام .

وقال عبد العزيز بن يحيى المكيّ الذى ناظر بشر بن غياث المريسيّ بحضرة أمير المؤمنين فى مسألة خلق القرآن :

جاءنى خليفة عمرو بن مسعدة ومعه جمع من الفرسان والرجال فغماني مكرماً على دابته حتى صار الى باب أمير المؤمنين فأوقفنى حتى جاء عمرو بن مسعدة فدخل بفلس فى حجرته

التي كان يجلس فيها ثم أذن لي بالدخول عليه فدخلتُ فلما صيرتُ بين يديه أجلسني ثم قال لي : أنت مقيمٌ على ما كنتَ عليه أو قد رجعتَ عنه؟ فقلتُ : بل مقيمٌ على ما كنتُ وقد ازدددتُ بتوفيقِ الله تعالى إياي بصيرةً في أمري ؛ فقال لي عمرو بن مسعدة : أيها الرجل ، قد حملتَ نفسك على أمرٍ عظيمٍ ، وبلغتَ الغايةَ في مكروهاها ، وتعرضتَ لما لا قوامَ لك به في مخالفةِ أمير المؤمنين ، وأدعيتَ بما لا يثبتُ لك به حجةٌ على مخالفتك ، ولا لأحدٍ غيرك ، وليس وراءك بعد الحجّة عليك الا السيفُ ، فانظرُ لنفسك وبادرُ أمرَكَ ، قبل أن تقعَ المناظرةُ وتظهرَ عليك الحجّةُ ، فلا تتفكك الندامةُ ولا يقبلُ منك معذرةٌ ولا تُقالَ لك عثرةٌ ، فقد رحمتُك وأشفقتُ عليك مما هو نازلٌ بك ، وأنا أستقبلُ لك أمير المؤمنين وأسأله الصّبحَ عن جرمك ، وعظيم ما كان منك اذا أظهرتَ الرجوعَ عنه والندمَ على ما كان ، وأخذُك الأمانَ منه والجزاءَ ، فان كانتَ لك ظلامَةٌ أزلتها عنك وان كانتَ لك حاجةٌ قضيتها لك ، فانما جلستُ رحمةً لك مما هو نازلٌ بك بعد ساعة إن أمتَ على ما أنتَ عليه ورجوتَ أن يخلصك الله تعالى على يدي من عظيم ما أوقعتَ نفسك فيه .

شعره :

نقلنا أمثلةً قليلةً من نثر عمرو بن مسعدة ، أما شعره فقليلٌ جداً . ذكر المترجمون له أنه كان له فرسٌ أدهمٌ أغرٌ ، لم يكن لأحد مثله فراهةً وحسناً . فبلغ المأمون خبره ، وبلغ عمرو ابن مسعدة ذلك . فخاف أن يأمر بقوده إليه فلا يكون له فيه تجمدة ، فوجه به إليه هدية وكتب معه :

يا إماماً لا يُدَا * نيه إذا عدَّ إمامُ
فضّل الناس كما يقد * ضلّ نقصانا تامُ
قد بعثنا بجواد * مثله ليس يُرامُ
فرسٌ يزهي به لد * يحسن سرج وبلحامُ
دونه الخيل كما مش * ملك في الفضل الأنامُ

وجْههُ صُبْحٌ وَلَكِنْ * سائر الجِسمِ ظلامٌ
والَّذِي يَصْلُحُ لِلَّو * لَى عَلَى الْعَبِيدِ حَرَامٌ

وعمر هو القائل :

ومستعذب للهجر والوصل أعدب * أكامته حبي فينأى وأقرب
إذا جدت مني بالرضا جاد بالخفا * ويَزعمُ أني مُذنبٌ وهو أذنب
تعلمت ألوان الرضا خوف هجره * وعلمه حسي له كيف يغضب
ولى غير وجه قد عرفت طريقه * ولكن بلا قلب الى أين أذهب

ووقع مرة في ظهر رُقعة لرجل :

أعزز على بأمر أنت طالبه * لم يمكن النجح فيه وأتقضى أمدّه

ولعمرو بن مسعدة حكايات منها ما حكاها القاضي التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة :
قال عمرو بن مسعدة : كنت مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى إذا نزلت الرُقعة
قال : يا عمرو، ما ترى الرجحي قد احتوى على الأهواز، وهي سلة الخير وجميع المال قبله
وطمع فيها، وكتبه متصله بجلها، وهو يتعلل ويتربص بي الدوائر؟ فقلت : أنا أكفى
أمير المؤمنين هذا، وأنفذ من يضطره الى حمل ما عليه، فقال : ما يقنعني هذا، فقلت :
فيأمر أمير المؤمنين بأمره، فقال : فأنرج اليه بنفسك حتى تصفده بالحديد، فتحمله الى
بغداد وتقبض على جميع ما في يده من أموالنا، وتظفر في أعمالنا وترتب لها عمالا، فقلت :
السمع والطاعة، فلما كان في غد دخلت عليه فقال : ما فعلت فيما أمرتك به ؟ قلت :
أنا على ذلك، قال : أتريد أن تجيء في غد مودعا؟ قلت : السمع والطاعة، فلما كان
في غد جئته مودعا، فقال : أريد أن تحلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يوما واحدا،
فاضطربت من ذلك الى أن حضنتي وأستحلفني ألا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجت

(١) راجع (ج ٢ ص ٣٥ طبعة الهلال) . والعقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولاق) .

حتى قدمت بغداد ، فلم أقيم بها إلا ثلاثة أيام وآنحدرت في زلالي أريد البصرة وجعل لي في الزلالي خيش واستكثرت من الثلج لشدة الحر .

فلما صرت بين جرجان وجبل سمعت صوتا من الشاطئ يصيح : يا ملاح ، فرفعت سحيف الزلالي وإذا بشيخ كبير السن جالس حاسير الرأس حافي القدمين خلق التميميص ، فقلت للغلام : أجبه ، فأجابه ، فقال : يا غلام ، أنا شيخ كبير السن على هذه الصورة التي ترى ، وقد أحرقتني الشمس وكادت تلتفني ، وأريد جبل ، فاحملوني معكم فإن الله يحسن أجر صاحبكم ، قال : فشمته الملاح وأتهره ، فأدركتني رقة عليه وقلت : خذوه معنا ، فتقدمنا الشط وصحنا به وحملناه ، فلما صار معنا في الزلالي وآنحدرنا نتقدم فدفعت اليه قميصا ومندبلا وغسل وجهه واستراح وكأنه كان ميتا وعاد إلى الدنيا فحضر وقت الغذاء وتقدمت وقلت للغلام : هاتيه يا كل معنا ، بخاء وقعد على الطعام ، فاكل أكل أديب نظيف غير أن الجوع أثر فيه ، فلما رفعت المائدة أردت أن يقوم ويغسل يده ناحية كما تفعل العامة في مجالس الخاصة فلم يفعل ، فغسلت يدي وتذممت أن أمر بقيامه ، فقلت : قدموا له الطشت فغسل يده ، وأردت بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل ، فقلت : يا شيخ ، أي شيء صنعتك؟ قال : حائك أصلحك الله ، فقلت في نفسي : هذه الحياكة علمته سوء الأدب ، فتناومت عليه ومددت رجلي فقال : قد سألتني عن صناعتى وأنت أعزك الله ما صنعتك؟ فأكبرت ذلك وقلت : أنا جئت على نفسي هذه الجناية ولا بد من احتمالها ، أتراه الأحمق لا يرى زلالي وغلماي ونعمتي وأن مثل لا يقال له هذا! فقلت : كاتب ، فقال : كاتب كامل أم كاتب ناقص فإن الكتاب خمسة ، فأبهم أنت؟ فورد على قولك لثائك موردا عظيما وسمعت كلاما أكبرته وكنت متكئا بفلس ، ثم قلت : فصل الخمسة قال :

نعم ، كاتب نجاج يحتاج أن يكون عالما بالشروط والطسوت والحساب والمساحة والبشوق والفتسوق والرتوق . وكاتب أحكام يحتاج أن يكون عالما بالحلال والحرام

(١) في العقد الفريد : « بين دبر هرقل ودبر العاقول » .

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكاتبٌ مَعُونَةٌ يحتاج أن يكون عالماً بالقصاص والحدود والجراحات والمواثبات والسياسات . وكاتبٌ جَيْشٍ يحتاج أن يكون عالماً بِمُحَلِّي الرجال وَشِيآت الدوابِّ ومُدَاراة الأُولياء وشيئا من العلم بالنسب والحساب . وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عالماً بالصدور والفصول والإطالة والإيجاز وحُسْن البلاغة والخط ، قال : فقلت : إني كاتب رسائل ، قال : فأسألك عن بعضها ، قلت : قل ، فقال لي :

أصلحك الله ، لو أت رجلا من إخوانك تزوج أمك فأردت أن تكتبه مهنتا فكيف كنت تكتبه ؟ ففكرتُ في الحال فلم يخطر ببالي شيء ، فقلتُ : ما أرى للتهنئة وجهها ، قال : فكيف تكتب إليه تعزيه ففكرت فلم يخطر ببالي شيء ، فقلت : اعفني ، قال : قد فعلت ، ولكك لست بـكاتب رسائل ، قلت : أنا كاتب خراج ، قال : لا بأس ، لو أت أمير المؤمنين ولآك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضى حاجة السلطان فيتظلم اليك بعضهم من مسأحيك وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك ، خلف المسأح بالله العظيم لقد أنصفوا وما ظلموا ، وحلفت الرعية بالله إنهم لقد جاروا وظلموا ، وقالت الرعية : قف معنا على ما مسحوه وأنظر من الصادق من الكاذب ، فخرجت لتقف عليه ، فوقفوا على براح شكه قاتل قنا ، كيف كنت تمسحه ؟ قلت : كنت آخذ طولهُ على أنعراجه وعرضه ثم أضربه في مثله ، قال : إن شكل قاتل قنا أن يكون زاويته محدودتين وفي تحديده تقويس ، قلت : فأخذ الوَسَط فأضربه في العَرَض ، قال : إذا يئتي عليك العمود ، فأسكتني ، فقلت : ولست كاتب خراج ، قال : فإذا ما أنت ؟ قلت : أنا كاتب قاض ، قال : أرايت لو أت رجلا توفي وخلف امرأتين حاملتين إحداهما حرة والأخرى سريّة ، فولدت السريّة غلاما والحرة جارية ، فعادت الحرة الى ولد السريّة فأخذته ، وتركت بدله الجارية فاخصما في ذلك ، فكيف الحكم بينهما ؟ قلتُ : لا أدري ، قال : فلست بـكاتب قاض ، قلتُ : فانا كاتب جيش ، فقال : لا بأس ، أرايت لو أت رجلين جاءا اليك لتُحلّيهما وكل واحد منهما أسمه وأسم أبيه كاسم الآخر إلا أن أحدهما مشقوق الشفة العليا ، والآخر مشقوق

الشفة السفلى؟ كيف كنت تحليهما، قال : قلتُ : فلانُ الأفلح وفلان الأعمى، قال : إن رزقهما مختلفان وكل واحد منهما يجيء في دعوة الآخر، قلتُ : لا أدري، قال : فلست بكتاب جيش، قلتُ : أنا كاتب معونة، قال : لا تبالي، لو أت رجلين رُفعا اليك قد شجَّ أحدهما الآخر شجَّةً موضحةً^(١)، وشجَّ الآخر شجَّةً مأمونة، كيف كنت تفصل بينهما؟ قلتُ : لا أدري، قال : لست إذا كاتب معونة، اطلب لنفسك أيها الرجل شغلا غير هذا، قال : فصغرت إلى نفسي وغازني، فقلت : قد سألت عن هذه الأمور ويجوز ألا يكون عندك جوابها كما لم يكن عندي، فإن كنت عالما بالجواب فقل، فقال .

نعم، أما الذي تزوج أمك فتكتب إليه : أما بعد، فإن الأمور تجري من عند الله بغير محبة عباده ولا اختيارهم، بل هو تعالى يختار لهم ما أحب، وقد بلغني تزويج الوالدة خا الله لك في قبضها، وإن القبور أكرم الأزواج وأستر العيوب والسلام .

وأما براحُ قاتل قنا فتمسح العمود حتى إذا صار عددا في يدك ضربته في مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة .

وأما الجارية والغلامُ فيوزنُ لبنَ الاثنين، فأيهما كان أخف فالجارية له .

وأما الجنديان المتفقان الآسمين، فإن كان الشق في الشفة العليا قيل فلان الأعمى، وإذا كان في الشفة السفلى قلتُ فلان الأفلح .

وأما صاحبُ الشجتين فلصاحب الموضحةُ ثلثُ الدية، ولصاحب المأمونة نصف الدية، فلما أجاب بهذه المسائل تعجبت منه وامتحنته بأشياء كثيرة غيرها فوجدته ماهرا في جميعها حاذقا بليغا، فقلتُ : ألسنت زعمت أنك حائك، فقال : أنا أصلحك الله حائك كلام ولست بحائك نساجة، وأنشأ يقول :

مَا مَرَّ بؤْسٌ وَلَا نَعِيمٌ * إِلَّا وَلى فِيهِمَا نَصِيبٌ

فَذَقْتُ حُلُومًا وَذَقْتُ مَرًّا * كَذَلِكَ عَيْشُ الْفَقِي ضُرُوبٌ

نَوَائِبُ الدَّهْرِ أَدْبَتْنِي * وَإِنَّمَا يُوعَظُ الأَدِيبُ

(١) الموضحة : الشجة التي تبدي وضع العظام .

قلت : فما الذى بك من سوء الحال ؟ قال : أنا رجلٌ كاتبٌ دامت عُظْمَتِي ، وكَثُرَتْ
عَيْتِي ، وتواصلتِ مِحْنَتِي ، وَقَلَّتْ حِيلَتِي ، نَخَّرَجْتُ أَطَابُ تَصَرُّفاً فُقِطِعَ عَلَى الطَّرِيقِ فَصَرْتُ
كَمَا تَرَى ، فَمَشَيْتُ عَلَى وَجْهِى ، فَلَمَّا لَاحَ لَى الزَّلَالَى اسْتَعْنْتُ بِكَ ، قُلْتُ : فَإِنِ قَدْ خَرَجْتُ
إِلَى مُتَصَرِّفٍ جَلِيلٍ أَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى جَمَاعَةٍ مِثْلِكَ ، وَقَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِخَلْعَةٍ حَسَنَةٍ تَصْلُحُ لِمِثْلِكَ
وخمسة آلاف درهم تُصَالِحُ بِهَا أَمْرَكَ ، وَتُنْفِدُ مِنْهَا إِلَى عِيَالِكَ ، وَتُقَوِّى نَفْسَكَ بِبَاقِيهَا ،
وَتَصِيرُ مَعَى إِلَى عَمَلِي فَأَوْلِيكَ أَجَلَهُ ، فَقَالَ : أَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَكَ إِذَا تَجَدَّدْتَنِي بِمِثْلِ أَسْرِكَ ،
وَلَا أَقْوَمُ مَقَامَ مُعْذَرِ الْبَيْكِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَأَمَرْتُ بِتَقْيِيضِهِ مَا رَسَمْتُ لَهُ قَبْضَهُ ، وَانْحَدَرْتُ إِلَى
الْأَهْوَاذِ مَعَى ، فَجَعَلْتُهُ الْمُنَاطَرَ لِلرَّحْمَى وَالْمَحَاسِبِ لَهُ بِمُحَضَّرَتِي ، وَالْمُسْتَخْرَجِ لِمَا عَلَيْهِ ، فَقَامَ
بِذَلِكَ أَحْسَنَ قِيَامٍ وَعَظَّمْتُ حَالَهُ مَعَى ، وَعَادَتْ نِعْمَتُهُ إِلَى أَحْسَنَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ .

وفى عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي :

أَعْنَى عَلَى بَارِقِ نَاضِبٍ * خَفِيَّ كَوَحِيكَ بِالْحَاجِبِ
كَأَنَّ تَأَلَّقَهُ فِي السَّمَاءِ * يَدَا كَاتِبٍ أَوْ يَدَا حَاسِبِ
فَرَوَى مَنَازِلَ تَذْكَارُهَا * يَهِيَّجُ مِنْ شَوْقِكَ الْغَالِبِ
غَرِيبٌ يَحْتَبِ لِأَوْطَانِهِ * وَيَسْكِي عَلَى عَصْرِهِ الذَّاهِبِ
كَفَاكَ أَبُو الْفَضْلِ عَمْرُو النَّدَى * مَطَالَعَةَ الْأَمَلِ الْكَاذِبِ
وَصَدَقُ الرَّجَاءِ وَحُسْنُ الْوَفَاءِ * لِعَمْرُو بْنِ مَسْعَدَةَ الْكَاتِبِ
عَرِيضُ الْفِنَاءِ طَوِيلُ الْبِنَا * فِي الْعِزِّ وَالشَّرَفِ الشَّاقِبِ
بَنَى الْمَلِكُ طَوْدَهُ لَهُ يَتُّهُ * وَأَهْلُ الْخِلَافَةِ مِنْ غَالِبِ
هُوَ الْمَرْتَجَى لَصُرُوفِ الزَّمَانِ * وَمُعْتَصِمُ الرَّاغِبِ الرَّاهِبِ
جَوَادٌ بِمَا مَلَكَتْ كَفُّهُ * عَلَى الضَّيْفِ وَالْجَارِ وَالصَّاحِبِ
بُادِمُ الرِّكَابِ وَوَشِي الثِّيَابِ * بِِ الطَّرْفِ وَالطَّفَلَةِ الْكَاعِبِ
تَوَمَّلْهُ لِحَسَامِ الْأُمُورِ * وَرِجْوِهِ لِحَلَلِ الْكَارِبِ

خَصِيبُ الْجَنَابِ مَطِيرُ السَّحَابِ * بِشَيْمَتِهِ لَيْلُ الْجَنَابِ
 يُرَوِّى الْقَنَا مِنْ نَحْوِ الْعِدَا * وَيُغْرِقُ فِي الْجُودِ كَاللَّاعِبِ
 إِلَيْكَ تَبَدَّتْ بِأَكْوَارِهَا * حَرَجِيجُ فِي مَهْمِهِ لَاحِبِ
 كَأَنَّ نَعَامًا تَبَارَى بِنَا * بِوَابِلٍ مِنْ بَرْدِ عَاصِبِ
 يَرِدُنْ نَدَى كَفِّكَ الْمُرْتَجَى * وَيَقْضِينَ مِنْ حَقِّكَ الْوَاجِبِ
 وَلِلَّهِ مَا أَنْتَ مِنْ خَابِرِ * بِسَجَلٍ لِقَوْمٍ وَمِنْ خَارِبِ
 فَتَسْقَى الْعِدَا بِكُؤُوسِ الرَّدَى * وَتَسْبِقُ مَسْئَلَةَ الطَّالِبِ
 وَكَمْ رَاغِبٍ نَلْتَهُ بِالْعَطَا * وَكَمْ نَلْتَ بِالْعَطْفِ مِنْ هَارِبِ
 وَتِلْكَ الْخَلَائِقُ أُعْطِيَتْهَا * وَفَضْلٌ مِنَ الْمَانِعِ الْوَاجِبِ
 كَسَبَتْ الثَّنَاءَ وَكَسَبُ الثَّنَا * أَفْضَلُ مَكْسَبِةِ الْكَاسِبِ
 يَقِينُكَ يَجْلُو سِتْوَرَ الدُّجَى * وَظَنُّكَ يُخْبِرُ بِالْغَائِبِ

رسائل الجاحظ

رسالته في بني أمية

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ^(١) : أطال الله بقاءك ، وأتمّ نعمته عليك ، وكرامته لك . أعلم أرشد الله أمرّك ، أت هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، الى طبقاتٍ مُتفاوتة ، ومنازلٍ مختلفة : فالطبقة الأولى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، وستّ سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض ، مع الألفعة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولا بدعة فاحشة ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا حسد ولا غلّ ولا تأوّل ، حتى كان الذى كان : من قتل عثمان ، رضى الله عنه ، وما أنّتهك منه ، ومن خبّطهم إياه بالسلاح ، وبعج بطنه بالحرب ، وقرى أوداجه بالمشاقص ، وشدخ

(١) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى صاحب التصانيف المنتمية والرسائل المبدعة . وقد تقدّم الكلام عليه في المجلد الأوّل من هذا الكتاب (ص ٤٢١) .
ولد حوالى سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة ونشأ بها فتناول كل فن . ومارس كل علم عرف في زمانه مما وضع في الاسلام أو نقل عن الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة في دلم كل ما يقع عليه الحس أو يخطر بالبال فهو راوية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترسل . شاعر . مؤرخ . عالم بالحيوان والنبات والموات . وصاف لأحوال الناس ووجوه معاشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحياتهم إلا أنه غلب عليه أمران : الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة والأدب المزوج بالفلسفة والفكاهة فهو أوّل من ألف الكتب الجامعة لفتونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرها .

وكان غاية في الذكاء ودقة الحسّ وحسن الفراسة إلى دعاية فاشية ، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس انفسهم ويتحلونه من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية وعدم مبالاة بوقوع المتورّعين فيه . وكان سمحا جوادا كثير المواساة لإخوانه وكان على دمامة خلقه وتناقض خلقه خفيف الروح ، فكما المجلس ، غاية في الظرف وطيب الفكاهة وحلاوة الكلام وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم وأحد حجج اللسان العربى . توفى سنة ٢٥٥ هـ ببغداد بمقبرة الخيزران . وتجد ترجمته في معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٥٦ — ٨٠) وابن خلدون (ج ١ ص ٥٥٣) .
(٢) في الأصل : « المخلص » .

هامته بالعمد، مع كفه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك : من
 كم وجهه يجوز قتل من شهد الشهادة، وصلى القبلة، وأكل الذبيحة؛ ومع ضرب نسائه
 بحضرتها، وإخفاف الرجال على حرمة، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة عنه بيدها، حتى أطنوا^(٢)
 إصبعين من أصابعها، وقد كشفت عن قناعها، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رادعا لهم،
 وكاسرا من غرهم؛ مع وطئهم في أضلاعه بعد موته، وإلقائهم على المذيلة جسده مجزدا
 بعد سجنه، وهي الجزرة التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كُفْمًا لبناته وأياماه وعقائمه،
 بعد السب والتعطيش والحصر الشديد، والمنع من القوت، مع احتجاجه عليهم وإخامه لهم؛
 ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرام، كدم المؤمن، إلا من ارتد بعد إسلام، أو زنى
 بعد إحصان، أو قتل مؤمنا على عمد، أو رجل عدا على الناس بسيفه فكان في امتناعهم
 منه عطبه؛ ومع اجتماعهم على ألا يقتل من هذه الأمة، ولا يُجهز منها على جريح؛
 ثم مع ذلك كله ذمروا عليه وعلى أزواجه وحرمة وهو جالس في محرابه ومُصحفه يلوح
 في حجره، إن يرى أن موحدا يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله .

لأجرم لقد احتلبوا به دما لا تطير رغوته، ولا تسكن فورته، ولا يموت نائمه، ولا يكفل
 طالبه، وكيف يُضيع الله دم وآية، والمتقم له، وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا عليهما
 السلام، غلا غليانه، وقيل ساعفه، وأدرك بطائنه، وبلغ كل محبته، كدمه رحمة الله
 عليه .

ولقد كان لهم في أخذه، وفي إقامته للناس، والاقتصاص منه، وفي بيع ما ظهر من
 رباعه، وحدائقه، وسائر أمواله، وفي حبسه بما بقي عليه، وفي طمره حتى لا يُحس،
 بذكره، ما يُغنيهم عن قتله إن كان قد ركب كل ما قذفوه به، وأدعوه عليه، وهذا كله
 بحضرة جلّة المهاجرين والسلف المقدمين، والأنصار والتابعين .

(١) قال في شرح الزاموس : كل ما في العرب من هذا الاسم «فرافصة» فهو بضم الفاء الا فراصة أبا نائلة

فهو بالفتح لا غير . (٢) أطنوا : قطعوا . (٣) حض بعضهم بعضا عليه متبدين .

ولكنّ الناس كانوا على طبقاتٍ مختلفة، ومراتبٍ متباينة : من قاتلٍ ومن شادّ على
عضده، ومن خاذلٍ عن نصرته، والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحسن نيته، وإنما الشك
منافيه، وفي خاذله، ومن أراد عزله والاستبدال به؛ فأما قاتله، والمعين على دمه،
والمُرِيدُ لذلك منه، فضلالٌ لاشكّ فيهم، ومُراقٌ لامترأء في حكمهم؛ على أنّ هذا
لم يعد منهم الفجور : إماماً على سوء تأويل، وإماماً على تعمّد للشقاء، ثم ما زالت الفتن
متصلة، والحروب متردفة، كحرب الجمل، وكوقائع صفين، وكيوم النهروان، وقبل ذلك
يوم الزابوقة^(١)، وفيه أسرا بن حنيف، وقتل حكيم بن جبلة، إلى أن قتل أشقاها علي بن أبي
طالب رضوان الله عليه، فأسعد الله بالشهادة، وأوجب لقاتله النار واللعة؛ إلى أن كان من
اعتزال الحسن عليه السلام الحروب وتخلّيته الأمور، عند انتثار أصحابه، وما رأى من الخلل
في عسكره، وما عرف من اختلافهم على أبيه، وكثرة تلونهم عليه؛ فعندها استوى معاوية
على الملك، واستبدّ على بقية الشورى، وعلى جماعة المسلمين، من الأنصار والمهاجرين،
في العام الذي ستموه عام الجماعة، وما كان عام جماعة، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة،
والعام الذي تحوّلت فيه الإمامة ملكاً كسروياً، والخلافة غصباً قيصرياً، ولم يعد ذلك
أجمع الضلال والفسق. ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا، وعلى منازل مرتبنا، حتى
ردّ قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً مكشوفاً، وجمّد حكمه جمّداً ظاهراً، في ولد
الفرّاش وما يجب للعاهر، مع اجتماع الأمة أن تسميه لم تكن لأبي سفيان فراشاً، وأنه
إنما كان بها عاهراً. نخرج بذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار، وليس قتل حجر بن
عدي، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر، وبيعة يزيد الخليع، والاستئثار بالفئ،
واختيار الولاة على الهوى، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة، من جنس جمّد الأحكام
المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسّنن المنصوبة، وسواء في باب ما يستحق من الكفار
جمّد الكتاب، وردّ السنة إذا كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره، إلا أنّ أحدهما

(١) الزابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل أوّل النهار .

أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشد ، فهذه أول كفره ، كانت من الأئمة ، ثم لم تكن إلا فيمن يدعى إمامتها ، والخلافة عليها ؛ على أن كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره ، وقد أربت عليهم نابتة عصرنا ، ومبتدعة دهرنا ، فقالت : لا تسبوه ، فإن له حجة ، وسب معاوية بدعة ، ومن يبيغضه فقد خالف السنة ، فزعمت أن من السنة ترك البراءة ، ممن بجمد السنة ؛ ثم الذي كان من يزيد أبنه ، ومن عماله ، وأهل نصرته ، ثم غزو مكة ، ورمى الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام ، في أكثر أهل بيته ، مصابيح الظلام ، وأوتاد الإسلام ، بعد الذي أعطى من نفسه ، من تفريق أتباعه ، والرجوع إلى داره وحرمة ، أو الذهاب في الأرض ، حتى لا يُحسَّ به أو المُقام حيث أمر به ، فأبوا إلا قتله ، والتزول على حكمهم ، وسواء قتل نفسه بيده ، أو أسلمها إلى عدوه ، وخير فيها من لا يبرُد غليله إلا بشرب دمه ، فاحسبوا قتله ليس بكفر ، وإباحة المدينة ، وهتك الحرمة ، ليس بحجة ؛ كيف تقولون في رمي الكعبة ، وهدم البيت الحرام ، وقبلة المسلمين ؟ فإن قلتم ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا المتحزب به ، والمتحصن بحيطانه ، أفما كان في حق البيت وحرمة أن يحصروه فيه ، إلى أن يُعطى بيده ! وأى شيء بقي من رجل ، قد أخذت عليه الأرض إلا موضع قدمه ! واحسبوا ما رويوا عليه من الأشعار ، التي قولها شرك ، والتمثل بها كفرا ، شيئا مصنوعا ؛ كيف تصنع بنقر القضيب بين شينتي الحسين عليه السلام ، وحمل بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسر على الأفتاب العارية ، والإيل الصعاب ، والكشف عن عورة علي بن الحسين عند الشك في بلوغه ! على أنهم إن وجدوه ، وقد أنبت قتلوه وأن لم يكن أنبت حملوه ، كما يصنع أمير جيش المسلمين ، بذراري المشركين ؛ وكيف تقول في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته ، دعوني أقتله ، فإنه بقية هذا النسل ، فأحسب به هذا القرن ، وأميت به هذا الداء ، وأقطع به هذه المسادة !

خبرونا علام تُدل هذه القسوة ، وهذه الغلظة ! بعد أن شفوا أنفسهم بقتلهم ، ونالوا ما أحبوا فيهم ، أتدل على نصب ، وسوء رأي وحقد ، وبغضاء ونفاق ، وعلى يقين مدخوب

وإيمانٍ مخروج ! أم تدلّ على الإخلاص ، وعلى حبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والحفظ له ،
وعلى براءة الساحة وصحة السريرة ! فإن كان على ما وصفنا لا يعدو النسق والضلال ،
وذلك أدنى منازلها ، فالناسق ملعون ، ومن نهى عن نهى الملعون فلعون .

وزعمت نابتة عصرنا ، ومبتدعة دهرنا ، أن سبّ ولاية السوء فتنسة ، ولعن الجور
بدعة ، وإن كانوا يأخذون السميّ بالسميّ ، والوليّ بالوليّ ، والقريب بالقريب ، وأخافوا
الأولياء ، وأمنوا الأعداء ، وحكوا بالشفاعة والهوى ، وإظهار الغدرة والتهاون بالأمة ، والقمع
للزعيّة ، وأنهم في غير مداراة ولا تقيّة ، وإن عدا ذلك إلى الكفر ، وجاوز الضلال إلى الجحْد ،
فذلك أضلّ ممن كفّ عن شتمهم ، والبراءة منهم ، على أنه ليس من استحقّ اسم الكفر
بالقتل كمن استحقّه برّد السنة وهدم الكعبة ، وليس من استحقّ اسم الكفر بذلك كمن
شبهه الله بخلقه ، وليس من استحقّ الكفر بالتشبيه كمن استحقّه بالتجوّير ، والنابذة في هذا
الوجه أكفر من يزيد وأبيه ، وابن زياد وأبيه ، ولو ثبت أيضا على يزيد أنه تمثل بقول بن
الزبّري :

ليت أشياخي يبدير شهيدوا * جزع الخرزج من وقع الأسل
لاستطاروا واستهلّوا فرحاً * ثم قالوا يا يزيد لا تسل
قد قتلنا الغر من ساداتهم * وعدلناه ببدير فاعتدل

كان تجوير النابتي لربه ، وتشبيهه بخلقه ، أعظم من ذلك وأقطع ، على أنهم مجعون
على أنه ملعون من قتل مؤمنا ، متعمدا أو متاولا ، فإذا كان القاتل سلطانا جائرا ، أو أميرا
عاصيا ، لم يستحلّوا سبّه ، ولا خلعه ، ولا نفيه ، ولا عيبه ، وإن أخاف الصلحاء ، وقتل
الفقهاء ، وأجاع الفقير ، وظلم الضعيف ، وعطل الحدود والثغور ، وشرب الخمر ، وأظهر
الفجور ، ثم ما زال الناس يتسكعون مرّة ، ويدهنونهم مرّة ، ويقارونهم مرّة ، ويشاركونهم
مرّة إلا بقيّة ممن عصمه الله تعالى ذكره ، حتى قام عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ،

(١) نسبة الله إلى الجور .

وعاملهما الحجاج بن يوسف ، ومولاه يزيد بن أبي مُسَلِّم ، فأعادوا على البيت بالهدم ، وعلى حرم المدينة بالغزو ، فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحرم ، وحولوا قبلة واسط ، وأخروا صلاة الجمعة ، الى مُغَيَّرِ بَانَ الشمس ، فإن قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد أحرقت الصلاة عن وقتها ، قتله على هذا القول جهارا غير ختِل ، وعَلَانِيَةً غير سرّ ، ولا يُعَلَمُ القتل على ذلك إلا أقبَحَ من إنكاره ، فكيف يكفّر العبد بشيء ولا يكفّر بأعظم منه !

وقد كان بعض الصالحين ربّما وعظ الجبّارة ، وخوفهم العواقب ، وأراهم أنّ في الناس بقيةً يَنهَوْنَ عن الفساد في الأرض ، حتى قام عبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، فزجرا عن ذلك ، وعاقبا عليه ، وقتلا فيه ، فصاروا لا يَتَنَاهَوْنَ عن منكر فعلوه ؛ فاحسب تحويل القبلة كان غلطا ، وهدم البيت كان تأويلا ، واحسب ما رووا من كلّ وجه ، أنّهم كانوا يزعمون أنّ خليفة المرء في أهله أرفعُ عنده من رسوله اليهم ، باطلا ومسموعا مولدا ، واحسب وسمّ أيدي المسلمين ونقش أيدي المسلمات ، وردّهم بعد الهجرة الى قُراهم ، وقتل الفقهاء ، وسبّ أئمة الهدى ، والنّصب لِعِترَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكون كفرا ؛ كيف تقول في جمع ثلاث صلوات فينّ الجمعة ، ولا يُصَلُّونَ أوْلاهنّ ، حتى تصير الشمس على أعلى الجُدُران ، كالملاء المُعَصِّفَر ، فإن نطق مسلمٌ ، خُبطَ بالسيف ، وأخذته العمد ، وشكّ بالزّماح ، وإن قال قائل : اتق الله أخذته العِزّة بالإثم ، ثم لم يرَضْ إلا بنثر دماغه على صدره ، وبصلبه حيث تراه عياله ، ومما يدلّ على أنّ القوم لم يكونوا إلا في طريق التمرّد على الله عزّ وجلّ ، والاستخفاف بالدين ، والتهاون بالمسلمين ، والابتدال لأهل الحق ، أكلُ أمرائهم الطعام ، وشربهم الشراب على منابريهم أيام جمعهم وجموعهم ، فعَل ذلك حُبَيْش بن دُبَلْجَة ، وطارق مولى عثمان ، والحجاج بن يوسف ، وغيرهم ، وذلك إنّ كان كفرا كلّه فلم يسبلغ كفر نابتة

(١) يشير بذلك الى ماورد عن الحجاج انه قال في كلام له : ويحكم أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله اليهم ، يريد بذلك تفضيل مقام الخلافة على مقام الرسالة . وبمثل هذا رى الحجاج بالكفر وقد عقد ابن عبد ربه في العقد الفريد فصلا فيمن زعم ان الحجاج كان كافرا راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣

(٢) في الأصل : «حسن» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه كما في شرح القاموس والطبري .

عصرنا، وروافضٍ دهرنا ، لأن جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك . كان اختلاف الناس في القدر على أن طائفة تقول كل شيء بقضاء وقدر، وتقول طائفة أخرى كل شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي ، ولم يكن أحد يقول إن الله يعذب الأبناء ليغيظ الآباء، وإن الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان، مثل العمى والبصر، وكانت طائفة منهم تقول إن الله يرى، لا تزيد على ذلك، فإن خافت أن يُظن بها التشبيه قالت يرى بلا كيف تفرزا من التجسيم والتصوير، حتى ثبتت هذه النابذة، وتكلمت هذه الرافضة، فقالت جسيما، وجعلت له صورة وحدما، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير، ثم زعم أكثرهم أن كلام الله حسن وبين وحجة وبرهان، وأن التوراة غير الزبور، والزيور غير الانجيل، والانجيل غير القرآن، والبقرة غير آل عمران؛ وأن الله تولى تأليفه، وجعله برهانه على صدق رسوله، وأنه لو شاء أن يزيد فيه زاد، ولو شاء أن ينقص منه نقص، ولو شاء أن يبدله ببدله، ولو شاء أن ينسخه كله بغيره نسخه؛ وأنه أنزله تنزيلا، وأنه فصله تفصيلا، وأنه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلا هو، غير أن الله مع ذلك كله لم يخلق به فأعطوا جميع صفات الخلق، ومنعوا اسم الخلق .

والعجب أن الخلق عند العرب إنما هو التقدير نفسه، فلذا قالوا : خالق كذا وكذا، ولذلك قال : ((أَحْسِنُ الْخَالِقِينَ)) . وقال : ((وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا)) وقال : ((وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ)) فقالوا : صنعه وجعله وقدره، وأنزله وفصله وأحدثه، ومنعوا خلقه، وليس تأويل خلقه أكثر من قدره، ولو قالوا بدلا قولهم : قدره ولم يخلق خلقه ولم يقدره ما كانت المسألة عليهم إلا من وجه واحد؛ والعجب أن الذي منعه بزعمه أن يزعم أنه مخلوق، أنه لم يسمع ذلك من سلفه، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضا من سلفه أنه ليس بمخلوق، وليس ذلك بهم، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف، وعلى جهة تقطيع الحروف، وإعمال اللسان والشفقتين، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام، ولما كنا عندهم على غير هذه الصفة،

وكنا لكلامنا غير خالقين ، وجب أن الله عز وجل لكلامه غير خالق ؛ إذ كنا غير خالقين
لكلامنا ، فإنما قالوا ذلك ، لأنهم لم يحدوا بين كلامنا وكلامه فرقا ، وإن لم يُقرُّوا بذلك
بالسنتهم فذلك معناهم وقصدُهم .

وقد كانت هذه الأمة لا تجاوز معاصيها الإثم والضلال ، إلا ما حكيت لك عن بنى أمية ،
وبنى مروان ، وعمَّالهم ، ومن لم يَدنْ بِإِكْفَارِهِمْ حَتَّى نَجَمَتِ النُّوَابِتُ ، وتابعتها هذه العوام ،
فصار الغالبُ على هذا القرن الكفر ، وهو التشبيهُ والجبر ، فصار كفرهم أعظمَ من كفر من
مضى في الأعمال التي هي الفسق ، وشركاء من كفر منهم بتوليهم^(١) ، وترك إكفارهم ، قال
الله عز وجل من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وأرجو أن يكونَ اللهُ قد أغاثَ المُحِقِّينَ ، ورحمهم وقوى ضعفهم ، وكثر قلتهم ، حتى
صار ولاة أمرنا في هذا الدهرِ الصعبِ والزمنِ الفاسدِ أشدَّ استبصارا في التشبيه من
عليتنا ، وأعلم بما يلزم فيه منا ، وأكشَفَ للقناع من رؤسائنا ؛ وصاروا الناس وقد انتظموا
معان الفساد أجمع ، وبلغوا غاياتِ البدع ، ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالمٌ بعد
عالم ، والحمية التي لا تُبقي دينا إلا أفسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها ، وهو ما صارت إليه العجم
من مذهب الشعوبية ، وما قد صار إليه الموالى من الفخر على العجم والعرب ، وقد نجت
من الموالى ناجمة ، ونبتت منهم نابتة ، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربيا ، لقول النبي
صلى الله عليه وسلم : « مَوَالِي الْقَوْمِ مِنْهُمْ » ولقوله : « الْوَلَاءُ لِحُمَةِ الْكُلْحِمَةِ النَّسَبِ لَا لِإِيَاعِ
وَلَا يُوهَبِ » .

قال : فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب ،
ولما حوّل ذلك إلى العرب صارت العرب أشرف منهم ، قالوا : فتحن معاشر الموالى
بقديمتنا في العجم أشرف من العرب ، وبالحدِيثِ الذي صار لنا في العرب أشرف من العجم ،
وللعرب القديم دون الحديث ؛ ولنا حصلتان جميعا وافرتان فينا ، وصاحب الخصلتين

(١) كذا في الأصل ، ولعله : وصاروا شركاء الخ . (٢) معان فتح الميم والعين : المباءة والمنزل .

أفضل من صاحب الخصلة ، وقد جعل الله المولى بعد أن كان عجمياً عربياً بولائه ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشياً بحلفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان عجمياً عربياً ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن اسماعيل كان عربياً » ما كان عندنا إلا عجمياً لأن الأعمى لا يصير عربياً ، كما أن العربي لا يصير عجمياً ، وإنما علمنا أن اسماعيل صيره الله عربياً بعد أن كان عجمياً ، بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكم قوله « مولى القوم منهم » وقوله : « والولاء حمة » . قالوا : وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام أباً لمن لم يلد ، كما جعله أباً لمن ولد ، وجعل أزواج النبي أمهات المؤمنين ، ولم يلدن منهم أحدا ، وجعل الجار والد من لم يلد في قول غير هذا كثير قد أتينا عليه في موضعه ، وليس ادعى إلى الفساد ، ولا أجلب للشتم من المفاخرة ، وليس على ظهرها إلا نخور (الآ قليل) وأى شيء أعيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقتر أنه صار شريفاً بعثك إياه .

وقد كتبت — مد الله في عمرك — كتباً في مفاخرة حطان ، وفي تفضيل عدنان ، وفي رد المولى إلى مكانهم من الفضل والنقص ، وإلى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلاً بينهم ، وداعية إلى صلاحهم ، ومنبهة عليهم ولهم ؛ وقد أردت أن أرسل بالجزء الأول اليك ثم رأيت ألا يكون إلا بعد استئذانك ، واستئذارك ، والاتهاء في ذلك إلى رغبتك ، فأربك فيه موفق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .

وكتب الى بعض إخوانه في ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله حفظ من وقته للقناعة ، وأستعمله بالطاعة ؛ كتبت اليك وحالي حال من كثفت غمومه ، وأشكنت عليه أموره ، وأتستبه عليه حال دهره ، ونخرج أمره ، وقل عند من يثق بوفائه ، أو يحمده مغبة إخوانه ، لأستحالة زماننا ، وفساد أيامنا ، ودولة أندالنا ؛ وقدما كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق في قوله ، وآثر الحق في أموره ، ونبت المشتبهات عليه من شؤونه ، تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظ العافية ، وحمد مغبة مكروه

العاقبة ؛ فنظرنا إذ حال عندنا حكمه ، وتحولت دولته ؛ فوجدنا الحياء متصلا بالحرمان والصدق آفة على المال ، والقصد في الطلب بترك استعمال القحة ، وإخلاق العرض من طريق التوكل دليلا على سخافة الرأي ، إذ صارت الحظوة البالغة ، والنعمة السابغة ، في لؤم المشيئة ؛ وساء الرزق من جهة محاشاة الرخاء ، وملايسة معزة العار ؛ ثم نظرنا في تعقب المتعقب لقولنا ، والكاشر مجتنب ؛ فأقننا له علمها واضحها ، وشاهدا قائما ، ومتارا بيننا ؛ إذ وجدنا من فيه السفولية الواضحة ، والمثالب الفاضحة ، والكذب المبرح ، والخلف المصرح ، والجهاالة المفرطة ، والركاكة المستخفة ، وضعف اليقين والأستثبات ، وسرعة الغضب والجرأة ، قد أستكمل سروره ، وأعتدلت أموره ، وفاز بالسهم الأغلب ، والحظ الأوفر ، والقدر الرفيع ، والجواز الطائع ، والأمر النافذ ؛ إن زلَّ قيل حكم ، وإن أخطأ قيل أصاب ، وإن هدى في كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة من نسمة مباركة ؛ فهذه مجتنبنا والله على من زعم أن الجهل يخفيض ، وأن النوك يردى ، وأن الكذب يضر ، وأن الخلف يزرى ؛ ثم نظرنا في الوفاء والأمانة والنبل والبلاغة وحسن المذهب وكمال المروءة وسعة الصدر وقلة الغضب وكرم الطبيعة ، والفائق في سعة علمه ، والحاكم على نفسه ، والغالب لهواه ، فوجدنا فلان بن فلان ؛ ثم وجدنا الزمان لم ينصفه من حقه ، ولا قام له بوظائف قرضه ، ووجدنا فضائله القائمة له قاعدة ؛ فهذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح ، وأن الفضل قد مضى زمانه ، وعفت آثاره ، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده ؛ ووجدنا العقل يشقى به قريبه ، كما أن الجهل والحق يحظى به خديته ؛ ووجدنا الشعر ناطقا على الزمان ، ومُعربا عن الأيام حيث يقول :

تَحَامَقُ مَعَ الْحَقِّ إِذَا مَا لَقِيَتْهُمُ * وَلَا قِيَمَ بِالْجَهْلِ فَعَلَّ أَحْسَى الْجَهْلُ
وَحَلَّطَ إِذَا لَاقَيْتَ يَوْمًا مَخَلَّطًا * يُحَلِّطُ فِي قَوْلٍ صَحِيحٍ وَفِي هَزَلٍ
فَإِنِّي رَأَيْتَ الْمَرْءَ يَشْقَى بِعَقْلِهِ * كَمَا كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَسْعَدُ بِالْعَقْلِ

فَبَقِيْتُ — أَبْقَاكَ اللهُ — مَثَلٌ مِنْ أَصْبَحَ عَلَى أَوْفَازٍ، وَمِنْ النُّقْلَةِ عَلَى جِهَازٍ، لَا يَسْوَعُ لَهُ نِعْمَةٌ، وَلَا تَطْعَمُ عَيْنُهُ غَمَضَةً، فِي أَهْوَائِلَ يَبَايِرُهُ مَكْرَهُهَا، وَيُرَاوِحُهُ عَقَائِبُهَا، فَلَوْ أَنَّ الدُّعَاءَ أُجِيبَ، وَالتَّضَرُّعَ مُبْعٍ، لَكَانَتِ الْعِدَّةُ الْعِظْمَى، وَالرَّجْفَةُ الْكَبْرَى؛ فَلَيْتَ أَىْ أُنْحَى مَا أَسْتَبَطْتَهُ مِنَ النَّفْحَةِ، وَمِنْ بَقَاةِ الصَّيْحَةِ، قُضِيَ لِحَانَ، وَأُذِنَ بِهِ فَكَانَ؛ فَوَاللَّهِ مَا عُدَّتْ أُمَّةٌ بَرَجْفَةً، وَلَا رِيحٌ وَلَا سَخَطَةٌ، عَذَابَ عَيْنِي بِرُؤْيَةِ الْمُغَايِظَةِ الْمُدْمِنَةِ، وَالْأَخْبَارِ الْمَهْلِكَةِ، كَأَنَّ الزَّمَانَ يُوَكَّلُ بَعْدَابِي، أَوْ يُنْصَبُ بِأَيْمِي، فَمَا عَيْشٌ مِنْ لَا يُسَرِّبُ أَخَ شَفِيقٍ، وَلَا يَصْطَبِحُ فِي أَوَّلِ نَهَارِهِ، إِلَّا بِرُؤْيَةٍ مِنْ يَكْرَهُهُ، وَيَغْمَهُ بِطَلْعَتِهِ؛ فَقَدْ طَالَتِ الْعُمَةُ، وَوَاظَبَتِ الْكُرْبَةُ، وَأَدْلَهَمَتِ الظُّلْمَةُ؛ وَتَبَاطَأَ الْإِنْفِرَاجُ .

وصف الجاحظ لقريش وبنى هاشم

قَدْ عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ كَرُمُ قُرَيْشٍ وَسَخَاؤُهَا، وَكَيْفَ عَقُولُهَا وَدَهَائُهَا؛ وَكَيْفَ رَأْيُهَا وَذِكَاؤُهَا، وَكَيْفَ سِيَاسَتُهَا وَتَدْبِيرُهَا؛ وَكَيْفَ إِيجَازُهَا وَتَحْسِيرُهَا، وَكَيْفَ رَجَاحَةُ أَحْلَامِهَا إِذَا خَفَّ الْحَلِيمُ، وَحِدَّةُ أَذْهَانِهَا إِذَا كَلَّ الْحَدِيدُ؛ وَكَيْفَ صَبْرُهَا عِنْدَ الْإِقْدَاءِ، وَثَبَاتُهَا فِي الْأَوَاءِ؛ وَكَيْفَ وَفَاؤُهَا إِذَا أَسْتَحْسَنَ الْغَدْرُ؛ وَكَيْفَ جُودُهَا إِذَا حُبَّ الْمَالُ؛ وَكَيْفَ ذِكْرُهَا لِأَحَادِيثِ غَدٍ، وَقَلَّةُ صَدُودِهَا عَنِ جِهَةِ الْقَصْدِ؛ وَكَيْفَ إِقْرَارُهَا بِالْحَقِّ وَصَبْرُهَا عَلَيْهِ؛ وَكَيْفَ وَصْفُهَا لَهُ وَدُعَاؤُهَا إِلَيْهِ؛ وَكَيْفَ سِمَاحَةُ أَخْلَاقِهَا، وَصَوْنُهَا لِأَعْرَاقِهَا؛ وَكَيْفَ وَصْلُهَا قَدِيمَهُمْ بِجَدِيثِهِمْ، وَطَرِيفَهُمْ بِتَلِيدِهِمْ؛ وَكَيْفَ أَشْبَهَ عَلَائِيَّتَهُمْ سُرَّهُمْ، وَقَوْلَهُمْ فَعْلُهُمْ، وَهَلْ سَلَامَةُ صَدْرِ أَحَدِهِمْ إِلَّا عَلَى قَدْرِ بُعْدِ غَدِيرِهِ، وَهَلْ غَفْلَتُهُ إِلَّا فِي وَزْنِ صِدْقِ ظَنِّهِ، وَهَلْ ظَنُّهُ إِلَّا كَيْفِيْنَ غَيْرِهِ .

(١) أَىْ عَلَى سَفَرٍ .

وكتب في الاعتذار :

أما بعد فنعلم البديل من الزلة الاعتذار، وبئس العوض من التوبة الإصرار، وإن أحق من عطفته عليه بحلمك من لم يستشفع إليك بغيرك، وإني بمعرفتي بمبلغ حلمك وغاية عفوك، ضمنت لنفسى العفو من زلتها عندك، وقد مسني من الألم ما لم يسفه غير مواسلتك .

وله في الاستعطاف :

ليس عندي أعزك الله سبب ولا أقدر على شفيع إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذي لا يكون إلا من نتاج حسن الظن وإثبات الفضل بحال المأمول وأرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خير معتب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سببا للانقطاع إليكم والكون تحت أجنحتكم، فيكون لا أعظم بركة، ولا أتمى بقية من ذنب أصبحت فيه، وبمثلك - جعلت فداك - عاد الذنب وسيلة، والسيدة حسنة، ومثلك من أقلب به الشر خيرا والغرم غنا .

من عاقب فقد أخذ حظه، وإنما الأجر في الآخرة، وطيب الذكر في الدنيا، على قدر الاحتمال وتجرع المرائر وأرجو، ألا أضيع وأهلك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعفو ممن صغر ذنبه وعظم حقه، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحرمة، وإن كان العفو عظيما مستطرفا من غيركم فهو تلاحد فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أتم عن ذلك تتكلمون، ولا على سالف إحسانكم تندمون، وما مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يمر بملا من بني إسرائيل إلا أسمعوه شرا وأسمعهم خيرا، فقال له شمعون الصفا : ما رأيت كالذي سمعوك شرا أسمعهم خيرا فقال : كل أمرئ ينفق مما عنده وليس عندكم إلا الخير ولا في أوعيتكم إلا الرحمة " وكل إناء بالذي فيه ينضح " .

وله في ذم الحسد :

الحسد — أبقاك الله — داء ينهك الجسد ، علاجه عسير وصاحبه صَّيِّر وهو باب غامض ، وما ظهر منه فلا يُداوى وما بطن منه فداويه في عناء ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دَبَّ اليكم داءُ الأمم من قبلكم : الحسدُ والبغضاء » . الحسد عَقِيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق منه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رَحم من الأقرباء ومُحْدِث التفرق بين القرناء ، وملقح الشرِّ بين الحلفاء .

دفاع الجاحظ عن مؤلفاته :

(١) وقد ذكر الجاحظ جلَّ مؤلفاته في كتاب "الحيوان" ودافع عنها بعد أن وصفها فقال :
جَنَّبَكَ اللهُ الشَّبهَةَ ، وَعَصَمَكَ مِنَ الحَيْرَةِ وجعل بينك وبين المعرفة نَسَبًا ، وبين الصدق سَبَبًا ، وَحَبَّبَ اليك التَّهَبُّتَ ، وَزَيَّنَ في عينك الإِنصَافَ ، وَأَذَاقَكَ حَلَاوَةَ التَّقْوَى ، وَأَشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الحَقِّ ، وَأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ اليقين ، وَطَرَدَ عَنكَ ذُلَّ الطَّمَعِ ، وَعَرَفَكَ مَا في الباطل مِنَ الذَّلَّةِ ، وَمَا في الجهل مِنَ القِلَّةِ ، وَلَعَمْرِي لقد كان غيرُ هذا الدعاء أَصَوَّبَ في أمرك ، وَأَدَلَّ على مِقْدَارِ وَزْنِكَ ، وَعَلَى الحَالِ التي وَضَعْتَ نَفْسَكَ فيها ، وَوَسَّمْتَ عِرْضَكَ بها ، وَرَضِيَتْهَا لَدِينِكَ حَقًّا ، وَلَمُرُوءَتِكَ شُكْلًا ؛ فقد انتهى إلى مَيْلِكَ على أَبِي إسْحَاقَ ، وَحَمَلْتُكَ على ، وَطَعْنُكَ على مَعْبَدٍ ، وَتَقَصُّصُكَ له في الذي كان جرى بينهما في مَسَاوِي الدِيكِ وَمَحَاسِنِهِ ، وَفي ذِكْرِ مَنَافِعِ الكَلْبِ وَمَضَارِهِ ؛ والذي خرجا إليه من أَسْتِقْصَاءِ ذلك وَجَمِيعِهِ ، وَمِنْ تَبِعِهِ وَنَظْمِهِ ، وَمِنْ المَوَازِنَةِ بينهما ، وَالْحُكْمِ فِيهِمَا .

ثم عِبْتِي بِكُتَابِ حَيْلِ اللُّصُوصِ ، وَكُتَابِ غِشِّ الصَّنَاعَاتِ ؛ وَعِبْتِي بِكُتَابِ المَلْحِ وَالطَّرْفِ ، وَمَا حَرَّ مِنَ النُّوَادِرِ وَبَرْدُ ، وَعَادَ بَارِدُهَا حَارًّا بِفِرْطِ بَرْدِهِ ، حَتَّى أَمْتَعَ بِأَكْثَرِ مِنَ أَمْتَاعِ الحَارِّ ؛ وَعِبْتِي بِكُتَابِ أَحْتِجَاجَاتِ البُخْلَاءِ ، وَمِنَاقِضَتِهِمْ لِلشَّمْعَاءِ ، وَالقَوِيَّ في الفَرْقِ بَيْنَ

(١) اعتمدنا في تصحيح هذه الفصول على الأصل الفتوغرافي المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥

آداب ، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بمطبعة السعادة بمصر في غاية التجريف وملأها بالأخطاء .

الصدق اذا كان ضارا في العاجل ، والكذب اذا كان نافعا في الآجل ، ولم جعلنا الصدق أبدا محمودا ، والكذب أبدا مذموما ، والفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة ، وبين الإفراط في الحمية والأثفة ، وبين التقصير في حفظ حق الحرمة ، وقلة الأكتراث بسوء القالة ؛ وهل الغيرة آكتساب وعادة ، وبعض ما يعرض من جهة الديانة وبعض التريث فيه والتحسن به ، أو يكون ذلك شيئا في طبع الحرية وحقيقة الجوهرية ، ما كانت العقول سليمة ، والافات متفية ، والأخلاق معتدلة ؛ وعبثي بكتاب الصرحاء والهجناء ، ومفاخرة السودان والمجران ، والموازنة بين حق الخوولة والعمومة ؛ وعبثي بكتاب الزرع والنخل ، والزيتون والأعناب ، وأقسام فضول الصناعات ، ومراتب التجارات ؛ و بكتاب فضل ما بين الرجال والنساء ، وفرق ما بين الذكور والإناث ، وفي أى موضع يغلب ويفضل ، وفي أى موضع يكتف المغلوبات والمفضولات ، ونصيب أيهما في الولد أوفر ، وفي أى موضع يكون حقهن أوجب ، وأى عمل هو بهن أليق ، وأى صناعة هن فيها أبلغ ؛ وعبثي بكتاب الفحطانية وكتاب العدنانية في الرد على الفحطانية ، وزعمت أنى تجاوزت فيه حد الحمية ، الى حد العصبية ، وأنى لم أصل الى تفضيل العدنانية إلا بتقص الفحطانية ؛ وعبثي بكتاب العرب والموالى ، وزعمت أنى بحست الموالى حقوقهم ، كما أنى أعطيت العرب ما ليس لهم ؛ وعبثي بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أن القول فى فرق ما بين العرب والعجم هو القول فى فرق ما بين الموالى والعرب ، ونسبتى الى التكرار والترداد ، والى التكنير والجهل بما فى المعاد من الخطل ، وحمل الناس المؤمن ؛ وعبثي بكتاب الأصنام ، وبذكر اعتلالات الهند لها ، وسبب عبادة العرب إياها ، وكيف آختلفا فى جهة العلة مع اتفاقهما على جملة الديانة ، وكيف صار عباد البددة والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة ، والأصنام المنجورة ، أشد الناس إلفا لما دانوا به ، وشعفا بما تعبدوا له ، وأظهرهم جدا ، وأشدهم على من خالفهم ضغنا ، وبما دانوا صباة وعجبا ، وما الفرق بين البد والوثن ، وما الفرق بين الوثن والصنم ، وما الفرق

(١) البددة جمع بد ، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم نسة كما قال ابن دريد .

بين الذميمة والجليلة ، ولم صوروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم صور عظامهم ورجال دعوتهم ، ولم تأتوا في التصوير ، وتجردوا في إقامة التركيب ، وبالغوا في التحسين والتفخيم ، وكيف كانت أولية تلك العبادات ، وكيف افتقرت تلك النحل ، ومن أى شيء كانت خدع تلك السدنة ، وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عددا ، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناس المختلفة !

وعبثت بكتاب المعادن ، والقول في جواهر الأرض ، وفي اختلاف أجناس الفلزات ، والإخبار عن ذائبها وجامدها ، ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يسرع الانقلاب الى بعضها ويبطئ عن بعضها ، وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ ، وبعضها يصبغ وينصبغ ، وما القول في الإكسير والتلطيف ، وعبثت بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس ، وبكتاب فرق ما بين الجن والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجن ، وكيف القول في معرفة الهدد وأسطة العفريت ، وفي الذى كان عنده علم من الكتاب ، وما ذلك العلم ، وما تأويل قولهم : كان عنده اسم الله الأعظم ، وعبثت بكتاب الأوقاف والرياضات ، وما القول في الأرزاق والإنفاقات ، وكيف أسباب التثمير والترقيح^(١) وكيف تجتلب التجار الحرفاء ، وكيف الاحتيال للودائع ، وكيف التسبب إلى الوصايا ، وما الذى يوجب لهم التعديل ، ويصرف اليهم باب حسن الظن ، وكيف ذكرنا غش الصناعات والتجارات ، وكيف التسبب الى تعرف ما قد سترتوا ، وكشف ما مؤهوا ، وكيف باب الاحتراس منه والسلامة من أهله ! . وعبثت برسائلى ، وبكل ما كتبت به الى إخوانى وخطابى من مزح وجد ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تغافل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال وشمه باقيا ، ومدح لا يزال أثره ناميا ، ومن ملح ، تضحك ، ومواعظ تبكى ، وعبثت برسائلى الهاشميات ، وأحتجاجى فيها ، وأسقصائى معانيها ، وتصويرى لها فى أحسن صورة ، وإظهارى لها فى أتم حلية ، وزعمت أنى قد خرجت بذلك من حد المعترلة الى حد الزيدية ،

(١) التثمير والترقيح : نمو المال وإصلاحه .

ومن حدّ الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الى حدّ السرف والإفراط فيه، وزعمت أن مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة، ومقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية، وزعمت أن في أصل القضية، والذي جرت عليه العادة أن كلّ كبير فأوله صغير، وأن كلّ كبير فإنما هو قليل. جمع الى قليل، وأنشدت قول الراجز:

قد يَلْحَقُ الصَّغِيرُ بِالْجَلِيلِ * وَإِنَّمَا الْقَرْمُ مِنَ الْأَيْفِيلِ^(١)

* وَيُحَقُّ النَّخْلُ مِنَ الْفَيْسِيلِ *

وأنشدت قول الشاعر:

رُبَّ كَبِيرٍ هَاجَهُ صَغِيرٌ * وَفِي الْبُحُورِ تَفَرَّقَ الْبُحُورُ

وقلت وقال يزيد بن الحكم:

وَأَعْلَمُ بِنِيِّ فَإِنَّهُ * بِالْعِلْمِ يَنْتَفِعُ الْعَلِيمُ

إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقُهَا * مِمَّا يَبِيحُ لَهُ الْعَظِيمُ

وقلت وقال الآخر:

صَارَ جِدًّا مَأْمَرَحَتْ بِهِ * رُبَّ جِدٍّ سَاقَهُ اللَّعْبُ

وأنشدت قول الآخر وهو عترة^(٢):

مَا تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةٍ فِيكُمْ * تُقْضَى الْأُمُورُ وَرَهْطُ وَرْدَةٍ غَيْبُ

قَدْ يَبْعَثُ الْأَمْرَ الْكَبِيرَ صَغِيرُهُ * حَتَّى تَطْلُلَ لَهُ الدَّمَاءُ تَصَبُّبُ

وقالت كَبْشَةُ بِنْتُ مَعْدِيكَرْبَ:

جَدَّعْتُمْ بَعْبُدَ اللَّهِ أَنْفَ قَوْمِهِ * بَنِي مَازِنٍ أَنْ سُبَّ رَاعِيِ الْمُخَزَّمِ

وقال الآخر:

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ * وَأَيُّ جِدٍّ بَلَغَ الْمَازِحُ

(١) الأيفيل: صنفر الإبل.

(٢) والصواب أن البيتين لطفه وهما من جملة أبيات في ديوانه.

وتقول العرب : « العَصَى من العُصْبَةِ ولا تَلِدُ الحَيَّةَ إلا حَيَّةً » ؛ وعبت كتابي في خَلْقِ القرآن ، كما عبث كتابي في الرد على المُشَبَّهَةِ ؛ وعبث كتابي في أصول الفُتْيَا والأحكام ، كما عبث كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه ؛ وعبث مُعَارَضِي الزُّبَيْدِيَّةِ ، وتفضيلي الاعتِرَالِ على كُلِّ نِحْلَةٍ ، كما عبث كتابي في الوعد والوعيد ، وكتابي على النصارى واليهود ؛ ثم عبث جُمْلَةَ كُتُبِي في المعرفة ، وأتمست تهجينها بكلِّ حِيلَةٍ ، وصغرت من شأنها ، وحطَّطت من قدرها ، واعترضت على ناصحها والمتفيعين بها .

وعبث كتاب الجوابات وكتاب الرسائل ، وكتاب الرد على أصحاب الإلهام ، وكتاب الحجَّة في تثبيت نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكتاب الأخبار ؛ ثم عبث كتابي إنكارى بِصِيْرَةِ غَنَامِ الْمُرتَدِّ ، وبصيرة كُلِّ جاحد ومُؤلِّد ، وتفريق بين آعترام الغمرو وبين آستبصار المُحِقِّ ؛ وعبث كتاب الرد على الجَهْمِيَّةِ في الإدراك ، وفي قولهم في الجهالات ، وكتاب الفرق ما بين النبيِّ والمُنْتَبِيِّ ، والفرق بين الحيل والمخاريق ، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام القاهرة ؛ ثم قصدت الى آبِي هَذَا بالتصغير لقدره ، والنهجين لَنظْمِهِ ، والآعتراض على لفظه ، والتحقير لمعانيه فزَرَيْتُ على نَحْتِهِ وسبكه ، كما زَرَيْتُ على معناه ولفظه ، ثم طعنت في الغرض الذي اليه تَزَعْنَا ، والغاية التي اليها أُجْرِنَا ، وهنا كتاب معناه أنه من آسمه ، وحقيقته آتق من لفظه ، هو كتاب يحتاج اليه المتوسِّط العَامِي ، كما يحتاج اليه العالم الخاصي ، ويحتاج اليه الرِيض ، كما يحتاج اليه الحاذق .

أما الرِيض فللَتَّعَلُّمِ والدَّرْبَةِ ، وللترتيب والرياضة ، وللتمرين وتمكين العادة ، اذ كان جليله يتقدَّم دقيقه ، واذا كانت مُقَدِّمَاتُهُ مُرتَبَةً ، وطبقات معانيه مُترتَّبَةً ؛ وأما الحاذق فلِكِفَايَةِ المُوَوَّنَةِ ، ولأنَّ كُلَّ مَنْ التَّقَطَّ كِتَابًا جامعا ، وبابا من أمهات العلم مجموعا كان له غنمه ، وعلى مُؤَلِّفِهِ غُرْمُهُ ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كَدُّهُ ، مع تَعَرُّضِهِ لمطاعن البُغَاةِ ، ولاعتراض

(١) الغمر مثلثة العين : من لم يجرب الأمور ، والجاهل الأبله .

(٢) أُجْرِنَا : قصدنا .

المنافسين ، ومع عَرْضِهِ عقله المَكْدُودَ على العقول الفارغة ، ومعانيه على الجَهَابِذَةِ ، وتَحْكِيمِهِ فيه المتأولين والحَسَدَةِ ، ومتى ظفر بمنله صاحب علم ، أو هجم عليه طالب فقه ، وهو وادع رَأْفَهُ ، ونشيط جام ، ومؤلفه مُتَعَبٌ مكدود ، فقد كُنِيَ مؤونة جمعه ، وخزنه وتبعه ، وطلبه ، وأغناه ذلك عن طُولِ التفكير ، واستنفاد العمر ، وفَلِ الحَدِّ ، وأدرك أَفْصَى حاجته ، وهو يُجْتَمَعُ القُوَّةُ ، وعلى أن له عند ذلك أن يجعل هُجُومَهُ عليه ضرباً من التوفيق ، وظفره به باباً من التسديد .

(وهذا كتاب) تستوى فيه رَغْبَةُ الأُمَمِ ، وتَشَابُهُهُ فِيهِ العَرَبُ والعِجَمُ ، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً ، وإسلامياً إجماعياً ، فقد أخذ من طَرَفِ الفِلسَفَةِ ، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة ، ويشتميه الفتيان كما يشتميه الشيوخ ، ويشتميه الفاتك كما يشتميه الناسك ، ويشتميه اللاعب ذو اللهو كما يشتميه الجدِّي ذو الحزم ، ويشتميه العُفْلُ كما يشتميه الأديب ، ويشتميه الغبي كما يشتميه الفطن ؛ وعبتني بحكاية قول العثمانية والضَّرارية وأنت تسمعتني أقول في أول كتابي : وقالت العثمانية والضَّرارية ، وكما سمعتني أقول : وقالت الراضية والزَيْدِيَّةُ ، فحكمت على بالنصب لحكايتي قول العثمانية ، فهلاً حكمت على بالتشيع لحكايتي قول الراضية ، وهلاً كنتُ عندك من الغالية لحكايتي مُجِجِ الغالية ، كما كنتُ عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة ، وقد حكينا في كتابنا قول الإباضية والصُفْريَّةِ ، كما حكينا أقاويل الأزارقة والنجديَّةِ ، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنِيَتِ الخارجية ، وكل أسم سواها فإنما هو فرع ونتيجة وأشتقاق منها ، ومحمول عليها ، فهلاً كآ عندك من المحكمة الخارجة ، كما صرنا عندك من الضَّرارية ، والناصبة ! وكيف رضيت بأن تكون الشيعة الى أعراض الناس أسرع من المارقة ! اللهم إلاً أن تكون وجدت حكايتي عن العثمانية والضَّرارية أشبع وأجمع ، وأتم وأحكم وأجود صنعةً ، وأبعد غايةً ، ورأيتني قد وهنتُ حقَّ أوليائك بقدر ما قويتُ باطل أعدائك ، ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدك من الكتاب حاضراً ، وبرهانك على ما آذعتُ واضحاً .

وعبتي بكتاب العباسية فهلا عبتي بحكاية مقالة من ادعى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سدى بلا قيم أرد عليهم ، وهملا بلا راج أريح لهم ، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل ، وغنيمة الآجل ، وأن تركهم نَشْرًا لانظام لهم أبعدهم من المفسد ، وأجمع لهم على المرشد! بل ليس ذلك بك ، ولكنه لما بهرك ما سمعت ، وملا صدرك الذي قرأت ، وأبعلك وأبطرك فلم نتجه للحجة وهي لك معرضة ، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية ، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد ؛ ورأيت أن سب الأولياء أشقى لدائك ، وأبلغ في شفاء سقمك ؛ ورأيت أن إرسال اللسان أحضر لذة ، وأبعد من النصب ، ومن إطالة الفكرة ، ومن الاختلاف الى أرباب هذه الصناعة ؛ ولو كنت حين فطنت لعجزك وصلت نقصك بتمام غيرك ، وأستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحبيس على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزين في العاجل ، وأحق بالمشوبة في الآجل ، وكنت إن أخطأتك الغنيمة لم تُحطِّثك السلامة ، ولقد سلم عليك المخالف ، بقدر ما أبتلى به منك الموافق ؛ وعلى أنه لم يُبتل منك إلا بقدر ما أزمته من مؤونة تنيفك ، والتشاغل بتقويمك ؛ وهل كنت في ذلك إلا كما قال العربي : * وهل يضر السحاب نبح الكلاب * ؟ وإلا كما قال الشاعر :

هل يضر البحر أمسى زانرا * أن رمى فيه غلامٌ بحجر

وهل حالنا في ذلك إلا كما قال الأول :

ما ضر تغلب وائل أهجوتها * أم بلت حيث تناطح البحران

وقال حسان :

ما أبالي أنب بالحزن تيس * أم لحاني بظهر غيب لئيم

وما أشك أنك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك ، ووجهت حملنا عنك الى الخوف منك ، وقد قال زفر بن الحارث لبعض من لم يرحق الصفح بفعل العفو سببا الى سوء القول :

فإن عُدت والله الذي فوق عرشه * مَنَحْتُكَ مَسْنُونَ الْغَرَارِينَ أَرْقَا
فإن دواء الجهل أن تُضْرَبَ الطَّلِي^(١) * وَأَنْ يُغَمَّسَ الْعَرِيضُ حَتَّى يُغْرِقَا^(٢)

وقال الأول :

وما نفي عنك قوما أنت خائفهم * كَمِثْلِ وَفِيكَ جُهَالًا بِجِهَالِ
فانعس إذا حدبوا وأحدب إذا قعسوا * وَوَازِينَ الشَّرِّ مِثْقَالًا بِمِثْقَالِ

وقال الآخر :

وضغائن دوايتها بضغائين * حَتَّى يَمْتَنَّ بِالْحُقُودِ حُقُودًا

وإني وإن لم يكن عندي سنان زُفَرِّ بن الحارث، ولا معارضة هؤلاء : الشرّ بالشرّ،
والجهل بالجهل، والحدّ بالحدّ، فإن عندي ما قال المسعودي :

فَمَسَا تَرَابَ الْأَرْضِ مِنْهَا خُلِقْتُمَا * وَفِيهَا الْمَعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْحَشِيرِ
وَلَا تَعْجَبَا أَنْ تَرَجِعَا فَمَسَلَمَا * فَمَا حُشِيَ الْأَقْوَامُ شَرًّا مِنَ الْكِبَرِ
فَلَوْ شِئْتُ أَدْلَى فَيْكُمَا غَيْرُ وَاحِدٍ * عَلَانِيَةً أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي سِتْرِ
فَإِنِّ أَنَا لَمْ أَمْرٌ وَلَمْ أَنَّهُ عِنَّا * ضَحِكْتُ لَهُ حَتَّى يَلِجَ وَيَسْتَشْرِى^(٣)

وقال التمر بن تولب :

جرى الله عنى حمزة بن نوفل * جَزَاءَ مُغَلِّ بِالْأَمَانَةِ كَاذِبِ
بما خبرت عنى الوشاة ليكذبوا * عَلَى - وَقَدْ أُولِيَتْهَا فِي النَّوَائِبِ

يقول : أخرجت خبري الى من يشتهي أن أعاب عندها .

ولو شئنا لعارضناك من القول بما هو أقبح أثرا، وأبغى وشما، وأصدق قبلا، وأعدل
شاهدا، وليس كل من ترك المعارضة فقد صفح، كما أنه ليس كل من تارض فقد انتصر،

(١) الطلي : الأعناق .

(٢) العريض : الذي يتعرض للناس بالشر .

(٣) كذا في الأصل ، وفي اللسان في مادة بلجج : تضحكت حتى يلاج ويستشري .

وقد قال الشاعر قولاً إن فهمته كَفَيْتَنَا مَوْوَنَةَ المَعَارِضَةِ ، وكَفَيْتَ نَفْسَكَ لُرُومِ العَارِ ، وهو قوله :

إِنْ كُنْتَ لَا تَرَهَّبُ ذَمِّي لِمَا * تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الجَاهِلِ
فَاخْشَ سَكَوِي آذِنًا مُنْصَتًّا * فَيْكَ لِمَسْمُوعِ خَنَا القَائِلِ
فَالسَامِعُ الذَّمَّ مُقْتَرَبَهُ * كَالْمَطْعَمِ المَاكُولَ لِلاَّكْلِ
مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أهْلِهَا * أَسْرَعُ مِنْ مُنْجِدِ سَائِلِ
وَمَنْ دَعَى النَّاسَ إِلَى دَمِهِ * ذَمُّهُ بِالحَقِّ وَبِالبَاطِلِ
فَلَا تَهْجُ إِنْ كُنْتَ ذَا إِرْبِيَّةٍ * حَرْبَ أَيْحَى التَّجْرِيَةِ العَاقِلِ
فَإِنَّ ذَا العَقْلِ إِذَا هَجَّتْهُ * هَجَّتْ بِهِ ذَا خَبَلِ خَابِلِ
يُبْصِرُ فِي عَاجِلِ شِدَاتِهِ * عَلَيْكَ غِبُّ الضَّرْرِ الاجِلِ

وقد يقال : إِنَّ العَفْوَ يُفْسِدُ مِنَ اللِّئِيمِ بِقَدْرِ إِصْلَاحِهِ مِنَ الكَرِيمِ ؛ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :

وَالعَفْوُ عِنْدَ لَيْبِ القَوْمِ مَوْعِظَةٌ * وَبَعْضُهُ لَسْفِيهِ القَوْمِ تَدْرِيبُ

فَإِنَّ كَمَا قَدْ أَسَانَا فِي هَذَا التَّقْرِيعِ وَالتَّوْقِيفِ ، فَالَّذِي لَمْ يَأْخُذْ فِينَا بِحُكْمِ القُرْآنِ ، وَلَا بِأَدَبِ الرِّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلَمْ يَفْزَعْ إِلَى مَا فِي الفِطْنِ الصَّحِيحَةِ ، أَوْ إِلَى مَا تَوَجَّبَهُ المَقَابِسُ المُطْرَدَةُ ، وَالأَمْثَالُ المَضْرُوبَةُ ، وَالأَشْعَارُ السَّائِرَةُ ، أَوْلَى بِالإِسَاءَةِ ، وَأَحَقُّ بِاللَّائِمَةِ ، قَالَ اللهُ جَلَّ شَأُوهُ : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : " لَا تَجْنِ يَمِينُكَ عَلَى شِمَالِكَ " وَهَذَا حُكْمُ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ ، وَأَدَابُ رِسُولِهِ ، وَالَّذِي أُنْزِلَ بِهِ الكِتَابُ ، وَدَلَّ عَلَيْهِ فِي مُجْجِ العُقُولِ .

أَخَذَ البَرِيءُ بِذَنْبِ المَذْنِبِ

ثُمَّ قَالَ فِي أَخْذِ البَرِيءِ بِذَنْبِ المَذْنِبِ : فَأَمَّا مَا قَالُوا فِي المِثْلِ المَضْرُوبِ ، "رَمَتْنِي بِدَائِيهَا وَانْسَلَّتْ" . وَأَمَّا قَوْلُ الشَّعْرَاءِ وَذَمُّ الخُطْبَاءِ لِمَنْ أَخَذَ إِنْسَانًا بِذَنْبِ غَيْرِهِ ، وَمَا ضَرَبُوا فِي ذَلِكَ مِنَ الأَمْثَالِ ، كَقَوْلِ النَّابِغَةِ حَيْثُ يَقُولُ فِي شِعْرِهِ :

وَكَفَّتْنِي ذَنْبَ أَمْرِي وَتَرَكْتَهُ * كَذِي العُرْيُكُوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ

وكانوا إذا أصاب إليهم العزكواوا السليم ليذهب العر عن السقيم فأسقموا الصحيح من غير أن يُبرئوا السقيم، وكانوا إذا كثرت إبل أحدهم فبلغت الألف ففقوا عين الفحل، فإن زادت الإبل على الألف فقوا عينه الأخرى، فذلك المفقأ والمعنى اللذان سمعت بهما قال الفرزدق :

غلبتُك بالمفقأ والمعنى ^(١) * وبيت المجتبي ^(٢) وانخافقت

وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسواف والغارة فقال الأول :

فقات لها عين الفحيل تعيفا * وفيهن رعلاء المسامع والحام

الرعلاء : التي تُسقى أذنها وترك مدلاة لكرمها .

وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأمنية، كقول الرجل إذا بلغت إبل كذا وكذا، وكذلك غنمى ذبحت عند الأوثان كذا وكذا عتيرة، والعتيرة : من نُسك الرجبية، والجمع عتائر، والعتائر من الشاء، فإذا بلغت إبل أحدهم أو غنمه ذلك العدد استعمل التأويل وقال : إنما قلت : إني أذبح كذا وكذا شاة، والظباء : شاء، كما أن الغنم شاء، فجعل ذلك القربان كله مما يصيد من الظباء، فلذلك يقول الحارث بن حلزة الشكرى :

عتا باطلا شدوخا كما تع * تر عن حجرة الربيض الظباء

بعد أن قال :

أم علينا جناح كندة أن يغ * نم غازيهم ومنا الجزء

وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب، إما لكدر الماء وإما لقلة العطش، ضربوا الثور ليقتم الماء لأن البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل، وكما تتبع أثن الوحش الحمار، فقال في ذلك عوف بن الحرير :

تمنت طيء جهلا وجبنا * وقد خاليتهم فأبوا خلائي

هجوئي أن هجوتُ جبال سلمي * كضرب الثور للبقير الظاء

(١) في اللسان مادة « فقا » « المعنى » . (٢) كذا في الأصل وفي اللسان « المجتبي »

بالخاء المهملة . (٣) السواف : مرض الإبل . (٤) كذا في الأصل وفي اللسان مادة « تر » « وظلها » .

وقال في ذلك أنس بن مُدْرِكَةَ في قتله سُلَيْكَ بنِ السَّلَكَةِ :

إِنِّي وَقَتْلِي سُلَيْكًا ثُمَّ أَعْقَلُهُ * كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لِمَاعَاتِ الْبَقْرِ
أُنْفِتُ لِلرَّءِ إِذْ تُغْشَى حَلِيلَتُهُ * وَإِذْ يُسَدُّ عَلَى وَجْعَائِهَا الثَّقَرُ^(١)
^(٢) ^(٣)

وقال الهَيْبَانُ الْفَهْمِيُّ :

كَمَا ضُرِبَ الْعِسُوبُ أَنْ عَافَ بَاقِرٌ * وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ بَاقِرٌ

ولما كَانَ الثَّوْرُ أَمِيرَ الْبَقْرِ، وَهِيَ طَعِيْعُهُ كَطَاعَةِ إِنْثِ الْنَحْلِ لِلْعِسُوبِ سَمَاهُ بِأَسْمِ أَمِيرِ

النحل .

وَكَانُوا يَزْعَمُونَ أَنَّ الْجِنَّ هِيَ الَّتِي تَصَدُّ الْبَقْرَ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى تُتَمَسِكَ الْبَقْرُ عَنِ الشَّرْبِ

حَتَّى تَهْلِكَ ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ الْأَعَشِيُّ :

وَإِنِّي وَإِنْ كَلَفْتُمُونِي وَرَبِّكُمْ * لِأَعْلَمُ مِنْ أَمْسَى أَحَقَّ وَأَحْوَبًا
لِكَالْثَّوْرِ وَالْجِنِّي يُضْرَبُ ظَهْرَهُ * وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ مَشْرَبًا
وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ بَاقِرٌ * وَمَا إِنْ تَعَافَى الْمَاءُ إِلَّا لِتَضْرِبَا

كَأَنَّهُ قَالَ : إِذْ كَانَ يُضْرَبُ أَبَدًا لِأَنَّهَا عَافَتِ الْمَاءَ، فَكَأَنَّهَا إِتْمَا عَافَتِ الْمَاءَ لِيُضْرَبَ؛

وقال يحيى بن منصور الدَّهْلِيُّ في ذلك :

لِكَالْثَّوْرِ وَالْجِنِّي يُضْرَبُ وَجْهَهُ * وَمَا ذَنْبُهُ إِنْ كَانَتْ الْجِنُّ ظَالِمَةً

وقال نهشل بن بَجْرِيِّ :

أَتْرَكُ عَارِضٌ وَبَنُو عَدِيِّ * وَتَغْرَمُ دَارِمٌ وَهُمْ بَرَاءُ
كَدَابِ الثَّوْرِ يُضْرَبُ بِالْمَرَاوِي * إِذَا مَا عَافَتِ الْبَقْرُ الظَّاءُ
وَكَيفَ تَكَلَّفُ الشَّعْرَى سَهِيلاً * وَبَيْنَهُمَا الْكَوَاكِبُ وَالسَّمَاءُ

(١) في اللسان : « غضبت » . (٢) في الأصل « وإن » والتصويب عن اللسان .

(٣) الثقر : السير الذي في مؤخر السرج .

وقال أبو نُؤَيْرَةَ بنُ حُصَيْنٍ حين أَخَذَهُ الحَكَمُ بنُ أَيُّوبَ ذَنْبَ العَطْرِقِ :

أبا يوسيف لو كنت تعلم طاعتي * ونصحي إذا مابعتني بالمحلَّق
ولا ساق سراق العُرَافَةَ صالحٌ * بنيَّ ولا كُلفتُ ذَنْبَ العَطْرِقِ

وقال خَدَاشُ بنُ زُهَيْرٍ حين أَخَذَ بدماءِ بنيِ محَارِبِ :

أَكُفِّ قَتْلِي معشِرِ لستُ منهمُ * ولا دارهم داري ولا نصرهم نصري
أَكُفِّ قَتْلِي العِيسِ عِيسِ شِوَا حِطِ * وذلك أمرٌ لم تُسَفِّ له قِدرِي

وقال الآخر :

إذا عرَكَتُ عَجَلٌ بنا ذَنْبَ طَيِّبٍ * عرَكْنَا بَيْتِ اللَّاتِ ذَنْبَ بنيِ عِجْلِ

ولما وجد اليهوديُّ أَخَا حَنِيسِ الصَّبَابِيِّ في منزله نَخَصَاهُ فَمَاتَ ، وأخذ حَنِيسُ بنُ عَبَسِ
بِجَنَابَةِ اليهوديِّ قال قيسُ بنُ زهيرٍ : أتأخذنا بذنبِ غيرنا ، وتسالنا العَقْلَ ، والقاتلُ يهوديٌّ
من أهلِ تيماءٍ ؟ قال : والله لو قَتَلَهُ هَيْفُ الرِّيحِ لو دَيَّمُوهُ ، فقال قيسُ لبنيِ عَبَسِ : الموتُ
في بنيِ ذُبْيَانَ خيرٌ لكم من الحياةِ في بنيِ عامرٍ ، ثم أنشأ يقول :

أَكُفِّ ذَا الحُصَيْنِينِ إِنْ كانَ ظالِمًا * وإِنْ كُنْتَ مَظْلُومًا وإِنْ كُنْتَ شَاطِئًا
خَصَاهُ أَمْرٌ منِ أَهلِ تيماءِ طابِرنِ * ولا يَعدَمُ الإِنْسِيَّ والجَنُّ طابِنا
فَهَلَّا بنيِ ذُبْيَانَ أُمُّكَ هابِلٌ * رَهَنْتَ هَيْفَ الرِّيحِ إِنْ كُنْتَ رَاهِنًا
إِذا قَلْتُ قد أَفَلْتُ منِ شرِّ حَنِيسِ * أَتاني بِأخرى شَرُّهُ مُتَباطِنا
فقد جَعَلْتُ أَجَادِنَا تَجْتَسِوِيكُمْ * كما تَجْتَسِوِي سُوقَ العِضاهِ الكَرانِنا

ولما قَتَلَ لَقْمَانَ بنُ عادِ أُمَّتَهُ وهى صُحْرُ بنتُ لَقْمَانَ قال حينَ قَتَلها : أَلَسْتُ أَمْرَأَةً ؟
وذلك أَنَّهُ تزوجَ عِدَّةَ نِساءٍ وكَلَّهِنَّ حُنَّهً في أَنْفُسِهِنَّ ، فلَمَّا قَتَلَ أَخراهُنَّ وازَلَّ منِ الجَبَلِ كانَ
أَوَّلَ منِ تَلقاهُ صُحْرُ أُمَّتَهُ ، فوثبَ عليها فقتلها ، وقال وَأَنْتِ أَيضًا أَمْرَأَةٌ ، وكانَ قد ابْتُلِيَ أَيضًا
بأنِ أختَهُ كانتِ مُحَمِّقَةً ، وكذلك كانَ زوجها ، فقالت لِإحدى نِساءِ لَقْمَانَ : هذه ليلَةُ طَهْرِي

وهي ليلتك، فدعيني أتم في مضجعك، فإن لقمان رجلٌ مُنَجَّبٌ، فعسى أن يقع على فأُنَجَّبٌ،
فوقع على أخته فحملت بَلْقَمٍ وفي ذلك قول التَّوَّابِ بنِ تَوَلَّبٍ :

لَقِيمٌ بِنُ لِقْمَانَ مِنْ أُخْتِهِ * فَكَانَ ابْنَ أُخْتٍ لَهُ وَابْنَمَا
لِيَالِي حَقِّ فَاسْتَحْصَنْتُ * عَلَيْهِ فغُرِّبَهَا مُظْلِمًا
فَأَحْبَلَهَا رَجُلٌ مُحْكَمٌ^(١) * بِغِيَاةٍ بِهِ رَجُلًا مُحْكَمًا

فضربت العربُ في ذلك المثلَ بقتل لقمانَ بنته صُخْرًا فقال خُفَّافُ بنُ نَدْبَةَ في ذلك :
وَعَبَّاسٌ يُدَبُّ لِي الْمَنَايَا * وَمَا أَذْنَبْتُ إِلَّا ذَنْبَ صُخْرٍ

وقال في ذلك ابنُ أُذَيْنَةَ :

أَتَجْمَعُ تَهِيَامًا بِلَيْلٍ إِذَا نَأَتْ * وَهِيَ رَانَهَا ظُلْمًا كَمَا ظَلَمَتْ صُخْرٌ

وقال الحارث بن عباد :

قَرَّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مَنَى * لَقِحَتْ حَرْبٌ وَائِلٌ عَنِ حِيَابِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمُ اللَّهِ * هُوَ وَإِنِّي بِمَجْرَدِهَا الْيَوْمَ صَالِي

وقال الشاعر وأظنه ابن المقفع :

فَلَا تَلِمِ الْمَرْءَ فِي شَأْنِهِ * فَرَبٌّ مَلُومٌ وَلَمْ يُذْنِبِ

وقال آخر :

لَعَلَّ لَهُ عَذْرَا وَأَنْتَ تَلُومُ * وَكَمْ لَاتِمَ قَدْلَامٌ وَهُوَ مُلِيمٌ

وقال بعض العرب في قتل بعض الملوك سِنِمَارَ الرومي : فإنه لما علا الخورنق، ورأى
بنيانا لم يرمثه، ورأى ذلك المستشرف، وخاف إن هو أسبقاه أن يموت فيبني مثل ذلك
البنيان لملك آخر، فأمر به فرمي من فوق القصر، فقال في ذلك الكلابي في شيء كان بينه وبين
بعض الملوك :

(١) وروى : تانه .

جزائى جزاه الله شرَّ جزائه * جزاء سِنِمَار وما كان ذا ذنب
سوى رصّه البنيان سبعين حجة * يُعلّى عليه بالقرايميد والسكيب
فلما رأى البنيان تمَّ محوُّفه * وأض كمثل الطودذى الباذخ الصعيب
فَظَنَّ سِنِمَارُ به كُلَّ حَبْوَةٍ * وفاز لديه بالموودة والقرب
فقال اقدفوا بالعليج من رأس شاهق * فذاك لعمر الله من أعظم الخطيب

وجاء المسلمون يروى خلف عن سلف، وتابع عن سابق، وآخر عن أول، أنهم
لم يختلفوا فى عيب قول الججاج : لَأَخُذَنَّ، السيمى بالسمى والولى بالولى ، والجار بالجار ،
ولم يختلفوا عن لعن شاعرهم حيث يقول :

إذا أخذ البرىء بغير جريم * تجنب ما يُحاذره السقيمُ

قال : وقيل لعمرو بن عبيد إن فلانا لما قدم رجلاً ليضرب عنقه فقيل له : إنه
مجنون ، قال : لولا أن المجنون يلد عاقلاً نخلتُ سبيله ، قال فقال عمرو : وما خلق الله النار
إلا بالحق .

ولما قالت التغلبيّة للجحاف بن حكيم فى وقعة البشر : فصّ الله عمادك ، وأطال سهادك ،
وأقلّ رمادك ، فوالله إن قتلت إلا نساء أسافلهن دُمى ، وأعالين ندى ، فقال لمن حوله : لولا
أن تلد هذه مثلها نخلتُ سبيلها ، فبلغ ذلك الحسن فقال : إن الجحاف جدوة من نارجهنم .
قال وذم رجل عند الأحنف بن قيس الحكمة بالسمن ، فقال عند ذلك الأحنف : ربّ
ملوم لا ذنب له ، فهذه السيرة سرت فينا ، وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن
ابن حسان :

وإن أمراً يمسى ويصبح سالماً * من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقلت : وما بأهل العلم والنظر ، وأصحاب الفكر والعبر ، وأرباب النحل ، والعلماء
بخارج الملل ، وورثة الأنبياء ، وأعوان الخلفاء ، يكتبون كتب الظرفاء والمُلغاء ، وكتب
الفراغ والخلعاء ، وكتب الملاهي والفكاهات ، وكتب أصحاب الخصومات والمراء ، وكتب

أصحاب العصبية، وحمية الجاهلية، حتى كأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفح العلماء، ولا لائمة الأدباء، وشنّف الأكفاء، ومساءة الجلّساء؛ فهلاًّ أمسكت رحمك الله عن عيبتنا، والطعن عليها، وعن المشورة والموعظة، وعن تخويف ما فيه سوء العاقبة الى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء.

أقسام البيان

وبعد أن تكلم في تقسيم العالم الى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال في أقسام البيان :

ووجدنا الحكمة على ضربين : شئٌ جعل حكمةً وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشئٌ جعل حكمةً وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة، فاستوى بدن الشئ العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة، وأختلفا من جهة أن أحدهما دليلٌ لا يستدلُّ، والآخر دليلٌ يستدلُّ، فكلُّ مُستدلِّ دليلٌ، وليس كلُّ دليلٍ مستدلًّا، فشارك كلُّ الحيوان سوى الإنسان جميع الجساد في الدلالة وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان بأن كان دليلًا مُستدلًّا، ثم جعل للمستدلِّ سببٌ يدلُّ به على وجوده استدلاله، ووجوده ما نتج له الاستدلال، وسموا ذلك بيانًا؛ وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام : لفظٍ وخطٍ وعقدٍ وإشارة، وجعل بيان الدليل الذي لا يستدلُّ تمكينه المُستدلِّ من نفسه واقتياده كلِّ من فكر فيه الى معرفة ما استخزن من البرهان، وحشى من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة؛ فالأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومُعربةٌ من جهة صحة الشهادة، على أن الذي فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن استخبرهما، وينطقان لمن استنطقهما كما يخبر الهزال ويمود اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السمنُّ والنضرة عن حسن الحال، وقد قال الشاعر :

فعاجوا فاثنوا بالذي أنت أهله * ولوسكتوا أثنت عليك الحقايبُ

وقال آخر :

مَيِّ تَكُ فِي عَدُوٍّ أَوْ صَدِيقٍ * تَخْبِرُكَ الْعَيُونُ عَنِ الْقُلُوبِ

وقد قال العُكْلِيّ في صدق شمه الذئب ، وفي شدة حسه وآسترواحه :

يستخبر الريح إذا لم يسمع * بمثل مقراع الصفا الموقع

وقال عنتره وهو يصف نعيبَ غراب :

حرق الحناج كأن لحِيَّ رأسه * جأمان بالأخبار هَشُّ مَوْلَعُ

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه : سل الأرض فقل : من شقَّ أنهارك ،
وغرس أشجارك ، وجنّى ثمارك ؛ فإن لم تجبك حوارا ، أجابتك اعتبارا ، فموضوع الجسم
ونصبته دليلٌ على ما فيه ، وداعيةٌ إليه ومنبهةٌ عليه ، فالجماد الأبيم الأخرس من هذا الوجه
قد شارك في البيان الإنسان الحَيَّ الناطق ؛ فمن جعل أقسامَ البيان خمسةً فقد ذهب أيضا
مذهبا له جوازٌ في اللغة ، وشاهدٌ في العقل ، فهذا أحدُ قسمي الحكمة ، وأحدُ معنيي
ما استخزنها الله تعالى من الوديعه .

القسمه الأخرى ما أودع صدورُ صنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف ، وفطرها
على غريب الهدايات ، وسخر حناجرها له بضرب النغم الموزونة ، والأصوات الملحّنة ،
والمخارج الشجية ، والأغاني المطربة ، فقد يقال : إن جميع أصواتها معدلة ، وموزونة
موقّعة ، ثم الذي سهّل لها من الرفق العجيب في الصنعة مما ذلله الله تعالى لمناقيرها وأكفّها ،
وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة ، وكيف أعطى كثيرا منها من
الحس اللطيف ، والصنعة البديعة عن غير تأديب وتثقيف ، وعن غير تقويم وتلقين ، وعن
غير تدريج وتمرين ، فبلغت بعفوها ومقدار قوّى فطرتها من البديه والارتجال ، ومن
الابتداء والاقتضاب ، ما لا يقدر عليه حدائق رجال الرأي ، وفلاسفة علماء البشر بيدي
ولا آلة ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكلهم خصالا ، وأتمهم خلالا ، من جهة الارتجال
والاقتضاب ولا من جهة التعسف والاقتدار ، ولا من جهة التقديم فيه ، والتأني له ،
والترتيب لمقدماته ، وتمكين الأسباب المعينة عليه فصار جهد الإنسان الثاقب الحس ،
الجامع القوّى ، المتصرف في الوجوه المتقدم في الأمور يعجز عن عفو كثير منها ، وينظر إذ نظر

الى ضروب ما يحيى منها كما أعطيت العنكبوت ، وكما أعطيت الشرفة ، وكما علم النحل ، بل عرف التنوط من بديع المعرفة ، ومن غريب الصنعة في غير ذلك من أصناف الخلق ثم لم يوجد لهم العجز في أنفسهم في أكثر ذلك إلا عما قوى عليه الهمج والخشاش وصغار الحشرات ، ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين ، والاستطاعة والتصريف ، وذا التكلف والتجربة ، وذا التآني والمنافسة ، وصاحب الادخار والمتفقد لشأن العاقبة متى أحسن شيئا كان كل شيء دونه في الغموض عليه أسهل ، وجعل سائر الحيوان وإن كان يحسن أحدها ما لا يحسن أحذق الناس متى أحسن شيئا عجيبا لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه في الظن ، وأسهل منه في الرأي ، بل لا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة ، فلا الإنسان جعل نفسه كذلك ، ولا شيء من الحيوان آختر ذلك ، فأحسنّت هذه الأجناس بلا تعلم ما يمتنع على الإنسان ، وإن تعلم فصار لا يحاوله إذ كان لا يطعم فيه ، ولا يحسدها إذ كان لا يأمل اللحاق بها ، ثم جعل تعالى وعز هاتين الحكمتين إزاء عيون الناظرين ، وثجاء أسماع المعتبرين ، ثم حث على التفكير والاعتبار ، وعلى الاتعاض والأزدجار ، وعلى التعرف والتبين ، وعلى التوقف والتذكر ، فبعلها مذكرة منبهة ، وجعل الفطر تنشىء الخواطر ، وتجول بأهلها في المذاهب ، ذلك رب العالمين ، سبحان الله رب العالمين .

وهذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقه وتبنيه ، وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده ، وتفكر في فصوله ، وتذكر آخره بأقوله ، ومصادره بموارده ، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت في أشائه من مزيج لم تعرف معانيه ، ومن بطالة لم تدرك غورها ، ولم تدري لم أجلبت ولاى علة تكلفت ، وأى معنى أريغ فيها ، ولاى جد احتمل ذلك الهزل ، ولاىة رياضة نجشمت تلك البطالة ، ولم تدري أن المزاح جد إذا اجتلب لأن يكون علة للجد ، وأن البطالة وقار وزمانه إذا تكلفت لتلك العاقبة ، ولما قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلم ما لا يحتاج اليه ، قال أبو شمر : إذا كان لا يصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يحتاج اليه ، وذلك

مثل كتابنا هذا، لأننا إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مرّ الحق، وصعوبة الحد، وثقل المؤونة وحقيقة الوفاق، لم يصبر عليه مع طوله إلا من قد تجرد للعلم وفيهم معناه، وذاق من ثمرته، وأستشعر من عزّه، ونال من سروره على حسب ما يورث الطول من الكد، والكثرة من السامة، وما أكثر من يقاد الى حظّه بالسواجير، والسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة .

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حسناً في مدح الكتب فقال :

ثم لم أرك رضيت بالطعن على كل كتاب لي بعينه، حتى تجاوزت ذلك، الى أن عبت وضع الكتب كيفما دارت بها الحال، وكيف تصرّفت بها الوجود، وقد كنت أعجب من عيبك البعض بلا علم، حتى عبت الكل بلا علم، ثم تجاوزت ذلك الى التشنيع، ثم تجاوزت التشنيع الى نصب الحرب، فعبت الكتاب ونعم الذخر والعدة، ونعم الجليس والعمدة، ونعم النشوة والزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأئیس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربية، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل، والكتاب وعاء مليء عامسا، وظرف حشى ظرفا، وإناء شخن مزاحا وجدًا، إن شئت كان أئين من سبحان وائل، وإن شئت كان أعيان من باقل، وإن شئت صحكت من بواده، وإن شئت عجبت من غرائب فوائده، وإن شئت ألتسك نواذره، وإن شئت شجعت مواعظه، ومن لك بواعظ مله، وبزاجر مغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وببارد حار، وفي البارد الحار يقول الحسن بن هاني :

قلّ زهير إذا أتحنى وشدا * أقلل أو أكثر فانت مهذار
سختت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي * كذلك الثلج بارد حار

وَمَنْ لَكَ بِطَبِيبٍ أَعْرَابِيٍّ ، وَبِرُومِيٍّ هِنْدِيٍّ ، وَبِفَارَسِيٍّ يُونَانِيٍّ ، وَبِقَدِيمٍ مَوْلَدٍ ،
 وَبِمَيْتٍ تُتَبَعُ ، وَمَنْ لَكَ بِشَيْءٍ يَجْمَعُ لَكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ ، وَالنَاقِصَ وَالْوَافِرَ ، وَالخَفِيَّ وَالظَّاهِرَ ،
 وَالشَّاهِدَ وَالغَائِبَ ، وَالرَّفِيعَ وَالوَضِيعَ ، وَالغَنِّ وَالسَّمِينَ ، وَالشَّكْلَ وَخِلَافَهُ ، وَالْجِنْسَ وَضِدَّهُ .
 وَبَعْدَ ، فَتَى رَأَيْتَ بَسْتَانًا يَجْمَلُ فِي رُدُنَ ، أَوْ رَوْضَةً تَتَقَلَّبُ فِي حِجْرٍ ، وَنَاطِقًا يَنْطِقُ عَنِ
 الْمَوْتَى ، وَيُتْرَجِمُ كَلَامَ الْأَحْيَاءِ ، وَمَنْ لَكَ بِمُؤَنِّسٍ لَا يَنَامُ إِلَّا بِنَوْمِكَ ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا
 تَهْوَى ، آمِنٌ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَكْتَمُ لِلسَّرِّ مِنَ صَاحِبِ السَّرِّ ، وَأَضْبَطُ لِلوَدِيعَةِ مِنَ أَرْبَابِ
 الْوَدِيعَةِ ، وَأَحْفَظُ لِمَا اسْتُحْفَظُ مِنَ الْأَمِّيِّينَ ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ الْمَعْرَبِينَ ، بَلْ مِنْ الصَّبِيَّانِ
 قَبْلَ آعْتِرَاضِ الْأَشْغَالِ ، وَمِنَ الْعُمَيَّانِ قَبْلَ التَّمَتُّعِ بِتَمَيِّزِ الْأَشْخَاصِ ، حِينَ الْعِنَايَةُ تَامَةٌ لَمْ تَنْقُصْ ،
 وَالْإِذْهَانُ فَارِغَةٌ لَمْ تَقْتَسِمْ ، وَالْإِرَادَةُ وَافِرَةٌ لَمْ تَسْتَعِبْ ، وَالطَّيْنَةُ لَيِّنَةٌ فَهِيَ أَقْبَلُ مَا تَكُونُ لِلطَّابِعِ ،
 وَالْقَضِيبُ رَطْبٌ فَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُلُوقِ ، حِينَ هَذِهِ الْخِصَالُ لَمْ يَتَّيَّلْ جَدِيدُهَا ،
 وَلَمْ يُقَلَّ غَرِبُهَا ، وَلَمْ تَتَفَرَّقْ قُوَاهَا ، وَكَانَتْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى * فِصَادِفِ قَلْبَا فَارِغَا فَتَمَكَّنَا
 وَقَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّبِيبِ :

لَا تَأْتَمُونَا قَوْمًا يَسْبَبُ صَدِيهِمْ * بَيْنَ الْقَوَابِلِ بِالْعَدَاوَةِ يُنْشَعُ
 هَذَا مَعَ قَوْلِهِمْ : التَّعَلُّمُ فِي الصَّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ ، وَقَالَ جِرَانُ الْعَوْدِ :
 تُرَكِّنُ بِرِحْصَلَةِ الرُّوحَاءِ حَتَّى * تَتَكَرَّرُ الدِّيَارُ عَلَى الْبَصِيرِ
 كَوْحِي فِي الْحِجَارَةِ أَوْ وَشُومٍ * بِأَيْدِي التَّرُومِ بَاقِيَةَ النُّوْرِ
 النُّوْرُ : شَيْءٌ كَانَ يُعْمَلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِثْلَ الْخِضْرَةِ الْيَوْمِ .

وَقَالَ آخَرُهُ وَهُوَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ :

وَأَيُّ مَنْ أَدْبَتَهُ فِي الصَّبَا * كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرَسِهِ
 حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا أَخْضَرًا * بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَعَلَّهَا : «بَنِيْلَى» .

(٢) فِي الْأَصْلِ : «تَمْرَةٌ» وَهُوَ خَطَأٌ صَوَّاهُ مَا أُثْبِتَاهُ عَنِ الشَّعْرِ وَالشَّعْرَاءِ لِأَنَّ قَتِيْبَةَ .

وقال آخر :

يقوم من ميل الغلام المؤدب * ولا ينفع التأديب والرأس أشيبُ

وقال آخر :

أدبت عرسى بعد ما هيرمت * ومن العناء رياضةُ الهرم

وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اكتب شعري فالكاتب أعجب الى من الحفظ ، إن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس ، والكاتب لا ينسى ، ولا يُبدل كلاما بكلام ؛

وعبت الكاتب ولا أعلم جارا أبر ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما أخضع ، ولا صاحبنا أظهر كفاية ، ولا أقل جنابة ، ولا أقل إملا لا وإراما ، ولا أقل خلافا وإراما ، ولا أقل غيبة ، ولا أبعده من عصبية ، ولا أكثر أعجوبة وتصرفا ، ولا أقل صلفا وتكلفا ، ولا أبعده من مرء ، ولا أترك شغب ، ولا أزهد في جدال ، ولا أكف عن قتال ، من كتاب ؛ ولا أعلم قرينا أحسن موثاة ، ولا أعجل مكافاة ، ولا أحضر معونة ، ولا أخف مؤونة ، ولا شجرة أطول عُمرًا ، ولا أجمع أمرا ، ولا أطيب ثمرة ، ولا أقرب مُجنى ، ولا أسرع إدراكا ، ولا أوجد في كل إبان من كتاب ؛ ولا أعلم نتاجا في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان موجوده ، يجمع من التداير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومجمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتراخية ، والأمثال السائرة ، والأهم البائدة ما يجمع لك الكتاب .

وقد قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ وصف نفسه تبارك وتعالى جده بأن علم بالقلم ، كما وصف نفسه بالكرم ، وأعدت ذلك في نعمة العظام ، وفي أياديه الحسام ، وقد قالت : القلم أحد اللسانين ، وقالوا : كل من عرف فضل النعمة في بيان اللسان كان بفضل النعمة في بيان القلم

أعرف ، ثم جعل هذا الأمر قرآنا ، ثم جعله في أول التنزيل ، ومُستفتح الكتاب ، ثم أعلم - يرحمك الله تعالى - أن حاجة بعض الناس الى بعض صفة لازمة لطبائعهم ، وخلقة قائمة في جواهرهم ، وثابتة لا تزالهم ، ومحيطة بجماعتهم ، مشتملة على أدانيهم وأقاصيهم ، وحاجتهم الى ما غاب عنهم ، مما يعيشهم ويحييهم ، ويأخذ بأرماقهم ، ويصلح بالهم ، ويجمع شملهم ، والى التعاون على ذلك ، والتوازر عليه كحاجتهم الى التعاون على معرفة ما بحضرتهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق في أمورهم التي لم تغب عنهم ، حاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد ، لاحتياج الأدنى الى معرفة الأقصى ، واختلال الأدنى الى معونة الأقصى ، معانٍ متضمنة ، وأسباب متصلة ، وحبائل متقيدة ، وجعل حاجتنا الى معرفة أخبار من كان قبلنا حاجة من كان قبلنا الى أخبار من كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعدنا الى أخبارنا ، ولذلك تقدمت في الكتب البشارات بالرسول ، ولم يسخر لهم جميع خلقه إلا وهم يحتاجون الى الارتفاق بجمع خلقه ، وجعل الحاجة حاجتين : إحداهما قوام وقوت ، والأخرى لذة وإمتاع ، وأزدياد في الآلة ، وفي كل ما أجدل النفوس ، وجمع لهم العتاد ، وذلك المقدار من جميع الصنفين وفق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتساع معرفتهم ، وبعيد غورهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشرية ، وفتنة الإنسانية ، ثم لم يقطع الزيادة عنهم إلا لعجز خالقهم عن احتمالها ، ولم يميز أن يفرق بينهم وبين العجز إلا بعدم الأعيان ، اذا كان العجز صفة من صفات الخلق ، ونعتا من نعوت العبيد ، ولم يخلق الله تعالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخر له ، فإدناهم مسخر لأقصاصهم ، وأجلهم ميسر لأدقهم ، وعلى ذلك أحوج الملوك الى السوق في باب ، وأحوج السوق الى الملوك في باب ، وكذلك الغنى والفقير ، والعبد وسيده .

ثم جعل الله تعالى كل شيء للإنسان خولا وفي يده مذكلا ميسرا ، إما بالاحتيال له ، والتلطف في إراغته وأسمائه ، إما بالصولة عليه والفنك به ، وإما أن يأتيه سهوا ورهوا ، وعلى أن الإنسان لولا حاجته إليها لما احتال لها ، ولما صال عليها ، إلا أن الحاجة تفتقر

في الجنس والجهة، وفي الحظ والتقدير، ثم تعبد الإنسان بالفكر فيها، والنظر في أمورها، وبالاعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحكم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقب والتنقيب، والتثبت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم اليها، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذي جعله الله تعالى سببا فيما بينهم، ومُعبرا عن حقائق حاجاتهم، ومُعترفا لمواضع سد الخلة، ودفع الشبهة، ومداواة الخيرة؛ ولأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح المسئلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة التي لا يُتعرف ما فيها من دقائق الحكم وكنوز الأدب، وينابيع العلم، إلا بالعقل اللطيف الثاقب، وبالنظر التام النافذ، وبالاداة الكاملة، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفكر، والاحتراس من وجوه الخدع، والتحفيز من دواعي الهوى، ولأن الشكل أفهم عن شكله وأسكن اليه وأصعب به، وذلك موجود في أجناس البهائم وضروب السباع، والصبي عن الصبي أفهم وله آلف، وإليه أنزع، وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعه بطباعه آنس، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه؛ ثم لم يرض من البيان لهم بصنف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرق، وكثر ولم يقلل، وأظهر ولم يُخفي، فجعل أصناف البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي اليه يرجعون عند اختلافهم في أربعة أشياء وفي خصلة خامسة، وإن قصصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تكلم بجنسه الذي وضع له، وصرف اليه .

وهذه الخصال الأربع : هي اللفظ والخط والإشارة والعقد، والخصلة الخامسة : ما أوجد من صفة الدلالة، وصدق الشهادة، ووضوح البرهان في الأجرام الجامدة الصامتة، والساكنة الثابتة، التي لا تيس ولا تفهم، ولا تحس وتتحرك إلا بداخل دخل عليها، أو عند ممسك خلى عنها بعد تقييده كان لها؛ ثم قسم الأقسام، ورتب المحسوسات، وحصل

الموجودات ، بفعل اللفظ للسامع ، وجعل الإشارة للناظر ، وأشرك بين الناظر واللامس ، في معرفة العَقْدِ إِلَّا بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ نَصِيبَ النَّاطِرِ فِي ذَلِكَ عَلَى نَصِيبِ اللّامِسِ ، وجعل الخط دليلا على ما غاب من حوائجهم عنه ، وسببا موصولا بينه وبين أعوانه ، وجعله خازنا لما لا يأمن نسيانه مما قد أحصاه وحفظه ، وأتقنه وجمعه ، وتكلف الإحاطة به ، ولم يجعل للشام والذائق في ذلك نصيبا .

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير البسيط ، ولَبَطَلَت معرفة التضاعيف ، وأعدِموا الإحاطة بالباورات ، وباورات الباورات ، ولو أدركوا ذلك لما أدركوه إلا بعد أن تغلظت المؤونة ، وتنتقص المنة ، ولصاروا إلى حال معجزة وحُصور ، وإلى حال مضبعة وكلال حد ، مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الآلة لكان أربح لهم ، وأرد عليهم أن يصرفوا ذلك الشغل في أبواب منافع الدِّين والدنيا ، وتقع الحساب معلوم ، والخلة في موضع فقده معروفة ، قال الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٍ ﴾ وبالبيان عرف الناس القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فأجرى الحساب مجرى البيان وألحق البيان بالقرآن ، ويحسبان منازل القمر عرفنا حالات المدد والجزر ، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور ، وكيف يكون النقصان في خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار .

ولولا الكُتُب المدونة ، والاختبار المُخلدة ، والحكم المخطوطة التي تحصر الحساب وغير الحساب ، لبطل أكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار ، ولو تم ذلك لحُرِمْنَا أكثر النفع ، إذ كما قد علمنا أن مقدار حفظ الناس لعوالم حاجاتهم وأجلها لا يبلغ من ذلك مبلغا مذكورا ، ولا يغني فيه غناء محمودا ، ولو كُفِّ عاقمة من يطلب العلم ، ويصطنع الكتب ، ألا يزال حافظا لفهرس كُتبه لا يعجزه ذلك ، ولكُفِّ شَطَطًا ، وأشغله ذلك عن كثير مما هو أولى به ، ففهمك

لمعاني كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجزداً ، وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك ، والمعاون لك ما كان صياحاً صرفاً ، وصوتاً مضمناً ، ونداءً خالصاً ، ولا يكون مع ذلك آلا وهو بعيد من المفاهمة ، وعطل من الدلالة ، بفعل الله جل وعز اللفظ لأقرب الحاجات ، والصوت لأنفس من ذلك قليلاً ، والكتاب للنازح من الحاجات .

فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب ، وكسر الأجفان ، ولئى الشفاه ، وتحريك الأعتاق ، وقبض جلدة الوجه ؛ وأبعدها أن تلوى بشوب على مقطع جبل تُجَاه عين الناظر ، ثم ينقطع عملها ، ويدرس أثرها ، ويموت ذكرها ، وتصير بعد كل شىء فضلاً عن آتئاء مدة الصوت ، ومُنتهى الطرف فى الحاجة ، الى التفاهم بالخطوط والكتُب ؛ فأى نفع أعظم ، وأى مرفق أعون من الخط ، والحال فيه كما ذكرنا !

وليس للعقد حظ الإشارة فى بعد الغاية ، ولا للإشارة حظ الخط فى بعد الغاية ، فلذلك وضع الله عز وجل القلم فى المكان الرفيع ، ونوه بذكره فى المنصب الشريف حين قال : **(رَبِّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْتُرُونَ)** فأقسم بالقلم كما أقسم بما يُحِطُّ بالقلم إذ كان اللسان لا يتعاطى شأوه ، ولا يسبق عُبارَه ، ولا يجرى فى حَلْبَتِه ، ولا يتكلف بعد غايته ، ولكن لما كانت حاجات الناس بالحضرة أكثر من حاجاتهم فى سائر الأماكن ، وكانت الحاجة الى بيان اللسان حاجة دائمة رابدة ، وراهنة ثابتة ، وكانت الحاجة الى بيان القلم أمراً يكون فى الغيبة وعند النائية ، إلا ما خصت به الدواوين ، فإن لسان القلم هناك أبسط ، وأثره أعم ، فلذلك قدموا اللسان على القلم ، فاللسان الآن أتم هو فى منافع اليد والمرافق التى فيها ، والحاجات التى تبلغها ؛ فمن ذلك حفظها وقسطها من منافع الإشارة ، ثم نصيبها فى تقويم القلم ، ثم حفظها فى التصوير ، ثم حفظها فى الصناعات ، ثم حفظها فى العقد ، ثم حفظها فى الدفع عن النفس ، ثم حفظها فى إيصال الطعام والشراب الى الفم ، ثم التوضؤ والامساح ، ثم أنتقاد الدنانير والمدراهم ، ثم لبس الثياب ، وفى الدفع عن النفس أصناف الرمى ، وأصناف الضرب ، وأصناف الطعن ، ثم الضرب التَّقْنُّ بالعود وتحريك الوتر ، ولولا ذلك لبطل الطرب كله أو عامته ؛ وكيف

لا تكون كذلك ولها ضرب الطبل والدَّف وتحرّيك الصفاقتين، وتحريكُ محارق خروق المزامير، وما في ذلك من الإطلاق والحبس؛ ولو لم يكن في اليد إلا إمساك العنان والزمام والخطام، لكان ذلك من أعظم الحظوظ .

وقد اضطربوا في الحكم بين العَقْد والإشارة، ولولا أن مغزانا في هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أحب أن يعرفه إخواننا وخطاؤنا، ولا ينبغي لنا أيضا أن نأخذ في هذا الباب من الكلام إلا بعد الفراغ مما هو أوّل بنا منه، إذ كنت لم تنازعني، ولم تعب كُتُبِي من طريق فضل ما بين العَقْد والإشارة، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما؛ وإنما قصّدتنا بكلامنا إلى الإخبار عن فضل الكتب .

والكتاب هو الذي قيّد على الناس كُتُبَ عِلْمِ الدين، وحساب الدواوين، مع خِصّة ثقله، وصغر حجمه، صامت ما أسكته، وبلغ إذا استنطقته، ومن لك بمسامر لا يتدبّر في حال سُغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوّجك إلى التجمل له، والتذم منه؛ ومن لك بزائر أن شئت جعل زيارته غيباً، ووروده خمساً؛ وإن شئت لزمك لزوم ظلك، فكان منك مكان بعضك .

والقلم مكْتَفٍ بنفسه ولا يحتاج إلى ما عند غيره، ولا بد لبيان اللسان من أمور، منها: إشارة اليد، ولولا الإشارة لما فهموا عنك خاص الخاص، إذا كان أخص الخاص قد يدخل في باب العام، إلا أنه أدنى طبقاته، وليس يكتفي خاص الخاص باللفظ عمّا أذاه، كما كتفاء عام العام، والطبقات التي بينه وبين أخص الخاص .

والكتاب هو الجليس الذي لا يُطْرِكُ، والصديق الذي لا يُغْرِكُ، والرفيق الذي لا يُمْلِكُ، والمستميج الذي لا يُسْتَرِيدُكُ، والجار الذي لا يُسْتَبْطِئُكُ، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب .

والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطل إمتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك ،
وجود بيبانك ، ونغم أفاظك ، وبيح نفسك ، وعمر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام ،
وصداقة الملوكة ، وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر ، مع السلامة
من الغرم ، ومن كد الطلب ، ومن الوقوف بباب المتكسب بالتعليم ، وبالجلوس بين يدي من
أنت أفضل منه خلقا ، وأكرم عرفا ، ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة
الأغبياء .

والكتاب هو الذي يُطيعك بالليل كطاعته بالنهار ، ويُطيعك في السفر كطاعته في الحضر ،
ولا يعتل بنوم ، ولا يعتريه كلال السهر ، وهو المعلم الذي إن آتقرت لم يحقرك ، وإن
قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عزلت لم يدع طاعتك ، وإن هبت ربح
أعاديك لم ينقلب عليك ، ومتى كنت منه متعلقا بسبب ، أو معتصما بأدنى حبل ، لم تضطرك
معه وخشة الوحدة الى جليس السوء ، ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه اليك ،
إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر الى أمارة بك ، مع ما في ذلك من التعرض
للحقوق التي تلزم ، ومن فضول النظر ، ومن عادة الخوض فيما لا يعينك ، ومن ملبسة
صغار الناس ، ومن حضور أفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة ، وأخلاقهم الرديئة ،
وجهالاتهم المذمومة ، لكان في ذلك السلامة ثم الغنمة ، وإحرار الأصل مع استفادة الفرع ،
ولو لم يكن في ذلك إلا أن يشغلك عن سُخف المني ، وعن آعتياد الراحة ، وعن اللب ،
وكل ما أشبه اللعب ، لقد كان في ذلك على صاحبه أسعُ النعمة ، وأعظم المنة ، وقد علمنا
أن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم ، وأصحاب الفكاهات ساعات ليالهم ، هو الشيء الذي
لا ترى له فيهم مع النيل أثرأ في ازدياد في تجربة ولا في عقل ، ولا في مروءة ولا في صون
عرض ، ولا في إصلاح دين ، ولا في تثير مال ، ولا في تربية صنعة ، ولا في آبتداء بإنعام .

قال أبو عبيدة قال المهلب لبنيه في وصيته : يا بني لا تقفوا في الأسواق إلا على

زاد أووزاق .

وحدثني صديق لي قال : قرأت على شيخ شامي كتابا فيه ما أثر عطفان ، فقال لي : ذهبت المكارم إلا من الكتب ؛ وسمعت الحسن اللؤلؤي يقول : عبرت أربعين عاما ما قلت ولايت التكاثر إلا والكتاب موضوع على صدرى ؛ وقال ابن الجهم : اذا غشيتي النعاس في غير وقت نوم وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة ، تناولت كتابا من كتب الحكم فأجد آهتزازي للفوائد ، والأريحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة ، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة ، وعز التبين ، أشد إيقاظا من نبيق الحمير ، وهذه الهدم .

وقال ابن الجهم : اذا استحسنت الكتاب وأستجدته ، ورجوت منه الفائدة ، ورأيت ذلك فيه ، فلو تروني وأنا ساعة بعد ساعة أبصر كم بقي من ورقه مخافة استنفاده ، وأنقطع المادة من قبله ، وإن كان المصحف في عظيم الحجم ، وكان الورق كثير العدد ، لرأيت كيف تم عيشي ، وكل سروري .

وذکر القيني كتابا لبعض القدماء فقال : لولا طوله ، وكثرة ورقه ، لنسخته ؛ قال ابن الجهم : لكنني ما رغبتني فيه إلا الشيء الذي زهدك فيه ، وما قرأت كتابا قط كبيرا فأخلاني من فائدة ، وما أحصى كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كلها دخلت .

وقال القيني ذات يوم لأبن الجهم : ألا تتعجب من فلان ! نظر في كتاب الإقليدس مع جارية ساموية في يوم واحد وساعة واحدة ، فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة ، على أنه حر مخير وتلك أمة مقصورة ، وهو أحرص على قراءة الكتب من ساموية على تعليم جاريته ؛ قال ابن الجهم : قد كنت أظن أنه لا يفهم منه شكلا واحدا ، وأراك تزعم أنه قد فرغ من مقالة ؛ قال القيني : وكيف ظننت به هذا الظن كله وهو رجل ذو لسان وأدب ؟ قال : لأني سمعته يقول لابنه : كم أنفقت على كتاب كذا وكذا ؟ قال : أنفقت كذا وكذا ؛ قال : أما رغبتني في العلم أتى ظننت أتى أنفق قليلا وأكتسب كثيرا ، فأما اذ صرت أنفق الكثير وليس في يدي منه إلا المواعيد فأتى لا أريد

العلم بشيء . والإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بُد من أن تصير كُتُبُه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألدَّ عنده من الإنفاق من مال عدوه ؛ ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكُتُب ألدَّ عنده من عشاق القيان ، والمستهترين بالبُذيان ، لم يبلغ في العلم مبلغاً رَضِيّاً . وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر لذة آتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يُؤمَل في العلم ما لا يُؤمَل الأعرابي في فرسه .

وقال إبراهيم بن السُّنْدِيّ مرّةً : ودِدْتُ أَنْ الزنادقة لم يكونوا حُرصاء على المغالاة بالورق النقيّ الأبيض ، ولا على تخير الحبر الأسود البراق ، ولا على استجدادة الخطّ والإرغاب لمن يخطّ ، فإني لم أر كورق كتبهم ورقاً ، ولا كالخطوط التي فيها خطأ . وإني غير مت مالا عظيماً مع حبيّ لسال وبغضى للغرم ، لأن سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليلٌ على شرف النفس وعلى السلامة من سُكْرِ الآفات . وقلت لإبراهيم : إنَّ إنفاق الزنادقة على الكتب كانفاق النصارى على البيع ، ولو كانت كتب الزنادقة كُتُبَ حِكْمَةٍ ، وكتبَ فلسفة ، وكانت مقاييسَ تبيين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعرّف الناس أبواب الصناعات ، أو سبيلَ التعمُّس والتجارات ، أو كتب إرفاق ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفِطْن والأدب ، أو كان ذلك لا يُقَرَّب من غنى ، ولا يباعد من مأمم ، لكانوا ممن قد يجوز أن يُطَقَّ بهم تعظيم البيان والرغبة في التبيين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ؛ فأتما إنفاقهم في ذلك كانفاق المجوس على بيت النار ، وكانفاق النصارى على صُلبان الذهب ، أو كانفاق الهند على سدنة البُدِّ ؛ ولو كانوا العُلم أرادوا لكان العُلم لهم معرضاً ؛ وكتب الحكمة لهم مبدولة ، والطُرُق إليها سهلة معروفة ؛ فما بالهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب دياتهم كما يُزحرف النصارى بيوت عبادتهم ؛ ولو كان هذا المعنى مُستحسنًا عند المسلمين ، وكانوا يرون أن ذلك داعيةٌ إلى العبادة وابعثه على الخشوع ، لبلغوا في ذلك بعفويهم ما لا يبلغه النصارى بغاية الجُهد .

وقد رأيتم مسجداً دمشق حين استجاز هذه السبيل ملكاً من ملوكنا ، ومن رآه فقد علم أن أحداً لا يرومه ، وأن الروم لا تسخو أنفسهم به ، فلما قام عمر بن عبد العزيز جلّله بالجلال ، وغطاه بالكرايس^(١) ، وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلاؤلؤ والبريق ، وذهب الى أن ذلك الصنيع بجانب لسنة الاسلام ، وأن ذلك الحُسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهباً للقلوب ، مشغلة دون الخشوع ، وأن البال لا يكون مجتمعا وهناك شئ ، يُفترقه ويعترض عليه .

والذي يدلنا على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريزية ولا فلسفية ، ولا مسألة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آله ، ولا تعليم فلاحه ، ولا تدبير حرب ، ولا مقارعة عن دين ، ولا مُناضلة عن نحلة ، وجله ذكر النور والظلمة ، وتناحُ الشياطين ، وتسافد العناريت ، وذكر الصنيد والتحويل بعمود السنخ ، والاحبار عن شقلون وعن الهامة والهامة ، وهذّر وعى ودعوى وخرافة وسخف وتكذب ، لا ترى فيه موعظة حسنة ، ولا حديثاً مؤثراً ، ولا تدبير معاش ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ؛ فأى كتاب أجهل ، وأى تدبير أفسد من كتاب يُوجب على الناس الطاعة والبُخوع بالديانة على جهة الاستبصار والحجبة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، والناس لا يجيبون إلا دينا أو دنيا .

فأما الدنيا فاقامة سُوقها وإحضار نفعها . وأما الدين فأقل ما يُطمع في استجابة العامة واستمالة الخاصة ، أن يصور في صورة مُغلطة ، ويؤوه تمويه الدينار البهرج والدرهم الزائف الذي يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقته القليل . فليس انفاقهم عليها من حيث ظننت . وكل دين يكون أظهر آخلاقنا وأكثر فسادا يحتاج من الترقيع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه الى أكثر من غيره .

(١) الكرايس جمع كرابس : ثوب من القطن الأبيض وقيل : الثوب الحشن ، فارسي معرب .

وقد علمت أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تبعداً ، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده ، واحتفالهم في إظهار تعظيمه .

وقال بعضهم : كنت عند بعض العلماء فكنت أكتب عنه بعضاً وأدع بعضاً ، فقال لي : اكتب كل ما تسمع ، فات أحس ما تسمع خير من مكانه أبيض . وقال الخليل بن أحمد : تكثر من العلم لتعريف ، وتقل منه لتحفظ . وقال أبو إسحاق : القليل والكثير للكتب ، والقليل وحده للصدر ، وأشد قول ابن يسير :

أما لو أعي كل ما أسمع * وأحفظ من ذلك ما أجمع
ولم أستفد غير ما قد جمعت لقل هو العالم المقنع
ولكن تقي إلى كل نو * ع من العلم تسمعه تزع
أشاهد بالعي في مجلسي * وعامى في البيت مستودع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت ولا أنا من جمعه أشبع
ومن يك في علمه هكذا * يكن دهره القهقري يرجع
إذا لم تكن حافظاً واعياً * بجمعك للعلم لا ينفع

قال أبو إسحاق : كلف ابن يسير الكتب ما ليس عليها ، إن الكتب لا تُحصى الموقى ، ولا تحوّل الأحق عاقلاً ، ولا البليد ذكياً ، وذلك أن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تشحذ وتفتق وتُرهِف وتُسفي ؛ ومن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه ، فإن ذلك أما تصوره له لشيء اعتراه . فمن كان عاقلاً ذكياً حافظاً فليقصد إلى شيتين أو ثلاثة أشياء : فلا يتزع عن الدرس والمطارحة ، ولا يدع أن يتز على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالماً بخواص ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويحوضون فيه ؛ ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً إلا نسي أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد .

وحدثني موسى بن يحيى قال : ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدرسه كتاب إلا وله فيه ثلاث نسخ .

وقال أبو عمرو بن العلاء : ما دخلت على رجل قطُّ ولا مررت ببابه فرأيتَه ينظر في دفتر وجليسه فارغ اليد إلا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبو عمرو وقيل لنا يوماً : إن في دار فلان ناساً قد اشمَلوا على سوءة ، وهم جلوسٌ على نُخْمِيرة لهم وعندهم طُنْبور ، قال : فذَمَرْنَا عليهم في جماعة من رجال الحَيِّ ، فاذا قَتَّى جالسٌ في وَسَطِ الدار وإذا أصحابه حوَلَه ، وإذا هم بيضُ اللَّحَى ، وإذا هو يقرأ عليهم كتاب شعر ، فقال الذي كان سعى بهم : السَّوْءَةُ في ذلك البيت ، وإن دخلتموه عَثَرْتُمُ بها ، قال قلتُ : والله لا أكشِفُ قَتَّى أصحابه شيوخ وفي يده دفتر علم ولو كان في ثوبه دمٌ يحيي بن زكرياء . قال وأنشد رجل يونس النَّحْرِيَّ قوله :

أُسْتَوْدِعَ الْعِلْمَ قُرْطَاسًا فَضَيَعَهُ * فَيُنْسُ مُسْتَوْدِعُ الْعِلْمِ الْقِرَاطِيْسُ

قال فقال يونس : فأنله الله ، ما أشدَّ صبايته بالعلم وأحسنَ صيانته له ! إن علمك من رُوحِك ، ومالك من بدنك ، فضعه منك بمكانِ الرُّوحِ ، وضع مالك بمكانِ البدن .

وقيل لابن دَاحَةَ وأخرج كتاب أبي الشَّمَمَقِ وَأذا هو في جُلود كوفية ودقَّتين طائفيتين وبخط عجيب ، فقيل له : لقد ضيَعَ درهمه من تجوُّد لشعر أبي الشَّمَمَقِ ؛ قال : لا جرمَ والله إن العلم يُعْطِيكُمْ على حساب ما تُعْطُونَه ، ولو استطعتُ أن أودعه سُويدياء قلبي وأجعله مخطوطاً على ناظري لفعلت .

ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في امرته ، فرأيت السِّمَّاطين بين يديه والرجال مثوِّلاً كأن على رءوسهم الطير ، ورأيت فرشته وبرتته ، ثم دخلت عليه وهو معزول ، وإذا هو في بيت كتبه وحواليه الأسفاط والرُفوف والنماطر والدفاتر والمساطر والمحابر ، فما رأيتَه قطُّ أنغم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، إلا أنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع القمامة الخلاوة ، ومع السُّودد الحكمة .

(١) كذا في الأصل ، ولعلها زائدة . (٢) الفرشة : الهيئة .

وقال ابن داحية : كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يُجالس الناس ، ونزل مقبرة من المقابر ، وكان لا يكاد يرى إلا وفي يده كتاب يقرؤه ، فسُئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة ، فقال : لم أر أوعظ من قبر ، ولا أمتع من كتاب ، ولا أسلم من الوحدة ؛ ف قيل له : فقد جاء في الوحدة ما قد جاء ، قال : ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل !

وضروب من الخطوط بعد ذلك تدل على قدر منقعة الخط ، قال الله تبارك وتعالى :
 ﴿ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ وقال الله عز وجل : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ وقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ وقال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ ﴾ .

الترغيب في اصطناع الكتب

(وبعد أن تكلم عن الخط في الأرض عند التفكير وما قيل في ذلك من الأشعار ، وذكر الخط ومقدار الحاجة إليه ، وتاريخ الشعر قبل الإسلام ، وبيان أن فضيلته مقصورة على العرب ، استطراد القول بالترغيب في اصطناع الكتب) فقال :

« إن على من شكر المعرفة بمغاوي الناس ومراشدهم ومضارهم ومنافعهم ، أن يحتمل ثقل مؤوتهم في معرفتهم ، وأن يتوحن إرشادهم وأن جهلوا فضل ما يسدى إليهم . ولن يُصان العلم بمثل بذله ، ولن تُستبقى النعمة فيه بمثل نشره . على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقحهم ، إذ كان مع التلاقي يشتد التصنع ، ويكثر التظالم ، وتفترط العصبية ، وتقوى الحمية ؛ وعند المواجهة والمقابلة يشتد حب الغلبة ، وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع ، والأنفية من الخضوع ؛ وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ويظهر التباين ؛ فإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة ، امتنعت من التعرف ، وعميت عن موضع الدلالة ؛ وليست للكتب علة تمنع من درك البغية ، واصابة الحجة ، لأن المتوحد بدرسها والمنفرد

بفهم معانيها ، لا يبأى نفسه ، ولا يغالب عقله ، وقد عدم من له يبأى ، ومن أجله يغالب ، والكتاب قد يفضل صاحبه ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على لسانه بأمر :

منها ، أن الكتاب يُقرأ بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الأعصار ، وتباعد ما بين الأمصار ، وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب ، والمنازع بالمسألة والجواب ، ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه ، ومبلغ صوته ، وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويفنى العقل ويبقى أثره . ولولا ما تسمت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، بجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندره إلا بهم ، لقد خس حظنا من الحكمة ، وضعف سببنا الى المعرفة ، ولو أخلصنا الى قدر قوتنا ، ومبلغ خواطرننا ، ومنتهى تجربتنا لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا ، لقد قلت المعرفة ، وقصرت الهمة ، وانتقصت المنة ، وعاد الرأي عقيا ، والخطا فاسدا ، ولكل الحد ، وتبدل العقل . وأكثر من كتبهم نفعاً ، وأشرف منها خطراً ، وأحسن موقعا ، كتب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل عبرة ، وتعريف كل سيئة وحسنة . وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف والمهارق والمصاحف ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقال : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ويقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتاب . وينبغي أن يكون سببنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا . على أننا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا ، فيما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وهوى نجم التقيسة ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم . والإنسان ليس يجد في كل حال إنسانا

(١) المهارق جمع مهراق ، وهو ثوب حرير أبيض يسق بالصمغ ويصقل ثم يكتب فيه ، فارسي معرب .

يُدرِّسه ومُقوماً يُثَقِّفه ، والصبر على إفهام الرِّبِّض شديدٌ ، وصرف النفس عن مُغالبة العالم أشدُّ منه هما .

والمُتعلِّم يجد في كلِّ مكان الكتاب عتيدياً ، وبما يحتاج إليه قائماً . وما أكثر من فترط في التعلُّم أيامَ نحوول ذكره وأيامَ حدائثة سنَّه . ولولا جِياذ الكتب وحسَّنها ، ومُبينها ومُختصرها ، ثم تحركت همم هؤلاء لِطلب العلم ، ونازعت الى حب الأدب ، وأنفت من حال الجهل وأن تكون في غمار الحشو لدخل على هؤلاء من الضرر والمضرة والجهل وسوء الحال ما عسى ألا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : تفقهوا قبل أن تُسودوا . وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويحالس الفقهاء نحسين سنَّة ، ولا يمدِّ فقيها ولا يعمل قاضياً ، وما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه باب بعض العمال ؛ وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار ، أو بلدياً من البلدان .

وينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم مُتفرِّغ له ؛ ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه يغيب ويختمر ، ولا يثق بالرأى الفطير ؛ فإن لابتداء الكتاب فتنه ومُجبا ، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط ، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فيه وتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ، ويتفهم معنى قول الشاعر :

إن الحديث تغر القوم خلوته * حتى يكون لهم عي وإثار

ويقف عند قولهم في المثل : " كلُّ مُجرٍ في الخلاء يسر " ، فيخاف أن يعتريه ما يعتري من أجرى فرسه وحدده ، أو خلا بقلمه عند فقد خصومه وأهل المزية من أهل صناعته . وليعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعتابه ؛ فما أكثر من يعزم على

عشرة أسواط فيضرب مائة، لأنه ابتداء الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة وزاد في غضبه، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار؛ وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يتدنى الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة. والحفظ مع الإقلال أمكن، وهو مع الإكثار أبعد.

وأعلم أن العاقل إن لم يكن بالمشيع فكثيراً ما يغر من ولده ويحسن في عينه منه القبيح في عين غيره، فليعلم أن لفظه أقرب إليه نسبا من ابنه، وحركته أمس به رحماً من ولده؛ لأن حركته شيء أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلت، ومن نفسه كانت، وإنما الولد كالمخطة يمتخطها؛ وكالأنخامة يقذفها، ولا سواء إخراجك من نفسك شيئاً لم يكن منك، واظهارك حركة لم تكن حتى كانت منك؛ ولذلك نجد فتنة الرجل بشعره وقتنه بكلامه وكتبه، فوق فتنة بجمع نعمته.

وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه حتى لا يحتاج السامع بما فيه إلى الروية فيه. ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو، ويحطه عن غريب الأعراب، ووحشي الكلام. وليس له أن يهدبه جدًا ويتقحه ويصفيه ويؤوقه حتى لا ينطق إلا باللب والسر، وباللفظ الذي قد حذف فضوله وتغرق زوائده، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه؛ فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يتجدد لهم إفهاماً وتكراراً، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن تعطس عليها وتؤخذ بها؛ ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره؛ وفي كتاب إقليدس، كلام يدور وهو عربي وقد صني، ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه، إلا بأن يفهمه من يريد تعليمه؛ لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر، وتعود اللفظ المنطق الذي استخرج من جميع الكلام.

وقد قال معاوية بن أبي سفيان رضى الله تعالى عنهما لصُحَّارِ الْعَبْدِيِّ : ما الإيجاز؟ قال أن تجيب فلا تُبْطِئَ ، وتقولَ فلا تُحْطِئَ ؛ قال معاوية : أو كذلك تقول . قال صُحَّارُ : ألقني يا أمير المؤمنين ، لا تُحْطِئَ ولا تُبْطِئَ . فلو أت سائلا سألك عن الإيجاز فقلت : لا تُحْطِئَ ولا تُبْطِئَ وبحضرتك خالد بن صفوان لما عرّف بالبدئية وعند أول وهلة أنت قولك لا تُحْطِئَ مُضْمَنَ بالقول ، وقولك لا تُبْطِئَ مُضْمَنَ بالجواب . وهذا حديث — كما ترى — قد ارتضوه ورووه ؛ ولو أت قائلا قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟ لظننت أنه كان سيقول الاختصار والإيجاز ، ليس يعني به قِلة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يَسَعُ بطن طومار فقد أوجز، وكذلك الإطالة . وإنما ينبغي أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه ولا يُرَدِّد وهو يُكْتَنَى في الإفهام بشطره ، فما فَضَّل عن المقدار فهو الخَطَل .

وقلت لأبي الحسن الأَخْفَشَ : أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومةً كلها؟ وما بالنافهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تُقدِّم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله، وليست هى من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلت حاجتهم إلى فيه ، وأما غايى المئالة ، فإذا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا الى التماس فهم ما لم يفهموا ، وأنا قد كسبتُ فى هذا التدبير اذ كنتُ الى التكبُّب ذهبتُ ، ولكن ما بال ابراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذها مثلى فى موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ، فلا يفهم أكثرها ؟

وأقول لو أت يوسف السَّمْتِي كتب هذه الشروط أيام جاس سَلمان بن ربيعة شهرين للقضاء فلم يتقدم اليه رجلان والقلوب سليمة والحقوق على أهلها مؤفّرة ، لكان ذلك خطأ ولغوا ، ولو كتب فى دهرنا شروط دهر سلمان لكان ذلك غرارة وتقصا ،

وجَهلاً بالسياسة وما يصلح لكلِّ دهر؛ ووجدنا الناس إذا خَطَبُوا في صلح بين العشار
أطالوا ، وإذا أُنشِدوا الشعر بين السَّاطِنين في مدح الملوك أطالوا؛ فلإطالة مَوْضِعٍ وليس
ذلك بِمَحْطَلٍ ، ولإفلال مَوْضِعٍ وليس ذلك من عجز .

ولو لا أتى أتكل على أنك لا تَمَلِّ باب القول في البعير حتى تخرج إلى الفيل، وفي الذرة
حتى تخرج إلى البعوضة ، وفي العقرب حتى تخرج إلى الحية، وفي الرجل حتى تخرج إلى
المرأة، وفي الذبَّان والتحل حتى تخرج إلى الغرَّبان والعقبان ، وفي الكلب حتى تخرج إلى
الديك، وفي الذئب حتى تخرج إلى الضبع، وفي الظلف حتى تخرج إلى الحافر، وفي الحافر
حتى تخرج إلى الخُفِّ ، وفي الخُفِّ حتى تخرج إلى البرثن ، وفي البرثن حتى تخرج
إلى الخلب؛ وكذلك القول في الطير وعامة الأصناف ، لرأيت أن ذلك يُوجب الملل،
ويُعقب الفترة المانعة من البلوغ في الفهم، وتعرِّف ما يُحتاج منه إلى التعرِّف، فرأيت أن
جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه، أن ذلك ليس مما تَمَلِّ من كثرة قراءته أبدا وتعتد على
فيه بالإطالة ، لأنه وإن كان كتابا واحدا فإنه كُتِبَ كثيرة، وكل مصحف منها أم على
حدة . فإن أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأوَّل حتى يهجم على الثاني ، ولا الثاني
حتى يهجم على الثالث ، فهو أبدا مُستفيد ومُسْتَطْرِف ، وبعضه يكون جماما لبعض ،
ولا يزال نشاطه زائدا ، ومتى خرج من آي القرآن صار إلى أثر ، ومتى خرج من أثر
صار إلى خبر، ثم يُخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم
عقلية ومقاييس سداد ، ثم لا يترك هذا الباب فلعله أن يكون أثقل، والملا لل إليه أسرع،
حتى يُفضي به إلى مَرَحٍ وفكاهة وإلى سُخْفٍ وخرافة . ولست أراه سخفاً إذ كنت إنما
استعمت سيرة الحكماء ومأذبة العلماء ، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب
والأعراب أخرج الكلام مُخرج الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل
أو حكي عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلم . فأصوب العمل اتباع آثار العلماء والأخذاء

على مثال القدماء ، والأخذ بما عليه الجماعة . وقال ابن يسير في صفة الكتّاب
في كلمة له :

أَقْبَلْتُ أَهْرُبَ لَا آوُ مُبَاعِدَةً * فِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ فَلَمْ يُحِصِنِي الْهَرَبُ
بِقَصْرِ أَوْسٍ فَمَا وَالَّتْ خَنَادِقُهُ * إِلَى النَّوَارِيسِ فَلَمَّا خُورُ فَالْحَرْبُ
فَأَيُّمَا مَوْئِيلٍ مِنْهَا أَعْتَصَمْتُ بِهِ * فَمِنْ وَرَائِي حَيْثُمَا مِنْهُمْ الطَّلَبُ
لَمَّا رَأَيْتُ بَأَنِّي غَيْرُ مُعْجِزِهِمْ * قَوْتًا وَلَا هَرَبًا فَتَرَبْتُ أَحْتِجِبُ
وَصِرْتُ فِي الْبَيْتِ مَسْرُورًا بِهِ جِدَلًا * جَارًا لِبُوءَةٍ لَا شَكْوَى وَلَا شَغْبُ
فَرَدًّا تُحَدِّثُنِي الْمَوْتَى وَتَنْطِقُ لِي * عَنْ عِلْمٍ مَا غَابَ عَنِّي مِنْهُمْ الْكُتُبُ
هُمْ مُؤَنِّسُونَ وَالْأَلْفُ غَنِيَّتُهُمْ * فَلَيْسَ لِي فِي أُنَيْسٍ غَيْرِهِمْ أَرْبُ
لَهُ مِنْ جُلَسَاءٍ لَا جَالِسَهُمْ * وَلَا عَشِيرَهُمْوُ لِلْسُّوءِ مُرْتَقِبُ
لَا بَادِرَاتِ الْأَدَى يَخْشَى رَفِيقَهُمْ * وَلَا يُلَاقِيهِ مِنْهُمْ مَنْطِقُ ذَرِبُ
أَبْقُوا لَنَا حِكْمًا تَبْقَى مَنَافِعُهَا * أُخْرَى اللَّيَالِي عَلَى الْأَيَّامِ وَأَنْتَسَعِبُوا
فَأَيُّمَا أَدِيبٍ مِنْهُمْ مَدَدَتْ يَدِي * يَوْمًا إِلَيْهِ فَدَانٍ مِنْ يَدِي كَشِبُ
إِنْ شِئْتُ مِنْ مُحْكَمِ الْأَثَارِ يَرْفَعُهَا * إِلَى النَّبِيِّ ثِقَاتٍ بَرَّةٌ تُجِبُ
أَوْ شِئْتُ مِنْ عَرَبٍ عِلْمًا بِأَوْهَا * فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْبَأَنِي بِهِ الْعَرَبُ
أَوْ شِئْتُ مِنْ سَيْرِ الْأَمْلَاقِ مِنْ عَجْمٍ * تَنْبِيٍّ وَتُخْبِرُ كَيْفَ الرَّأْيِ وَالْأَدَبُ
حَتَّى كَأَنِّي قَدْ شَاهَدْتُ عَصْرَهُمْوُ * وَقَدْ مَضَتْ دُونَهُ مِنْ دَهْرِهِمْ حَقَبُ
يَا قَائِلًا قَصَّرْتُ فِي الْعِلْمِ نَيْتَهُ * أَمْسَى إِلَى الْجَهْلِ فِيمَا قَالَ يَنْتَسِبُ
إِنَّ الْأَوَائِلَ قَدْ بَانُوا بَعْلَهُمْ * خِلَافَ قَوْلِكَ قَدْ مَاتُوا وَقَدْ ذَهَبُوا
مَا مَاتَ مِنَّا امْرُؤٌ أَبَى لَنَا أَدَبًا * يَكُونُ مِنْهُ إِذَا مَا يُكْتَسَبُ

وقال أبو وجرة وهو يصف صحيفة كتبت له فيها بستين وسقا :
 راحت بستين وسقا في حقيبتها * ما حلت حملها الأذنى ولا السدأ
 ولا رأيت قلوصا قبأها حلت * بستين وسقا ولا جابت بها بلدا

وقال الرازي :

تعلمن أن الدواة والقلم * تبقى ويُنْفِي حَدِيثُ الدَّهْرِ الغَمَّ

يقول كتابك الذي كتبتُه على يبق فتأخذني به وتذهب غنمي فيما يذهب . ومما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يحز أن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة في بياض يوم ، فتكون الحادثة بالكوفة غدوة فيعلمها أهل البصرة قبل المساء .

وذلك مشهور في الحام الهدي : اذا جعلت بردا قال الله جل وعز ، وذكر سليمان ومملكه الذي لم يؤت أحدا مثله ، فقال : (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ) إلى قوله : (أَوْ لَا ذُبْحَنَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) . فلم يلبث أن قال الهدهد : (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) . قال سليمان : (أَذْهَبَ بِكُلَّابِي هَذَا فَالْقِهْ إِلَيْهِمْ) وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها من عفرية ومن بعض من عنده علم من الكتاب فرأى أن الكتاب أهبى وأنبل وأكرم وأنعم من الرسالة عن ظهر لسان وإن أحاط بجميع ما في الكتاب . وقالت ملكة سبا : (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٌ كَرِيمٌ) فهذا مما يدل على قدر اختيار الكتب وقد يريد بعض الحلة الكبار وبعض الأديباء والحكماء أن يدعوا بعض من يجري مجراه في سلطان أو أدب إلى مادبة أو ندام أو خروج إلى متزّه أو برين ما يشبه ذلك ، فلو شاء أن يبلغه الرسول إرادته ومعناه لأصاب من يحسن الأداء ويصدق في الإبلاغ فيرى أن الكتاب في ذلك أمرى وأنه وأبلغ ولو شاء النبي صلى الله عليه وسلم ألا يكتب الكتب إلى كسرى وقیصر والنجاشي

والمقوقس وإلى بنى الحلتندی وإلى العباهلة من حمير وإلى هودّة بن علي وإلى الملوك العظماء والسادة النجباء لفعل ولو جد المبلغ المعصوم من الخطأ والتبديل ، ولكنه عليه السلام علم أن الكتاب أشبه بتلك الحال ، وأسبق بتلك المراتب ، وأبلغ في تعظيم ما حواه الكتاب ، ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الألسنة بالمرسلين ولم يودعها الكتب لفعل ولكنه تعالى وعزّ علم أن ذلك أتمّ وأكمل ، وأجمع وأنبئ ؛ وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة إلى بعض من يشاكلة أو يجرى مجراه فلا يرضى بالكتاب حتى يخزّمه ويختمه ، وربما لم يرض بذلك حتى يعنونه ويعظمه .

قال الله جل وعزّ : ﴿أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ فذكر صحف موسى الموجودة وصحف إبراهيم البائدة المعدومة ليعرف الناس مقدار النفع والمصلحة في الكتب . قالوا : وكانت فلاسفة اليونانية تورث البنات العين وتورث البنين الدين ؛ وكانت تصل العجز بالكفاية والمؤونة بالكلفة وكانت تقول : لا تورثوا الأب من المال إلا ما يكون عوناً له على طلب المال ، وأغذوه بحلاوة العلم وأطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم أغلب عليه من جمع المال ، وليرى أنه العدة والعتاد ، وأنه أكرم مستفاد ، وكانوا يقولون : لا تورثوا الأب من المال إلا ما يسد الخلة ، ويكون له عوناً على درك الفضول إن كان لا بد من الفضول ، فإنه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساده ، وإن كان صالحاً كان فيما أورثتموه من العلم ، وبقية له من الكفاية ما يكسبه الحال ، فإن الحال أفضل من المال ، ولأن المال لم يزل تابعا للحال ، وقد لا يتبع الحال المال ، وصاحب الفضول بعرض فسادٍ وعلى شفا إضاعة مع تمام الحنكة واجتماع القوة ؛ فما ظنكم بها مع غرارة الحداثة وسوء الاعتبار وقلة التجربة ! وكانوا يقولون : خير ميراث ما كسب الأركان الأربعة ، وأحاط بأصول المنفعة ومجّل لك حلاوة المحبة ، وبقى لك الأهدوءة الحسنة ، وأعطاك عاجل الخير وآجله ، وظاهره وباطنه ؛ وليس يجمع ذلك إلا إكرام الكتب بنفسه المشتملة على ينابيع العلم ، والجامعة لكنوز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الإرفاق ؛

وحجج الدين الذي بصحته وعند وضوح برهانه تسكن النفوس وتشرح الصدور، ويعود القلب معمورا، والعز راسخا، والأصل فسيحا، وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتسهده، وتداويه وتصلحه، وتهدبه وتنفي الخبث عنه، وتفيدك العلم وتصدق بينك وبين المجته، وتعودك الأخذ بالثقة وتجلب الحال وتكسب المال. وورثة الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة منبهة للورث وكثر عند الوارث، إلا أنه كثر لا يجب فيه الزكاة ولا حق السلطان، وإذا كانت الكنوز جامدة ينقصها ما أخذ منها كان ذلك الكثر مائعا يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها المورث مذكورا في الحكماء ومثوها باسمه في الأسماء، وإماما متبوعا، وعالما منصوبا، ولا يزال الوارث محفوظا، ومن أجله محبوبا ممنوعا، ولا تزال تلك المحبة نامية ما كانت تلك الفوائد قائمة ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: متى ورثته كتابا وأودعته عالما فقد ورثته ما يعل ولا يستغل، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة، ولا إلى سقى، ولا إلى إسجال بإغار، ولا إلى شرط ولا تحتاج إلى أكار ولا إلى أن يثار، وليس عليها عشر ولا للسلطان عليها نخرج، وسواء أفدته عالما أو ورثته آلة علم، وسواء دفعك إليه الكفاية أو ما يجب الكفاية، وإنما تجرى الأمور وتعرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلا على دفع السبب لم يجب عليه إحضار المسبب، فكتب الآباء تحييب للأحياء، وتحيا لذكر الموتى.

وقالوا: متى كان الأب جامعا بارعا وكانت موارثه كتباً بارعة، وآدابا جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلم حقا وأجدر أن يسرع التعليم إليه ويرى تركه خطأ، وأجدر أن يجرى من الأدب على طريق قد أُنهج له، ومنهاج قد وُطئ له، وأجدر أن يسرى إليه عرق من تجلته وسقى من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكتب النظر في الكتب، فلا يأتي عليه من الأيام مقدار الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية غاية الحاجة وإنما تُفسد الكفاية من تمت آدابه، وتوافت إليه أسبابه، فأقا

الحَدَثَ الغَرِيرَ، وَالْمُنْقُوصَ الْفَقِيرَ. نَفِيرَ مَوَارِيثِهِ الْكِفَايَةَ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ التَّمَامَ، وَيَكِلُّ لِلطَّلَبِ. نَفِيرَ مِيرَاثٍ وَرَثَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ، وَخَيْرَ الْمَوْرَثِينَ مَنْ أَوْرَثَ مَا يَجْمَعُ وَلَا يُفَرِّقُ، وَيُبَصِّرُ وَلَا يُعْمِي، وَيُعْطِي وَلَا يَأْخُذُ، وَيَجُودُ بِالْكُلِّ دُونَ الْبَعْضِ، وَيَدْعُ لِكَ الْكَتْرِ الَّذِي لَيْسَ لِلسُّلْطَانِ فِيهِ حَقٌّ، وَالرَّكَازَ الَّذِي لَيْسَ لِلْفُقَرَاءِ فِيهِ نَصِيبٌ، وَالنَّعْمَةَ الَّتِي لَيْسَ لِلْحَاسِدِ فِيهَا حِيلَةٌ، وَلَا لِلصَّوْصِ فِيهَا رَغْبَةٌ، وَلَيْسَ لِلتَّخَمِّ عَلَيْكَ فِيهِ حِجَّةٌ، وَلَا عَلَى الْجَارِ فِيهِ مَوْوَنَةٌ.

وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بد من أن يكون لكل كتاب علم وضعه أحد من الحكماء ثمانية أوجه، منها الهمة والمنفعة، والنسبة والصحة، والصنف والتأليف، والإسناد والتدبير، فأولها أن تكون لصاحبه همة، وأن يكون فيما وضع منفعته، وأن يكون له نسبة ينسب إليها، وأن يكون صحيحا، وأن يكون على صنف من أصناف الكتب معروفابه، وأن يكون مؤتلفا من أجزاء خمسة، وأن يكون مسندا إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف. فذكر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب وهو كتابه الذي يسمى «أفوريسموا» تفسيره: كتاب الفصول. وقولك وما بلغ من قدر الكلب مع لوم أصله، وخُبث طبعه، وسقوط قدره، ومهانة نفسه، ومع قلة خيره وكثرة شره، واجتماع الأمم كلها على استسقاطه واستسفالته، ومع ضررهم المثل في ذلك كله به، ومع حاله التي يعرف بها من العجز عن صولة السباع، واقتدارها، ومن تمنعها وتشرؤها وتوحشها، وقلة إسماعها، وعن مسالمة البهائم وموادعتها، والتمكين من إقامة صلاحتها، والانتفاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الاحتياط لمعاشرها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المخوفة. ولأن الكلب ليس بسبع تام ولا بهيمة تامة حتى كأنه من الخلق المركب، والطباع الملققة، والأخلاق المجلبة، كالبلغم المتلون في أخلاقه الكثير العيوب المتولدة عن مزاجه؛ وشر الطباع ما تجاذبه الأعراق المتضادة والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالراعي من الحمام الذي ذهب عنه هداية الحمام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطل عنده عمر الورشان، وقوة جناحه، وشدة عصبه، وحسن

صوته، وشجا حلقه، وشكل لحونه وشدة إطرابه، وأحتاله لوقع البنادق، وجرح الخالب.
 وفي الراعي أنه مسرول مُثقل، وحدث له عظم بدن وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمه.
 وكذلك البغل نخرج من بين حيوانين يلدان حيوانا مثلهما ويعيش نتائجهما ويبقى بقاءهما،
 وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقرة، فلو كان البغل عقيماً
 والبغلة عاقراً لكان ذلك أزيد في قوتها وأتم لشدهما، فع البغل من الشبق والنغظ ما ليس
 مع أبيه، ومع البغلة من الشوس وطلب السفاد ما ليس مع أمها؛ وذلك كله قدح في القوة
 ونقص في البنية، ونخرج غرموله أعظم من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبههما ونزع
 الى شيء ليس له في الأرض أصل، ونخرج أطول عمراً من أبويه وأصبر على الأثقال من
 أبويه؛ أو كابن المذكرة من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أخبث نجاجاً من البغل
 وأفسد أعراقاً من السمع^(١)، وأكثر عيوباً من العسبار^(٢)، ومن كل خلق خلق إذا تركب من
 ضد، ومن كل شجرة مطعمة بخلاف؛ وليس يعترى مثل ذلك الخلاسي^(٣) من الدجاج،
 ولا الورداني^(٤) من الحمام؛ وكل ضعف دخل على الخلق، وكل رقة عرّضت للحيوان، فعلى
 قدر جنسه وعلى وزن مقداره وتمكنه يظهر العجز والعيب. وزعم الأصمعي أنه لم يسبق
 الحلبة فرس أهضم قط. وقال محمد بن سلام لم يسبق الحلبة أبلق قط ولا بأقاء.

والهداية في الحمام والقوة على بعد الغاية إنما هي للضممة من الحضر. وزعموا أن
 الشيات كلها ضعف ونقص، والشبة: كل لون دخل على لون. وقال الله جل وعز: ((قَالَ إِنَّهُ
 يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَامَةً لَاشِئَةٍ فِيمَا)). وزعم عثمان
 ابن الحكم أن ابن المذكرة من المؤنث يأخذ أسوأ خصال أبيه وأردأ خصال أمه فتجتمع

(١) السمع بكسر السين وإسكان الميم وبالعين المهملة: ولد الذئب من الضبع وهو سبع مركب فيه شدة الضبع
 وقوته وجراءة الذئب وخفته (راجع حياة الحيوان للذميري ج ٢ ص ٣٢). (٢) العسبار بكسر العين وبالسين
 الساكنة والأنثى عسبارة: ولد الضبع من الذئب وجمعه عسبار (راجع حياة الحيوان للذميري ج ٢ ص ١٣٩).
 (٣) الخلاسي: الولد بين أبوين أبيض وأسود، والديك بين دجاجتين هندية وهارسية. (٤) الورداني
 بالراء المهملة طائر متولد بين الوردان والحمام وله غرابية لون وظرافة قد.

فيه عظام الدواهي وأعيان المساوي، وأنه اذا خرج كذلك لم يُجمع فيه أدب ولا يطمع في علاجه طيب، وأنه رأى في دور تقيف فتي أجمعت فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يوم آلا وهم يتحدثون عنه بشيء يصغر في جنبه أكبر ذنب كان ينسب اليه .

وزعمت أن الكلب في ذلك كالحنثي الذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخصي الذي لما قُطع منه ما صار به الذكر فخلاً نرج من حد كمال الذكر يفقدان الذكر، ولم يكمل لأن يصير أنثى للغريزة الأصلية وبقية الجوهرية؛ وزعمت أنه يصير كالنبيذ الذي يفسده إفراط الحر، فيخرجه من حد الخل، ولا يدخله في حد النبيذ . وقال مرداس بن خذام :

سَقِينَا عَقَالًا بِالنَّبْوِيَةِ شِرْبَةً * فَمَالَتْ بُلْبُ الكَاهِلِيَّ عِقَالِ
فَقَلْتُ اصْطَبِحْهَا يَا عِقَالُ فإِذَا * هِيَ الخمرُ خَيْلَنَا لَهَا بِخَيْالِ
رَمَيْتُ بِأَمِّ الخَلِّ حَبَّةَ قَلْبِهِ * فَلَمْ يَنْعِشْ مِنْهَا ثَلَاثَ لَيَالِ

بفعل الخمر أم الخل قد يتولد عنها، وقد يتولد عن الخل اذا كان نحرًا مرة الخمر .

وقال سعيد بن وهب

هَلَا وَأَنْتَ بِمَاءِ وَجْهِكَ تُشْتَمَى * رُودُ الشَّبَابِ قَلِيلُ شَعْرِ العَارِضِ
فَالآنَ حِينَ بَدَتْ بِجَذِّكَ لِحْيَةً * ذَهَبَتْ بِمِلْحِكَ مَلءَ كَفِّ القَابِضِ
مِثْلَ السُّلَافَةِ عَادَ نَحْمَرُ عَصِيرِهَا * بِمَدِّ اللِّذَاذَةِ خَلَّ نَحْمَرُ حَامِضِ

ويصير أيضا كالشعر الوسط والغناء الوسط، والنادرة الفائرة التي لم تخرج من الحر الى البرد فتضحك السن ولم تخرج من البرد الى الحر فتضحك السن .

باب الرسائل

١ - الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة في كل فن^(١)

كتب رجل الى صديق له :

إن آباءك شادوا أكارمهم بالفضائل التي كانت فيهم ، وإنك قد كنت أخذت في مدرجتهم فأوفيت على غايتهم ، ثم آخلك الهوى ببعض جديتك وجودك ، من لباس فضلك الذي كنت تطول به على أكفائك ، وتملك به أعنة كافة جنلك ، وألقيت مالك بلى شر عواقبه عليك لا لك إن زلت مكاره بوادره عنك .

فصل - قيل : إن مروءة الرجل في نفسه نَسَبٌ لقوم آخرين ، فإنه إذا فعل الخير عُرف له ، وبقي في الأعتاب والأصحاب ، ولقيته يوم الحساب .

فصل - إن حق الله على المسلمين أن ينظروا في دينهم بالنصيحة لأئمتهم ، فإن الأئمة إذا صلحوا بُدِّل الهوى بالتقوى في قلوبهم ، وماتت سورة الغضب فيهم لأحلامهم ، وسكنت العامة الى عدلهم وذات لإنصافهم . وإذا كان للحسن من الحق ما يُقنعه ، وللظالم من النكير ما يَقْمَعُه ، بذل المحسن الحق عليه رغبةً ، وذلل المسيء بالحق عليه رهبةً . فأقول ما أمرك به رجاء الله وتقواه . فأما رجاءه فإن تُحْسِنَ به في الصنيع إذا أطلعتَه ، ويكون لك وقاية إذا آثرته مطمئنا . وأما تقواه فإن تكون له فيما أمرك به ونهاك عنه مُراقِباً ، فإن تَقِيَةَ المؤمن تزيد في أنشراح صدره ، وإن شدة خوفه تردَّ هواه على عقله .

(١) نقلا عن اختيار المنظوم والمتنور لابن طيفور .

(٢) الجديلة : الناصية والحالة والطريقة .

فصل - تبه اذا بُهت، وأذكر اذا ذُكرت، وأنتفع فقد وُعِطت، وأسمع فقد نُوديت، نهبك الوعيد، وحذرك الزاجر، وأمرك ونهالك الكِتاب، ونعتك آثار الموت، ودعاك الى الجنة مليء جواد، فالخذ الخد، فقبل المهجرة يُريح المدلج .

فصل - ما نظرت في معروفى عند أحد، فوجدته قُصر عن أمله وكان يمكننى أن يكون أكثر منه، إلا عددته سيئة لى عنده، لآنى ذوقته ما أحب، ثم منعته إياه، وكأنى قصدت لإشخاص قلبه . ولا نظرت في معروفى عند أحد فوجدته قد تنهى عند تنهى أمله وكان يمكننى أن يكون أكثر منه، إلا رأيتنى في ذلك واثراً لنفسى، لأنه كفى عيباً لها وإزرأ بها، أن أقنع ... فضل تتخذه بمثل ما أقنع رجلاً من فضل يتخذه عليه .

فصل - ما أنت ممن يعلم من جهل به، ولا تُحس منه بادرة زلة، ولا يقابل بين أمرين إلا عرّف خيرهما فأثره، وشَرهما فاجتنبه . وقد رأيت ما ساقى اليك الطاعة من حظ العاجلة، فلا تتعرض لزوال ما أنت فيه، فتخسر الحظين، وتتدم في الدارين؛ فقد رأيت من عاند الحق كيف صرعه الله وبسط يده ووليه على سفك دمه، وإحلال النعمة به، فصار بعد أن كان فى الأمانة مثلاً، ولجميع الخلق غاية وأملاً، فكرة فى الاعتبار، وعِظة للأبصار . فلا يُبعد الله إلا من ظلم وخرّ، وذهب عن الحق وأدبر . وأنت اليوم مُحكم فى أمرك، مخير فى رأيك، تُدعى الى حظك بالحظ الجزيل بتدليل . فاهتبل ما قد هدّ لك وهو ممكّن ليدك، فإنك إن أهملت وتراخيت، لم يكن بالحق ووليه وحشة اليك، ومضت أحكام الله فى نصرها وتأبيدها على أذلالها^(٢)، وصفرت يدك بما لا يُشرف لك بمثله، وأخطرت بدمك وأسأته أخبت مسيل وأضل سبيل، حيث لا تبكى عليك السماء والأرض .

(١) بياض فى الأصل . ولعله : أن أقنع نفسى بفضل أتخذه بمثل ما أقنع رجلاً الخ .

(٢) على أذلالها : على وجوهها وطرقها .

فصل — الناس رجالات : عالمٌ لا يَغْنَى به عن الازدياد، وجاهلٌ به أعظم الحاجة الى التعلم ، وليس في كل حال يكون العالم لما يبيده من الأمور مُعِدًّا ، ولا المتعلم على ما يستفيد منه قادرا وفيًا .

فصل — إن أنت عطَّلتنا من أمورك ، وأعفيت ظهورنا من أئمتك ومؤؤنتك ، وتركنا أغفالا في ولايتك من تنبيهك وتحريكك ، فقد أنزلتنا منزلةً من لا خير عنده، وجعلت نفسك أسوةً من لا معين له ، وكفى بذلك ظلما .

فصل — إن إعلامي إياك ... غير محدد شينا ، ولكنه أقرب من الجميل في معرفة عذر المعتذر، وأحمل للأئمة على المسيء المقصر .

فصل — الذي أعتمدنا عليه من رأيك ، ونثق به من جميل نظرك ، قد خطنى بأهل صنائعك ، والخاصة من نقاتك ، وبسَطَ أُملى فيك الى غاية خير يرتجى ، أو جزيل حظ يؤمل .

فصل — ليس يسوغ لأحد في الأمير أَمَل ، ولا يتوجه اليه منه رغبة ، ولا يلزمه في قضاء حقه ، ودنانة مؤؤنته إلا وفضلُه مستغرق لها .

فصل — من أحمَد الأمور وأجمل المذاهب ، ما كان آخره موصولا بأقوله ، ومؤدبًا بدؤه الى حمد عاقبته ، فحافظ على الأمور التي حَسُنَ فيها عند أمير المؤمنين أترك ، مستقلاً فيها لكثير ما يكون منك ، مُعْتَدًا بها في النعم عندك ، والإحسان الواصل اليك ، فيما يوفقك الله له منها ويخصك به من الفضل في اختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك ، ويستمتع به في النعمة فيك .

فصل — قد كان يجب أن تجعلنا بمتابعة النعم علينا في خاصة الشاكرين لفضلك ، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات الينا في عاقبة الشاكرين لك .

(١) يياض في الأصل . ولعل الكلمة المتروجة «بحاجتي» . والظاهر أن لمة «محدد» محرفة عن كلمة «مجد» .

(٢) كذا بالأمل .

فصل - عَلِيٌّ بِمَا بَنَى اللَّهُ عَلَيْهِ أَخْلَاقَ الْأُمِيرِ أَكْرَمَهُ اللَّهُ ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ رَأْيَهُ فِي بَسْطِ الْعَدْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِ ، وَبَثَّ الْفَضْلَ عَلَى مُلْتَمِسِي فَضْلِهِ ، يَعْنِي عَلَى الْكُتَّابِ فِي مِثْلِ مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ فِيهِ ، مِنْ ظُلَامَةِ مَظْلُومٍ يَسْتَعِينُ فِيهَا بَعْدَهُ ، وَحَاجَةِ مَلْهُوفٍ يَرْجِعُ فِيهَا إِلَى فَضْلِهِ ؛ فَأَجْمَعُ إِلَى مَا أَلْتَمِسُ مِنَ الثَّوَابِ فِي ذَلِكَ مُوَافِقَةً رَأَى الْأُمِيرُ ، وَإِذْ كَارَهُ مَا يَجِبُ أَنْ يَذْكُرَهُ ؛ فَزَادَ اللَّهُ الْأُمِيرَ مِنْ نِعَمِهِ ، وَأَوْزَعَهُ مِنَ الشُّكْرِ عَلَيْهَا مَا يُوجِبُ لَهُ تَتَابُعَهَا عِنْدَهُ ، وَتَرَادُفَهَا لَهُ .

فصل - أَنْتَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِنْ أَحْتَمَلِ الصَّنِيعَةَ ، وَقَبِلِ الْأَدَبَ ، وَصَدَقَ الْخَيْلَةَ وَخَلَصَ عَلَى الْمُنْحَنَةِ وَحَسَّنَ الظَّنَّ ؛ فَاسْتَقَامَتْ طَرِيقَتُهُ وَقَدِمَهُ جَمِيلٌ مَذْهَبُهُ وَأَنَارُهُ ، وَجَرَتْ عَلَى قِصْدِ السَّبِيلِ طَاعَتُهُ ، وَأَشْتَدَّتْ عَلَى السَّرِيرَةِ وَالْعَلَانِيَةِ مُنَاصِحَتُهُ ؛ فَأَصْبَحَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتَنَاهَى فِي بَرِّكَ وَتَكْرِمَتِكَ ، إِلَّا رَأَىكَ مُسْتَحِقًّا لَهَا وَلِمَا فَوْقَهَا ، وَلَا يَرْفَعُكَ إِلَى دَرَجَةٍ إِلَّا رَأَىكَ أَهْلًا لِأَشْرَفِهَا ، صُنْعًا مِنَ اللَّهِ لَكَ بِمَا وَقَفَّكَ لَهُ مِنْ طَاعَتِهِ ، وَوَهَبَ لَكَ مِنْ جَمِيلِ مَرَاتِبِهِ ، وَالْمَكَانِ مِنْهُ وَالْأَثَرَةَ عِنْدَهُ .

فصل - فَضَّلْ مِشَارَكَتَنَا بِإِيَّاكَ فِي مَحْبُوبِ الْأُمُورِ وَمَكْرُوهِهَا يَجْلِسْنَا فِي السَّرُورِ بِالنِّعْمَةِ عِنْدَكَ - بِخَدِّدِهَا اللَّهُ لَكَ - وَيُوجِبُ الشُّكْرَ بِمَا يَكُونُ لِحَقِّهَا قَاضِيًا ، وَلِلزَّيْدِ فِيهَا مُوجِبًا .

سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ - شُغْلِكَ يَقْطَعُنَا عَنْ مَطَالِبَتِكَ بِالْحَقِّ فِي جَوَابَاتِ كُتُبِنَا إِلَيْكَ ، وَصَدَقُ مَوَدَّتِنَا لَكَ يَمْنَعُنَا مِنَ التَّقْصِي فِي الْحُجَّةِ عَلَيْكَ ، وَمَنْ يَكُوكُ إِلَى رَأْيِكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفِي بِكَ إِلَّا لَكَ ، صَلَاةَ إِخْوَانِكَ وَالتَّعَاهُدَ لَهُمْ مِنْ بَرِّكَ ، بِمَا يُشْبِهُ فَضْلَكَ وَالتَّعَمُّدَ عَلَيْهِمْ فِيكَ .

وَفَلَانُ بِنِي وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ أَقْدَمَهُ بِهَا عَلَى الْأَخْوَةِ ؛ لِأَنَّكَ تَعَلَّمَ قَرَبًا مَا بَيْنَ الْمَوَدَّةِ وَالقَرَابَةِ ، وَقَدْ بَلَّوْتُهُ عَلَى الْحَالَاتِ كُلِّهَا ، فَلَمْ يَزِدْنِي آخْتِبَارُهُ إِلَّا آخْتِبَارًا لَهُ ؛ وَلَا أَعْلَمُ بِالْعَسْكَرِ جَلِيلًا إِلَّا وَهُوَ لِي صَدِيقٌ ، يَشْكُرُ بِشُكْرِهِ وَيُوجِبُ عَلَى نَفْسِهِ الْمِنَّةَ فِيمَا آتَى إِلَيْهِ ؛ فَأَقَامَ مِنْ بَيْنِ إِخْوَانِهِ فَلَسْتُ أَعْدِلُ عَنْ قِضَاءِ حَقِّهِ ، وَلَا أَتَأَخَّرُ عَنْ مَعْرُوفِ أُسْدِي إِلَيْهِ ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ

تُحِلُّهُ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ بِنَفْسِهِ وَسَلَفِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ سُوقَ الْإِحْرَارِ أَنْفَقَ مِنْهَا عِنْدَكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ؛ أَيْقِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَقْيَمِكُمْ وَرَحِمِ مَاضِيَكُمْ .

فصل - إنَّ أَحَدًا لَيْسَ بِمُسْتَخْلِصٍ شَيْئًا مِنْ غَضَارَةِ عَيْشٍ إِلَّا مِنْ بَيْنِ خِلَالَ مَكَارِهِ ، فَمَنْ أَنْتَظَرَ بِعَاجِلِ الدَّرَكِ أَجَلَ الْأَسْتِقْصَاءِ سَلَبَتْهُ الْأَيَّامُ فُرْصَتَهُ ، لِأَنَّ مِنْ صِنَاعَتِهَا السَّلْبَ ، وَمِنْ شَرَطِ الزَّمَانِ الْإِفَاتَةَ .

فصل - إنَّ الْأَمِيرَ قَدْ جَلَّ فَضْلُهُ عَنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ وَصْفٌ ، أَوْ يَأْتِيَ عَلَى تَعْدَادِهِ اجْتِهَادٌ ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ أَكْثَرَ مِنَ الشُّكْرِ لَكَانَ الْأَمِيرُ يَسْتَحِقُّهُ عَلَيْنَا ، وَيَسْتَوْجِبُهُ مِنَّا .

فصل - قَدْ أَصْبَحَ الْمُخْتَلِفُونَ بِمُجْتَمَعِينَ عَلَى تَقْرِيزِهِ وَمُدْحِهِ ، حَتَّى إِنَّ الْعَدُوَّ يَقُولُ أَضْطَرَارًا مَا يَقُولُهُ الْوَلِيُّ اخْتِيَارًا ؛ وَالْبَعِيدُ يَثِقُ مِنْ إِنْعَامِهِ عَلَيْنَا بِمَا يَثِقُ بِهِ الْقَرِيبُ خَاصًّا .

فصل - الْمَائِلُونَ إِلَيْهِ بَيْنَ نَعَمٍ مُكْتَنِفَةٍ مِنْ تَالِدٍ بِهِ يَسْتَدِيمُونَهُ ، وَطَارِفٍ مِنْهُ يَسْتَعِيدُونَهُ ، وَمَوَاهِبَ مُتَجَدِّدَةٍ ، وَفَوَائِدَ مُتَرَادِفَةٍ ؛ هِيَ مَبْسُوطَةٌ بِهِ إِلَى بَرَكَةِ أَيَّامِهِ ، وَعُلُوُّ حَظِّ^(١) مَنْ آتَصَلَ بِهِ ، فَزَادَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَزَادَ أَوْلِيَآءَهُ بِهِ وَبِرَكَّةِ دَوْلَتِهِ .

فصل - أَعْتَمَدْتُ أَحَا لَا يَدْتَمُ إِخَاؤُهُ ، وَلَا تُشْكِرُ أَحْوَالَهُ ، عَلَى بَعْدِ الدَّارِ وَقُرْبِهَا ، وَاتِّصَالَ الْمَكْتَابَةِ وَأَنْقِطَاعِهَا ؛ تَجِدُهُ مُتَصَرِّفًا مَعَكَ فِي الْخَطُوبِ الَّتِي يَطَّرُقُ بِهَا الزَّمَانُ ، وَيَدَّ لَكَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يُمْتَحَنُ فِيهَا الْإِخْوَانُ .

فصل - أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مَا تَطُولُ بِهِ فِيهِ مِنَ الْجَلَالَةِ فِي الْقُلُوبِ وَالْعْيُونِ عِنْدَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ مَوْصُولًا بِالْإِنْسَاءِ فِي مُدَّتِهِ ، وَالْإِدَامَةِ لِعَزِّهِ وَسَلَامَتِهِ ، وَالْأَعْلَاءَ لِيَدِهِ وَكَلِمَتِهِ .

أحمد بن يوسف - عندي فلان وفلان ، فإن كُتِمَا مِنْ شَأْنِكَ فَقَدْ آذَنَّاكَ .

فِي صِفَةِ حَرْبٍ - كَانَتْ لَكُمْ الْكِرَّةُ ، وَعَلَيْهِمُ الدَّبْرَةُ ؛ فَعَمَلُوا حِمْلَةً كَاذِبَةً ، أَتْبَعْنَاهَا بِأُخْرَى صَادِقَةً .

(١) فِي الْأَصْلِ : « حَفْطَةٌ » وَالسِّيَاقُ يَقْتَضِي مَا أَتَيْنَاهُ .

فصل في هدية — قد أهديتُ اليك من فنون كلامي وعيونِ مقالِي، دفترًا ظريف المعاني، شريفَ المباني، صحيحَ الألفاظ؛ يَلدُّ بأفواه الناطقين، وَيَلين على أسماع الصامتين.

فصل في شفاعة — لفلان قَبْلَكَ حاجة، ليس يحتاج فيها الى مَعْدَلَتِكَ وَنَصْفَتِكَ المبسوطتين لمن لا يتوسَّل بِخُلُطَتِكَ ومعرفتك، ولكنَّه يريد ما في ذلك العِصْدَل والإِنصاف من الرفق والإحسان المَذْخُورينِ لِلخَاصَّةِ والإِخوان.

فصل لرجل تميمي — ضَعُفَ حالي يدعوني الى كثرة الطلب، ومَعْرِقِي بِجَمِيلِ رأيك تَحْجِزُنِي عن الإلحاح عليك، خَوْفًا أَنْ أَكُونَ جاهلا بعنايتك، وحسن نظرك، والكرم يستحي بعضه لبعض، وَيَبْعَثُ بعضه بعضًا، ودين حيلته الغير على العقود، فبعثه كرمه للنهوض، أودعاه هواه الى المنع، بخاءه عقله على البذل؛ وحالي جانحة لَدَى فضلك ونعمة الله عليك من سَدِّ خَلَّتْها، ومدَاوَاةِ عِلَّتْها بِجاهك الواسع، وَرِفْدِكَ النافع.

أحمد بن يوسف — قد بَدَلتَ لنا من نفسك أَعزَّ مَبْنُولٍ وَأَنفَسَه، والمودَّة التي كلما يُعْجِدُ من صاحبها، فهو لها نافع. وثَقُّنَا بِكَ واستنامتُنَا الى ناحيتك، على أحسن ما أكَدَّ اللهُ بَيْنَنَا وبَيْنَكَ. وإن كان مدى اللقاء بَيْنَنَا لم يَطُلْ فَأَنْزِلْ مِنْهُ ما يَرعاه أهلُ الوفاء والمخالصة، وَيَقْصُرُ في المحافظة عليه وعلى أكثر منه، من دُخِلَتْ نِيَّتُهُ، وَضَعُفَتْ خُلَّتُهُ.

فصل — قد أَصْبَحْتَ لِلخَاصَّةِ عُدَّةً، وللعامة عِصْمَةً، وللأنام ثقة في مناصحتك.

فصل في الصفح لأبي علي — إنَّ الذي قَرَطَ مِنْكَ، وإن تجاوزَ مِنِّي ما أَرْضاه لك، لم يَبْلُغْ ما يُغْضِبُنِي عليك؛ وحيث انتهى ما يخالفتني من قولك وفعلك، فإن وراءه تَعَمُّدًا مِنِّي لإسآءتك وَصَفْحًا عن زَلَّتِكَ؛ فإن تَأَمَّنَّا لا نَحْنُكَ، وإن يسؤ ظنُّكَ فإنما نحتاج الى إصلاحه منك.

أحمد بن يوسف — الى ابراهيم بن المهدي في هدية استقلها :

بلغني استقلالُك لِمَا أَلْطَفْتُكَ، والذي نحن عليه من الأُنس سهَّلَ علينا قَلَّةَ الحُشْدِ لك في البر، فأهدينا هديةً مَنْ لا يَحْتَسِمُ الى مَنْ لا يَغْتَمُّ.

كتب عَقَّال بن شَبَّه - الى خالد بن عبد الله في شفاعته :

إن الله انتجبك من جوهره كرم ومنتبت شرف، وقسم لك خطراً شهرة العرب وتحديث به الحاضرة والبادية، وأعان خطرك بقدره مبسوطه، ومنزلة ملحوظة، بجميع أكفائك من جماهير العرب، يعرف فضلك، ويسره ما خارا الله لك، وليس كلهم أداله الزمان ولا ساعده الحظ؛ وأنت أحق من تعطف على أهل البيوتات، وعادلهم بما سبق له ذكره ويحسن به نشره، مثلك. وقد وجهت إليك فلانا، وهو من ذرية قراحي، وذوى الهيئة من أسرتي، وعرف معروفك؛ وأجبت أن تلبسه نعمتك وتصرفه الي وقد أودعتني وإياه ما تجده باقياً على النشر، جميلاً في الغب.

فصل في التوديع

استودع الله الأمير بأحسن وداعه، وأسأله أن يجعله في كنفه وحرزه، فقد أكرم المثنوي، وأحسن الابتغاء؛ فأطال الله له البقاء، وأدام عليه النعماء.

في الصفح

بلغني كتابك، تذكر كتابي اليك بوضعي عنك مؤجدي، ورددي لك الى أحسن ما عهدت من منزلتك عندي؛ وقد حالت منا المحل الذي خلطناك فيه بأنفسنا، وأدخلناك منه مداخل أهل نقتنا؛ ولست نؤتي من جهالة بما أنت فيه، ولبعض ما أنت عليه من التجارب تُستفاد بمثلها العبر، ويتنفع بها في عطف الأمور.

جواب في فتح

كتب سالم بن هشام الى يوسف بن عمر حين قتل زيد بن علي رحمة الله عليه :
قد بلغ أمير المؤمنين كتابك بما أبلى الله في مدره السوء، وأنه لما عضتهم الحرب، وآلمهم الحديد، عادوا بالمسجد الجامع، قد أكدب الله ظنونهم، وخذل مخرجهم، وقتل إمام ضلالهم؛ وحفظ لأمر المؤمنين ما ضيعوا من حقه، وحاط له ما أباحوا من الغدر فيه؛ وقد رأى أمير المؤمنين أن يجعل من شكر الله على نعمه، الصفح عنهم، وتعمد حرهم

وأن يعمهم من عدله ، بما يردّ به الجاهل عن جهله ، والغوي عن غوايته ، ويعلمون مكانه من الله ، واستجابته لعزّه ونصره ؛ وأنه الخليفة المتّقى ، والإمام المتألف ؛ وأنه يُقدّم العفو في الطاعة ، على الحجّة في العقوبة ، والحسبة في الاستصلاح ، على القوّة في التأييد ؛ فأمسك عنهم بيدك ؛ فإن أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّ الله ، ورجا به ما ليس ضائعا عنده من ثوابه .

في الصفح عن الجفاء

لو كان من نازع الى الغدر ، قلّناه عنان الهجر ، لم يكن أقرب منا الى الذنب ، ونحن نردّ عليك من نفسك ، ونأخذ لنفسك منك ، حتى يكون تركنا إياك ، وعذرنا فيه وافرا .

فصل — الحمد لله على البلية التي طال أمدها ، وبعد ما بين طرفيها .

آخر — آفقت في التثبت أناة ذوى الحجى ، وقدمت المقدم من الأناة على العجلة ، وأطعت في أمرك النظرة ، وانهيت الى العُدرة والمعرفة ، فملك ما ملكك ، وحكمت على الذى حكم عليك ، فأخذت مثل الذى أعطيت .

فصل — بدء أسباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها ، والخيرة بعد الله عزّ وجلّ .

فصل اعتذار

لو كان الناس يقضون الحقوق التي يجب عليهم ، ويحافظون على الأمور التي تلزمهم ، لقلت للأئمة ، وخلصت المودة ، وارتفعت أسباب العتاب ؛ ولكنهم عجزة منقوصون ، يضعفون عن العلم ، بأكثر ما تدركه عقولهم ، وتوقعهم عن ذلك أشغال لا يجب بها العذر ، ولا تستحق الإيثار ؛ ولم أزل عاتبا على نفسى فيما ضيّعت من مكاتبتك ، مع معرفتى بفضلك ، وموقع ذلك عندك ، وما اعتذارى اليك ، سوء ظنّ بك ، ولا مخافةً للامتك ؛ ولئن فعلت ما ظلمت ؛ غير أنّى أحببت أن أكفيك المؤونة ، فيما عسيت أن تنقبض عنه من مقايستى ومعاتبتى ؛ وأنا أحب أن تقبل العذر ، وتعين على مستقبل البرّ .

فصل - أنت في زمان إن لم تغالط أهله ، وتختلهم على ما في أيديهم ، وتصبر على مكاره الأمور بعد المطالبة ، لم تصل إلى شيء ، ولم تجد أحدا ما على فضل منك وإن عرفه فيك ، ولم يفتسه من محاسنك شيء ، إلا رأى في مساوئ غيرك عوضا منه ؛ فكان بذلك أتلج ، واليه أسكن ؛ فعليك بالصبر ، فإن غايته إلى خير ، وأقل ما فيه أن صاحبه لا يلوم نفسه ، ولا يلومه أحد ، ولعاً يظفر أو يدلل .

إلى المأمون من عامل

قل من يسارع إلى بذل الحق من نفسه ، إذا كان الحق مضرا به ، وقل من يدع الاستعانة بالباطل ، إذا كان فيه صلاح معاشه ، وسبب مكتسبه ؛ وإذا تفرق الحق في أيدي جماعة فطولبت به ، تشابهت في الكره لئله ، وتعاونت على دفعه ومنعه ، بالحيل والشبه قولا وفعلا ؛ واحتاج المبتلى باستخراج ذلك الحق من أيديها ، إلى استعمال مجاهدتها ومصابرتها على الحيلة في مدافعتها .

ابن الكلبي

كان خبر ما أهلك الله في فلان بعد أمانه ما عزمتم عليه من الأمان ، خبرا عظم مكانه من أمير المؤمنين ، وحسن موقعه من الدين ؛ ثم ردف خبرك بإذعانه عند ما عضه من بأسك ، ومسه من مؤلم إيقاعك للاستسلام ، وطلب عقد الأمان ؛ وإنك بذلت له ما طلب لا لرهبة بقيت في ناحيتك ، إلا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه ؛ فكان إباؤه ما عرضت عليه في أول أمره ذخيرة حظ فيها كشفت عنه البلوى من محمود أثرك ، واجتمع لك في ذلك حفظان : الظفر آخرا ، والدرك لما حاولته أولا ، فلا زلت على نصيبك من الحظ ، مؤيدا بالنصر والمعونة ، والحمد لله على ما حقق من الظن ... من هذه النعمة على يدك وبسعيك .

(١) بياض في الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «وأتى» .

ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الى كتابك بخط يدك المباركة، فلم أرق قليلا أجمع، ولا إنجازا أكفا من إطناب، ولا اختصارا أبلغ في معرفة وفهيم منه؛ وما رأيت كتابا على وجاهته، أحاط بما أحاط، وضربت ظني في فلان فعظم ذلك سرورى، وقد يُستعطف الظالم، ويُستعجب المتجنى؛ وفي رفقك وعلمك بالأمر ما يصلح الفاسد، ويُذلل الصعب، ويُقيل المدبر؛ ولا يمنعك جور من جار عليك، من الاعتقاد في الحجّة عليه، والأخذ بالثقة في أمره، فإن الله عز وجل لم يجعل عليك في ذلك منقصة ولا غصاصة، بل فيه الإعذار والإنذار والاستبصار، وقضاء حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمن من الندامة.

فصل — أنا في حال عافية، نتجاوز الى حال نعمة، والحمد لله حتى يرضى، فقد أرضى؛ فأما ما أشرت به، وخبرت من إمضاء رأيك فيه، والإمساك عنه، فمثلك جعل لمن نصحه شركاء في كل أمره، ولم يجعل رأيه قرضا لبعضه أن يتعدى،^(١) وذكرت أدب فلانية، وعندنا لفلانة الطمع المستقبل مع الإنعام المتقدم، مع أنه لا شيء لها عندنا قل ولا جل، ولو كان ما استحللنا حبسه صفة كفف، ولا تغميض طرف؛ وذكرت أنه لا يستغنى مثلنا عن مثلها، وأبدال الله كثيرة عديدة، وما بان علينا فقد أحد ممن كان قبلها في دارنا، فحال بيننا وبينه حائل، ولا اختلنا له مع نظر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد هذا فأحسن الله جزاءك، وحاط لي فيك ما أحب منك، وكفالك المهم وكفانيه بك، فما تقوم نفس لو كانت لي أخرى مقامك في نصيحتي وبري، والاهتمام لي، بما أنا عنه ساهية لاهية من أمرى، لا أعدمنيك الله ولا النصيحة منك.

فصل — قال أبو جعفر الكرمانى للحسن بن سهل ووعده شيئا فأبطأ عليه:
أنا أعرف تكامل الثقة فيك، ورجاحة الفضل بك؛ وأعلم أن فعلك يربى على قولك، وأن إنجازك أكثر من وعدك؛ فقدم لي من كرمك، ما أثمره إلى أن يالحقه المتأخر

(١) بياض في الأصل. وما وضعناه يناسب المقام.

عنه ، وإلا فُدّلتني على ما أقول اذا سألتني من بعثته على شركك ، عما بلغه من الحظ على نيتك .
فقال الحسن : تقول ما ينبغي ، فقال : فافعل ما ينبغي أفله .

عمرو بن مسعدة

وصل الى كتابك ، على ظمأ مني اليه ، وتطلع شديد ، وبعد عهد بعيد ، ولوم مني على ما مستني به ، من جفائك ، على كثرة ما تابعت من الكتب ، وعدمت من الجواب ، فكان أول ما سبق الي من كتابك السرور بالنظر اليه أنسا بما تجدد لي من رأيك ، في المواصلات بالمكتبة ، ثم تضاعف المسرة ، بخبر السلامة ، وعلم الحال في الهيئة ، ورأيتك بما تظاهرت من الاحتجاج ، في ترك الكتاب ، سالكا سبيل التخلّص مما أنا مُحلّصك منه ، بالإغضاء عن إلزامك المحجة ، في ترك الابتداء والإجابة ؛ وذكرت شغلك بوجوده من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكنة ، لا أجشحك متابعة الكتب ، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب ؛ ويقنعني منك في كل شهر كتاب ، ولن [تُلزم] من نفسك في البر قليلا ، إلا ألزمت نفسي عنه كثيرا ، وإن كنت لا أستكثر شيئا منك ؛ أدام الله مودتك وثبت إخاءك ، وأستراح لي منك ؛ فرأيك في متابعة الكتب ومحادثتي فيها بخبرك موقفا إن شاء الله .

عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قد أتكده الله من حرمتي بك ، ووصل من الشعب ببنى وبينك ما جعله ذخيرة ليوم الحاجة ،
وعُدّة عند مُلمّ النازلة .

جبل بن يزيد

أما بعد فإن من صحب الدنيا لم يخل من تصرف أحوالها ، وكثرة معار يض بقاتعها ، في احترام الأنفس في خواصها ، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يهدّها ، ويفر من الأشياء عليها ؛ وكان ذلك لا سبيل الى دفعه ، ولا حيلة يُستعان بها عند نزوله ، إلا الرضا عن الله عز وجل فيما قضى ، والتسليم لأمره في كل ما أتى ، والسكون الى الأسوة التي نهج الله سبلها ، وخفف

(١) السياق يقض ، وضع هذه الكلمة ، وهي متروكة في الأصل .

بها مواقع المصيبات على أهلها؛ ثم الرجاء بعد ذلك لحسن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لزم أمره وأجشم نفسه مكرهها في مواطن الصبر على المصيبة، والشكر في حال العافية .

وله في المطر

قد كنتُ كتبتُ الى أمير المؤمنين أعلمه المَطْرَةَ التي أصابتنا، وما أنزل الله بها من رحمته ثم عادت لنا بعدها من الله عائدةً رحمةً، بوليٍّ مَطْرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر وبالجمود، لا يفتر غزيره ولا يرعوى جوده، إلا الى ديمة عن ديمة، يتراخى اليها يسيرا ريثما تعود، فأقامت علينا سماءه مُستَهْلَةً بذلك وكذلك الى غروب الشمس؛ ثم أقطع مطرها بسكون من الريح، وتثور من القتر، وفضل من الله عظيم، ينشر به رحمته، ويبسُّط به رزقه، فأسبغ النعمة، وأوسع البركة، وأوبق بحمد الله معارف الخصب والحى . والله محمود على آلائه ومشكورٌ على بلائه، وما أنزل الله من سُقياه ورحمته، بعد الذي أقبلت به السنة البرية والقحط وعدم الإمطار، وشدة ما بلغ الناس من القنوط وسوء الظنون .

وله الى بعض إخوانه

أما بعد، فإن أعظم الأمور فيما بين الناس حقاً أمران: منهما الإخاء في الدين، فهو سبب وصية الله بين عباده بالألفة والمحبة التي آتقطعت بها قرائن القلوب من بعضهم الى بعض، فاتصلت بجبايلهم مرأثر حبلها، وتقطعت فيما بينهم عاطفات وصلوا؛ ومنهما مجاملة جميل الأعداء، وحفظ ما يحق لأهل حسن البلاء؛ ثم الصنائع بعد ذلك في مواقعها فضائل بقدر ما جرت به أسبابها ولطفت مداخلها .

فصل — الصناعة ليست يزيدها الأخلاق الجميلة، ويزيد في أسبابها أوامر المودة؛ وقد جعلك الله في صناعتك مقدماً، وفي مودتك مُتَفَضِّلاً؛ فلا زالت عنك نعم الله، ولا برحت سكا لإخوانك، وأنسا وموضعا لما تستميحون من معروفك، ويستميرون من يدبرك .

فصل - إنَّ لك من قلبي لموضعا معمورا بالموَدَّة والثَّقَّة ، والاسترسال
والأَنَسَة ، فلا تُتَّخِج فلانا من سعة جميل بركِّك ، الى عُقْبِي استحقاقه .

آخر

قد طالَّت الصبابة اليك ، ولدهم عَقَبٌ عائِدة بالنفع والصنع ، ولا سِيَّما لمن كان على
مثل شاكلك في أدبك وفضلك وإنصافك إخوانك وبرِّك بهم ، وما توجبه على نفسك
لهم مما يُقَصِّرون عن شأوك فيه .

الكلبي

كان أسلافنا تقارضوا دُونَنا من الصفاء يَسْتَأْذِنُها كَلَّ عَقِب من صاحبه ، وقد أورثونا
موَدَّة لا نَعِجْزُ عن اكتساب مثلها .

ابن أعين كاتب الخيزران

ليس يَكُونُ منك شيء وإن حَسُن ، إلا وحُسْن ظني بك يَبْلَغُه ، فاستمَّ أحسن ما كان
منك ، يتمَّ لك أحسن ما تُحِبُّ مني . ولا يَمْنَعُنكَ الاكْتِفَاءُ بِحَالِكَ اليَوْمَ من طلب الزيادة
في غد ، فإنه لَقَلَّ شيءٌ لا يَزِيدُ إلا نَقَصَ ، والزمان يَحَقُّ الكثير ، كما يربو على الزيادة القليل .

ابن الكلبي

أنت من أطول بمكانه وأثق بجميل رأيه ، وأعتمد على رِفْدِه ، وأرجو دَرَكَ كُلِّ فضيلة
به ، ومما أحبُّ عالمه مَقَرَّ نعم الله عز وجل لديك .

علي بن عبيدة الى ابن الكلبي

وصل الله أيام عمري باتباع موافقتك ، ولولا موعد أخذ علي ، لأطعتك فيما أمرت به ،
مُتَّبِعًا مع إجابتك سرور نفسي برويتك في السلامة .

أما بعد ، فإني أصبحت وقد استفرغ الأمير مني كلَّ موَدَّة ونصيحة ، ومبلغ جهد
وطاقة فيما عرفت له فيه موافقة .

فصل - فإن الذي شَعَبَ الله بيننا من التواصل والتكاتب، يدعوني الى متابعة الكتب اليك في تعهدِ حَقِّكَ ، وإن كان الخبر عن ظاهر الحال قَلَمًا يُغْنِي ، فإن له من الأُنس والموقع في الكتب ما ليس مُسْتَعْرَضَاتِ الأَخْبَار .

فصل - قد كُنْتُ أَعْلَمْتُ الأَمِيرَ انْقِطَاعَ بَنِي فِلَانِ الى فِلَانٍ ، بأهْوَاهِمُ وبصائِرِهِمْ وشراء ما قَبَلَهُ بِغَيْرِهِ ، وما كان وصل الينا في ذلك من الأمور التي حملوا إِصْرَهَا ، وَبَقِيَ لَنَا أَجْرُهَا وَذِكْرُهَا وَنَافِعَتُهَا وَسَابِقَتُهَا ؛ فَنَحْنُ عِدَّةُ الأَمِيرِ وَخَبَايَاهُ وَذَخَائِرُهُ ، وَمَنْ يَأْمَلُ يَوْمَهُ وَغَدَهُ ، وَلَا مُتَخَطِّئٌ لَهُ عَنْهُ وَلَا مُقْتَصِرٌ دُونَهُ .

عُمَارَةٌ

بلغني كتابك يصف كذا . فإن رأيتَ أَلَا تَعْتَمِدُ عَلَيَّ مَا لَصَقْتُ [به] من عذرِكَ ، وَأَطَعْتَ فِيهِ الهوى من قبول غفوك ، وتجعلني أحدَ مَنْ يُسِرُّ بِسِرِّكَ ، وتُشْرِكُهُ فِي مُهَمَّاتِ أُمُورِكَ ، فَإِنِّي أَحَدُهُمْ وَأَوْسَطُهُمْ عِنَايَةً بِمَا عَنَّاكَ وَتَوَسَّطًا لِمَا عَمَّاكَ ، فَعَلْتُ .

فصل - والدنو من دارك إذ الدار جامعةٌ والحبل مُتَّصِلٌ ، إذ نحن في الاستيفاء بالخبر والعلم بِدِخْلَةِ الحَالِ ، بمنزلة من كَأَنَّهُ يُعَانِي مَنْ يَشْتَاقُ إِلَيْهِ وَيَصُوبُ بِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، حَتَّى نَأْتِيَ النَّوَى ، وَأَنْتَ فِي اللِّقَاءِ وَالْإِنظَارِ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ مَنْ لَا يُسَنَّكَ فِي صَفَاءِ غِيهِ ، وَصَدَقَ إِخَانَهُ .

فصل - مُشَارِكُنَا لِأَيَّاكَ فِي مَحْبُوبِ الأُمُورِ وَمَكْرُوهِيهَا يَحْتَلِنَا مَحَلَّكَ فِي السَّرُورِ بِالنِّعْمَةِ يَحْدِدُهَا اللهُ لَكَ ، وَيُوجِبُ مِنَ الشُّكْرِ عَلَيْنَا مِثْلَ الَّذِي يُوجِبُ عَلَيْكَ . فَوَصَّلَ اللهُ كُلَّ نِعْمَةٍ يَهْبُأُ لَكَ مِنَ الشُّكْرِ بِمَا يَكُونُ لِحَقِّهَا قَاضِيًا ، وَللَّذِي فِيهَا مُوجِبًا .

سعيد بن عبد الملك

كُتِبَتْ عَلَيَّ شُغْلٌ فِي قِطْعٍ مِنَ القِرطَاسِ ، وَلَمْ يَقْطَعْ بِي حَسَنُ الظَّنِّ بِكَ فِي قَبُولِكَ العِذْرَ ، وَتَحْسِينِكَ مَا أَنْتَ أَهْلٌ لِتَحْسِينِهِ ؛ فَإِنَّكَ تَقْبَلُ دُونَ حَقِّكَ ، وَتَهَبُ الذَّنْبَ فِيهِ ، فَيَكُونُ شُكْرُكَ

(١) فِي الأَصْلِ : « ... وَسَرَاهُ مَا قَبْلَهُ ... » : (٢) فِي الأَصْلِ « عَلَيْهَا ... » وَهُوَ لَا يُؤَدِّي الغَرَضَ المُرَادَ .

جاريا على سبيلين ، كلاهما يُبين لك عن فضلك ، ويوجب لك مالا يَقْصُرُ معه إلا مغبونُ
الحظ خسيسُ النصيب .

فصل — وقد ظهر من أمير المؤمنين في فلان بعد وفاته ، ما هو أدلُّ شاهدٍ على
حسن مُنْقَلَبِهِ ، وردَّ اليك من رأيه وتفقدته ما أرجو أن يكون فيه أعظمُ العِوض . والله
أسأل أن يتولى لك أمورك في السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والشكر وحسن العزاء .

جبل بن يزيد الى بعض إخوانه

تمَّ الله علينا وعليك النعم ، وأَجَزَلُ لنا ولك محاسن صالح القِسَم . إن الله تبارك وتعالى
أجرى بيننا وبينك لطيف مودّة ، وخاصَّ أخوة ، غير أن المعرفة قد تُحمد بعد الخبرة ،
والثقة إنما تعرف بعد التجربة ، وقد أحببتُ أن يعلم من قبلك الذي أحدث الله لك من
حال دولتك ، وأن يُعلم هل أبقت لنا منك النعمة سعةً ، أم تركت لنا منك صَفْحَةً نعرف
بها عهدك ونأملُ بها وصلك؟ فإن أصحاب السلطان ، بحال بلوى في التغيُّر والانتقال ،
إلا من نالته من الله تبارك وتعالى عصمة . فإن كنت على ما رجونا من الوفاء ، وحسن
الحفظ للمودة والإخاء ، فمثلك لم يرض لنفسه إلا بأجل الأخلاق وأوفقها للسداد . وإن
حجزك عن ذلك ما تأتي به الأقدارُ في مُتصَرِّف الليل والنهار ، تعذرُك بما تعذر به أهل
السلطان ، اذا غيرتهم الحال ، وتكرت شمائلهم بين الإخوان .

وله الى بعض إخوانه أيضا :

إعلم أنى اليك مشوق ، وأن صلة الإخوان كرمٌ ، وخير الصلّات ما لم يكن لها وجه
إلا الرجاء والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء ، فإن الذي يكتب إخوانه على حال
الرغبة يكفى القائل كتابه حيث شاء ، إن أحب مال به الى الصحة ، وإن شاء وضعه
للرغبة ، والرغبة أملكهما به . والذي يكتب إخوانه على حال الضرورة ، فقد يستقطع الصلّة
(١)

(٢) في الأصل : « ما قبلك » .

(١) في الأصل : « وأجلنا ... » .

(٣) في الاصل : « وأملكها ... » .

عند الحَدَثِ مخافةُ الملامةِ من الناسِ على القطيعةِ الشَّعاءِ المشهورةِ لإخوانه ؛ فإنَّ الذي لا مودةَ له قد يصلُ ذلك في تلكِ القطيعةِ بأهلِ البلاءِ .

والكِتابُ على مثلِ حالنا وحالكِ اليومِ شاهدٌ على أن ذلك ليس إلا صِحَّةَ الإخاءِ والشوقِ الى المحادثةِ بالكِتابِ ، حين لا يلومك اللائمونُ لمنزلةِ البلاءِ تلكِ اللائمةَ على التَّقْصِيرِ ، ولا يُوضَعُ منك الرغبةُ في الإطعامِ . إياك أن تعتلَّ بالأشغالِ أن كنتِ في خاصةِ نفسك ، فإن أداءَ الحقِّ وِصلةَ الإخوانِ أعظمُ الخاصَّةِ بك خاصةً . وإنما أمرنا في كلِّ هذا كأمرِك في الذي يَسْتَعْنِي مِن خاصَّتِكِ تلكِ التي لنا ، فإن لنا ما لك ، وهذه التي لنا لك ؛ أليس مامرنا سَرَكِ وما سلبناهُ حظا لك ، فهذه كذلكِ وذلكِ كهذي . واللهِ يوفِّقنا وإياك . وأنتِ أبا يوسفِ .

هكذا حال ما بيننا وبينك ما وصفتُ لأبي سعيدِ ، غير أنه سألنا أمرا لم يسألناه قطُّ ، فله فضلُ السبقِ علينا في المسألةِ ، ولنا فضلُ المنزلةِ عليكِ في اللائمةِ . ولن أدعَكَ والفعلُ ، دون أن تُشَفِّعه بالعملِ الذي هو صلةُ القولِ . وسلامُ عليكِ ورحمةُ الله ، وقضى اللهُ عز وجل بالحسنى لنا ولكِ .

فصل - أتاني كتابُك ، فأنعمتُ أن يسرني بسلامتكِ ، وما حق فيه كرمُ بركِ ، ولطيفُ عنايتِكِ ، ما لم أفقِد في حالةٍ من حالاتِكِ ، فكان الكِتابُ مُصدِّقا لما سلفُ ، مُبشِّرا بما يستأنفُ ، مُدكِّرا منك عهدا موصو^(٢) .

مثاله طرفي وقلبي ، مُلصقا ذكره بلساني وقلبي . فلا عِدْمَتُك ، بل أمتعني الله بك فأطال ، وكثرتني ببقائكِ .

فصل - أتاني كتابك فطامن قلبي وطرفي ، بعد ما كان شاخِصا اليه ، مُنشوقا الى رؤيته ، ثم ملائني سرورا ما رأيتُ فيه من آثارِ بركِ وكريمِ تفقدكِ . وأفضل ما عندي منك قبْلَه ، مما إن ذكرتهُ ، ففلاستراحةُ الى الذِكرِ ، وإن أمسكتُ ، ففلمعجز عن الشكرِ . فأما الضميرُ فمبني على الإقرارِ بفضلكِ ، والنيةُ خالصةٌ بشكركِ . وقليل ذلك لك ، فأعطاك اللهُ فأطاب ، ووهب فأجزل .

(١) في الاصل : « مخافة السلامة من الناس ... » . (٢) في الاصل بياض . (٣) في الاصل : « فالاستراحة ... » .

فصل - وصل الى كتابك نُحَيْلَ لي حين نظرت الى أثيريك تجرّى قلمك في بطن صحيفتك ، أنك ماثل بين عيني : أنظر الى شخصك وأسمع من لفظك ، فابتعث ذلك مني طربا شائقا ، وصباية هيجت الأحران وذكّرت الإخوان . وكنت من إخواني الذين أنخر بسلامتهم للوّد الذي أجرى الله بيننا وبينك ، فتواصلنا بحرمته ، وتعاطفنا بوصله .

فصل - إن الله جعل عاقبة كلّ نعمة وإن عظمت ، تبعاً لأولها ، وجعل الشكر عليها سبباً لتتمامها وموجبا لأحسن الزيادة منها .

فصل في شكر - فإن الله جعلك للخير معدّنا ، وللفضل موضعا ، فيما حملته نفسك من ثقل أعباء المروءة ، وحملتها عليه من عظام المكارم ، حتى صرت بما أنعم الله به عليك ، منتهى كلّ أمل وغاية كلّ رغبة . ثم البست النعمة لباس التواضع ، وناسبت في الأخلاق من سبقت به عليك الأمور ، حتى كأنهم في النعمة لك شركاء . وتحنّنت على الأقربين والمتقّرين من الاخوان والأكفاء ، حتى كأنهم لك ولدٌ ، وأجبرت نفسك حين ساعدك الدهر ، على طبيعة التقرب الى العامة ؛ فكلمهم يدلي اليك بدأو رغبته ، ويمتاع منك متاحة فضل ؛ فلا عدمتُ ألا نزال شِعش سَقْطَة ، وتُقبل عَثْرَة ، وتُسَدّ خلا ، وتُذيل أملا ؛ ولا عديم من شهد ذلك منك ، أن يَسْتَمّ هذه النعمة عليك وعلى نفسه ؛ فإن من سعادة العامة أن يجعل سآزها عند خيارها . ومن البلاء العظيم عليها الموجه لها ، أن يُخصّ شرارها بموضع رغباتها .

فاسلم كلاك الله بهذه النعمة ، غير مُنْغَص بها ، ولا مُكَدّر عليك صفوها ، حتى تُسألك النعمة العاجلة الى النعمة الباقية ؛ فإننا وإن علمنا أن من شأن الدهر الغدّران في العواقب فقد علمنا أنك فيما أهدى الله اليك من النعمة ، قد أدّيت حق الله عز وجل ثم حق إخوانك فيها ، فكنت أنحر من نال فضلك ، كرما في السناء ، ورضا في الأثرة ، غير مُتَطاولٍ لما نأمل ، ولا مُتَضَعِيعٍ لما تحذر ؛ فإننا تجزى شكر الماضي منك ، ورجاء الباقي ،

(١) في الأصل : "ولا مكدر عليها صفوها ..."

فترى تضيقاً منا في عقْد الرأى، وإزرأء بنا في وثائق الأمور، ألا تمنحك من أنفسنا مودة الولد ورقة الوالد . وإذا أعطاك أمرؤ ثمرة فؤاده، فقد فرغ اليك من جميع حقك ، لأن ذات يد امرئ في البذل أهون عليه من ذات نفسه في الشكر . وكفى لأمرئ من أمرئ أن يستولى عليه حتى لا يدع لغيره فيه فضلاً . وكفى بك لنا من غيرك . وكثير منا أن نقوى على أداء أدنى صنوف حقك ، غير أن أوثق أمورنا فيك عند أنفسنا ألا نسأم النظر الى فنائك بهيجين بك إن برزت، وعاذرين لك إن شُغلت .

فصل — إن الهدى والضلالة يقسمان دُول الأزمنة، لغير كرامة للباطل ، ولا هوان للحق . وأهل الحق كيف تصرفت أحوالهم في كرامة من الله عز وجل، ونعمة بين دولة تكون لهم ، يقومون لله فيها بحقه ويظهرون هداة ودينه، ودولة تكون للباطل ، يكونون فيها كهوفاً للغيرات ، ومعدناً للحسنات ، يستكثن الحق في صدورهم ، ويأوى البر والصدق اليهم ؛ فهم بين يومئ صبر وشكر، ليس أحدهما دون صاحبه في الفضل .

وأهل الباطل كيف تصرفت أمورهم بين سُخْط الله وعقوبته ، لأن الله تعالى لم يجعل للباطل قرجا لأهله ، وإن كانت لهم دولة كانت إملاءً واستدراجاً، وكانوا فيها على مدرجة هلكة وسبيل نعمة ؛ وإن كانت الدولة لأهل الحق ، كانوا فيها بين ذل وضميم ، وخوف وجزع ، وقد سدت عليهم المطالع ، وضافت عليهم الأرض بما رحبت . ففى أى يومئهم مستراحهم : أيوم دولتهم ، وهم لا يشكرون النعمة ولا يقطعون أسباب النعمة ؟ أم يوم علو الحق عليهم ، وهم لا يصبرون على المحنة ولا يُنصرون من العمى ؟ وأهل الحق بين حالى غبطة وحسبة ، وأهل الباطل بين حالى إملاء ونعمة .

فصل فى صفة الجند — إن الغالب على أهواء جماعة من فيئام أولياء الأمير وجنوده إعظام الأمير ومعرفة فضله ، والتقرب الى الله بحبته ومناصحته وطاعته، ومُعَاداة عدوه ؛ وتلك نعمة يعتدونها ويتقربون الى الله بها، ويتوسلون الى الأمير بخزى قوم خالفوا .

فصل - حل بين فلان وبين التشريد بهم والاجتياح لهم ، فإن ذلك أَرْضَى لربك ، وأجمع للألفة ، وأقومُ لعمود الخلافة الذي سدد الله دعائم الإسلام وأَسَّ الدين به . وأعلم أن مَنْ حاط الله دينه ، ورمَتْ عن فُوقه الجماعة ، وعادى أهلَ النقض لها ، ابتعثه الله آمناً من هول الحساب وضيق المحشر ، والله بنصره أحقُّ وأولى . وكن لله بحيث افترض عليك ، فإنه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ)** .

كتب جعفر بن محمد بن الأشعث الى رجل لم يكتبه

لست بما صرَفْتِ الى من معروفك بأسرّ مني ، بما أهديتِ الى من قضاء الحق عنك ، وقلة ذوى الحرمة بك ، لأنك قد تصل مَنْ لا يثق ولا يأنس الآب من يَعْتَمِدُ عليه .

كتب الفضل بن يحيى الى رجل يُساوره في أمر حَدَث

ليس كل امرئ وإن كان ذا عزيمة في رأيه ، وأصالة في عقله ، بمستغين عن مُكاشفة أهل الرأي ؛ لتوزيع الله عز وجل ، أقسام الفضل في خلقه ، وإشراكه إياهم ، في عطاياه ؛ فرأيك في كذا .

ركب ابراهيم بن المهدي الى أحمد بن يوسف ، فكتب أحمد

الى إسحاق بن ابراهيم الموصلي

عندي من أنا عبده ، ومُحِبُّنا عليك ، إعلامنا إياك .

توسل

توسل رجل الى رجل بمحمد بن عبد الملك وادعى قرابته منه ، وبلغ ذلك مجتهدا فكتب

الى المتوسل اليه :

بلغني أن رجلا ادعى قرابتي ، وأورد عليك كتابا ذكر أنه مني ، وما أنكر أن ينتفع بي

من توسل بنسبي ، إلا أنه من ادعى قرابته ، ولا قرابته له ، كان استعمال الشفاعة في أمره أولى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل

أسعدك الله بمحاربتك، التي بذلتَ فيها مُهجتَكَ، ومُهَجَّ مَنْ هو موصولٌ بك منّا .

محمد بن الجهم

وليس في جميع الناس أعدى لك : من صديق مؤمّل، أو حميم راجح، إن منعتَهما شتماك وبهتاك، وإن أعتَهما لاهمه اغتالاك .^(١)

محمد بن مسعر

قال : كنتُ أنا ويحيى بنُ أكرم عند سُفيان، فبكى سُفيان، فقال له يحيى : ما يبكيك يا أبا محمد؟ قال :

بعد مُجالستي من جالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم آبتليتُ بمجالستكم ؛ فقال له يحيى : مُصيبةٌ من جالستَ منهم بمجالستهم إياك بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من مُصيبتك بنا ؛ فقال : يا غلامُ، أظنّ السلطانَ سيحتاج اليك .

دخل ميمون بن مهران على بعض خلفاء بني أمية - وأحسبه عمر بن عبد العزيز - فقال له وقد قعد في أحرّيات مجلسه : عظني، فقال له : إنك لمن خير أهلِكَ إن وقيتَ ثلاثاً، قال : ماهن؟ قال : السلطانَ وقدرته، والشبابَ وغزته، والمسالَ وفتنه، فقال : أنت أولى بمكانى مني فارتفع اليّ؛ فأجلسه معه على سريره .

ابن وهب في الاعتذار

لو لم نَعذرَكَ لم نَعذرْ أنفسنا بقطيعتك، فكُن لنا في لأئمة نفسك، كما تكألك في عذرِكَ .

وفي مثله

ليس في الإساءة فضلٌ عن الاعتذار، وفي عائدتك فضل عن إساءتنا، فن أين يسقط بين فضلك والاعتذار !

(١) هكذا وردت في الأصل .

آخر

فلان من حملة المعروف، يكثر عندهم قليله في شكرهم، ويقبل لهم كثيره في عظيم

حقوقهم .

فصل - لئن عميتُ عن الرأي فيك، لقد أبصرته بك .

فصل - تغيب فأشتاق، وتلتقي فلا أشتى .

٢ - فصول من رسائل مختارة في كل فن

وهي مثل مما كتب به الكتاب في أبواب لا نظير لها

فمن ذلك ما كتبت به في التحميد لله عز وجل في أوائل الفسوح وأواخرها وأوائل

الكتب التي فيها تمجيد الله عز وجل .

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحد بالسلطان والربوبية، والمتفرد بالبقاء والقدرة، والمتجبر
بالكبرياء والعظمة؛ ذي الجلال والإكرام، والإفضال والإنعام، والعز والبرهان، والأسماء
الحسنى، والمثل الأعلى؛ الأول بلا غاية، والآخر بلا نهاية، الذي لا يحيط به وصف
الواصفين، ولا تبلغ مدى عظمته أوهام المتوهمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك
الأبصار، وهو اللطيف الخبير؛ لا يؤوده حفظ كبير، ولا يعزب عنه علم صغير، يعلم خائنة
الأعين وما تخفي الصدور، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حية في ظلمات الأرض
ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

التحميد الثاني

الحمد لله الذي خلق الأشياء على غير مثال ولا رسوم، وأنشأها على غير حدود، ودبر
الأمور بلا مشير، وقضى في الدهور بلا ظهير، وسمك السماء بقدرته، وبنهاها على إرادته،
وأسكنها ملائكته الذين أصطفاهم لمجاورته، وجبلهم على طاعته، وزههم عن معصيته،

وجعلهم حملة عرشه ، وسكان سماواته ، ورسله الى أنبيائه ، يُسبِّحون الليل والنهار لا يفترون ؛ ودحا الأرض وبسطها لكافة خلقه ، وقسم بينهم الأرزاق ، وقدر لهم الأقوات ، فهم في قبضته يتقلبون وعلى أفضيته يجرون ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وصدر تجميد مفرد

الحمد لله العليّ مكانه ، المنير برهانه ، التامة كلماته ، الشافية آياته ، والحمد لله وليّ أوليائه وعدو أعدائه .

وصدر تجميد

الحمد لله الغالب الذي لا يُغلب ، والمُقْتَدِر الذي لا يُعان ، والمُنَجِّز وعده ، والمؤيّد أوليائه ، والخاتم بالفلج والظهور لهم ، والمُدبِّل من أعدائه ، ومُحِيط دائرة السوء بهم .

ولكاتب خزيمة بن خازم في فتح الصنارية تجميد مختار

أما بعد ، فالحمد لله ذي الملكوت والقُدرة ، والجبروت والعِزة ، والسلطان والقوة ؛ أهلِ المحامد كلها ، ومدبر الأمور ووليّها ، وخالق الخلائق وبارئها ، ومميّتها ومحبيها ، وباعثها ووارثها ؛ الذي أوجب على نفسه بما نفذ من مشيئته ، وسبق من علمه ، وثبت في اللوح المحفوظ عنده إعراز دينه ، وإظهار حقه ، وإعلاء كلمته ، وإبلاج حجته ، وإزهاق باطل أعدائه ؛ الصارفين عن طاعته ، والجاحدين لربوبيته ، المكذّبين بكتبه ورُسله ؛ بلغ بذلك أمره ، ونطق به كتابه ؛ فإنه يقول تبارك اسمه في المنزل من فرقانه : ﴿ بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ .

وتجميد لأحمد بن يوسف الى الولاية عن الخليفة

أما بعد ، فالحمد لله ذي المن الظاهرة ، والمُجج القاهرة ؛ الذي قطع بينه وبين عباده المُعذرة ، ورادف عليهم البيّنة ، ومُهلمة النظرة ؛ وجعل ما أتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم

(١) - الفلج : الغلب والظفر ، يقال فلج فلان على خصمه ، أى غلب وظفر .

المكتوب، وما دَّخَر لهم من ثواب الآخرة بالتَّجَحُّع المطلوب؛ فهم في العاجلة شركاء في النعمة، وفي الآجلة شتى في الرحمة؛ يختص بها أهلها المتفعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحال بعد الحال؛ المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مدد آجالهم، قبل حلول ما يُتَوَقَّع، وفوت ما لا يُرْتَجِع.

وتحميد لإبراهيم بن العباس في فتح اسحاق بن اسماعيل

الحمد لله معز الحق ومُدبِله، وقامع الباطل ومُزِيله، الطالبِ فلا يفوته مَنْ طلب، والغالب فلا يُعْجِزه مَنْ غلب؛ مؤيد خليفته وعبدته، وناصر أوليائه وحزبه؛ الذين أقام بهم دعوتَه، وأعلى بهم كلمته، وأظهر بهم دينه، وأدال بهم حقه، وجاهد بهم أعداءه، وأنار بهم سبيله؛ حمداً يتقبله ويرضاه، ويوجب أفضل عواقب نصره، وسوايح نعمائه.

التحميد الثاني

الحمد لله الغالب ذى القُدرة، والقاهر ذى العِزة؛ الذى لم يقابل بالحق باطلاً في موطن من مواطن التحاكم بين عبادته، إلا جعل أولياء الحق منهم حزبه وجنوده، وجعل الباطل بهم فلا منكوباً، ودحياً زهوقاً؛ إن نهض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مُفرقة ما جُمع، ومُبترة ما أُعد، وقائدة باشياعه إلى مَضْرَعِ الظالمين، حتى يكون الحق الطالب الأعز، والباطل المطلوب الأذل؛ وأولياء الحق الأعمى يدا وأيدا، وأشياع الضلال الأخرسِين أعمالاً وكيداً؛ قضاءً الله وسنته، وعادة الله وإرادته، في الفِئَةِ المنصورة أن تعز فلا تُرام، وأن يُمكن لها في الأرض كما مكن للذين من قبلها؛ وفي الفِئَةِ الناكين عنه، أن تزل فتكون كلمتها السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم.

وتحميد له مبتدأ مقام بين يدي خليفة

أما بعد، فالحمد لله الأول بلا أبدأ يُحصى، والآخر بلا أمدٍ يقنى؛ الظاهر لخلقة بعزته، العزيز في سلطانه بعظمته، الفرد في وحدانيته بقدرته، المدبر في ملكه بجبروته؛ الذى نأى عن الأشياء أن يكون فيها تحويلاً، واتصل بها فلم يك من علمها خليلاً، وهو فيها غير مُستكين،

ومعها غيرُ مُتَمَّسٍ في لُججِ البحارِ ، ومفاوزِ القفارِ ، وشِوَاخِ الجبالِ ، وكُثبانِ الرمالِ ؛ مع كَلِّ خَلْقٍ ، وفي كَلِّ أَفْقٍ ، وعلى كَلِّ شَرَفٍ ومكانٍ ، وفي كَلِّ وقتٍ وأوانٍ ؛ موجودٍ إذا طُلِبَ ، وقريبٌ حيثُ نُدِبَ ؛ عالمٌ خَفِيَّاتِ الغيوبِ ، وخَطَرَاتِ القلوبِ ، وما في السمواتِ وما في الأرضِ ، ما يكونُ من نَجْوَى ثلاثةِ الأهِوارِ رابعِهِم ، ولا نَحْسِيَةِ الأهِوارِ سادِسِهِم ، ولا أدنى من ذلكِ ولا أَكْثَرَ الآهِوارِ معهم ؛ وما تسقطُ من ورقةٍ ألا يعلمها ولا حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ ألا في كِتَابِ مِيبِينَ .

وتحميد ثامن يتلو الأقران

الحمد لله المُتَعَالَى عن تشبيهِ الجاهِلِينَ ، وتحديدِ الواصِفِينَ ، وتكليفِ الناعِتِينَ ؛ يُوصَفُ لا بِالعَرَضِ والظُلْمِ ، وَيُنْعَتُ بغيرِ الشَبَحِ المَثُولِ ، وَيُحَدِّدُ لا بِالخَلْقِ المَعْدُودِ ، والجِسمِ المَوْجُودِ ؛ بل يُتَنَاهَى من وصفه ، إلى ما دَلَّ عليه من صُنْعِهِ ، وَيُوقَفُ عليه من نَعْتِهِ ، على ما أَخْبَرَ به عن نفسه ؛ وكيف يُوصَفُ مَنْ لم يَرَهُ أَحَدٌ ، وَيُحَدِّدُ مَنْ لم يَحَدِّدْهُ بِلَدٍّ ؛ أو يُشَبِّهَ غيرُ ذِي أَعْضَاءٍ ، أو يُكَيِّفَ غيرُ ذِي أَجْزَاءٍ ؛ لَوُرُؤِي لَوُوصِفَ ، ولو وُصِفَ لَمَثَّلَ ، ولو مَثَّلَ لَكَانَ لَهُ نَظِيرٌ ؛ سبحانه وتعالى عن ذلكِ عُلُوًّا كَبِيرًا ، لا تُجَنِّهُ الأَقْطَارُ ، ولا يَحْوِيهِ قَرَارٌ ؛ ولا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وهو يَدْرِكُ الأَبْصَارَ ، وهو اللَطِيفُ الخَبِيرُ ؛ لا يوصفُ أولاده ، ولا يُدْرِكُ أَشْرَاهُ ، ولا يُعْرَفُ مُتَهَاءً ؛ عَظُمَ أَنْ يَحْصِرَهُ وَهْمٌ ، وَجَلَّ أَنْ يُدْرِكَهُ فَهْمٌ ، وامْتَنَعَ من أَنْ يَخَالَهُ عِلْمٌ ، ولا يُغَيِّرُهُ لَيْلٌ ولا يَوْمٌ ؛ ولا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ ، له ما في السمواتِ وما في الأرضِ من ذا الذي يَشْفَعُ عنده إِلا بِإِذْنِهِ ، يعلم ما بين أَيْدِيهِمَ وما خَلْفَهُمَ ولا يُحِيطُونَ بشيءٍ من علمه إِلا بما شاء ، وَسِعَ كَرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ ولا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ .

وتحميد ثالث

الحمد لله الذي أَلْهَمَنَا من الإِقْرَارِ رَبُّوبِيَّتَهُ ، والإِيمَانِ بَوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَأَنَّهُ غيرُ ذِي صَاحِبَةٍ يَسْكُنُ إليها من وَحْشَةٍ ، ولا وَلَدٍ يَتَكَثَّرُ به من ضَعْفِ قَلْبَةٍ ، ولا شَرِيكَ يَعَاوَنُهُ من عَجْزِ قُدْرَةٍ ، ولا ظَهِيرٍ يَكَانِفُهُ لَمَلالِ قُدْرَةٍ ؛ ما جعل لنا به أوثقَ الأسبابِ لَدَيْهِ ، وأرجى الوسائلِ

اليه ؛ إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به يصير يَجِدُ ما أحنعنا الاعتراف فيه ، الى أليم عقوبته بالمعصية التي استحكمت السُّخْطَةَ على أهلها ، وحَلَّتْ النَّقْمَةَ بمن فارقها ؛ ثم جعلنا تبع إشراف كثير على أنفسنا في مشيئة منه ، بَسَطَ اليها آمالنا وأحسن عليها أطعنا بكرم عفوه ، وعظيم حلمه ، وسعة رحمته ، التي وعد أهل الإيمان بها ؛ إذ صار من فارقهم في ذلك بما استهوت عليهم ، بتربينه لهم شياطينهم ، ورائت على أفئدتهم ... وما ظَلَمْتَهُ (١) فرباؤهم الى الناس من كل طمع يُجْدَى وخبر يُنْجَى ؛ جَزَاءً بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، إن الله لا يَغْفِرُ أن يشرك به ، وَيَغْفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يُشْرِكْ بالله فقد حَبِطَ عَمَلُهُ ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

وتحميد يتلو الثالث في هذا المقام

الحمد لله الذي ابتدع لا من شيء ما أنشأ ، وابتدأ على غير مثال ما ابتدأ ؛ فجعل كثيرا من لطائف تقديره ، وصنوف تديره ، وتصاريف أموره ؛ حُجْجا واضحة ، وآيات بينة ، وعبرا شافية ؛ تشهد له بعة القدرة ، ونفاذ الحول والقوة ؛ فخلق مدبرا بلا مشورة أحد ، سبعا دحاهن على الماء على غير سَنَد ؛ مبسوطات في تكائف أجزائهن ، على معين ماء مسخر من تحتهن ، بحر خالهن أنهارا ، وقدر فيهن من المعاش أوقاتا ، وجعل لهن من الجبال أوتادا ، ثم استوى الى السماء وهي دُحَانٌ ، فقال لها وللأرض آتيا طوعا أو كرها قالتا آتينا طائعين . ففطر من الدُحَانِ في خفته على الهواء سبعا ، جعل بينهن من الجو مُتَسَعَا ، سبع سموات طباقا مَرْتَفَعَات ، بلا دعائم قبلها ولا علاقات ، يُسْكِهْنَ بقدرة أن يرتفعن فوق ما حبسهن عليه ، وأن يهوين الى قرار دون ما رفعهن اليه ؛ فأتقن صنعها ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وزين السماء الدنيا بالمصابيح النيرة ، والشهب الثاقبة ، والنجوم الواضحة ؛ وسخر الشمس والقمر علما للهتدين ، وسراجا للبصيرين ، ورجوما للشياطين ، وأوقانا لاختلاف السنين ، ومعرفة لكل حين ؛ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل

(١) في الاصل بياض . وفي العبارة اضطراب ظاهر .

سابق النهار وكلُّ في فلك يسبحون ؛ فقضاهنَّ سبع سموات في يومين ، ولو شاء خلقها في أسرع من طرف العين ؛ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ؛ بلا معاناة لقول ، ولا ضعف من حول ؛ ثم أسكنهنَّ من خلقه ملائكة اصطفاهم لعبادته ، واجتباهم لتبليغ رسالته ، معصومين من أن يُشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله إفكا وهتانا ؛ يسبحونه بالليل والنهار لا يفترُونَ ولا يسأمون من عبادته ، ولا يستحسرون عن طاعته ؛ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون .

وتحميد في فتح لابن العباس

أما بعد ، فالحمد لله الذي حمد نفسه ، وفرض حمده على خلقه ، وأعز دينه وأكرم بطاعته وأولياءه ، وأكرم طاعته وأولياؤه ، بفعل جنده منهم المنصورين ، وحزبه منهم الغالبين ؛ نهج بهم سبيله ، وأقام بهم محبته ، وجاهد بهم أعداءه ، وأظهر بهم حقه ، وقمع بهم الباطل وأهله ؛ وأعلى كلمتهم ، وأرد نصرهم ، وألف لهم وبهم ، ومكن لهم في الأرض ، فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

والحمد لله المعز لدينه ، المظهر لحقه ، الناصر لخلقائه ، الممكن لحزبه ؛ المنتقم بهم ممن صدف عنه ، مؤيدا لدينه بالنصر ، يُظهره على الأديان ، وحفه بالعز ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وجنوده بالفلاح فهم الأعلون إن استنصر بهم ، والأعزون إن كادهم ؛ والأقربون منه إخلاصا وعملا ؛ حمدا يُوازي نعمه ، ويمتري بمثله فواضله ومزيده .

وله في فتح ابن البعيث لما ظفر به

أما بعد ، فالحمد لله ناصر أنبيائه وخلقائه ، وهادي أوليائه ، وأولياء الحق وحزب الهدى ؛ الذين أقام بهم سبيل الرشاد ، ونصب بهم مناهج الدين ، فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وله صدر كتاب الخميس في تمجيد الله وتمجيده

أما بعد ، فالحمد لله الذي جلت نعمه ، وتظاهرت منته ، وثابتت أياديه ، وعم إحسانه ؛ إليه كل شيء وخالفه ، وبارئه ومصوره ؛ والكائن قبله ، والباقي بعده ، كما قال في كتابه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . العالی فی مشیتته والقاهر فوق عبادہ ، المتعالی عن شبہ خلقه ، ليس كمثلہ شيء وهو السميع البصير ، خلق العباد بقدرته ، وهداهم برحمته ، وأوضح لهم السبيل الى معرفته بما نصب لهم من دلائله ، وأراهم من عبره ، وصرفهم فيه من صنعه ، كما قال جل جلاله : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

وذلك كله من خلقه إياهم بتمثيله ما مثل لهم من الدلائل التي نصبها لهم ، والأعلام التي جعلها إزاء قلوبهم ، وأسماعهم وأبصارهم ، ويسر لهم خواطرهم وفكرهم ، والهيئة التي היאهم لها ليقع الأمر والنهي عليهم ؛ فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يُجشّمهم ما يقصر عنه وسعهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمة بهم ؛ ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحقوا به رحمته ورضوانه ، والخلود في النعيم المقيم ، والظلّ المديد ، والعيش الدائم ؛ كما قال تعالى ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ . وكان من نظره وراقته بهم أن بعث فيهم أنبياءه ورسله ، يدعونهم الى طاعته ، ويبينون لهم هداياه ، ويوصّون لهم سبيله ؛ ويهدونهم الى رحمته ، ويبعدونهم ثوابه ، ويُنذرونهم عقابه ، ويسطّون لهم توبته ، ويحذرونهم سُخطه ، ويبينون لهم سنته وشرائعه ، ويكشفون لهم مواعظه ، ويعلمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لِيَمْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بِيئَتِهِ وَيُحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بِيئَتِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وكان من راقته بهم ، ونظره لهم ، أن بعثهم اليهم بالبحج الظاهرة ، والأعلام البينة ، والشواهد الناطقة ، التي أظهر بها صدقهم ، وأقام بها برهانهم ، وأوضح

بها دليالهم ، وأنانهم عمّل سواهم ، ليكون أدعى لهم الى تصديقهم ، والقبول عنهم ، وأؤكد للحجة على من أبى ذلك منهم .

وتحميد أحمد بن يوسف في صدر رسالة الخميس التي كانت تقرا بخراسان

أما بعد ، فالحمد لله القادر القاهر ، الباعث الوارث ، ذى العز والسلطان ، والنور والبرهان ، فاطر السماء والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالمرء والطول على أهلها ؛ قبل استحقاقهم لمثوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته ، الذى جعل ما أودع عباده من نعمته ، دليلا هاديا لهم الى معرفته ، بما أفادهم من الأبواب ، التي يفهمون بها فصل الخطاب ؛ حتى آقتنوا علم موارد الاختبار ، وثقفوا مصادر الاعتبار ، وحكوا على ما بطن بما ظهر ، وعلى ما غاب بما حضر ؛ واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومُتقن صنعته ، وحاجة مُترايل خلقه ومُتواصله ، الى القوام بما يأمه ويُصاحه ، على أن له بارئا هو أنشأه وابتدأه ، ويسر بعضه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ؛ فى تصرف أحوالهم ، وفنون انتقالها ، وما يُظهِرون عليه من العجز عن التأتى لما تكاملت به قواهم ، وتمت به أدواتهم ، مع أثر التدبير والتقدير فيهم ، حتى صاروا الى الخلقة المحكّمة ، والصورة المعجبة ، ليس لهم فى شىء منها تَلَطَّفٌ يَتِمُّونَه ، ولا مَقْصِدٌ يَعْتَمِدُونَه من أنفسهم ؛ فإنه قال تعالى ذكره : **﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبَّكَ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَبَّكَ ﴾** . وما يتفكرون فيه من خلق السماء ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ على مسير لا يثبت العالم إلا به ، من تصاريف الأزمنة ، التي بها صلاح الحرث والنسل ، وإحياء الأرض ، ولقاح النبات والأشجار ، وتعاور الليل والنهار ، ومتر الشهور والأيام ، والسنين التي تُخصى بها الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دليل التركيب ، فى طبقات السقف المرفوع ، والمهاد الموضوع ، باختلاف أجزائه والثامها ، ونحرق الانهار ، وإرساء الجبال ، ومن الثام الشاهد على ما أخبر الله به من إنشائه الخلق وحدوثه بعد أن لم يكن ، مُتَرَقِّياً فى النَّماء ، وثباته الى أجله فى البقاء ، ثم محاره مُنْقِضِياً الى آخر القناء ؛ ولم يكن له

مُفْتَحُ عَدَدٍ ، وَلَا مُنْقَطِعُ أَمَدٍ ، وَمَا زَادَ بِنَشْوَاءٍ ، وَلَا تَحَيَّفَهُ تَقْصَانٌ ، وَلَا تَفَاوَتْ عَلَى
الْأَزْمَانِ ؛ لِأَنَّ مَا لَا حَدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ ، غَيْرُ مُمَكِّنِ الْإِحْتِمَالِ لِلتَّقْصِ وَالزِّيَادَةِ ؛ ثُمَّ أُجْرِيَ فِيهَا ذِكْرُ
مَنْ خَلَقَ اللَّهُ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ إِلَى ذِكْرِ مَا تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَا اخْتَصَمَ
بِهِ مَنْ مَبْعُثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَى ذِكْرِ الْخُلَفَاءِ أَوَّلًا ، ثُمَّ إِلَى ذِكْرِ الْمَأْمُونِ وَدَوْلَتِهِ .

وتحميد للعباس في مقام له بين يدي المأمون

الحمد لله على نعمه علينا ، وإحسانه إلينا ، بالأرض الميسورة ، والسماء المرفوعة ،
والرياح المسخرة ، والأمطار النازلة ، والأوقات القائمة ، والمنافع الدائمة ، والدين الممين ،
والأدب القويم ؛ حمداً يكون إليه صاعداً ، ولديه نامياً ، وملكوته مالئاً ؛ والحمد لله
حمداً يثبت رضوانه ، ويورث إحسانه ، ويوجب مزيده ؛ فهو المنعم المحمود ، والمتطوّل
المشكور ؛ لا إله إلا هو لا شريك له ، كما شهد الله وملائكته قائماً بالقسط لا إله إلا هو
العزيز الحكيم .

وتحميد لعبد الحميد في أبي العلاء الحروري

الحمد لله الناصر لدينه ، وأوليائه وخلفائه ، المظهر للحق وأهله ، والمبدل لأعدائه وأهل
البدعة والضلالة ؛ الذي لم يجمع بين حق وباطل ، وأدب طاعة ومعصية ، إلا جعل النصرة
والفلاح والعاقبة لأهل حقه وطاعته ، وجعل الخزي والدلة والصغار ، على أهل الباطل
والخلاف والمعصية ؛ حمداً يتقبله ويرضاه ، ويوجب به لأمر المؤمنين وأهل طاعته
الزيادة التي وعد من شكره ؛ والحمد لله على ما يتوسل من إعزاز أمير المؤمنين ونصره
وإفلاجه وإظهار حقه ، على ما وقع بأعدائه وأهل معصيته والخلاف عليه من سطوانته
وتفاته وبأسه ، فيما ولي أمير المؤمنين من مؤالاة من والاه ، وعداوة من بنى عليه وعاداه ؛
لا يكله في شيء من الأمور إلى نفسه ، ولا إلى حوله وقوته ومكيدته ، فإنه لا حول ولا قوة
لأمر المؤمنين إلا به .

وتحميد في آخر فتح

الحمد لله المعز لدينه ، المظهر لحقه ، الناصر لأوليائه ، المنتقم من أعدائه أهل الكفر ،
المتزل بهم من بأسه ، ونقمته وجوائحه ؛ الذي لم يجمع بين أهل حقه ، وباطل عدوه ، في موطن
من مواطن التحاكم ، إلا جعل فيه لأوليائه الظفر ، وأفرغ عليهم الصبر ، ومنحهم النصر ؛
وجعل الدائرة وسوء العاقبة على عدوه ، وأهل الكفر ؛ حمدا كثيرا يرضاه من الشكر ،
ويحسن به المزيد .

وتحميد في فتح الى أمير لقامة

الحمد لله الفتح العليم ، الذي خص الأمير بأفضل الكرامة وأتم النعمة ؛ وأحسن الولاية ،
وأعظم الكفاية ؛ وحفظ ما استرعاه ، وأعز أوليائه ، وقمع بالمذلة أعداءه ، وجعل حسن
العاقبة له ولأهل طاعته ، ودائرة السوء على أهل معاندته ؛ حمدا يحسن به القضاء ،
وتريد به النعاء .

وصدر تحميد لغسان بن عبد الحميد في خطبة موجزة

الحمد لله الذي لا يُدرَك خيراً إلا برحمته ، ولا يُنال الفضل إلا بنعمته ؛ وليّ التسديد
للحسانات ، والعصمة من السيئات .

تحميد لعبد الحميد في فتح

الحمد لله العليّ مكانه ، المنير برهانه ، العزيز سلطانه ، النابتة كلبانه ، الشافية آياته ، النافذ
قضاؤه ، الصادق وعده ؛ الذي قدر على خلقه بملكه ، وعز في سماواته بعظمته ، ودبر الأمور
بعلمه ، وقدرها بحلمه ، على ما يشاء من عزمه ؛ مُبتدعا لها بإنشائه إياها ، وقدرته عليها ،
واستصغاره عظيمها ، نافذة إرادته فيها ، لا تجرى إلا على تقديره ، ولا تنتهي إلا الى تأجيله ،
ولا تقع إلا على سبق من حتمه ، على كل ذلك بلطفه وقدرته ، وتصريف وحيه ؛ لا معدل
لها عنه ، ولا سبيل لها غيره ، ولا علم أحدٌ بخفاياها ومعادها إلا هو ؛ فإنه يقول في كتابه
الصادق : ((وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ...)) الى آخر الآية .

وتحميد ثامن

الحمد لله الذي علا بالجُحْب التي آستتر بها عن جميع خَلْقِهِ ، وآستغنى بها عنهم لما تَوَحَّد به دونهم من عبادة الذين فطروهم على المعرفة ، رءوفا عليهم بَمَنِّهِ وَمُتَطَوِّلا وهو فيما يُمضَى من أقداره ، مفصلا لهم بابتدائه خَلْقَهُمْ في أحسن تقويم ، وإعطائه إياهم عاجل كل خير مقسوم ، وتسخيره لهم جميع ما في السموات والأرض ، وبَسْطِهِ لهم في معاشهم أوسع الرزق ، وإسباغه عليهم فيها أفضل النعم التي لَطُفَتْ فبطنت ، وعظُمت فظهرت ، وليست فعمت ، وانتشرت بجلَّت ، وكثُرت فلا يحصيها عاد ، وجزَّلت فلا يؤدِّي حق ما آفترض منها شاكر ، فإنه يقول : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمد لله الذي لم يَقْتَصِرْ بهم في إكرامه وتفضيله إياهم على عاجل ، فإنه مُضْمِحِلْ زائل مما أعطاهم إياه ولم يكلمهم في معرفة خالقهم تبارك وتعالى ، وموتوَّى النعم عليهم ، والاحسان اليهم ، والارتياش لهم ، ولا في مُبتَغَى سبيل طاعته ، وأداء حقه ، وشكر نِعْمَتِهِ ، واستيجاب غِبْطَةِ أَلْعَادِ إليه الى أن يَعُوْا ذلك بعقولهم ، والنظر فيه بالبابهم ، والتصريف له على أهوائهم ؛ فإنه لو أُلْجَأَ ذلك اليهم ، وأفردهم فيه الى أنفسهم ، ووكلمهم فيما أمرهم به الى مقدرتهم ، لحارت عنه منهم الأبصار ، ولتاهت فيه منهم العقول ، ولأضلَّهم عن قصده العمى ، ولمسأل بهم الى غيره الهوى ، ولاستحكم عليهم شرك الردى ؛ ولكنَّه بعث فيها أنبياءه الهادين ، يدعونهم الى الصراط المستقيم ، بنوره المُضَى ، ودينه القويم ، وآياته البينة ، وكُتِبَتْ الفارقة التي بين فيها محابه ومكروهه ، وطاعته ومعصيته ، وثواب الفريقين في ذلك من عباده ليحذروا ما حذَّروهم فيه من سُخْطِهِ ، ونزل بهم فيه من نِقْمَتِهِ ؛ وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة ، وأحسن العاقبة في الدنيا والآخرة ، وكشَّف لهم الجهالة ، وهدى من الضلالة ، وبصرهم سبيل الحق ، وبين لهم معالم الإسلام ، ليرجع جائز ، ويقصد زائع ، ويعرف جاهل ، وليعبد الرب بما وحده به نفسه ، وليستبين العلم ، ويستضيء الحق ، وليبتغى من الله الثواب بلزوم دينه الذي شرع ، وأداء فرائضه التي فرض ، وإيثار طاعته التي أوجب ، وليكون لله

المجدة البالغة على عباده فيما تركوا من ذلك وسفّوها بعد استقبائهم ، واستفاضته فيهم وإعذاره اليهم ، فإنه يقول : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيُهَيِّبَ مَنْ حَىَّ عَن بَيْتِنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ويقول ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ .

لأنس بن أبي شيخ

الحمد لله الذى بالقلوب معرفته ، وبالقول حجته ، الذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أمينا نوفى له ، ومبلغا فأدى عنه فحج به المنكر ، وتألف به المدبر ، وثبت به المستبصر ، الى أن توفاه على منهاج طاعته ، وشرعية دينه ، ثم أورثكم عهدَه وخصمكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى .

ولعبد الحميد فى فتح

يُعَظَّمُ فِيهِ أَمْرُ الْإِسْلَامِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أما بعد ، فالحمد لله الذى أصطفى الإسلام ديناً رضى شرائعه ، وبين أحكامه ونور هدايته ، ثم كنفه بالعرز المؤيد ، وأيده بالظفر القاهر ، وأزره بالسعادة المنتجة ، وجعل من قام به داعيا اليه من جنده الغالين ، وأنصاره المسطّين ، كلما قهر بهم مناوئا أورثهم رباعتهم المأمولة ، وأموالهم المثريّة ، ودارهم الفسيحة ، ودولتهم المطولة ، أمرا حتمه على نفسه ، ثم جعل من عاندهم وأبتغى غير سبيلهم مسالما قد استهوته ذلة الكفر بظلمها ، وحيرة الجهالة بجوارها ، وتيه الشقاء بمغاويه ، وكلما ازدادوا لدعوة الحق إباءً ، ازداد الحق اليهم ازدلافا ، وعليهم عكوفًا ، وفيهم إقامة ، الى أن يحل بهم عز الغلبة ، ونجاة المتجاوز ، راغبين فيما شوقهم اليه ، مُحَافِظِينَ عَلَى مَآذِبِهِمْ لَهُ ، قَدْ بَدَلُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ دِمَاءَهُمْ ، وَقَبِلُوا الْمَعْرَضَ عَلَيْهِمْ فِي مَبَايِعَةِ رَبِّهِمْ لَمْ بَانْفُسِهِمْ الْجَنَّةَ . محمود صبرهم ، مسهل بهم عزهم ، الى خير الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذى أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بما حفظ له من أمور أمته ؛ أن اختار لموارث نبوته ما أصر الى أمير المؤمنين من تطويقه ما حمل بحسن نهوض به وضح عليه ، ومنافسة فيه ، أن فعل وفعل . والحمد لله الذى تم وعده لرسوله وخليفته فى أمة نبيه مسدداً

له فيما أعترم عليه . والحمد لله المعزّ لدينه ، المتولّى نصرأتمته بنبيّه المتخلّى من عاداهم وناوأمهم ، حمدا يزيد به من رضى شكره ، وحمدا يعلو حمد الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نعمه فلا توصف ، وجلت أياديه فلا تُحصى ، الذى حملنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه ، وبالله يستعين أمير المؤمنين على ذلك ، واليه يرغب ، إنه على كل شىء قدير .

ولعبد الحميد أيضا

أما بعد ، فالحمد لله الذى أصطفى الإسلام لنفسه ، وأرضاه ديناً لملائكته ، وأهل طاعته من عباده ، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادةً لمن هدى به من خلقه ، وأكرمهم وفضلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أولياءه المقربين ، وحزبه الغالبين ، وجنده المنصورين ، وتوكل لهم بالظهور والتملّج ، وقضى لهم بالعلو والتمكين ، وجعل من خالفه وعزّب عنه وابتغى سبيل غيره أعداءه الأقالين ، وأولياء الشيطان الأخرسين ، وأهل الضلالة الأسفلين ، مع ما عليهم فى دنياهم من اللذات والصغار ، وما تجلّ لهم فيها من الخذلان والانتقام ، إلى ما أعد لهم فى آخرتهم من الخزي والهوان المقيم ، والعذاب الأليم ، إنه عزيزٌ ذو انتقام .

وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضلهم الله تعالى به

أما بعد ، فالحمد لله الذى عظم الإسلام تعظيماً ، وفضله تفضيلاً ، فلم يبق ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا إمام لأهل حق مهتدي إلا دانّ به ، واتصل الى ولاية الله بما هداه له منه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وخيرته من أهل الإسلام الذين اصطفى ، تغاشم ولا تظالم ، ولا تحاسد ، ولا تقاطع ولا تدابر ، ولكنهم كما وصفهم الله عز وجل بالتباز والتراحم ، والتواد والتناصف ، قلوبهم متفقة ، وأهواؤهم مؤلفة ، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطة ، أعوانا على الحق ، وإخوانا فى الدين ، ألفت الله بينهم ، وجعل الإسلام نسبهم ، فقال فى كتابه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... ﴾ الى آخر الآية . فهذه صفة الله أهل دينه فيما بينهم ، وكذلك كان أسلاف الحق قبلهم ، فى تواد وتبازهم ، وتواصلهم وتعاونهم ، وبذلك دانّ أهل السماء ، فلم يختلفوا فيه ، ولم يرغبوا عنه ، ولم يمتدحوا مثالا غيره ، وبه يدين

لله الباقون من خلقه ، المتمسكون بحقه الى يوم القيامة ، سنة مسنونة ، وشريعة متبوعة ، لا يبتغون بها بدلا ، ولا يريدون عنها حولا ، فأهل طاعة الله أهل سلامة في دنياهم ، وإخوان كما قال الله عز وجل في آخرتهم ، لم تنقطع الولاية فيما بينهم ، لانقطاع الدنيا عنهم ، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم ، بجمعهم في داره وجواره ، كما ألف في الدنيا بين قلوبهم ، وعصم بالإسلام أفتهم .

تحميد

الحمد لله المُنِيبِ على حمده وهو ابتداءؤه ، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه ، والمُنِيبِ بالإيمان وهو عطاؤه .

ولُقِّمَ به

الحمد لله الذي أكرم الإسلام وفضله ، وشرّفه وعظّمه ، وأعلى منزلته ، وجعل أهله القائمين به ، والحامدين عليه ، وأولياءه وحزبه الذين قضى لهم بالتمكين ، والظهور على الذين كرهوا ولو كره المشركون .

ولزيد بن علي رحمة الله عليه خطبة

الحمد لله الواصل النعم بالشكر ، والشكر بالمزيد ، حمد من يعلم أن الحمد فريضة واجبة ، وأن تركه خطيئة مهلكة ، وأومن بالله إيمانا نفى إخلاصه الشرك ، ويقينه الشك ، وأتوكل عليه توكل الواثق به ثقة أهل الرجاء ، ومفزع أهل التوكل .

تحميد في الإسلام

الحمد لله الذي اختار الاسلام ديناً لنفسه ، وأنبيائه ورسله ، وشرّفه وعظّمه ، وأناره ، وأظهره ، ونزهه وأعزّه ومنعه ، ولم يقبل غيره ، ولم يجعل حُسن الجزاء إلا لأهله ، الذين كتب لمن أسعده بالولاية فيه منهم الرضوان والمغفرة والرافة ، وعلى من خالفه وابتغى غير سبيله الحسرة والندامة ، والدلة والصغار في الآخرة والأولى ، والممات والمخيا ، إذ يقول الله عز وجل ((وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ))

والحمد لله الذي اجتبي محمداً صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نبوته ، واختاره له من رسالته ،
 وحباه بفضيلته ، وأجابه من أفضل عمائر العرب ، وأشرفها منصباً ، وأعرقها حسباً ،
 وأكرمها نسباً ، وأوراها زناداً ، وأرفعها عماداً ، فبعثه بالنور ساطعاً ، وبالحق صادعاً ، وبالهدى
 أمراً ، وعن الكفر زاجراً ، وعلى النبيين مهيمناً ، وإلى سبيل ربه داعياً ، وبالكتاب عاملاً ،
 فبلغ عن الله الرسالة ، وهدى من الضلالة ، وانتاش من الهلكة ، وأنهج معالم الدين وأدى
 فرائضه ، وبين شرائعه ، وأوضح سننه ، ونصح لأُمَّته ، وجاهد في سبيل الله حق جهاده
 حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

تحميد لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي شرع لإظهار حقه وإنفاذ سابق قضائه فيمن ذرأ وبرا من عباده ،
 بإدخال من أراد أن يدخل في رحمته ، وإنجاز ما حق له من العبادة على خلقه ، بابتدائه
 خلقهم ، ومظاهرتهم الآلاء عليهم ، وإحسانه البلاء عندهم ، وإبلاغه في الحجج إلى عامتهم ،
 ديناً رضيهم لنفسه وملائكته الذين أسكن سماواته ورسله ، فآتمن على وجه من لم يرص
 إلا به ، ولم يقبل إلا إياه ، ثم كان ما أعز به نفسه ، وأظهر به نوره ، وأراد أن يسلبه
 عباده ، تحقيقاً لما سبق به علمه ، وإنفاذاً لما جرت به مقاديره ، أن بعث لِمَا شرع من
 دينه ، وأصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقرئين ، من ارتضى واختار من أنبيائه
 ورسله المحجبين ، لتبليغ رسالته وإظهار حقه ، وأسئله^(١) من أراد سعادته من خلقه بالرحمة
 التي أطلعت عليهم وعمتهم ، ليعبد مخلصاً له ، محموداً بما استحمد به إلى خلقه ، مشهوداً له
 بما أشهد به من كلمة الحق ، فكان منهم التبليغ لما أرسلوا به ، والنصيحة لمن أرسلوا إليه ،
 غير مختلفين فيما بعثوا له ، ولا متفرقين فيما استعملوا فيه ، يدعوهم آخر إلى ما دعاهم إليه
 أول ، فيصدق بذلك بعضهم بعضاً ، ويهدون إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فضمت
 رسل الله وأنبيأؤه على ذلك سالكين منهاج الحق وسبيله ، والدعاء إلى الله عز وجل وإلى

(١) الاستئلاء : الاتقاد .

طاعته ، هادين مهديين غير مبخوسين شيئا مما كانوا أهلهم في المنزلة عند الله ، والقربة منه ،
والوسيلة إليه ، هم ومن آمن بهم وعززهم ، وآتبع النور الذي أنزل معهم ، حتى تقضت
بهم الأعمار ، وتقطعت بهم الآثار ، وتخرمتهم الاجال .

وكذا لأبي عميد الله

الحمد لله الذي جعل الإسلام رحمة قدمها لعباده قبل خلقه إياهم ، واستجابهم إياها
منه ، فاصطفاه لنفسه وشرعه لهم دينا يدينون به ، ثم جعل تحايده وحيه ومتابعة رُسله رحمة
تلافهم بها بعد تقديمها ، ومِنَّة ظاهرها عليهم قبل استجابهم لها ، تطولا على العباد بالنعاء ،
وإعذارا إليهم بالحجج ، وتقديمه بالوعد ، وإنذارا إليهم عواقب سنخه في المعاد .

والحمد لله الذي ابتعث محمدا صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقه على فترة من الرسل ،
وطُموس من معالم الحق ، ودروس من سبل الهدى ، عند الوقت الذي بلغ في سابق علمه
ومقاديره ، أن يجتبي لدينسه الأصفياء ، ويختار له الأولياء ، الظاهرين بحقه ، القاهرين لمن
ابتغى سبيلا غير سبيله ، فعظم حرمة ، ووسع حوزته ، وصدع أمره ، وجاهد عن حقه
في حومات الضلالة وظلمات الكفر ، بالحق المبين ، والسراج المنير ، ثم جعله مصدقا لمن
سبقه من الرسل ومجددا لما بعثوا له وهدى ورحمة ، ثم جعل لدينه وظائف وظيفها على
أهله ، وشرائع شرعها لهم لا يكمل دينهم إلا بها ، وجعل أداءها إليه ، واعتصامهم بها إماما
لدينه ، ونظاما لنوره ، وقواما لحقه ، واستجابا لما وعد عليه من ثوابه ، وأمنا لما أوعده من
خالفه من عقابه ، فليس يسع أهل الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأجزل لهم فضله وأجره ،
وجعل لهم عزه وعلوه ، واختار لهم الغلبة والعاقبة على من فارقه في معرفتها ، وأداؤها
بما يُستكمل به حدودها ، ومما لها من كذا وكذا .

إبراهيم بن المهدي — صدر رسالة له في الخميس

الحمد لله الذي اختار الإسلام دينا لنفسه ، ورضى أن يعبدَه من في سمواته من الملائكة
المقرئين ، ومن في أرضه من النبيين والمرسلين ، ومن آمن بالنور الذي هداهم له من الثقلين ،

واختار لرسالته في سابق علمه ، والذكر الحكيم عنده ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابه وجعل طاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم موصولةً بكذا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

تحميد

الحمد لله المتكبر في جبروته المتعزِّز بسلطانه ، المتعالى في سمواته ، المحتجب عن خلقه ، فلا تُدرکه في الدنيا أبصار الناظرين ، ولا تُحيط به أوهام المتوهمين ، ولا تبلغه صفات الواصفين ، الذى لا يؤوده عظيم ، ولا يفوته مطلوب ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم .

تحميد آخر

الحمد لله الحكيم العدل ، الذى فصل بين الحق والباطل ، فنفذ قضاؤه في خلقه ، وحكم فيهم بحكمه على إرادته ، يقضى بالنصر والتأييد ، والعز والفلاح ، والتمكين للحق وأهله ، وبالذل والوقم والخزي والصغار للباطل وأهله ، وجعل ذلك من فضله وحكمه عادةً جاريةً باقيةً ، وسنةً ماضيةً ، لا راداً فيما قضى منه لقضائه .

والحمد لله الذى اختص محمداً صلى الله عليه بكراماته ، واصطنعه لرسالاته ، وأنزل عليه كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، بما أحل وحرم ، ورضى وسخط ، وأمر به ونهى عنه ، وجعله خاتم النبیین والمُهيمن عليهم ، وكتابه الذى أنزل ، آخر الكتب المصدق بها النبي صلى الله عليه وسلم .

تحميد في الإسلام وما آمنت به على أهله من مبعث النبي

صلى الله عليه وسلم ، وهو في صدر الجهاد

أما بعد ، فإن لدين الله الذى ارتضاه لنفسه ، ولین اصطفاه من خلقه ، واجتبه من عباده وجعله معاماً بين الهدى والضلالة ، وفرقاً بين الحق والباطل ، وحاجزاً بين الكفر والإيمان ، وظائف وظفها على أهلها ، وشرائع شرعها لهم ، فجعل أداءها إليه ومعرفتها له ، ومحافظةً عليهم ،

واعتصامهم بها قواما لدينه ، ونظاما لنوره وثباتا لحقه ، واستيجابا لما وعد من ثوابه ، وأمنا لما أوعد من عقابه ؛ فليس يسع أهل الإيمان بالله والإقامة على حقه من المسلمين الذين ستمهم المسلمين بالإسلام ، وأحرز لهم فضله وعزّه ، وأصار لهم الغلبة على من خالفهم وفارقهم بما ركنوا إليه من الصدود عن سبيله ، والتكذيب بكتبه ورسوله ، ودلتهم فيه قرباؤهم ، وقادتهم إليه أهواؤهم ، من الملل الضالة ، والأديان المجموعة ، التي لم ينزل بها من الله سلطان ، ولا كتاب ولا برهان ، إلا معرفتها وأدائها بما يستكمل من حدودها ومعالمها .

تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم

أما بعد ، فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وقدر الأمور بعلمه ، وأنفذ على ما مضى من مشيئته ، من غير أن يكون له ظهير في ملكه ، أو معين على ما يرى من عجائب خلقه ، واحتذاء منه على سابق من صنعة غيره ، فوحد نفسه بما تفرّد به دون غيره من خلقه ، ليُعبد مُخلصاً مبرأ من الأنداد ، إتماماً لنوره ، وتعزيزاً لتوحيده ، وتأييدا لدينه ، وإعلاء لمن اعتصم به ، وإفلالا لمن خالفه وعَدَّ عنه وعبد غيره ، وإحقاقا لكلمته ، فإنه يقول : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ الآية ؛ بذلك أنزل كتبه ، وأرسل رُسُلَه ، وأحتج بهم وبما أنزل إليهم على من مضى من القرون السالفة ، والأمم الخالية ، يدعو آخرهم إلى ما سبق إليه أولهم ، من عبادته وتوحيده ، لا يستوحشون من قلة ، ولا يؤتون من كثرة ؛ يُعزّمهم الله بقوته ، ويُؤيّدهم بجنده ، وينصّرهم وينصّرهم إلى أن بعث الله تمّدا صلى الله عليه وسلم بما خصّهم به ، وجعله مُصدّقا لهم ، ومهيّما عليهم ، وخاتم النبيين بعدهم ؛ يمضي لأمر الله ، ويجاهد من لم يبيح له الدخول في دين الله ، فأظهره الله وأنار حقه ، وأرهب عدوه ، وأنجز له ما وعده وأتمّ بذلك التعمية عليه وعلى من أتبعه ، فإنه يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾ .

تحميد في فتح

الحمد لله الفتاح العليم ، الرحمن الرحيم ، العزيز الحكيم ، الذي أعز الإسلام بقدرته ، وأيده بنصره ؛ فلم يُلحِد فيه مُلحدٌ ، ويَسع في تشنيت الكلمة وشقّ العصا ساع ، ويوضع

في الكفر والمعصية مَوْضِعٌ، ويمتنع من قضائه وإرادته مُتَمَتِّعٌ، إلا أذله الله وقصمه، وأضرع خده، وأنعس جده، وضلل سعيه، وعجل بواره واستنصاه به حمدا دائما لا انقطاع له، ولا نفاذ لمذته .

تحميد ثان

والحمد لله الذي اختار الإسلام وشرفه، وكرمه وطهره، وأظهره وأعزاه، وفطر عليه ملائكته، وبعث به أنبياء ورُسُلَه، واختار له خيرته من خلقه محمدا صلى الله عليه، فبعثه برسالته، وأكرمه بوحيه، وأصطفاه على خلقه؛ يُبشِّرُ بالجنة من أطاعه، ويُنذِرُ بالنار من عصاه؛ وجعله دينه القيم الذي لا يقبل دينا غيره ولا يُثبِّب أحدا إلا عليه .

تحميد في فتح

الحمد لله العزيز في ملكوته القاهر فوق بريته، الذي خلق الخلق بقدرته، وأنفذ فيهم إرادته ومشيئته، وقدر كل شيء وأتقنه وأحكمه، وأحاط علما به؛ فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

صدر تحميد في فتح

الحمد لله الذي ابتدع الخلق لا من شيء، وجعل الليل والنهار كهفا ومستجنا لكل شيء؛ بقدرته تجرت البحار، وجرت لمواقيتها الأنهار؛ فدار وتطارد الليل والنهار، لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم .

والحمد لله الذي فات بعظمته أبصار المرتئين، وعلا بمجده عن خطرات الحاسبين، وأحتجب بأستار جبروته عن مواقع فكر المحصلين المتعمقين؛ فلم تحوه الكمية، ولم يقع عليه أدوات التحصيل والكيفية، ولا أدركه هاجس تبويض ولا كلبية، ولم ينسب إلى زيادة في حين، ولا إلى تقصير في شهور ولا سنين، فكل أمره — عز جلاله — تمام ودوام، وكل صفات صنعه اعتدال وكجأل؛ وكل ما دونه يحتكم فيه الفناء والزوال، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير .

والحمد لله الذي عرفنا ربوبيته إماماً ، ونهج لنا سُبُلَ طاعته مناً وإكراماً ، وتعبداً
بفرضه تقويماً وتعليماً وأمتاناً ؛ فقامت علينا وعلى الخلق حجته ، بالصادق بأمره ، والمبلغ
لرسالته ، والمجاهد فيه حق جهاده ، محمد صلى الله عليه وسلم . والحمد لله الذي أعز دينه ، وأظهر
تمكينه ، ونصر وليه ، وخذل عدوه ، وأوقع بأسه ونقمته بحمل الفرية ، وجرثومة الضلالة ،
ومناخ الشرك ، ومركز الكفر ؛ بعد طول الإملاء ، والاعتداء في سفك الدماء ، والمثلة
بالأسرى ، وقلة المراقبة والأرعواء .

تحميد

الحمد لله حمداً يكون رضاه منتهاه ، والمزيد من فضله جزاءه . والحمد لله حمداً إليه يتناهى
حمد الحامدين ، وشكر الشاكرين . والحمد لله الذي لا تُحصَى نِعَمُهُ ، ولا تُجْزَى آلاؤُهُ ، ولا
يُكَافَأُ بِلَاؤُهُ ، ولا يُبْلَغُ شُكْرُهُ إِلَّا بِمَنِّهِ وَتَوْفِيقِهِ ؛ حمداً يرضاه ويتقبله ، ويزكوك لَدَيْهِ ، ويوجب
ما تَأْذَنُ للشاكرين مِنْ يَدِهِ .

تحميد على فتح

أما بعد ، فالحمد لله الواحد القهار ، العزيز الجبار ، ذى المَنِّ والإِنْعَامِ ، والجلال والإكرام ؛
الذى أصطفى الإسلام ديناً ، وأصطفى له من عباده أهلاً هداهم له ، وأكرمهم به وبيت
لهم ما يأتون ، ولم يتركهم في ريب من أمرهم ، ولا شبهة من دينهم ؛ فله الحجة البالغة ليهلك
مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْتِهِ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْتِهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ .

والحمد لله الذى ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم النبوة ، وأتجبه لتبليغ الرسالة ، وبعثه إلى
خَلْقِهِ كَافَّةً ، فَبَلَّغَ رِيسَالَتَهُ ، وَصَدَعَ بِأَمْرِهِ ، وَقَامَ فِيمَا بَعَثَهُ لَهُ بِحَقِّهِ ، ثُمَّ أَنْجَزَ لَهُ وَعْدَهُ ، وَأَتَمَّ لَهُ
كَلِمَتَهُ ، وَأَظْهَرَ دِينَ الْإِسْلَامِ بِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

تحميد فى فتح

أما بعد ، فالحمد لله الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الولى الحميد ، القوى العزيز ؛
الذى لا يقدر العباد قدره ، ولا يُحْصُونَ نِعَمَهُ ، ولا يبلغون شكره ؛ المحيط بكل شىء علماً ،

والمُحْصَى كُلُّ شَيْءٍ عَدَدًا؛ فَلَا يُعْجِزُهُ كَبِيرٌ، وَلَا يَعْزِبُ عَنْهُ صَغِيرٌ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تحميد

الحمد لله المتَّوَحَّدُ بالخالق والأمر، قادرا قاهرا أحاط بكلِّ شيءٍ علما، وأحصى كلَّ شيءٍ
عددا، ومَلَأَهُ عَظَمَةً، وَوَسَّعَهُ عَدَلًا، وَأَتَقَنَهُ صُنْعًا. والحمد لله الذي أَعَزَّ بِالْحَقِّ مَنْ أَطَاعَهُ،
وَأَذَلَّ بِالْبَاطِلِ مَنْ عَصَاهُ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ وَالْجَمَاعَةَ حِرْزًا حَرِيْرًا، وَمَوْتَلًا مُنِيْفًا؛ فَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ
أَهْلِ كُفْرٍ وَإِيْمَانٍ، وَطَاعَةٍ وَعِصْيَانٍ، إِلَّا تَوَحَّدَ بِالصَّنْعِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَأَنْجَحَ سَعْيَهُمْ،
وَأَعْلَى كَلِمَتِهِمْ، وَأَفْلَحَ حُجَّتَهُمْ، وَأَنْزَلَ بِأَهْلِ الْكُفْرِ الْمُعَانِدِينَ عَنْهُ، الرَّادِينَ لِأَمْرِهِ الذَّلَّةَ
وَالصَّغَارَ فِي عَاجِلِهِمْ وَأَجْلِهِمْ؛ حَمْدًا يَكُونُ لِمَزِيدِهِ مَوْجِبًا، وَلِحَقِّهِ مُؤَدِّيًا .

تحميد في فتح لسعيد بن حميد عن وصيف

أما بعد ، فالحمد لله الحميد الحميد، الفعَّال لما يريد؛ الذي خالق الخلق بقدرته ،
وأمضاه على مشيئته ، ودرَّه بعلمه ، وأظهر فيه آثار حكمته التي تدعو العقول إلى معرفته ،
وتشهد لذوى الأبواب بربوبيته ، وتدلُّ على وحدانيته ؛ لم يكن له شريكٌ في ملكه فينازعه ،
ولا معينٌ على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه ؛ فليس يتصرف عباده في حالٍ إلا كانت دليلا
عليه ، ولا تقع الأبصار على شيءٍ إلا كان شاهدا له ، بما رسم فيه من آثار صنعه ، وأبان فيه
من دلائل تدييره ، إعدارا بحجته ، وتطوُّلا بنعمته ، وهداية إلى حقه ، وإرشادا إلى سبيل
طاعته ، وهو الذي يَبْدَأُ الخلق ثم يُعِيدُهُ ، وهو أهون عليه ؛ وله المثلُّ الأعلى في السموات
والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

والحمد لله العزيز القهار ، الملك الجبار ، الذي أصطفى الإسلام وأختاره ، وأرتضاه
وطهره ، وأعلاه وأظهره ؛ فجعله حجة أهله على من شاقهم ، ووسيلتهم إلى النصر على [من]
عند في حقهم ، وآبغى غير سبيلهم ؛ وبعث به رُسُلَهُ يدعون إلى حقه ، ويهدون إلى سبيله ،

بِالآيَاتِ الَّتِي يَسِينُونَ بِهَا عَنِ الْمَخْلُوقِينَ ، وَيُوجِبُونَ بِهَا الْحُجَّةَ عَلَى الْمُخَالِفِينَ ؛ حَتَّى آتَتْهُ كَرَامَةُ اللَّهِ إِلَى خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ ، وَحَامِلِ كِتَابِهِ ، وَمِفْتَاحِ رَحْمَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرِّسْلِ ، وَأَخْتِلَافِ مِنَ الْمَلَلِ ، وَدُثُورٍ مِنَ أَعْلَامِ الْحَقِّ ، وَأَسْتِعْلَاءِ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ وَالنَّاسِ عَانِدُونَ عَنْ سَبِيلِ رَبِّهِمْ ، يَتَسَافِكُونَ دِمَاءَهُمْ ، وَيُحْلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ؛ وَأَيَّدَهُ بِالْبُرْهَانِ الْوَاضِحِ ، وَالْمُجْتَمِعِ الْقَوَاطِعِ ، وَالْآيَاتِ الشَّوَاهِدِ ؛ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ؛ وَجَعَلَ فِيهِ أَوْضَحَ الدَّلِيلِ عَلَى رِسَالَتِهِ ، وَأَعَدَّ الشَّوَاهِدَ عَلَى نُبُوَّتِهِ ؛ إِذْ عَجَزَ الْمَخْلُوقُونَ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ ، وَكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ وَالْمُنَازَعِينَ ؛ يَتَعَدَّاهُمْ بِهِ فِي الْمَوَاسِمِ ، وَيَقْصِدُهُمْ بِحُجَّتِهِ فِي الْمَحَافِلِ ؛ وَلَا يَزِيدُونَ عَنْهُ إِلَّا حُسُورًا وَتَعْجِزًا ، وَلَا تَزِدَادَ حُجَّةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِلَّا تَظَاهِرًا وَعَلْوًا ؛ ثُمَّ أَيَّدَهُ بِالنَّصْرِ بِأَنْصَارٍ أَلْفَ بَيْنَهُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَجَمَعَهُمْ عَلَى حَقِّهِ ، وَلَمْ شَعَبْتُمْ بِنُصْرَةِ دِينِهِ ، بَعْدَ الشَّقَاقِ الْمُتَّصِلِ بَيْنَهُمْ ، وَالْحَرْبِ الْمُفْرَقَةِ لِمَجَاعَتِهِمْ ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنُصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَعَدَّهُ بِالنُّصْرَةِ وَالتَّمَكِينِ ؛ فَبَعَثَهُ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَحُجَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَدَلِيلًا عَلَى مَا بَعَثَهُ بِهِ مِنَ الدِّينِ ؛ فَهَزَمَ بِالْقَلِيلِ مِنْ عَدَدِهِمُ الْكَثِيرَ مِنْ عَدَدِ أَعْدَائِهِمْ ، وَغَلَبَ بِضَعْفَاتِهِمْ أَهْلَ الْقُوَّةِ مِمَّنْ نَاوَأَهُمْ ؛ فَفَلَّ بِهِ حُدُومَهُمْ ، وَفَضَّ جَمْعَهُمْ ، وَأَفْتَحَ حِصُونَهُمْ ، وَحَرَّزَ مَعَاقِلَهُمْ ؛ وَأَظْهَرَ بِحُجَّتِهِ وَنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْجَزَ سَابِقَ وَعْدِهِ لَهُمْ وَفِيهِمْ ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ .

تحميد لابن المقفع

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْعِظَمَةِ الْقَاهِرَةِ ، وَالْأَلَاءِ الظَّاهِرَةِ ؛ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ ، وَلَا يُدْفَعُ قِضَاؤُهُ وَلَا أَمْرُهُ ؛ ﴿ وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ ، وَدَبَّرَ الْأُمُورَ بِحُكْمِهِ ، وَأَنْفَذَ فِيهَا آخْتَارَ وَأَصْطَفَى مِنْهَا عِزْمَهُ ؛ بِقُدْرَةٍ مِنْهُ عَلَيْهَا ، وَمَلَكَتْهُ مِنْهَا ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ؛ مَا كَانَ لِلنَّاسِ الْخِيَرَةُ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الذى جعل صَفْوَةَ ما آخْتار من الأمور دينَه الذى آرتضى لنفسه ولمن أراد
كرامته من عبادِه ، فقام به ملائكتُه المقربون ، يُعْظَمون جلاله ، ويُقَدِّسون أسماءه ،
ويذكرون آلاءه ، لا يَسْتَحْسِرُونَ عن عبادته ولا يَسْتَكْبِرُونَ ، يُسَبِّحُونَ الليلَ والنهارَ
لا يفترون ، وقام به من آخْتار من أنبيائه وخُلَفائِه وأوليايَه فى أرضه ، يُطِيعون أمرَه ، وَيَدُّونَ
عن محارمه ، وَيُصدِّقون بوعدِه ، وَيُوفون بعهده ، وَيأخذون بحقِّه ، وَيُجاهدون عدوَّه ، وكان
لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وإفلاجه حجتهم ، وإعزازِه دينهم ، وإظهارِه حقهم ،
وتمكينه لهم ، وكان لعدوِّه وعدوِّهم عند ما أوعدهم من جزية ، وإحلالِه بأسمهم ، وانتقامه
منهم ، وغضبه عليهم ، مضى على ذلك أمرُه ، ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى ، وهو ممضيه
ومنفذه على ذلك فيما بقى ، ليم نوره ولو كره الكافرون ، ولِيُحقِّق الحقَّ وَيُبطلَ الباطلَ ولو كره
المجرمون .

والحمد لله الذى لا يَقْضِي فى الأمور ولا يَدَبِّرها غيره ، ابتدأها بعلمه ، وأمضاها بقُدْرته ،
وهو وليها ومنهاها ، وولى الخيرة فيها ، والإمضاء لما أحبَّ أن يُمضى منها ، يخلق ما يشاء
ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يُشركون .

والحمد لله الفتح العليم ، العزيز الحكيم ، ذى المَنِّ والطول ، والقدره والحول ، الذى
لا تُمسك لما فتح لأوليايَه من رحمته ، ولادافع لما أنزل بأعدائه من تقمته ، ولاراد لأمره
فى ذلك وقضائه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

والحمد لله المثيب بحمده ومنه ابتداءه ، والمُنعم بشكره وعليه جزاؤه ، والمُثنى بالإيمان
وهو عطاؤه .

لا خسر

الحمد لله الذى يَتَطَوَّلُ بالنعمة مُبتدئاً ، وَيُعْطِي الخيرَ من يشاء وَيُثِيبُ عليه .

تحميد لغسان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان في المطر :

الحمد لله الذي نَشَرَ رحمته في بلاده، وبَسَطَ سَعَتَهُ على عبادِهِ، الذي لا يَزَالُ العبادُ منه في رزقٍ يَقْتَسِمُونَهُ، وفضلٍ يَنْتَظِرُونَهُ، لا يَنْقُضُهُ ما قَبْلَهُ، ولا يَنْقِضِي ما بَعْدَهُ .

لأحمد بن يوسف في فتح السند

الحمد لله وَلِيَّ الحمد، وأهلِ الثناء والمجد، خالِقِ الخلق، ومُدَبِّرِ الأمر؛ المسبِّح على عبادِهِ والمُوجِبِ عليهم حُجَّتِهِ؛ فليسوا يرجون إلا سَعَةَ فَضْلِهِ، ولا يَحْذَرُونَ إلا ما آجَتْرَحُوا من مَعْصِيَتِهِ؛ لما سبق من جَزِيلِ إحسانِهِ، وتظاهر من أَمْتانِهِ، وتَقَدَّمَ به الإِغْذارُ والإِنْذارُ، اللذان لا يَسْتَحِيفُ بما عَظُمَ منهما إلا من أَسْتَحْوِذَ عليه الشيطان، وأَسْتَوَى عليه الخذلان، وقاده الحَيْنَ إلى مواردِ المَهْلَكَةِ .

التحميد الثاني

الحمد لله الذي أَصْطَفَى الإسلامَ ديناً فطَهَّرَهُ وأَسْناهُ، وأظْهَرَ وأَعْلَاهُ؛ وزَيَّنَهُ بكلِّ حَسَنَةٍ، ونَفَى عنه كلَّ سَيِّئَةٍ، وجَعَلَهُ إلى مَدْخُورِ كرامَتِهِ سبباً واصلًا، وسبباً نَهْجًا، وبعث به محمداً صلى الله عليه وسلم ليَهْدِيَ مَنْ كانَ حَيًّا، وَيَحِقِّ القَوْلَ على الكافرين .

تقريره في الخليفة

الحمد لله الذي أَصْطَفَى أمير المؤمنين لخِلافَتِهِ، وتَلَفَّى الأُمَّةَ بِسُلْطانِهِ، بجَعَلَهُ القائمَ فيهِم بِقَسطِهِ، والمُسْتَفِرِّغَ في أَلْتِماسِ مصلحتِهِم هَمَّهُ .

لأحمد بن يوسف

عن ذى الرياستين إلى إبراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح :

أما بعد ، فالحمد لله الذي حَفِظَ من دينِهِ ما صَبَّحَ الملحدون، ورَأَبَ منه ما [فَرَّقَهُ] ^(١) الصدعة؛ وأعاد من حبلِهِ ما حاولوا نَقْضَهُ، حتى أعاد لعبادِهِ أحسنَ أنْفَتِهِم، وردَّ إليهِم أجملَ

(١) بياض في الأصل . وما أنبتاه يناسب المقام .

عَوْدِهِمْ ، من الاستشلاء بعد التردى فى حُجْمِ المعاطب ، والاستنقاذِ بعد التوريط فى المهالك ؛
 وبلغ خليفته القائم بحَقِّه ، المُؤْتَمَّ بِكُتَابِهِ ، الذائد عن حَرِيمِ الدِّينِ ، ومِيراثِ النَّبِيِّينَ ، أَجْزَلَ
 ما بَلَغَ لِخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ ، من إِعْلَاءِ الكَلِمَةِ ، وَغَلَبَةِ الأَعْدَاءِ ، والفوزِ بالعاقبة التى
 وَعَدَهَا المَتَّقِينَ ؛ وفرغَ لِمَا أَشْعَرَ قلبه ، وشرحَ له صدره ، من إِمضاءِ حُكْمِ الفرائضِ المَوْجِبَةِ ،
 واقتفاءِ السُنَنِ الهادِيَةِ ، حيث سلكَ به مِنِ المَنَاهِجِ ؛ حمدا يوازى نِعْمته ، ويبلغ أداءَ شكره ،
 ويوجبُ مزيدَه .

والحمد لله على ما خصنا به من إعلاء الدرجة ، وإسناء الرتبة ، فى مشايعة أمير المؤمنين
 — أيدِه اللهُ — والمجاهدةِ عن حَقِّه ، والوفاءِ لله بما عقده له ؛ لا نريدُ بما كان متا إلاً وجهه ،
 ولا نَسَى فيه إلاً لِرِضاهِ ؛ حمدا لا يُحْصَى عدده ، ولا يَنْقُطُ أمدُه .

تحميد لأبى عبيد الله

أما بعد ، فالحمد لله ذى الآلاءِ والقُدْرَةِ ، والطولِ والعزَّةِ ؛ الذى آصطفى الإسلامَ دينا
 لنفسه ، وملائكته وأنبيائه ومن كرمَ عليه مِن خلقه ؛ فبعثَ به عبداً صلى الله عليه وسلم اختصاصا
 له فى ذلك بكَرَامَتِهِ ، وأصْطَفَاءً له به على عباده ؛ فأعزَّه ومنعه ، وكفاه وحاطه ، وتوكل لأهله
 بالعلمِ والتمكينِ ، والظهورِ والتأييدِ ؛ فلم يُلحد فيه ملحد ، ولم يَزِغ عن قبولِ حَقِّه زائع ، بعد
 إغذارِ الله إليه ، وإعادةِ الحُجَّةِ لله عليه ، إلاً أنزِلَ به من الذلِّ والصَّغارِ والأجتياحِ والاستئصالِ
 ما يجعلُ له فيه قعباً ؛ حمدا كثيرا دائما مُرَضيا له ، مُؤمِّنا من غيره ، موجبا لأفضلِ مزيدِ ثوابه .

تحميد لسعيد بن حميد فى فتح

أما بعد ، فالحمد لله المُنعمُ فلا يبلغُ أحدُ شُكْرَ نعمته ، والقادرُ فلا يُعَارِضُ فى قدرته ،
 والعزِيزُ فلا يُغالبُ فى أمره ، والحكمُ العَدْلُ فلا يُردُّ حُكْمُه ، والناصرُ فلا يكونُ نصره إلا للحقِّ
 وأهليه ، والمسالكُ لكلِّ شىءٍ فلا يخرجُ أحدٌ عن سلطانه ، والهادِيُ إلى سبيلِ رحمته فلا
 يَضَلُّ من أنقادِ لطاعته ، والمُقَدِّمُ إغذارَه لِظَاهِرِهِ به مُجْتَمِه ؛ الذى جعلَ دينه لعباده رحمة ،
 وخلافته عصمة ، وطاعةَ خُلَفائِهِ فرضا واجبا على كافةِ الأُممِ ؛ فهمُ المُستَحْفَظُونَ فى أرضه

على ما بعث به رُسله ، وأُمنأؤد على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحاامون لهم على مناهاج حقه ، لئلا تُشعب بهم الطرق المخالفة لسبيله ، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الجادة التي نذب إليها عباده ؛ بهم حُحى الدين من البُعاة الطاغين ، وحُفظت معالم الحق من الغواية المخالفين ، مُحجَّين على الأمم بكتاب الله عز وجل الذي آستعملهم به ، ورُعاة للأمر بحق الله الذي آخترهم له ؛ إن جادلوا كانت حُجة الله معهم ، وإن حاربوا فالنصر لهم ، وإن جاهدوا كان في طاعة الله نصرهم ، وإن بغاهم عدو كانت نكاية الله حائلة دونهم ، ومعقلا لهم ، وإن كادهم كائد فالله في عونهم ؛ نصيبهم الله لإعزاز دينه ، فمن عاداهم فآتما عادى الذين عزبهم وحُرس بهم حقه ، ومن ناوأهم فآتما طعن على الحق الذي تكأؤه حراسهم ، جيوشهم بالرعب منصوره ، وكأئبهم بسطان الله من عدوهم تحوطة ، وأيديهم بذبها عن دين الله عالية ، وأشياهم بتناصرهم غالبه ، وأحزاب أعدائهم ببغيمهم مقموعة ، ومُحجَّتهم عند الله وخلقه داحضة ، ووسائلهم إلى النصر مردودة ، وأحكام الله بخذلانهم واقعة ، وأقداره بإسلامهم إلى أوليائه جارية ، وعادته فيهم وفي الأمم السالفة والقرون الخالية ماضية ، ليكون أهل الحق على ثقة من إنجاز سابق الوعد ، وأعداؤه محجوجين بما قَدَم إليهم من الإنذار ، مُعجَّلة لهم نعمة الله بأيدى أوليائه ، مُعدا لهم العذاب عند ردهم إليه خزيا موصولا بنواصيرهم في دنياهم ؛ وعذاب الآخرة من ورائهم وما الله بظلام للعبيد .

وصلى الله على محمد أمينه المصطفى ، ورسوله المرتضى ، والمتخذ من الضلالة والعمى ، صلاة نامية بركاتها ، دائما آتصالها ، وسلم تسليما .

والحمد لله تواضعا لعظمته ، والحمد لله إقرارا بربوبيته ، والحمد لله اعترافا بقصور أقصى منازل الشكر عن أدنى منزلة من منازل كرامته .

فيما يُقرظ به الخليفة

والحمد لله الذى حاز لأمير المؤمنين ورائته ، وساق اليه خلافته ، بالحاجة منها إليه ، والرغبة منه عنها ، وآستخلص من خلقه من جعله ظهيرا للحوادث ، وعدة للنوازل ؛ فلما

(١) أفضت الخلافة إليه حيسر أمامه أحاجلته ، وكشف قناعه لمُحاربتَه ؛ فالحمد لله الذي اختص أمير المؤمنين بخلافته ، وآرتضاه لولاية أمرِ أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والقيام بحقه ، والذب عن حرّماته ؛ وحاط له ما استرعاه من ذلك ، وقلّده بحسن الولاية والكفاية ، وتوكّل له بالحفظ والتأييد ، والنصر والغلبة والظهور على من عنّد عن طاعته ، وصدّف عن حقه ، وآبَتغى غير سبيله ؛ كرامة من الله تطوّل بها عليه ، ومِنّة منه توحد بها له .

والحمد لله الذي جعل نبيّة أمير المؤمنين عزيمته ، وفكره ورويته ، منذ أفضى الله بالخلافة إليه ، وجعله القائم بإرث نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم واستحفظه من عباده وبلاده فيما فيه عز الدين ، ونظام أمر المسلمين وترهينُ الشكر ، وإذلالُ الأعداء ، وإشجاؤهم ووقفهم ، وتحصين البيضة ، وإشخان الثغور ، ولمُ المنتشر ، وضمّ الأطراف ؛ لا يفتأه عن ذلك فائئ ، ولا يذهله عن تفقد كبير أمره وصغيره ومقابلته ذاهل ؛ يستقل كثير ما يُنفق من الأموال في سدّ الثغور ، وتحصينها وحراستها ، لما يرجو فيه من جسيم الخطّ ، وجريل الذئب ، وكثير الأجر ؛ تقربا إلى الله وأحتسابا له في جنب ثوابه ، وكريم مآبه ؛ حتى رآب به الصدع ، ورتق به الفتق ، وأمن به السبل ، وأقام به العوج ، وأفلج به المنجج ، وأعلى به الدرج ، وأزحق به الباطل ، وأحيا به الحق ، وأشام به سيوف أهل الضلالة والفتنة ؛ لا تأخذ في القيام بحق الله والانتصار لدينه ، والانتصاح لأمة نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم ، والذبّ عن حوزتهم ، والرحي من ورائهم ، ودفع بائقة أهل الشقاق والنفاق والخلاف والمعصية عنهم قترّة ولا سامّة ؛ توفيقا من الله ، وتسديدا لحُرّمته ، وتأيدا لعزّمه ، إذ كان لله شاكرا ، ولدينه ناصرا ، وبحقه قائما ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلّا بالله وحده ، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون .

والحمد لله الذي لم يزل منذ أفضى إلى أمير المؤمنين بخلافته ، وحيّاه بكرامته ، يختصّه بالخيرة في كل ما أمض من أمره ، ويتولاه بالتوفيق في كل ما أبرم من تدييره ، ويمجّل عنه

(١) هكذا وردت في الأصل . ولم نوفق إلى تحقيقها .

أعباء ما حمّله ، و يُعينه بتأييده على ما قلّده ، ويجوّطه بجميل الصنع فيما ولاه وأستحفظه ،
و يُلهمه جهاد عدوه ، ويجبوه بنصره ؛ حمدا قاضيا لحق نعمته ، موجباً أفضل مزيده .

والحمد لله الذي أورث أمير المؤمنين مواريث نبوته ، وصير اليه مقاليد خلافته ،
وأوجب ذلك له بالقرابة برسوله صلى الله عليه وسلم ، والوراثة لوراثته من عصبته وأولى الناس
به ؛ ثم أعز نصره ، وأعلى كلمته ، وأفصح حجته ، وأظهر على المشركين والمنافقين ، ومن حادّه
وعانده من الناكثين والمارقين ، والباغين والملحدّين ، فأتعس جدودهم وفعل وفعل .

والحمد لله الذي عرّف أمير المؤمنين منذ استخلفه في أرضه ، وأتمته على خلقه ، من
عظيم نعمه ، ولطيف صنّعه ، وجميل بلائه ، واعزاز نصره ، واعلاء يده وكلمته ، وإفلاج
حجّته على من ضاده وحادّه ، إن الله بعظيم طوله ومنه آرتضى أمير المؤمنين لدينه ، وأصطنعه
لخلافته ؛ ففلاه سرّبالها ، ورداه بهاءها وجمالها ، فاستعمله بالكتاب والسنة والحق والعدل
فيها ؛ فأيدّه بقوته ، وأعزّه بنصره ، وحاطه بكفائته ، وتولّى الصنع له في جميع أموره ؛ فلم
يكده كائد ، ويُعانده مُعانِد ، ويمرّق عن طاعته الواجبة مارق ، ويُليد في إمامته مُلحد ،
من يُعالن بمعضية وشقاق ، أو ينطوي على غلّ ونفاق ، إلا أوهن الله كيده ، وأتعس جدّه ،
وعاجل المبادئ بعداوته ، الشاهر على الدّين والمسامين سسيفه ، باصطلام وبوار ، وأمکن
منه بذلة وصغار ، وقتل المسرّ غيره ، المنطوي على غلّه بغيظه وعمّه ، وأماته بدائه وحسرتّه ؛
إنجازاً منه جلّ ثناؤه لوعده ، وإتماماً لكلمته فيما وعد الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات من
أستخلافهم في أرضه ، والتّمكين في دينه ؛ وله الحمد دائماً ، والشكرُ خالصاً ، كما هو أهله وكما
ينبغي أن يُحمد ويُشكر ، لا إله إلا هو الواحد القهار .

والحمد لله الذي لم يُبق لأمير المؤمنين عدواً من الناكثين والجاحدين ، والمشركين
والمنافقين ، حاول نقضا لإمامته التي صيرها الله اليه ، وقلّده إياها ؛ أو صاول جيشاً من
جيوشه التي أعدّها لأمامة عن دين الله ومحارمه ، وإقامة سننه ومعامله ، إلا أحلّ به التّقمة ،
وأصاره الى الصّغار والنّلة ، والبوار والهلكة ، وعجّله الى ناره وعذابه .

والحمد لله الذي لم يزل يتولى أمير المؤمنين بعبادته ، ويتوحد له من إعزاز نصره وإعلاء كلمته ، وإفلاج حُجَّتِهِ ، وتأبيد أوليائه وأنصار حَقِّهِ ؛ وأنزل البأس والنقمة والمثلثات والسطوة بمن عانده ، والدَّبَّ عن حريم المسلمين وأهله ؛ بما يبيِّن به عن مكانه منه ، ومنزلته عنده ؛ حميدا ربنا بذلك كما هو أهله ومستحقه ، مشكورا بعظيم منته فيه وطوله ، مسؤلا لتسام أحسن عائدته وماضى سنته ؛ فإن الله المحمود على نعمه ، المشكور بالآلئه ، لم يزل ما يتوحد به لأمر المؤمنين بسلطانه من التعزيز ، وفي أوليائه من التأبيد بنصره ، عادة يتبين بها برهانه ، ويقلج بها حُجَّتَهُ ، ويدلُّ بها على كرامته عليه ، ويُخبر بها عن منزلته عنده ؛ ويجعل ما نزل بأعدائه المتولين عنه ، الراغبين إلى غيره ، الملحدن في حَقِّهِ ، عِظَّة لمن قسا قلبه ، وران عليه سوء عمله ، ليكون ما يعطيه من البسط في ملكه ، والتمهيد فيما خولَّه له ، ويُوفِّقه من السطوة بعدوه ، والتنكيل بمن خالفه ، حُجَّتِينَ متظاهرتين ، وعبرتين بعين ؛ فيعتصم ^(١) معتصم ، وينجو ناجح ، وليشجب [شاجب] ^(٢) ويهلك هالك ، وقد مضت من الله المشيئة ، ووضع منه الإعدار ، وكان الله بعباده عليما ، وأعمالهم خيرا .

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بخلافته ؛ وجعله وارث وحيه ، وقيمه بكتابته في عبادته ، وأكرم هذه الأمة التي جعلها خير أمة أخرجت للناس به ؛ فهو الميمون في تديره المنجح حويله ، الميمونُ النتيبة ، الموفق الرأي والسياسة ؛ فإن الله عز وجل خالق الخلائق بقدرته ، وأختارهم بعلمه ، فاختر أمير المؤمنين لخلافته ، وأصطنعه للقيام في العباد والبلاد بأمره وقسطه ، وألهمه إقامة أحكامه وفرائضه ، والعمل بحقه وعدله ، وأبلى أهل الشرك به ، وأتحرها إلى أيام دولته ، وحظرها عمن كان قبله ؛ حتى حازله أبحرها ، وأبقى له سناءها وذِكْرها ، ونشر عنه أهدوتها وسماعها ؛ وفتح عليه البلدان القاصية ، والمدائن الثنائية ، التي لم تكن تُرام من أهلها ، ولا يُطمع في زوالها ؛ وذلت له الملوك القديم عتوها وعنادها ، والأئمُّ المستصعبُ مراسها وجهادها ، الحامية في آباد الدهور حماها ؛ فأنفذ فيهم مكيدته ، وأنجح

(١) كذا في الأصل ، ولعلها بالفتن . (٢) كذا في الأصل ، ولعلها وليشجب .

سعيه، ورماهم بالتخويف، وملا قلوبهم رعباً منه؛ فأذعن مدّعيهم بطاعته، وأنقادوا لأمره، وصاروا يداً وأعواناً لأولائه على أعدائه .

أما بعد، فإن أعظم النعم قدراً، وأجلّها أمراً، وأسرّها موقِعاً، وأوجبها شكراً، ما عمّ الإسلام والمسلمين نفعها، وعادت عليهم عائدتها، وجعل الله فيه عزّ الدين، وذللّ المشركين؛ وقد جعل الله ذلك في خلافة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بيمينه وبركاته، وما أخلص الله من نيته وطاعته، وتأدية حقه فيما استحفظه من أمر دينه وعباده، وفرغ له نفسه، وأنصب فيه بدنه، وأسهر فيه ليله، من حياة حريم الإسلام، والزيادة في حدودها متصلاً متتابعاً، والنعم متظاهرة ومتوافرة، فسهل الصعب، وذللّ له العزيز، وقصم عتاة الأعداء ومتكبريهم، والمستعصين والمستصعبين منهم، في آباد الدهور على من رامهم، وفتح عليهم حصون مدائنهم؛ وممنع قلاعهم، وأنفذ مكيدته فيهم؛ فبين مقتول ومأسور، وشريد طريد عن محلته، وموضع عزه ومنعته، مستسلم معطي قيادته باخع بطاعته؛ وكذا فإن الله بمنه وطوله قد أوصل لأمر المؤمنين من صنعه له فيما قلده من خلافة، وحياطته إياها فيما يحوطه من دينه، وعرفه من كفايته فيما قام به من حقه، وأيده من نصره فيما جاهد عنه في سبيله، ما قد جعل النعمة به عامة، والشكر به لازماً، وإينة به واجبة، والصنع عظيماً؛ فالحمد لله على نعمه في ذلك كثيراً .

والحمد لله الذي جعل آجتهد أمير المؤمنين ومقام أمره وتديره، في آناء الليل ونهاره، فيما فيه صلاح عباده، وإعزاز دينه وإقامة حقه .

تمجيد

الحمد لله الذي لمّا آفترض من الطاعة لولاية الأمر من خلفائه جعل أوائلها ناطقة عن فضل أواخرها، وبوادئها مخرجة عن حميد عواقبها، ومواردها مبشرة بالعلو في مصادرها، بما يعقبه أهلها من السعادة في الماضين من أوليائها القائمين بحقها؛ وعاد من الشقوة على مقارفي المعصية المُلحدن إليها؛ حين أقبلت بهم هوادي الفتن، وكشفت لهم تواليها عن البوار

والهَلَكَةُ ؛ مُعْتَذِرِينَ حِينَ لَا عَذْرَ وَلَا حُجَّةَ ، طَالِبِينَ لِهَارِبٍ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَنَازِلُ السَّلَامَةِ بِهِمْ مُطْمَئِنَّةً ، وَخَائِفِينَ وَقَدْ كَانَتْ سُبُلُ الْأَمْنِ لَهُمْ وَاضِحَةً ؛ قَدْ جَعَلَتْهُمُ النَّقْمَةُ الْوَاقِعَةَ بِهِمْ أَمْثَالًا سَائِرَةً ، وَفَزَعَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّعْمِ الشَّامِلَةِ ، وَحَصَلَتِ السَّعَادَةُ لِمَنْ آتَعَطَ بِهِمْ بَاقِيَةَ سَنَةِ مِنْ اللَّهِ فِيهِمْ مَاضِيَةً ، وَعَادَةَ جَارِيَةً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي آخْتَارَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خِلَافَتَهُ فُخْرَسَ بِهِ دِينَهُ مِنَ الْبُغَاةِ النَّالِكِينَ عَنْهُ ، وَآخْتَصَّهُ بِأَعْلَاءِ رُتَبِ كِرَامَتِهِ ، وَآفَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَجَعَلَهَا بِمَوَاقِعِهَا فِي دِينِهِ نِظَامًا لِسَائِرِ فَرَائِضِهِ ، فَتَارَكُهَا مُفَارِقَ لِعِصْمَةِ حَقِّهِ ، خَارِجٌ مِنْ جَمَلَةِ الْأُمَّةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهَا رَحْمَتُهُ ؛ يَسْتَنْصِرُ أَشْيَاعَ الْبَاطِلِ وَاللَّهِ خَاذِلُهُ ، وَيُغَالِبُ الْحَقَّ وَاللَّهِ غَالِبُهُ ، وَيَطْلُبُ مَا لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَيْهِ وَاللَّهُ طَالِبُهُ ؛ حَتَّى يَخْلِجَهُ أَجَلُهُ عَنْ أَمَلِهِ ، وَأَقْدَارُ اللَّهِ فِيهِ عَنْ تَقْدِيرِهِ ، وَنَفُودُ قِضَاءِ اللَّهِ فِيهِ عَنْ نَفُودِ حِيلِهِ ؛ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَقِضَاءً مِنْهُ عَدْلًا فِي أَعْدَائِهِ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي آخْتَارَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِرِعَايَةِ عِبَادِهِ ، وَحِفْظِ بِلَادِهِ ، وَتَنْفِيزِ أَحْكَامِهِ ، وَإِقَامَةِ حُدُودِهِ ؛ بِجَمْعِ بِهِ الْأَلْفَةِ ، وَكَيْفِ بِهِ بَوَائِقِ الْفِتْنَةِ ، وَأَصْلَحَ بِهِ أُمُورَ الْأُمَّةِ ، وَسَكَنَ بِهِ الدِّهْمَاءَ ، وَدَفَعَ بِهِ عَظِيمَ الْبَلَاءِ ، وَأَتَقَدَّ بِهِ مِنَ الْجُهْدِ وَاللَّوْءِ ؛ وَجَدَّدَ لِرِعَايَتِهِ الْعِبْرَ الشَّافِيَةَ ، وَالْعِظَّةَ النَّاهِيَةَ ، وَجَعَلَ هَمَّهُ السَّعَى لِرَبِّهِ ، وَطَلَبَ الْحَقَّ الَّذِي أَوْجَبَهُ لَهُ مِنْ خِلَافَتِهِ ، لِيُؤَدِّيَ فَرِيضَتَهُ فِي الْأَمَانَةِ الَّتِي حَمَلَهَا ؛ فَيُوجِبُ لَهُ بِذَلِكَ مَا لَا يَزُولُ وَلَا يَنْقَطِعُ مِنْ ثَوَابِهِ ، فَأَعْمَلَ رَأْيَهُ فِي الرَّأْفَةِ بِنِ وَوَلَاهِ أَمْرَهُ ، وَالْحَيَاظَةَ لَهُ ، وَالْعِنَايَةَ بِصَلَاحِهِمْ ؛ فَأَعْطَاهُ لِيُنِ الْمَوْعِظَةَ فِي وَقْتِ التَّانِي ، وَالنَّفُودَ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَالْبَيِّنَةِ ، وَشِدَّةَ السُّطُورَةِ عَلَى مَنْ غَمَطَ النِّعْمَةَ وَعَنَّدَ بِهِ الْإِصْرَارَ عَنِ التَّرْوَعِ وَالْفَيْئَةِ ؛ مَنَّ مِنَ اللَّهِ وَتَفَضَّلَا ، وَإِحْسَانًا وَتَطَوُّلًا ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

وَيَسْأَلُ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُبْتَدَأًا وَمُعَقَّبًا ، وَأَوَّلًا وَآخِرًا ، وَقَبْلَ كُلِّ مَسْئَلَةٍ ، وَأَمَامَ كُلِّ رَغْبَةٍ ، وَمُقَدِّمَةً كُلِّ طَلِبَةٍ ؛ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى صِفْوَتِهِ مِنْ عِبَادِهِ ، وَخَيْرَتِهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ ، مَجْدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ، أَفْضَلَ صَلَوَاتِهِ ، وَيُبَارِكُ أَكْثَرَ بَرَكَاتِهِ ، وَأَنْ يُدِيمَ لَهُ كِرَامَتَهُ ، وَيُجْرِيَ عِنْدَهُ أَجْمَلَ عَادَاتِهِ ، وَيُتِمَّ لَهُ مَا اخْتَصَّ بِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ ؛ حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا ،

والإسلام تأبدا وعزرا، والشرك ذلًا وقمعا؛ إنه ولي كل نعمة، ومنتهى كل رغبة، وغاية كل حاجة .

ولم يزل أمير المؤمنين منذ الوقت الذي أفضى الله اليه بخلافته ، وأكرمه برّد حقه من إرث نبوته ، يتلقى عظيم النعمة في ذلك بالإخلاص للنية والطوية في الصفح عن كل زلة ، والإفالة لكل عثرة ، والتعمد للهفوة وقبول الفئنة ، والإنابة ممن عظم جرمه ، وجلّ ذنبه ، وظنّ أن لا توبة له ؛ وكما جدد الله له نعمة ، جدد له في ذلك نية حسنة ، شكرا لله عزّ وجلّ على ما ابتدأه به ، وارتبانا لنعمه عنده ، واسترادّة من جميل مواهبه ، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رعيته ، وأستقامة أمورها ، وحياطتها والدّب عنها ، وكف الأذى والمكروه عن الداني والقاصي منها ؛ ويتخصّص إلى ذلك بكلّ ما ييجد اليه السبيل ويجهّد فيه ، ويعمل لكثرة أوقات دهره في كلّ ما بلغه محبته نظرا لها ، وحدّبا على كافتها ، وإشفاقا من سوء حالها ؛ إذ كان لها والدا برا ، وراعيا كالثا ، وناظرا لطيفا ؛ ويستعمل كلّ ما يرجو اثلافها ، والإبقاء على أحوالها ، والسلامة لها في دينها ودنياها ؛ وينصب لذلك ليله ونهاره ، ويذيب فيه نفسه ، ويجعله شغله دون غيره .

والحمد لله الذي أصطفى أمير المؤمنين بخلافته ، وأكرمه بإرث نبوته ، وجعل خلافته خلافة يمين وبركة ، ولطف وسعادة ؛ انتاش بها أولياءه من موارد الملكة ورفع منزلتهم ، وشرف درجاتهم ، وأعلى كلمتهم ، وأذلّ بها أعداءهم ، وجدّد دوابهم ، وردّ دائرة السوء عليهم ؛ وحباه منزلة نصره وتمكينه ، وإعزازة وتأبيده ، وإظهاره على من ناواه وعند عن حقه ، وصدف عن طاعته ؛ فإن الله لما اختار أمير المؤمنين لخلافته فأيده بها ، جعل الحق نيته ، وإعزاز الدين بغيته ، ومجاهدة أعداء الله شرقا وغربا وبرا وبحرا نهمته وإرادته ؛ ثم يسره في ذلك لما أحسن به عونه ، على من أستحفظه وقاده ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

والحمد لله الذي كان لسابق علمه وسالف قضائه، الذي لا يستطيع الناس رده، ولا منعه ولا صرفه، ما ولى أمير المؤمنين من خلافته، وما آتبعته له من النصر لدينه، والطلب لحقه، والجهاد لأعدائه؛ وأحسن في ذلك عونه فيه وبلاءه، وأيده في نفسه، لم ينقصه خذلان خاذل، ولا مخالفة من خالف، ولم يزد أمره في شيء من ذلك إلا تماما وإحكاما؛ حتى أظهر حقه، وأفلج حجته، ومحق باطل أعدائه، وأدحض حججهم؛ وجعل أهل طاعته حزبه الغالبين، وجنّده المنصورين؛ وجعل عدوه وعدوكم حزب الشيطان الخاسرين، وأولياءه الأذلين؛ بغير حول من أمير المؤمنين في شيء مما ولاه وأبلاه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

لأبي عبيد الله

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بما أثار اليه من الخِلافة وإرث النبوة، وجعله القائم بأمر عباده وبلايه، والمُحْيِي لسننه، والذَّابَّ عن دينه وحقه، والمُنَاصِبَ لأهل الشرك والجحود به؛ ثم نصره وأظهر فضل أيامه ودولته، ومكّن له في بلاد عدوه، وجعل كلمته العليا وأنصاره الغالبين، ومن ناوأه من أهل الخِلاف الأذلين المقهورين؛ وعرفه من نعمته في ذلك وميته وجميل صنعه وعاداته، أحسن ما عود أحدا من أوليائه الذائبين عن الإسلام وأهله؛ حمدا متتابعا لا آتقطاع له ولا انصرام، دون بلوغ حقه، وقد كان كذا وكذا .

ما يكتب به في المخالفين في وقت الهزيمة

نكصوا على أديبارهم منكوبين مهزومين، قد ضرب الله وجوههم، وقت في أعضادهم، ومنح الأولياء أكفاهم؛ فقتلوهم في كل فج، وعلى رأس كل تلعمة ومهرب ومسلك؛ أباد الله خضراءهم وغضراءهم، وحصد شوكتهم، وقلّ حدتهم، وأباح نيران ضلالتهم وكفرهم، وشفى منهم الصدور، وأدرك منهم الإحن؛ ونقل المسامين أموالهم وذراريهم، وجعلهم لهم خولا وعبيدا، وأورثهم أرضهم وديارهم، وأحلّ الله بهم من البأس والنقمة والجائحة

(١) أباغ النار: أطفأها .

والظهور والغلبة جزاءً من الله لمن أخذ إلى المعصية وأبتغى غير سبيله المسلوكة . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، إن الله لا يخلف الميعاد . ثم أنزل الله عز وجل من صار إلى الأمصار منهم هرباً ، واعتصم بالحصون ، وتعوذ بالجبال ، ولاد بالفلاع ، ولجا إلى الأودية ، من صياصيهم ، وأمكن من نواصيهم ، وأستخرجهم من أوزارهم ومعاقلهم ومتعوذهم ، وأخذ أسيراً ذليلاً منكوباً خائفاً قد نخب الوجل قلبه وملاً الرعب صدره ، متوقفاً أن ينزل الله به من النقمات والمثلات مالا مرد له عن مثله من القوم الظالمين ، وفشت في الكفرة الجراحات ، وعضتهم السيوف ، وشرعت فيهم القنات ، وهتهم نار الحرب ، وغالم الأتزال ، ومارسهم الأبطال ، وأستحز فيهم القتل ، فصبر لهم الأولياء أحسن صبر ، فلم يطيقوا بالموت مراماً ولا على الحرب مقاماً .

في صفة الخالعين

الناصبين لدين الله ، المكذبين بآياته ، الجاحدين رسله ، الجاعلين معه إلهاً ، لا إله إلا هو ، لطول مدتهم ، وشدة شوكتهم ، وصعوبة مرامهم ، وقطعهم السبل وآتها كههم المحارم وسفكهم الدماء التي أوجب الله على من سفكها بغير حلتها وأقترف وأحتمل وزرها ، ألم العذاب وشديد العقاب ، فأبوا إلا تمادياً في ضالاتهم ، وعُتُوا في طغيانهم ، وشبوتاً على عصيانهم ، ومقاماً على كفرهم ، لأحداثه السالفة ، وغوائله المتقدمة ، وبوائقه المشجية ، فوقف مميلاً بين ثكل التقدم وحقيقة الأصطلام في التأخر ، دعاهم إلى الفئنة والمراجعة والإنابة وقبول الأمان والدخول في الطاعة ، أستظهاراً بالحجة عليهم ، ورجاءً لصنع الله فيهم . فلما بلغهم نزول فيمن معي ، جمع أصحابه ، وضم جنده ، وتحرز في معسكره ، وخذق على منزله ، وأحترس بجنده ، فأقت معسكرى ، وأنا مع ذلك في كل يوم أوجه رُسلى وأدعوه إلى حظّه ، من طاعة أمير المؤمنين والدخول في أمانه ، وأعلمه أن له نظراء ممن عمط الطاعة ، وسفه الجماعة ، وقد ركضوا في الفتنة عمرهم وسعوا فيه دهرهم ، فانتشر خبرهم ، وكثرتبهم ، وكبر وزرهم ، وثقل وقهرهم ، ثم أذعنوا لطاعتهم ، وأستقلوا

ناهضين من عَثْرَتِهِمْ ، ومتعشين من زَلَّتْهُمْ ، فُغْفِرَتْ ذُنُوبَهُمْ ، وَقُبِلَتْ تَوْبَتُهُمْ ، وَفُسِّحَ لَهُمْ فِي أَمَانِهِمْ ، وَشَرُفَتْ مَنَزَلَتُهُمْ ، وَأَسْتَبَدَلُوا بِالْخَوْفِ أَمْنًا وَبِالذَّلِّ عِزًّا ؛ فَأَبَى بِهِ مِيلَ الْهَوَى ، وَعَلَبَةَ الشَّقْوَةِ ، وَمَسْتَعْلَى الْغَوَايَةِ ، وَالْقَدْرَ الْحَارِبِ ، وَالْقَضَاءَ الْمَحْتَمُومَ . وَتَقَدَّمَتْ فِي مَوَافِقَتِهِمْ وَتَرْغِيهِمْ ، وَالْأَخْذَ بِالْمُخْتَقِ مِنْهُمْ ، مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ ، وَلَا تَنَاوُلِ سِلَاحٍ ، وَلَا تَنَاوُشِ صِيَالٍ ^(١) ، وَعَرَضَتْ عَلَيْهِمُ التَّوْبَةَ ، وَدَعَوْتَهُمْ إِلَى الْإِنَابَةِ ، وَأَعْطَيْتَهُمُ الْأَمَانَ ، وَأَعْلَمْتَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ قَبَلُوا حَمْدَتَهُمْ وَأَحْمَدَتْ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، وَإِنْ أَبَوْا إِلَّا تَمَادِيًا فِي غِيْبِهِمْ وَنُكُوصًا عَلَى شِقَائِهِمْ ، وَلَيْتُ مَنَاجِرَتَهُمْ وَعَرَفْتُ مِنْ اللَّهِ الْخَيْرَةَ فِي مَحَارِبَتِهِمْ ، وَأَسْتَعْنَتْهُ عَلَيْهِمْ وَأَسْتَكْفَيْتُهُ أَمْرَهُمْ ، وَرَجَوْتُ حَسْنَ عَادَتِهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْتَالِهِمْ . ثُمَّ وَجَّهَتْ الْأَوْلِيَاءَ فَنَفَذُوا نَحْوَ عَسْكَرِهِمْ لَيْلًا وَهُمْ مُتَفَرِّقُونَ فِي رِحَالِهِمْ ، مَغْتَرُونَ فِي أَوْطَانِهِمْ ، قَدْ أَمِنُوا خَدَعَ الْحَرْبِ وَمَكْرَهَا وَمَكِيدَتَهَا ، وَوَقَعَةَ الْبَيَّاتِ وَهَوْلَهَا ، إِلَّا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَهْلُ عِدَدٍ وَعُدَّةٍ ، وَبِأَسَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَقُوَّةٍ ، اتَّخَذُوا اللَّيْلَ جَمَلًا ، وَسَرَّوْا نَحْوَنَا يَرْجُونَ غَيْرَتَنَا وَيَأْمُلُونَ غَفْلَتَنَا ، فَوَقَفَ جُنْدُنَا بِمَكَانِهِمْ آخِذِينَ أَهْبَتِهِمْ ، مَتَمْسِكِينَ بِالطَّاعَةِ فِيمَا بِهِ أَمْرَتُهُمْ ، فَاسْرَعَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ طَائِفَةٌ فَدَفَعُوهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَنَالُوهُمْ بِجِرَاحَاتٍ مَعَ قَتْلِ مِنْهُمْ عِنْدَ تَنَاوُسِهِمْ ، ثُمَّ نَكَصُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَرَجَعُوا الْقَهْقَرَى عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِلَى الْبَاقِينَ مِنْ سَرِيَّتِهِمْ ، فَاسْتَجَاشُوهُمْ فَجَاحَهُمْ بِالْمَكَانِفَةِ وَالْمَوَازِرَةِ ، وَأَقْبَلُوا بِحِمِيَّتِهِمْ وَحَنَقَتِهِمْ حَتَّى حَمَلُوا حَمَلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَضَاقَ الْفَضَاءُ وَطَارَتْ أَفئِدَةُ جُنْدُنَا رُعبًا مِنْ حَمَلَتِهِمْ ، وَبَلَّغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ مِنْهُمْ ، إِلَّا طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ مِنْ لَوَاحِ الْحَرْبِ وَمَوَاضِي رَوَاسِخِهَا وَأَشْبَالِ لِبْدَتِهَا ، تَزِينُوا بِالطَّاعَةِ فَأَمَّوْا حَسْنَ الْعَاقِبَةِ ، وَنَصَرُوا الدِّينَ ، فَوَثِقُوا بِالْتَّمَكِينِ ، أَسْتَدْبَوْا إِلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا لَهُمْ ، وَأَزْدَادُوا بِصِيرَةٍ فِي أَمْرِهِمْ ، وَنَفَازًا وَجِدًّا فِي آجِتِهَادِهِمْ وَمَجَاهِدَتِهِمْ ، فَثَبَّتُوا قَائِمِينَ بِالْقِسْطِ فِي أَحْوَالِهِمْ ، قَائِلِينَ بِالْعَدْلِ فِي أَمْلَائِهِمْ ، يَسْأَلُونَهُمُ الْكِرَّةَ بَعْدَ الْكِرَّةِ ، وَيَعِدُونَهُمُ الْعَاقِبَةَ ، وَيُؤْمِنُونَهُمُ السَّلَامَةَ ، وَيُضْمِنُونَ لَهُمُ الْغَنِيمَةَ ؛ فَنَفَّاءُوا إِلَيْهِمْ ، وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ لِلَّهِ عِزِّ وَجَلِّ عَلَيْهِمْ ، فَشَافَعُوا سَاعَةَ بِالْقَنَى

(١) الصيال مصدر صال على قرنه : سطا عليه .

بعد ترميمهم إرشاقاً . بالسهم فلما رأى أعداء الله جدّهم ، وعرفوا صدقهم ، وخافوا حدّهم ،
نكصوا على أعقابهم ، يريدون اللّحاق بعسكرهم ، وتحرك أصحابنا في طلبهم ، ورجوا سوء
الصباح لهم ، فأمعنوا في أثرهم ؛ فلما أحسوا الفساق أعطوهم الضمة وولّوا إلى ديارهم
لا يلوى قريب على قريب ، ولا ذو رحم على حبيب ؛ ونالتهم القنبي فدمرتهم ، وعصّت
هامهم السيوف فكلمتهم ، وحيل بينهم وبين الدخول من باب عسكرهم ، فأخذوا في غير طريقه
منهزمين ، قد فل الله حدّهم ، وقتل كثيرتهم ، ورجع أصحابنا إلى معسكر أعدائهم
بعد التشريد والتفريق بجماعتهم ، فأحاطوا بهم في آخر ليلتهم ، فلما رأوا غفلتهم ، وأمّنوا
غرتهم ، وآتتروا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون ، فازون غافلون متفرقون ،
فوضعوا السلاح فيهم ، ضرباً بالسيوف ، وطعنا بالرماح ، وضرباً بالأعمدة ، وذبحاً بالشّفار ،
لا يشوون من جرحوا ، ولا يُيقون من كلّوا ، غير مدفوعين ولا ممنوعين ، حتى أثنى
السيوف ، وتحطمت القنبي وآندقت الأعمدة ، وكلت الشّفار ، وبقيت منهم عدّة يسيرة
وشزيمة قليلة ممن لم يناله القتل ، فأخذوا أسرى ، وأوثقوا حديداً ، وجكّلوا قيوداً ، وكان
أول رأس أتاني بخبره بشيرهم وأسرع به إلى ذو المعرفة منهم رأس^(٢) عدوّ الله المارق
الباغي ، الشاق لعصا المسامين ، ملأني رئيس ضلاتهم ، وقائد جهالتهم ، ومستغوى
جماعتهم ، فعرفته بحليته ونعته وصفته في عدد كثير من رهوس قواده وأهل الفتنة وأئمة
البدعة ، فلم يلبثوا إلا ريماً تصدّعوا في كل جبل ونحر ، منهزمين هارين ، لا يستطيعون لما
أتاهم من عذاب الله دفعا ولا منعا بأيد ولا قوّة ؛ ولا يلجئون إلى ركن وعصمة ، قد تشتت
بهم نظامهم ، وفارقهم وجوههم وأعلامهم ، فأخذهم أسرا قسراً قدمهم النصب ، وملا
قلوبهم الرعب وتحزمتهم الوقائع ، ونخبتهم الهزائم ، وتحيفهم القتل ، وغلّب الله عزّ وجلّ
لأمير المؤمنين على حصنه الذي كان مُناف عزّه ، وموضع منّته في نفسه ، ومجتمع عدّته ،
ومادّة قوته ، ففروّضوا عساكرهم ، وأقشعوا عن حصنهم يتبع آخرهم أقولهم ، متحيرين متلذّدين ،

(١) في الأصل : « يخبرهم » . (٢) في الأصل « برأس عدوّ الله » .

أذلة خاسرين ، ففتزقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم . فلما استحز القتل فيهم ، وقشّت الجراحات في عامتهم ، وطحتهم الحرب بكلكها ، وألما وقع حديد أنيابها ومساعرها ، قذف الله الرعب في قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم ، فولوا منهزمين مغلولين ، وركب المسلمون أكفاهم ، يقتلونهم في رهوس جبالهم ، وخلال غياضهم ، وبطون أوديتهم ، ومقاصي تلاعهم ، وفي كل ناحية من نواحيهم ، حتى عجز الليل دونهم ، وأعجزوهم هربا في معاقلمهم .

وفي العصاة

حتى إذا ظن أن قد عزّ بضلاله ، وتحصن بمعاقله ، وأستكمل قواه ، وكثف تدييره ، ولبأ إلى مانع منه ودافع عنه ، عطفت عليه عواطف الحق بأولياء الحق وأنصاره ، ناقضين ما أبرم ، ومتداولين ما سدّ ، ومتوغّلين إلى غيه ببصائرهم ، وإلى باطله بحقهم ، فاستنزل عن موضع عزّه قسرا ، وأمكن الله أولياءه أسرا ؛ سنة الله فيمن عنّد عن سبيله ، وألحد في دينه ، ومرق عن الطاعة وثائقها ، وأستبدل بالحق ومنهاجه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ، ولن تجد من دونه مُتّحدا ولا نصيرا ؛ حتى إذا تراءى الجمعان تبرأ الشيطان من حزبه ، وأرهق الله باطلهم بحقه ، وجعل الفلج والظفر لأولى الحزبين به ، بذلك جرت سنة الله في الماضين من خلقه ، وذلك ما وعد من تمسك بأمره وطاعته .

وفي مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم

لما بلا من طاعته ، وأختبر من نصيحته ، ويؤمن نقيته ، وشدة شكيمة ، وصحة عزيمته ، وصدق نيته ، وثقل وطأته على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين ، وعلمه بمراوضة الحرب وممارستها ، ومكيدة الأعداء ومواقفتهم فيها ، فشمّر تسمير أهل الحسبة وحسن الظن بالله من غير وثية ولا فترة ولا بقاء جد ولا اجتهد ، راجيا أن يُشج الله سعيه ، ويقلج حجتة ، ويظهره على عدوه من الاستقلال الذي حمله ، والاضطلاع بما أسند إليه ، والأمتثال لسيرته ، والأتهاء إلى أمره ، والقبريل لأدبه ، والخفوف بما يستنهضه له من حروبه وأموره مثل الذي جعل عند فلان : يفضلهم بطوله ، ويطولهم بحجاسنه ، ويتقدمهم بحسن بلائه وغنائه ،

ومواقفه ومساعديه، لم يختبره أمير المؤمنين في جميع خصاله إلا وجدده عند الاختبار والتحصيل سالكا لمنهج، قابلا لأمره، متبعا لأثره، ساميا بهيمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عند أمير المؤمنين مقدما في القدر والرتبة، مخصوصا بالامتياز والرفعة، يرى ذلك قليلا في كثير ما وجب بطاعته ونصيحته، فبارك الله عليه وليا ظهيرا . فأقدموا متوكئين على الله مسامحين لأمره صابرين على ما نالهم من اللأواء والجهد والتعب وكلب الشتاء وحرارة القيظ، وصعوبة المرام من أعداء الله الكفرة، يرجون نصر الله وتتجزأ ما وعد الصابرين والمجاهدين في سبيله من الظفر والنصر والغلبة على عدوهم، توحد به من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفل لأوليائه بالنصر والعز والحياة، وجعل حسن العاقبة لهم، وكبت من حادهم وأخذ إلى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظة ونكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم؛ أعظمهم غنا، وأحسنهم بلاء، وأشدهم صولة، وأقساهم نكاية، وأمنهم سريرة، وأمضاهم عزيمة، وأربطهم جاشا، وأصدقهم بأسا، وأملأهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدتهم تحديا على السلطان، فأزره بهم، وحصن أطراف خلافته بأيديهم، فكفوه المهتم وقاموا دونه بالملم، غير مستطيلين بغنا، ولا متعرضين لطاب جزاء، قد تعبدوا الوفاء، وغنوا بقرية الولاء؛ فإن الله جعل آباءه أعلاما في الطاعة يهدون إليها وأوليئته قادة إلى سبيل النصيحة يتمسك المناصحون بآثارهم فيها، باقيا على كثر الأيام ذكر مساعيمهم، وزائدة على تصرف الأيام حقوقهم، وياديا للعيون حميد أفعالهم، لا تنصرم الأخبار عن سالف لهم إلا وصلوه بحادث، ولا يتقدم لهم من بلائهم أول إلا أتبعه آخر. ففلان يجري في أمره على منهاج قد أوضحوه له، ويسلك في الطاعة طريقا قد سهلوا له مذاهبه، ويتمسك بعرا وثيقة قد رأى آثارها على من تقدمه، والله محمود . ولم يزل الله يعترف أمير المؤمنين في كل ما أسنده إلى فلان من أعماله وقلده من أموره، المبالغة في قضاء الحق عليه ويؤمن التقيية فيما يتولاه، والاجتهاد في كل ما قر به من الله وخليفته . وأمير المؤمنين يمد الله على ما يخصه

به من نعمته ، وإياه يستعين على قضاء حقه ، إنه سميع قريب . فإن كُتِبَ ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلع إليه منك ويؤمله عندك ، ويرجو أن يوفقك الله فيه لرشدك ، ويؤثرك منه بحظك ، للذي كان يبلغه وينتهي إليه من خبرك ، في أحوالك وتصرفك في خصال الخير ، وتتقلك في درجتها ، مساميا لاهل الفضل في مراتبهم ، مقررنا بصالح أفعال الملوك في قصد سيرتهم ، وحسن طريقهم ، ولين أكتافهم . فحقق الله ظنه بك ، وأجاب دعاءه لك ، وبلغ بك أمنيته ، وأعطاه فيك رغبته . وكنت فيما هُديت له باتقيادك إليه راغبا ، ودخولك فيه محسبا ، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة ، وأفضلها ذخيرة ، وأعلاها درجة ، وخيرها عاقبة ، وأعمها سلامة ، وأمنعها كهفا ، وأبقاها شرفا ، وأعد لها حكما ، وأطولها سلما ، مستحقا بذلك على الله عز وجل زيادة الملك فيها ، وبهاء الثروة ، وأتبساط القدرة ، وآنساع المملكة ، وظهور الغلبة وعز التمكين ، والنصرة في الدار التي حُببت فيها بقليل ما ترجو أن تصير إليه من ثواب الله عز وجل وحسن مجازانه بالنعيم المقيم في دار الأمد ، ومحل الأبد ، بما لا يبلغه إحصاء ، ولا يكون له آتهاء ، وملاؤه فرحا وآتجاجا ، وسرورا وجدلا ، ورجاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوفيقه أن يغلب لك على حظك ، وأن يأخذ إلى تقواه بقلبك ويجعل فيما عنده رغبتك ، وإلى ذلك سموك وهمتك . وليس ينفك أمير المؤمنين مقتفرا فيك أثرا يحمده ، ومتصفحا بخبر يبهرجه ، ومستحدثا نعمة من الله عز وجل يرجو اتصالها وآتساقها لديه بك ، حتى يتناهى إلى الدرجة العليا ، والغاية القصوى ، فيما [يتغيه] من آجتثات أرومة الفسقة وقطع دابهم . وبالله الثقة والحول والقوة ، متعترفا من الله فيما فارقه من جهاد عدوه أتم مصادق وعد القاتمين بحقه ، الصابرين في جنبه ، وأحسن ما أبلى ، ذائدا عن حريم ، ومحصنا لبيضة ، ومدافعا عن ملة ، فشمس شاريا لله نفسه ، طارحا عنه لباس الغفلة ، متجافيا عن مهاد الوطأة ، وليس تدخله الخلة والوحشة على من كنت قريبا منه ، ولا يمتنع لأمر المؤمنين طُرف أنت فيه ، ولا أمر يُعين عليه ويمسك بسبب من اسبابه .

(١) بياض في الأصل والسياق يقتضى ما أثبتناه .

وصف الأولياء في الكتب

وصار أهل السُّمُو إلى الدرجة العليا، والاعتصام بالعروة الوثقى، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، مُنْشَرِحَةً صدورهم بمكانفته، مُنْبَسِطَةً أيديهم بمعاونته؛ وقسم لأمر المؤمنين من أولياء دينه وأنصاره، قَوْمٌ آزرهم بالنصر، وكَنَفَهُم باليقين، وألَّفَ بصائرهم على الحق، وأيدهم بمؤيّدات التقوى؛ فلما أمرهم أطاعوا أمره، ولما فرضوا في ذات الله طاعته، فرض الله نصرهم وتمكينهم، بجاهد مجاهدهم مُسْتَبْصِرًا مُحْتَسِبًا، وقام قائمهم بالحق عليه مُخْلِصًا مُجْتَهِدًا؛ وقادتهم طلابُ الدين ودواعيه أرسالا قُدَمَا، فَاتَّبَعُوا سَبِيلَهُ لا ناكِلين عن إقدام، ولا مُتَوَقِّعين عن آرتياب، ولا مُتَهَيِّبين، مع دخائلهم وبصائرهم، عدوا ولا عنادا؛ طالبين بشأر الدين بُغَاةً، وبطوائل الإسلام عدائته: من صنوف أمم الكفر ومردة النفاق وأئمة المُلْحَدِينَ؛ متقلّدين للفق ونصرتهم، ولئن تَمَّ الحق بهم ومضى، ولين مع الحق من نكث عنه بالسنتهم وأيديهم، حتى فتح الله عز وجل لأمر المؤمنين معاقل الشُّرك وأئمة، وأناخ الباطل وأركانها، وأعلام البدع وأتباعها، فَضَلًّا من الله ونعمة، والله عليمٌ حكيم؛ إن هزرتهم قطعوا قطع الحسام، وإن أجزيتهم في عظمة وقعوا وقع الجياد، وإن استغنيت ودام الغناء لك عن جميع العالمين، كانوا رصدًا لك فوق أعناق الحاسدين.

ما يُقرّظ به أمير المؤمنين في أواخر الكتب

ليعرفوا موقع نعم الله عند أمير المؤمنين، يحوطه به في أوليائه، من النصر والتمكين، وعلى أعدائه من الوقم^(١) والتوهين؛ ويشكر الله على النعمة في ذلك، إن الشكر مُحْصَنٌ للنعم، وأمان من الغير، لِتَحُلُوَ مواقع النعمة عليهم، فيما يجمع الله بأمر المؤمنين من كلمتهم، ويحوط من حريمهم، ويحلّ من بأسه ونقمته بمن صدف عن سبيله وحاول تشيت جماعتهم وتوهين حقهم، ويقابلون ذلك بما تُرْتَبِطُ به نعمه، ويُستدرّ مزيدُه.

(١) الوقم: القهر والمذلة.

سعيد بن حميد

ليشكروا الله على ما منح خليفته من هؤلاء المترقي الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للزيد .

٣ - التحاميد في أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر في آخر كتاب فتح له

الحمد لله المعز لدينه، المظهر لحقه، المؤيد لأوليائه، الصانع للإسلام وأهله، الناصر لخليفته، الحافظ لما استحفظه، المتوحد بالنعمة عليه فيما حمله .

تحميد لإبراهيم بن العباس في آخر كتاب فتح

فالحمد لله المزيل لما يمهّد المبطلون، ويمكر به الساكرون، ويكيد به الملحدون، تمكيناً لعبده وخليفته، وذباً عن دينه وحقه، وإظهاراً لأوليائه وحزبه، وإمضاءً لعزائم وقدرته، منعا قادرا، ومُلمياً ممهلاً، عدلاً إذا استدريج، متفضلاً إذا أنعم، حمداً يُستترلُّ به نصره، ويُبلغ به رضوانه، ويمتري بمثله فواضل مزیده .

تحميد في فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع محامده التي حمد بها، على جميع آلائه وجميل بلائه، فيما ولى به خليفته، ونصر به دينه، وأقام به حقه، وأعز به وليه، وقع به من الحُد عن سبيله، حمداً يؤدى حق نعته، ويوجب به أفضل مزیده بمنه وطوله .

تحميد لأبي عبيد الله في آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمر المؤمنين في دولته وسلطانته، ولعامة المسلمين من صنعه وكراماته، في جسيم الأمور ولطيفها، وخاصها وعامها، بما يجعله للنعمة تاماً، وعلى ما يحل بعده من بأسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوائحه وأستئصاله، ما يكون لموعوده إنجازاً، حمداً يبلغ رضاه ويستوجب مزیده .

تحميد آخر

الحمد لله الذي تمّ لأمر المؤمنين نعمته ، وأكمل دعوته ، وجعل العاقبة فيه لمن أختاره لخلافته ، ورد إليه من شدّ عنه من رعيته ، وأتى أمير المؤمنين بصنعه على حدّ نيته وقدر أمنيته ، ولم يُفْلُ رأيه ولم يُخْلَف ظنه ، حمدا كثيرا دائما بما يزكو عنده فيقبله ، ويرفع إليه فيبلغ رضاه ، حمدا يكون لأسبغ نعمه جزاء ، ولأفضل إحسانه كفاء ، وللمزيد من فضله وإحسانه موجبا ، وإلى أعلى الدرجات عنده مؤذيا ، وللخلود في جنته وسيلة وسببا .

آخر :

الحمد لله الذي جمع لأمر المؤمنين ما حباّه بمزية نصره وتمكينه وإعزازة وتأبيده ، وإظهاره على من ناواه وصدّ عن حقه ، وصدف عن طاعته ، ووفقه لأختصاص فلان بما وكلّه إليه وعصبه به من أعباء أمور وجلائل أعماله ، وأجرى بفلان وعلى يديه وبركته وسعادة جدّه ويمنّ طائره ، من نتاج الفتوح ، وتواتر النصر ، وإقبال الصنع ، وإعلاء الحق وإنارته ، وإزالة الباطل وإبادته ، حمدا يؤدي حقه ، ويرى عزه ، ويمير من أحسن^(١) مزيده ، بكرمه وجوده .

آخر :

الحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بالخلافة ، وخصّه بالإمامة ، وقلده من أمور عباده وبلاده ما تولاه بكفائته وكلاءته وتأبيده وحياطته ، حمدا يوجب المزيد من فضله .

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذي أنجز وعده ، ونصر عبده ، وأيدّ جنده ، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرفا وغربا مشفوعة بين إقامة حقّ وإدالة باطل وإزالة عائد وإبادة عائد وإقالة^(١) مستقيل . ويسأل الله أمير المؤمنين ، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة إليه متذللا له أن يصلّى أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه .

(١) سقطت في الأصل كلمات فإثبتنا ما يقوم مقامها .

دعاء أمير المؤمنين في الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه ، أن يكتفه فيما حباه وأستحفظه عليه بأفضل تأييده وأعز نصره ، وأن يهب له مع كل نعمة يحددها له حارسا من شكرها ، يتابع به أفضل مزیده ، فإن النعمة منه ، والشكر بتوفيقه ، والمزيد لمن شكره .

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه وربكم وولى النعم عليه وعليكم ، أن يلهمه وإياكم أداء حقه وشكر نعمته وحده عليها ، ويطوقه وإياكم أفضل الأعمال وأرضاها عنده وأشدّها أستجابا لما وعد الشاكرين من مزیده ؛ إنه سميع قريب .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى ولّاه خلافته وأعلاه بها ، أن يطوقه ما حمّله ، ويلهمه العدل بين رعيته ، ويلهمهم نصيحته وطاعته ، ويصلح أمرهم به فى ولايته وخلافته . ويرغب الى الله الذى أيده بنصره ومكن له بغير حول منه ولا قوة ، أن يلهمه وإياكم شكره وذكره وخشيته ، ويشمله وإياكم بطاعته ومراضاته ومحبته ، وأن يعرفه وإياكم الزيادة فى نعمه والنصر على عدوه والتمكين فى بلاده ؛ إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يرغب أمير المؤمنين فى إعانتة على نيته وتبليغه منتهى سؤاله وغاية همته وإعزاز دينه وإذلال من صدّ عن سبيله ؛ إنه سميع قريب . وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدعاء تطولا وتكفلا بالإجابة حتما ، فقال : **(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)** أن يجمع على رضاه ألفتكم وأن يصل على الطاعة حبلكم ، وأن يمتعكم بأحسن ما عودكم من منته ، ويوزعكم عليا من شكره ما يواصل لكم به مزیده ، وأن يكفيمكم كيد الكائدين ، وحسد الباغين ؛ ويحفظ أمير المؤمنين فيكم ، أفضل ما حفظ به إمام هدى فى أوليائه وشيعته ؛ ويحمل عنه ثقل ما حمّله من أمركم ؛ وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوي من جزائكم بالحسنى ، وحملكم على الطريقة المثلى ، وبه يرضى لكم ناصرا ووليا ، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا .

ويسأل الله أمير المؤمنين ، أن يُحسن على صلاح نيته عونَه ، وأن يتولاه فيما أسترعاه ، ولاية جامعة ، لصلاح ما قلده ، إنه سميع قريب .

ويسأل الله أمير المؤمنين الذي بيده مفاتيح مقاديره وفواضله ، أن يُصَلِّيَ أفضل صلواته على أفضل أنبيائه ، وأن يجعل ما أذخر لأمر المؤمنين إلى دولته وخلافته ، وحباه به من وسائل الخير عنده ، أن يجمع إلى أحسن توفيقه لما يرضى من شكره وحسن معونته على ما أصلح له ربه ، فإنه شاكر يحب من شكره ويوجب لمن وفق لشكره مزيداً بمنه وطوله وفضله وإنعامه ، إنه جواد كريم .

ويسأل الله أمير المؤمنين مُبْتَدِئاً وَمُعَقِّباً وَأَوَّلَا وَآخِرًا ، وقبل كل مسألة ، وأمام كل رغبة ومُقَدِّمَةً كُلِّ طَلِبَةٍ ، أن يُصَلِّيَ على صفوته من عباده وخير خلقه وخاتم أنبيائه ورسوله ، مجد عبده ورسوله ، أفضل صلواته ، وبيارك عليه أكثر بركاته ، وأن يديم له كرامته ، ويحجى عنده على أجمل عاداته ، وأن يتم له ما اختصه به من إحسانه ، حتى يملأ الأرض عدلاً وقسطاً ، والإسلام تأييداً وعزاً ، والشرك ذلاً وقهراً ، إنه ولي نعمته ومنتهى كل رغبة ، وغاية كل حاجة ، وهو على كل شيء قدير .

وأمر المؤمنين يقول : الحمد لله طاعة لأمره ، واعتصاما من الفتنة بشكره ، وأستدامةً لِنِعْمَةِ الْمُرْتَايِدَةِ عِنْدَهُ ، ^(١) إنه سميع قريب .

وأمر المؤمنين ، يسأل الله السامع كلام من جهراً ، والعالم بغيب من أسراً ، المطلع على ضمائر العباد ووسوستهم ، والمستنقذ من يشاء برحمته ، والمُتَمَتِّع على من يشاء بقدرته ، أن يجمع على الحق أهواءكم وينصركم على أعدائكم ويُصَلِّح ذات بينكم ولا يكلمكم في موطن من مواطن اللقاء ، والتحاكم والتناجز ، إلى أنفسكم ، ويكفيكم ويكفيكم بكم إنه سميع قريب .

الدعاء لأمير المؤمنين في أواخر الكتب

ونسأل الله أن يَهْنَأَ أمير المؤمنين ما صنع له ، ويُعِينَهُ على شكر ما أولاه ، إنه ولي ذلك وأنا إليه فيه راغبون والسلام .

(١) في الأصل المنازل ، وما أثبتناه صحيح .

وليه :

ونسأل الله أن يَهِنَا أمير المؤمنين الكراماتُ التي يُتَابِعُهَا ، والنعمُ التي يظَاهِرُهَا عليه ،
والفتوحَ التي جعلها في خِلافته ، وولايته ودولته ، ويَهَبُ له من المعرفة بحَقِّه في ذلك والشكر
له بحسن بلائه فيه ، ما يبلغ أعظمَ رغبة وأقصى أمانة ، من ذخائر الخير وفضيلة الأجر
وحسن الثواب في الدنيا والآخرة .

أَسْأَلُ اللهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي غَابِرِ أُمُورِهِ ، أَحْسَنَ مَا عَوَّدَهُ فِي سَالِفِهَا ، مِنَ السَّلَامَةِ الَّتِي
حَرَسَهَا مِنَ الْمَكَارِهِ ، وَالْعِزِّ الَّذِي قَهَرَ لَهُ بِهِ الْأَعْدَاءَ ، وَالنَّصْرِ الَّذِي مَكَّنَ لَهُ فِي الْبِلَادِ ،
وَالهُدَى الَّذِي وَهَبَ لَهُ بِهِ الْمَحَبَّةَ ، وَالرِّفْقَ الَّذِي أَدْرَكَ بِهِ الْحَلَبَ ، وَالِاسْتِصْلَاحَ الَّذِي
آتَسَقَتْ لَهُ بِهِ الرَّغْبَةُ ، حَتَّى يَكُونَ بِمَا أَعْطَاهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَا هُوَ مُسْتَقْبَلٌ بِهِ ، أَبَدَ خَلْفَانِهِ
ذِكْرًا ، وَأَبْقَاهُمْ فِي الْعَدْلِ أَثْرًا ، وَأَطْوَلَهُمْ فِي الْعُمُرِ مُدَّةً ، وَأَحْسَنَهُمْ فِي الْمَعَادِ مُنْقَلَبًا .

أَسْأَلُ اللهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَةً لَا تَزُولُ ، وَكَرَامَةً لَا تَنْقُذُ ، وَعِزًّا لَا يَضَامُ ، وَنَصْرًا
لَا يَغْلِبُ ، وَكِفَايَةً يَنْتَظِمُ بِهَا جَمِيعَ الصَّلَاحِ ، حَتَّى لَا يَكُونَ بِأَوَّلِ مَنْ ذَلِكَ أَسْعَدَ مِنْهُ بِآخِرِ ،
وَلَا بِمَاضٍ أَسْرَمَ مِنْهُ بِمُسْتَقْبَلِ .

أَسْأَلُ اللهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي عَاقِبَةِ كُلِّ نِعْمَةٍ أَفْضَلَ مَا وَهَبَ لَهُ فِي عَاجِلِهَا ، حَتَّى يَجْعَلَ
كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِ ، وَكَرَامَةٍ حَازَهَا لَهُ ، مَوْصُولَةً بِاتِّمَامِ ، مَحْوُطَةً بِالْحِفْظِ ، مَكْلُوءَةً مِنَ الْغَيْرِ ،
مَمْدُودَةً إِلَى طُولِ غَايَاتِ الْبَقَاءِ ؛ لَا يَشُوبُ صَفْوَهَا كَدْرٌ ، وَلَا سَلَامَتَهَا غَيْرٌ ، وَلَا سُرُورَهَا
تَغْيِيسٌ ؛ وَهَذَا اللهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الظَّفَرَ ، وَأَدَامَ لَهُ عَادَةَ النَّصْرِ وَالْتِمَاسِ الْمَوْضِعِ ، وَحُجَّتِهِ
الْمُدْحَضَةَ لِحُجَّةِ أَعْدَائِهِ ، وَالغَلْبَةَ الْمُظْهِرَةَ لِحَقِّهِ ، الْمُجْتَابَةَ لِمَنْ خَالَفَهُ ؛ ثُمَّ لَا بَرِحَتْ نِعْمَةُ اللهِ
رَاهِنَةً بِمِثْلِهِ فِي الْأَوْلِيَاءِ نَصْرًا ، وَفِي الْأَعْدَاءِ إِبَاحَةً ، وَفِي النَّاكِثِينَ تَنْكِيلًا .

سَرَّ اللهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَهْدَى لَهُ مِنْ كِفَايَتِهِ ، وَحَاطَهُ بِهِ مِنْ مَنَعَتِهِ ، وَأَيَّدَهُ بِهِ مِنْ
نَصْرِهِ ، وَجَعَلَهُ وَمَا اسْتَرَعَاهُ مِنْ دِينِهِ وَسُلْطَانِهِ ، فِي كَنْفِهِ الَّذِي لَا يُسْتَبَاحُ وَتَحْتَ يَدِهِ الْمَانِعَةُ
وَجَنَاحَهُ الْمَحْفُوظُ .

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدِي به عيون أعدائه في تمكينه وتوهمينهم، ونَصْرِهِ
 وخذلانهم، وإعزازهم والمجاهدة لهم؛ ولا زالت نعمة الله تزيده في قوة الظفر، وعزّة النصر،
 وتفسد من آفاق الأرض بالبشارات والفتوح، حتى تملأ له ما بين طرفي مُلكه أمنا وعزا،
 ويملاً به قلوب أعدائه خوفا ورعبا، ويعدهم على خلافه سطوة وتخيلا .

أحمد بن يوسف

وهنا الله أمير المؤمنين نعمة، وملاّه كرامته، وأولى له فتوحه، وأدام إعزازهم، وتولّى
 حياطته وكفايته، فيما دنا منه وما غاب عنه، وأطال بقاءه والامتناع به .

مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن

تهنئة خليفة بظفر

الحمد لله الذي جمع لأمر المؤمنين مع الغلبة المحجّة، ومع الظفر المعذرة، وجمع لعدوه
 مع الذل السطوة، ومع دحوض المحجّة النكال؛ فلم يجمعه والناكثين موطن من مواطن
 الصبر، إلا جعل المحجّة عليهم فيه، ولسان العذر فيه معه، ويد الظهور فيه له؛ ثم وهب له
 عند الظفر من الشكر، وعند الفلج من التواضع، وعند القدرة من العفو، ما جعله مستوجبا
 لما أصفاه به، معترفا بأن العذر منقطع ممن نكبه، وأن مستراد المحجّة ومطلب السلامة،
 في التمسك بطاعته ومناصحته، والمجاهدة دونه .

وفي مثله :

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدِي به عيون أعدائه .

وكتب إبراهيم بن المهديّ الى المعتصم يهنئه بخروجه عن أرض الروم

بعد فتح عمورية

الحمد لله الذي تم لأمر المؤمنين غزوته، فأذل بها رقاب المشركين وشفى بها صدور
 قوم مؤمنين؛ ثم سهّل الله له الأوبة سالما غانما، وكذا وكذا؛ وليهنئه ما كتب الله له، مما

أحصاه فلا ينسأه، ليقفه به موقفا يرضاه، فإنه عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية، فطوى الله لأمر المؤمنين نازح البعد بزا وبحرا، ووقاه وصب السفر سهلا ووعرا، وحاطه بحراسته كالثا، ودافع عنه بحفظه راعيا؛ حتى يوديه إلى المحل من داره، والوطن من قراره؛ وجزاه عن الإسلام خاصة، وعن رعيته كافة، بتخييره مستخلفا عليهم، وقائما مقامه فيهم هرون ابن أمير المؤمنين؛ فقد استخلفه رفقا شفيقا، حليا وقورا، يقظان ساكنا؛ لم يسدب عليه أمر، ولم ينتشر عليه طرف، ولم يضع معه سبيل، ولم يسخط وليا مكانفا، ولا عدوا مخالفا، بلا سيف أشرعه، ولا سور أفرع به؛ فقتل جزاء أمير المؤمنين في تخييره إياه، بجزاه الله على ما حفظ من وصاته، على محمود مقامه، إنه مجيب الداعي.

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر

يهنته بظفر

بلغني - فتح الله عليك - خروج ابن السرى إليك، فالحمد لله الناصر لدينه المعزز لوليّه وخليفته على عبادته، المذل لمن صد عن حقه ورغب عن طاعته؛ ونسال الله أن يظهر النعم ويفتح بلدان الشرك به؛ والحمد لله على ما وآلاك منذ ظننت لوجهك، فإننا نتذاكر سيرتك في حربك وسامك، ونكثر التعجب لما وفقت له، من وضع الشدة واللبان بموضعهما، ولا نعلم سائر جند ولا رعية عدل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدرة عن آسفه وأضعفه عفوك.

تهنئة خليفة بحج

أصلح الله أمير المؤمنين وأراه من الزيادة في نعيمه، ما يكون تماما لما ابتدأه به من فضله؛ والحمد لله على ما خص به أمير المؤمنين من كرامته، وأعطاه من الفضل في نيته، وجعله يستعين على دينه، بما بسط له في دنياه، ويحمل على بدنه النصب فيما يتقرب به إليه؛ فيجفؤ عن دعتيه على لينها، ويشخص عن طمأنينته على فضلها، بإشارا لآخرته، وأداء لحق ربه؛ بادر له بذلك ليكرم به، ثم يستعمل فيه نفسه، تقربا إليه، فيسعد به بالإذن

في ذلك حين كان من الله له ، وبالعمل فيه حين كان لله منه ؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليلا على قبوله الخير عنه حين يعمل لربه ؛ وكان من ذلك ما أذن الله لأمر المؤمنين في زيارة نبيه صلى الله عليه وسلم العام ، وموافاة مشاعره العظام ، في وقتها من الأيام ، التي لاتوافق إلا معها . ولا تكون مناسكة إلا فيها ؛ فكتب الله له في ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة ، فدخل في الإحرام له بتعظيم حقه ، وخرج منه بقضاء نسكك ، اجرا عقده الله عليه في آبتدائه ، ثم آتمه له باستيفائه .

ولمحمد بن مكرم تهنئة لحاج

بلغك الله الرضا في أمك من نوح كل حاجة وإبلاغ كل أمنية ، وتقبل كل دعوة خصصت بها نفسك أو عممت بها أحدا من أهلك ، في مجامع وفوده ، ومعتزل قراره ، فكنت شافع من شاهدك ، ووافد من غاب عنك ، يستفتح بدعائك ، ويرجي بركة محضرك ، والقربة الى الله عز وجل بفضل جاهك .

تهنئة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية ، لنا خاصا وإلينا واصلا .

آخر :

ولم تحظني النعمة إذ أصابتك ، ولم تتعدني إذ دخلت بك ، ولم أحل من لازم شكرها ، وما ينفلك الله منها ، إذ قلدتها ، اعتدادا بكل ما طوقت من المن ، وإيجابا على نفسي ما حملت من الشكر .

ولسعيد بن حميد الى بعض إخوانه

سرك الله بتتابع نعمه ، وترادف إحسانه ، وزادك من فواضل أقسامه . بلغني — أكرمك الله — ما وهب الله لك من سلطانك ، فقواك الله على ما استرعاك . ورزقك الشكر على ما أولاك .

وفي مثل ذلك :

أكل الله لك السعادة ، وزادك في الكرامة ، وخصّصك بدوام النعمة . بلغني ما وهب الله لك من سلطانك ، فسررت به ، وسألت الله إتمام نعمه عليك فيه بتأييدك ، وتوفيقك للعدل في سيرتك ، وغرس المحبة لك في قلوب رعيتك ، وأن يُعينك عليه ، ويرزقك السلامة في الدين والدنيا .

وله في مثله :

أنا أهنئ بك العمل الذي وليته ، ولا أهنئك به ، لأن الله أصاره الى من يُورده موارد الصواب ، ويصدره مصادر الخجة ، ويصونه من كل خالٍ وتقصير ، ويمضيه بالرأى الأصيل ، والمعرفة الكاملة ، قرن الله لك كل نعمة بشكرها ، وأوجب لك بطوله المزيد منها ، وأوزعك من المعرفة بها ما يصونها من الفتن ، ويحوظها من النقص .

آخر :

قد وليت من العمل ما أسأل الله عز وجل أن يرزقك بركة بدئه وعاقبته ، ويُعطيك الرضا ممن وليت له وعليه .

آخر :

هناك الله هذه النعمة المقبلة ، الدالّ أوقها على تمامها ، واوزعك شكرها .

آخر :

أسعدك الله بهذه الولاية وجعلها مباركة ، تنتقل بظل السلامة منها ، ونيل الكفاية فيها الى أملك بنهايته ورجائك بغايته ، ورزقك السلامة ممن وليت له وعليه .

آخر :

سرّك الله بما جدّد لك من هذه المنزلة ، ونفّعك بهذه الولاية ، وأرضى عنك من وليت له ومن وليت عليه .

وكتب محمد بن مكرم الى أحمد بن دينار :

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاض من جميل أثرك فيما تلى من أعمالك ،
وزمك إياها بجزمك وعزمك ، وأنتياشك^(١) أهلها من جور من وليهم قبلك ، وسرورهم بتطاول
أيامك والكون في ظل يدك وجناحك ، في إعانة من تحضه وتعمه نعمتك ، وتحول به
الجول حيث حالت بك ؛ فالحمد لله الذي جعل العاقبة لك ، ولم يردد علينا آمالنا فيك
منكوسة ، كما ردها على غيرنا في غيرك . ولوددت أن أباك كان عين آثارك هذه ومناقبك ،
وإن كان الأفتراق لم يقع بينكما حتى علم أنك خلفه ، وألقى اليك بأمره ومعاقد ثقته ،
وجعلك موضع اختصاصه وأثرته ، وصرف ذلك عن من كان لا يستحقه ، وذم سالف رأيه
فيك وفيه وحسد آخره ، ثم نعمة اتصلت لك بما قبلها ، انتظمت بها أمورك فاعتدلت ،
وتلاحمت عليها وآسقت ، ما منحت في كاتبك ، ومستقرت نقتك ، وحامل أعبائك ، من
الكفاية والنصيحة ، ووضع عن قلبك مؤونة التهمة والقص لأثره ، وإدخاله راحة الطمأنينة
إليه وروح الثقة به ، لا كما ابتلي أخوك ، فإنه صجبه نخلط عليه أمره ، وأفشى أسراره الى
صاحب بريده ، فأنفل ذلك بينهم ، وقطع جبالهم ، حتى هجنت آثاره مع حسنها ووضوحها ،
وصفرت يده من حظ عمله ، ولزمه الدم من أهله ؛ فهذه كُتبه إلى ، في أطراح نصيحة له
كانت فيه ، ويسألني أن أشخص اليه كتابا يحمل ثقله ، ويفتح له ما أرجعه من أمره . وهذا
من سعادة جدك ، ويمن طائرک ، وإقبال الأمور اليك ، وسعيها على طريق موافقتك ،
وهنيئا هنالك الله نعمه خاصها وعاقها ، وأوزعك شكرها ، وأوجب لك بالشكر أحسن الميزيد فيها .

تهنئة بعزل

كتب رجل الى مالك بن طوق لما عُزل عن عمله :

أصبحت والله فاضحا متعبا : أما فاضحا فللكل وإل قبلك بحسن سيرتك ؛ وأما متعبا

فللكل وإل بعدك أن يلحقك .

(١) انتياشك أهلها : استفاذم .

فصل

سواء علينا أوليت أم صرفت ، إنا لنشهد بك الولاية ، بما بسط الله من يدك ببذل العرف ، ونهنتك بالعرف بما يلحقك من ثناء ما أسلفت من الجميل ؛ ولا نخاف عليك أن تفارق عملا وأنت محل له ، ولا أن تصحبه وليس به فاقه اليك . فهناك الله النعمة ، وأعانك على الشكر، وأيدك بالمزيد .

تهنئة بعزل عامل عن عمله

بالغنى صرفك ، فخار الله لك ، وهناك لطيف نظره وجميل إحسانه ، فإني أرى الرجل عند خروجه من العمل سالما نقيًا من مائمه ودنسه ، أولى بالتهنئة منه عند دخوله فيه ، وأرى الدعاء له عند بدء تلبسه به بالخلاص منه معصوما بريئا من تبعاته ورواجع آثامه ، أولى بمن عُني به وأحب صلاحه ، ولذلك قدمت تهنيتك .

ولسعيد بن حميد في مثله الى بعض إخوانه :

حفظك الله بحفظه ، وأسبغ عليك كرامته ، وأدام اليك إحسانه . إن سرورى بصرفك ، أكثر من سرور أهل عملك بما خصوا به من ولايتك . وقد كنت — أعزك الله — فيما يُربأ بك عنه ، بما أنت عليه في قدرك وأستمالك ؛ ولكنا رجونا أن يكون سببا لك الى ما تستحق ، فطبنا نفسا بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سالمك منه ، ونسأله تمام نعمة عليك وعلينا فيك ، بتبلغك أملك وآمالنا فيك ، وشفاعة ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب ؛ ثم خصك الله بجميل الصنع ، وبلغك غاية المؤمنين . إن من سعادة الوالى — حفظك الله — وأعظم ما يُخص به فى عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم ، ونوائب الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يُخاف منها ؛ وقد خصك الله منها بتمنه وطوله ما نرجو أن يكون سببا لك الى نيل ما تستحق من المراتب . والله نسأل إيزاعك شُكرا من به عليك ، وتبلغك غاية أملك فى جميع أمورك ، برحمته وفضله .

آخر :

ما أحسن ما كَشَفَتْ عنك الولاية، وأجمل ما أبرز منك العمل ، قد كسبك الله حمد ولايتك وعزّل عنك لائمتها، بما أنشر عنك من عدلك، وظهّر من معروفك ، فاذا ساءك هذا فليسررك .

وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر :

الحمد لله رب العالمين حمداً يجوز حمد الحامدين ، الذي جعل قضاءه خيرة لك ؛ فإن زادك نعمة وفّقك لشكرها ، وإن آمتحنك ببلوى من نفث حاسد أو كيد كائد ، أثار برهانك وأفلح مجتهدك وجمع بين وليك وعدوك في الشهادة لك ؛ وإن نقل أمرا عن يدك ، فربما يرجعه اليك مختلا لفقدك . هذا الى ما جعل عندك من خواص النعم التي إن ذكرناها فأطنبنا أو تجوّزنا فقصرنا ، كان غايتنا الى الحسور دون مدى غايتك . وقد زادك الله بهذا الحادث فضلا عظيما ، لما ظهر من وّله العامة اليك وتطلّعها الى ما كانت فيه : من لين إنصافك وكريم أخلاقك ، ووحشية الخاصة لما فقدت من حسن معاملتك وكثير تفضلك . وأيقن أهل الرأي والتأمل لصفحات الأمور ، أن كل ما خرج عنك فعائد اليك ومتصل به غيره ، حتى تستقر في يدك عمرا الأمور ومعاقدها ، وتفتح برأيك وتديريك أبوابها ومغالقها ، فليهنك أن كل ما زاد غيرك نقصا زادك فضلا ، وكل ما نقص من الرجال وحطها ألحق بك شرفا . فزادك الله وزادنا منك ، وجعلنا ممن يقبله رأيك ، ويقدمه اختيارك ، ويقع من الأمور بموافقتك ، ويجرى منها على سبيل طاعتك .

وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلني الله من السوء والمكروه فداءك ، وأطال في الخير والسرور بقاءك ، وأتم نعمه عليك ، وأحسن منها مزيدك ، وبلغك أقصى أمنيّتك ، وقدمني أمامك ، وقد بلغني ما اختار الله لك ، فسررت من حيث يغم لك من لا يعرف قدر النعمة عليك ، ولا يراك بعين استحقاقك .

ولئن ساءنى ما ساء إخوانك من عزك ، لقد سرّنى ما يسّر الله لك . والحمد لله الذى جعل
انصرافك محمودا ، وقضى لك فى عاقبتك الحسنى ، وأقول :

لِيَهْنِكَ أَنْ أَصْبَحْتَ مُجْتَمِعَ الْحَمْدِ * وَرَاعَى الْمَعَالَى وَالْمُحَامَى عَنِ الْمَجْدِ
وَأَنَّكَ صُنْتَ الْأَمْرَ فِيهَا وَوَيْتَهُ * فَفَرَّقْتَ مَا بَيْنَ الْغَوَايَةِ وَالرُّشْدِ
فَلَا يَحْسِبُ الْبَاغُونَ عَزْلَكَ مَعْنَا * فَإِنَّ إِلَى الْإِصْدَارِ عَاقِبَةَ الْوَرْدِ
وَمَا كُنْتَ إِلَّا السِّيفَ جُرْدًا لِلْوَعَى * فَأَحْمَدَ فِيهَا ثُمَّ رُدَّ إِلَى الْغَمْدِ

وقد قال الأول :

فمن يكنُّ بورود العزل مُكْتَتِبَا * فإننى بورود العزلِ مسرورُ
بعدَ الولاية عزلٌ يسْتَبِينُ به * طَوَّلُ الْوَلَاةِ وَبَعْدَ الْعَزْلِ تَأْمِيرُ

أما ما عندى مع تصوّر العاقبة لك فى نفسى ، فيمسنى فى أمرك فى حال المحنة
ما يخصّنى منه فى وقت تجدد النعمة . وبحسب ضميرك الشاهد على ما عندى ما أجده لك
فى نفسى . فلا زلت فى نعيم متتابعة متجددة ، ولا عدمت الثروة والزيادة ، وبلغك الله أقصى
أملك ، وأمل أخيك لك ، وكبت أعدائك ، وجعاني وقيامك المقدم عنك . أحب أن
تشرح لى صورة الأمر إلام تأدّت ، وكيف كان الابتداء ، فإنى لا أشك أنها حيلة
ونية من عزّ الصاحب الجليل القدر ، ولها عاقبة منه إن شاء الله محمودة ، وتفضى من ذلك
الى ما تسكن اليه نفسى ، إن شاء الله .

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر اليمن فليكن هذا البناء ، وبأسباب السعادة فليصل عقد هذا الاجتماع ، وبكل ذكاء
الولد ، وثروة العدد ، فلتجرك الأقدار ، وفى أطول غايات البقاء فلتدم هذه الغبطة والسرور .

تهنئة بتزويج

بلغنى تزوجك من فلانة ، فبالرفاء والبنين ، تهنئة السلف الصالحين ، ومبلغ سنة المجتهدين
المتبحرين ، ونقول على يمن الطائر ، وسعادة الجسد ، وتماء العدد ، وأنفاق الهوى ، وطيب

المناسمة، واجتماع السَّمَل، واثبات الرَّبْع، وَتَمَلَّى النَّعَم . أسأل الله الذي قضاها أن يجعلها لك سَكَنًا ويجعلك لها سَجَنًا ، وأن يُؤَنِّحَ حِمَامَهَا الى آتِهَاءِ نَفْسِكَ عنها ، وجعلك جائزًا تُرَبِّها، وَوَلَّيْتَ المال وهناءة العيش وملاهاة الغواني بعدها .

تهنئة لغسان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغني بجمع الأمير أهله على الحال التي جمعهم عليها من نعمة الله عليه . فالحمد لله على كل ما يرى الأمير فيها له فيه نعمة . فأسأل الله أن يجعل الطائر في ذلك ميمونا، والسَّمَل مجتمعا ، والبركة عظيمة ، والأموار سليمة ؛ وكذلك فقد عظم الله القسَم منه لزوجه ، جعل الأمير سَكَنًا لها، وأجرى المودة والرحمة بينهما ، فإنه يقول عز وجل : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةَ وَرَحْمَةٍ ﴾ . فلما كان الأمير هو المنظور إليه ، وهي المنظور إليها ، اختارها الأمير لنفسه واختار نفسه لها ، وأراد الله عز وجل أن يزيدا مع فضلها في نفسها فضلا باختيار الأمير إياها ، وباختصاص الله لها بالأمير دون غيرها ؛ فكان ذلك فضلا من الله زينه بفضل ، وكرامة من الله وصل بعضها ببعض . فترغب الى الله عز وجل في أن يزيد الأمير في كل سعة مبسوطة ، ونعمة مقسومة ، ويعطيه في ذلك شكرا يكون لرضاه موجبا ، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبا ؛ ثم يملى الأمير ذلك بأحسن ما ملئ أحدا من خلقه كرامة اصطنعها عنده .

تهنئة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبي الى المأمون يهنئه بمولود له :
قد كان أجدني ما أحدث الله لأمير المؤمنين من الموهبة التي ليس ، وإن كان أولى بها من غيره ، بأعظم فيها حظا من رعيته . فعمّر الله لك يا أمير المؤمنين قلوبهم بنور الحكمة وأبصارهم حتى يشدّ بهم عضدك ، ويسدّ بهم ثلمتك ، ويبلغهم الغاية المأمول لهم بلوغها بعدك ، غير مقعد بك مهل ، ولا محل بك أجل ، ولا مكذبك أمل ، ولا منقطعة أيامك ، حتى تُخترم أنفسنا قبلك .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

بارك الله في مولودك الذى أتاك، وهنأك نعمته بعطيته، وملاك كرامته بفائدته،
وأدام سرورك بزيادته، وجعله باراً تقياً، ميموناً مباركاً زكياً، ممدوداً له فى البقاء، مُبَلِّغاً غاية
الأمل، مشدوداً به عَضُدُكَ، مُكَثِّراً به وَلَدُكَ، مُدَاماً به سرورك، مدفوعاً به الآفات عنك،
مشفوعاً بأكثر العدد، من طَيِّبِ الولد .

وله فى مثل ذلك :

هنأك الله هذه الفائدة التى أفادكها، وبارك الله فى الهبة التى رزقكها، وشفعها بإخوة
متواترين، يَسْرُونَكَ فى حياتك وَيُخْلِفُونَكَ فى عقبك .

تهنئة بمولود

كتب رجل الى رجل يهنئه بمولود :

جُعِلَتْ فداءك . للبقاء مولودك، فى السناء نباته، وفى الأيمن شبابه، وعلى البركة ميلاده .

تهنئة بمولود

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إنه ليس من نعم الله، وفوائد قِسمه — وإن خُصَّ موقعها ووجب شكرها — نعمة تُعَدِّلُ
النعمة فى الولد، لتمامها فى العدد، وزيادتها فى قوة العضد، وما يُتَعَجَّلُ به من عظيم هيجتها،
ويُرْجى من باقى ذكرها فى الخُلُوف والأعقاب، ولاحق بركتها فى الدعاء والاستغفار. وإن
الله قد أفادك وأنالك غلاماً سرياً، سَمَّيْتَهُ فلاناً، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين .
فرجوت أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهرنا الله به على عدو الدين والمسلمين من دلائل
بركته ويُمنه، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمر المؤمنين فى طارف نعمه
وتالدها، وشَفَّعَ له قديم مننه بمجادتها، ورزقه ذكورا طيبين مهديين، يأنس بهم ربعة،
ويتصل بهم نجاحه، ويجعلهم ذرية زاكية، وبقية صالحة .

آخر :

بلغني الذي وهب الله لك ، فجعله الله ذخرا سنيا ، وعقبا كريما .

عمرو بن مسعدة الى الحسن بن سهل

أما بعد ، فإن هبة الله لك هبةٌ لأمر المؤمنين ، وزيادته إياك في عدده لمحكك عنده ومكانك في دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سرياً ، فبارك الله لك فيه ، وجعله بازا تقياً ، مباركا سعيدا زكياً .

تهنئة بمولود

الحمد لله الذي رضى منا ياسير القول عند عظيم النعمة ، حمداً نستوجب به بقاء هذه الموهبة للنماء والفائدة ؛ فإن نعمة الله وإن كانت لم تزل متتابعة ، فقد كان ما يقبض الأمل منا ذكر أفراد الأمير بنفسه وقلة نسله ، وما لا يؤمن من انقطاع الذكر بفوات الأجل ، ومن دُثور الأنام ، بواقع الحماة ، وقد أصبحنا من الله من يدين في فسحة المهل ، ومدته مواقع الأجل ، لمن أراد فيه موضع أملنا في حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره .

تهنئة بمولود

سرورك سرور يخصني منه ما يخصك ، وتلبسني فيه النعمة ما تلبسك ، والحمد لله على النعمة فيك وعندك .

كتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد ، فقد بلغني من متجدد نعم الله عز وجل عليك ، وإحسانه اليك فيما رزقك من الهبة ما أشتد جذلي به ، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله ؛ ولذلك أقول :

قد شُفِع الواحد بالوافد * وأُرغِم الأنف من الحاسد
أبا حُسين قرَّ عيناً بما * أُعطيته من هبة الماسد

قد قلتُ لِمَا بَشَّرُونِي بِهِ * بُورِكَ فِي الْمَوْلُودِ لِلْوَالِدِ
إِنَّا لَنَرْجُو وَافِدًا مِثْلَهُ * وَالطَّائِرُ الْمَيْمُونُ لِلْوَالِدِ

وله الى بعض إخوانه يهنته بمولود :

أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا وفرحا، إلا كنتُ به بهجًا، أعتد فيه بالنعمة من الله الذي أوجب على من حقك وعرفني من جميل رأيك . فزادك الله خيرا، وأدام إحسانه اليك . وقد بلغني أن الله وهب لك غلاما سريًا، أكمل لك صورته، وأتم خلقه، وأحسن البلاء فيه عندك، فاشتد سروري بذلك، وأكثرت حمد الله عليه . فبارك الله فيه، وجعله بارًا تقيًا، يُسَدَّ عَضُدَكَ، وَيُكثِرُ عَدَدَكَ، وَيُقِرُّ عَيْنَكَ .

وكتب إسحاق بن يحيى الى بعض إخوانه يهنته بابتة له :

رُبَّ مَكْرُوهٍ أَعْقَبَ مَسْرَةً، وَمَحْبُوبٍ أَعْقَبَ مَعْرَةً . وَخَالِقُ الْمُنْعَمَةِ وَالْمُضْرَّةِ، أَعْلَمُ
بِمَوَاضِعِ الْخَيْرَةِ .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك في الأبتة المستفادة، وجعلها لكم زينا، وأجرى لكم بها خيرا، فلا تكرهها، فإنهن الأمهات والأخوات، والعبات والخالات، ومنهن الباقيات الصالحات، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم .

وكتب عبد الحميد بن يحيى الى أخ له في مولود ولد له وهو أول مولود كان :

أما بعد، فإن مما أتعرف من مواهب الله، نعمة خُصِّصْتُ بِمِزْبَتَيْهَا، وَأَصْطَفَيْتُ بِخُصِيصَتِهَا، كَانَتْ أَسْرَلِي مِنْ هِبَةِ اللَّهِ وَلِدَا سَمِيئَتِهِ فُلَانَا، وَأَمَلْتُ بِبِقَائِهِ بَعْدِي حَيَاةً وَذِكْرِي، وَحُسْنَ خِلَافَتِي فِي حُرْمَتِي، وَإِشْرَاكَه إِيَّامِي فِي دَعَائِهِ، شَافِعَا إِلَى رَبِّهِ عِنْدَ خُلُوتِهِ فِي صَلَاتِهِ وَحُجَّتِهِ، وَكُلَّ مَوْطِنٍ مِنْ مَوَاطِنِ طَاعَتِهِ، فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى شُحُوضِهِ تَحْرُكُ بِهِ وَجَدِي وَظَهْرِي بِهِ

سرورى ، وتعظمت عليه منه أنه الولد ، وتولت عني به وحشة الوحدة ، فأنا به جدل
 فى مغيبى ومشهدى ، أحاول مسّ جسده بيدي فى الظلم ، وتارة أعانقه وأرشفه ، ليس يعدله
 عندى عظيماى الفوائد ، ولا منفسات الرغائب . سرتنى به واهبه لى على حين حاجتى ،
 فشدّ به أزرى ، وحملنى من شكره فيه ما قد آدنى بثقل حمل النعم السالفة الىّ به ، المقرونة
 سراًؤها فى العجب بقدر ما يدركنى به من رقة الشفقة عليه ، مخافة مجاذبة المنايا إياه ،
 ووجلا من عواطف الأيام عليه . فأسأل الله الذى آمتن علينا بحسن صنّعه فى الأرحام ،
 وتأديته بالزكاء ، وحرسه بالعافية ، أن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفى غيره ، وأن يجعل ما يهب لنا
 من سلامته والمدة فى عمره موصولا بالزيادة ، معروفا بالعافية ، محوطا من المكروه ، فإنه
 المتأن بالمواهب والواهب بالمنى ، لا شريك له . تحملنى على الكتاب اليك لعلم ما سررتُ به
 علمى بحالك فيه وشرك إياى فى كل نعمة أسداها الىّ ولىّ النعم . وأهل الشكر أولى
 بالمزيد من الله جلّ ذكره . والسلام عليك .

تهنئة بنقلة الى دار جديدة

تأهى الىّ نُقلتك الى الدار التى أرجو أن يجعلها الله نُقلة المكروه عنك ، ونُقلة السرور
 اليك ، ودوام نعمة الله عليك . جعلها الله لك أيمن دار وأعظمها بركة ، ووصل نعمه فىنا
 عندك ونعمه عندنا فيك .

تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصرانى أسلم

أنا أقول الحمد لله الذى وفقك لشكره ، وعرفك هدايته ، فطهر من الأرتياب قلبك ،
 ومن الأفتراء عليه لسانك . وما زالت مخايلك مُمثّلة لنا بحملى ما وهب الله لك ، حتى كأنك لم
 تزل بالإسلام مؤسوفا ، وإن كنت على غيره مقبلا ، وكنا مؤملىن لما صرت إليه ، مشفقين
 لك مما كنت عليه ، واذكاد إشفاقنا يستعلى رجاءنا ، أنت السعادة بما لم تزل الأنفس
 تعد منك . فأسأل الله الذى نور لك فى رأيك وأضاء لك سبيل رشدك ، أن يوفقك
 لصالح العمل ، وأن يؤتيتك فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار .

باب المنظوم

١ - أبو نواس^(١)

كان أبو نواس ينادم ولد المهدي ويلازمهم فلم يُلَفَّ مع أحدٍ من الناس غيرهم ،
ثم نادى القاسم بن الرشيد ولقى منه أشياء كرهها وكُرِهَتْ له ، ففارقه .

(١) هو أبو علي الحسن بن هاني ، الشاعر المتفنن ، الجاذ المساجن ، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ،
ورأس المحدثين بعد بشر . وهو فارسي الأصل . ولد بقرية من كورة خوزستان سنة ١٤٥ هـ ونشأ يتيماً فقدمت به
أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فتعلم العربية ورغب في الأدب ، فلم تعباً أمه بحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة ،
فلثت عنده لا يفتر عن معاناة الشعر والاختلاف الى الأدباء والمجان ، الى أن صادفه عند العطار والبة بن الحباب
الشاعر المساجن الكوفي في إحدى قدماته الى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأخرجه والبة معه الى الكوفة ،
فبقى معه ومع ندمائه من خلعا الكوفة وتخرج عليهم في الشعر وفاتهم جميعاً . وقدم بغداد وقد أربت سسه على
الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم ، وبلغ خبره الرشيد فأذن له في مدحه ، فمدحه بقصائد طائفة وجبته مرة
على هجوه مضر .

وكان يقصد بعض عمال الولايات ومدحهم ومنهم الخصب عامل مصر ، ثم انقطع الى مدح محمد الأمين ،
وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد .
وكان أبو نواس جميل الصورة ، فكه المحضر ، كثير الدعابة ، حاضر البديهة ، متينا في اللغة والشعر والأدب ،
متصبيا لليمانية على المضرية . وأجمع أكثر علماء الشعر ونقدته وغول الشعراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشر
وأكثرهم تفننا وأرخصهم قولاً وأبدعهم خيالاً مع دقة لفظ وبدع معنى ، وأنه شاعر مطبوع برز في كل فن من
فنون الشعر .

وامتاز عن كل الشعراء بقصائده الخمريات ومقطعاته المحبوبات ، وكان شعره لفاح الفساد والقدره البهية ، لنقله
الغزل من أوصاف المؤنث الى الذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفاً قبسه وقيل
شيطانه واليه . وزاد على ذلك افراده بالإبداع في وصف الخمر ، فكان نموذج سوء لمن تأخر ، فافتن بشعره الشبان
في زمانه وبعده وحاكوه وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعد ظريفاً إلا اذا مزج شعره بشيء من
ذلك وإن لم يقع في محفلوراته .

وصفه عبد الله الجواز فقال : كان أطرف الناس منطلقاً ، وأغزرهم أدباً ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم
جواباً ، وأكثرهم حياءً ، وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، ملجح النعمة والاشارة ، ملتف الأعضاء بين الطويل
والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف ، وكان
فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشاغل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلس أبو نواس الى الناشئ الراوية فقرأ عليه شعر ذى الرمة ، فأقبل الناشئ على أبيه هاني وقال له : إن عاش ابنك هذا وقال الشعر ليقولنه بلسان شتوم .

ثم اتصل بوالية بن الحباب الأسدي ، لقيه بدار النجاشي الأسدي والى الأهواز للنصور ، فقال له والبة : إني أرى فيك مخايل فلاح ، وأرى أنك لا تضيعها ، وستقول الشعر وتعلوفيه ، فاصحبنى حتى أخرجك ، فقال : ومن أنت ؟ قال : أبو أسامة ، قال : والبة ؟ قال : نعم ، قال : أنا والله جعلت فداك في طلبك ، وقد أردت الخروج الى الكوفة والى بغداد من أجلك ، قال : وماذا ؟ قال : شهوة لتقائك ولأبيات سمعتها لك ، قال : وما هي ؟ فأنشده :

ولها ولا ذنب لها * حب كأطراف الزمراج
جرحت فؤادي بالهوى * فالقلب مجروح النواحي
سل الخليفة صارماً * هو للفساد وللصلاح
أجداه كف أبي الوليد يداً مبارية الرياح
ألقي بجانب خصره * أمضى من الأجل المتاج
وكأنما ذر الهبا * عليه أنفاس الرياح

فمضى معه ، ثم سأله أن يخرج الى البادية مع وفد بني أسد ليتعلم العربية والغريب ، فأخرجه مع قوم منهم ، فأقام بالبادية سنة ، ثم قدم فقارق والبة ورجع الى بغداد .

وكان أبو نواس متكماً جيداً راوية فخلاً ، رقيق الطبع ثابت الفهم فى الكلام اللطيف .

ويدل على معرفته بالكلام أشياء من شعره ، منها قوله :

وذات خد مورد * فضية المتجرد
تأقل العين منها * محاسناً ليس تنفد

= راوية للأشعار ، علامة بالأخبار ، كان كلامه شعر موزون . توفى سنة ١٩٩ هـ . وتجد ترجمته وأخباره وأشعاره فى كتاب خاص باسم « أخبار أبى نواس » لأبن منظور طبع مصر سنة ١٩٢٤ والأغانى (ج ١٨ ص ٢) و (ج ٦ ص ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٨٦) و (ج ١٦ ص ١٤٨) وابن خلكان (ج ١ ص ١٣٥) وطبقات الادباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والفهرست (ص ١٦٠) والعقد الفريد (ج ٣ ص ٣٣٧) .

فبعضه قد تنأهى * وبعضه يتولد

والحسن في كل شيء * منها مُعاد مردد

ومنها قوله :

يا عاقدَ القلب عني * هلا تذكرتَ حلاً

تركتَ غيبي قليلاً * من القليل أقلّ

يكاد لا يتجزى * أقلّ في اللفظ من لا

ومنها قوله في امرأة أسمها حُسن :

ان اسم حُسن لوجهها صفةٌ * ولا أرى ذا في غيرها جُمعاً

فهى اذا سُميت فقد وُصفت * فيجمعُ الإسمَ معنيين معاً

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قل لزهير اذا حداً رشداً * أقلّ أو أكثر فانت مهذار

سُخنتَ من شدة البرودة حتى صرتَ عندى كأنك النار

لا يعجب السامعون من صفتي * كذلك الثلج باردٌ حارٌ

هذا شيء أخذه أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فانهم يقولون: إن الشيء إذا أفرط

في البرودة انقلب حاراً، وقالوا: إن الصنديل يحكّ منه اليسير فيبرد، فاذا أكثر منه سخن .

قالوا : كان أبو نواس دعياً يخلط في دعوته . فمن ذلك قوله يهجو عربَ البصرة :

ألا كل بصرى يرى أنما العلاء * مكهةٌ سُخقٌ لمن جرِين^(١)

فان تغرسوا نخلاً فان غراسنا * ضرابٌ وطعنٌ في النحور سخينٌ

فان ألك بصرياً فان مهاجرى * دمشقٌ ولكن الحديث فنونٌ

مجاور قوم ليس يبنى وبنهم * أواصر إلا دعوةً وظنونٌ

إذا مادعا باسمي العريف أجبتُه * الى دعوة مما على تهون

(١) المكهة : الفراس الكثيرة . والسحق : الطويلة ، يراد النخل . والجرين هنا : موضع تحجيف التمر .

ثم هجا اليمن في هذه القصيدة بقوله :

لأزد عُمانٍ بالمهلبِ زروةٌ * إذا أفتخر الأقوام ثم تلينُ
وبكر ترى أن النبوة أنزلت * على مسمعٍ في الرحم وهو جنينُ
وقالت تميمٌ لا نرى أن واحدا * كأحتفنا حتى الممات يكونُ
فما لمت قيسا بعدها في قتيبة * ونخبر به إن الفخار فنونُ
وإنما نشأ أبو نواس بالبصرة وليس له بدمشق قبل ولا بعد .

ومما هجا به اليمن أيضا قوله لهاشم بن حديج :

وردنا على هاشم مصره * فبارت تجارتنا عنده

يقول فيها :

رأيتك عند حضور الخوا * ن شديدا على العبد والعبد
وتحد حتى يخاف الجليد * س شذاك عليه من الحد
وتختم ذاك بفخير عليه * يكندة فاسأخ على كنده
فإن حديجاله هجرة * ولكنها زمن الرد
وما كان إيمانكم بالرسول * سوى قتلكم صهره بعده
تعدونها في مساعيمكم * كعد الأهلة معتده
وما كان قاتله في الرجال * بجمل لظهر ولا رشده
فلو شهده قريش البطا * ح لما محشت ناركم جلده^(١)

وقوله أيضا :

ما منك سامي ولا أطلها الدرس * ولا نواطق من طير ولا خرس
يا هاشم بن حديج لو عدت أبا * مثل القامس لم يعاق بك الدنس
إذ أصبح الملك النعمان وفده * ومن قضاة أسرى عنده حبس

(١) المحش : قشر الجلد عن اللحم .

فابتاعهم بإخاء الدهر ما عمروا * فلم ينل مثلها من مثلهم أنس
 أورحت مثل حوى في مكارمه * هيئات منك حوى حين يلتمس
 أو كالسموئل اذ طاف الهام به * في جحفل لحب الأصوات يرتجس
 فاختر ثكلاً ولم يغدر بدمته * إذ قيل أشرف تر الأوداج تنجس
 ما زاد ذلك على تيه خصصت به * وكيف يعدل غير السوءة الغرس
 وقوله :

يا هاشم بن حديج ليس نخركم * بقتل صهر رسول الله بالسدد
 أدرجتم في إهاب العير جتته * فبئس ما قدمت أيديكم لغدد
 إن تقتلوا ابن أبي بكر فقد قتلت * حُجراً بدارة مَلْحُوبِ بنو أسد
 وطردوكم الى الأجدال من أجأ * طرد النعام اذا ما تاه في البلد
 وقد أصاب شراحيلاً أبو حنيس * يوم الكلاب فما دافعتم بيد
 ويوم قلم زريد وهو يقتلكم * قتل الكلاب لقد أبرحت من ولد
 وكل كندية قالت لجارتها * والدمع ينهل من مثنى ومنفرد
 ألهى امرأ القيس تشبيب بغانية * عن ناره وصفات النوء والوتد

وقد رنى أبو نواس خلفاً الأحمر بعد موته بقصائد من شعره، منها قصيدته التي أولها

قوله :

لو كان حي وائلاً من التلّف^(١) * لو ألت شغواءً في أعلى شَعَف
 أم فُريخٍ أحرزته في بلّف^(٢) * مَرْغَبِ الأَلْغَادِ لم يأ كل بكف
 كأنه مستقعد من الخَرْف * هاتيك أو عصاء في أعلى شرف
 ترُوغ في الطَّباقِ والتَّرْعِ الألف^(٣) * أودى جماع العلم مذ أودى خلف

(١) وائلاً : ناجياً . ووالت : بلات . والشغواء : العقاب . والشعف : رموس الجبال .

(٢) الجف : الغار في الجبل . ومزغب : صار ذا زغب ، والزغب صفار الريش . والألغاد جمع لغد بالضم

وهو لحم في الحلق . (٣) الطباق والزعب : نوعان من الشجر .

من لا يَعْدُ العِلْمَ إلا ما عَرَفَ * قَلِيذِمٌ ^(١) من العِيَالِمِ الخُسْفِ
كَمَا مَتَى نِسَاءٌ مِنْهُ نَعْتَرِفُ * رَوَايَةٌ لَا تُجْتَنَى من الصَّحْفِ
ومنها قوله يرثيه :

لَا تَبِيلُ العُصْمِ في الهَضَابِ وَلَا * شَعْوَاءُ تَعْدُو فرخين في بَلْفِ
يُكِنُّهَا الجَوْ في النهار وَيُو * وَيَا سَوَادُ الدُّبَجِي إلى شَرَفِ
تَحْنُو بِجُوشُوشِهَا ^(٢) على ضِرْمِ * كَقَعْدَةِ المنْحِي من الخَرْفِ
وَلَا شَبُوبٌ بَاتَتْ تَوَرَّقَهُ النَّثْرَةُ ^(٣) مِنْهَا بَوَائِلِ قِصْفِ
دَانٍ على الأَرْضِ وَالوَصِيدِ وفي * بِهِ أَمِينِ الإِيَادِ ذِي هَدَفِ ^(٤)
دِيدَنُهُ ذَاكَ طَوَّلَ لَيْتَهُ * حَتَّى إِذَا أَنْجَابُ حَاجِبُ السَّدْفِ
غَدَا كَوَقْفِ المَلُوكِ يَنْهَفُ ^(٥) السَّقِطُ قَطِطٍ من مَنِّيهِ وَالصَّكْفِ
كَأَنَّ شَدْرًا وَهَتْ مَعَاقِدُهُ * بَيْنَ صَلَاةِ فُلَعَبِ الشَّنْفِ
وَأَخْدَرِيَّ صُلْبِ النَّوَاهِقِ صَلَا * صَالِ أَمِينِ الفُصُوصِ وَالوُطُفِ
مَنْفَرْدٍ في الفَلَاةِ تُوسِعُهُ * رِيًّا وَمَا يَحْتَلِيهِ من عَلْفِ
مَا تَرَكَ المَوْتَ من أَوْلَى شَبَحًا * بَادَتْ بِتَلِكِ الفِلَالِ وَالشَّعْفِ
لَمَّا رَأَيْتِ المَنُونََ أَخَذَةً * كَلَّ شَدِيدِ وَكَلَّ ذِي ضَعْفِ
بَتْ أُعْزَى الفِؤَادَ عن خَلْفِ * وَبَاتَ دَمْعِي إِلا يَفِضُ يَكْفِ
أَنْسَى الرِّزَايَا مَيَّتٌ بِحُفَّتْ بِهِ * أَمْسَى رَهِينَ التَّرَابِ في جَدْفِ

(١) القليذم : البئر الغزيرة . والعِيَالِمِ : جمع عيلم وهو البئر الكثيرة الماء . والخسف جمع خسف .
وهي البئر التي حفرت في حجارة فنبع منها ماء غزير لا ينقطع . (٢) الجوشوش : الصدر . والضرم :
فرخ العقاب . (٣) الشبوب : الشاب من الثيران والغنم . والنثرة : منزلة من منازل القمر .
(٤) الوصيد : بيت كالحظيرة يتخذ من الحجارة لئلا أي الغنم وغيرها في الجبال . والإياد : التراب يجعل حول
الحوض أو الخباء يقوى به أو يمنع ماء المطر . والهدف : كل مرتفع من بناء أو كتيب رمل أو جبل .
(٥) ينهف : يساقط ويخفض . والقطقط : المطر الصغير أو المتتابع العظيم القطر وقيل هو دون الرذاذ وقيل
البرد أو صفاره .

كَانَ يُسْنِي بِرَفْقِهِ غُلْفًا ^(١) * فِي غَيْرِ عِيٍّ مِنْهُ وَلَا عُنْفٍ
يَجُوبُ عَنْكَ الَّتِي غُشِيَتْ بِهَا * مِنْ قَبْلُ حَتَّى يَشْفِيكَ فِي لَطْفٍ
لَا يَبْهَمُ الْحَاءَ فِي الْقِرَاءَةِ بِالْخَا * وَلَا لَامَهَا مَعَ الْأَلْفِ
وَلَا يَعْمَى مَعْنَى الْكَلَامِ وَلَا * يَكُونُ إِشَادُهُ عَنِ الصُّحُفِ
وَكَانَ مِمَّنْ مَضَى لَنَا خَلْفًا * فَلَيْسَ مِنْهُ إِذْ بَانَ مِنْ خَلْفٍ

واختلف أبو نواس الى أبي زيد فكتب الغريب من الألفاظ ، ثم نظّر في نحو سيبويه ،
ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السّمان وغيرهم ،
فلم يتخلف عن أحد منهم ، وأدرك الناس فعلم ، ثم قديم بغداد بعد ذلك .

وكان أيضاً يتزّرع ويدعى للفرزدق . ثم وقع بينه وبين الحكم بن قنبر المازني ، فهجاه
الحكم وذكر بريّة العود وبغى عليه ونكبه . ولما قال أبو نواس قصيدته التي يهجو بها
خنيدف ، وهى :

ألم ترّبع على الطّلال الطّماس ^(٢) * عَفَاءَ كُلِّ أَسْمَحٍ ذِي أَرْتَجَاسٍ
وَذَا رِيَّ التُّرْبِ مُرْتَكِمٌ حَصَاةٍ * نَسِيحِ الْمَيْثِ مِعْتَقَةِ الدّهَاسِ ^(٣)
سَوَى سَفْعٍ أَعَارَتْهَا اللَّيَالِي * سَوَادَ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ أَعْبَسَاسِ ^(٤)
وَأورِقَ حَالِفِ المِثْوَاةِ هَابٍ * كَضَاوِي الفِرَاحِ مِنَ الهَلَّاسِ ^(٥)
مَنَازِلُ مِنْ عُفَيْرَةٍ أَوْ سُلَيْمِي * أَوْ الدّهْمَاءِ أُخْتِ بَنِي الحِمَاسِ
كَأَنَّ مَعَاقِدَ الأَوْضَاحِ مِنْهَا * بِجِيْدٍ أَعْنَنُ تُوْمٍ فِي اليَكَّاسِ
وَتَبَسِّمٌ عَنْ أَغْرَةٍ كَأَنَّ فِيهِ * مُجَاجَ سُلَافَةٍ مِنْ بَيْتِ رَاسِ ^(٦)
فَمَنْ ذَا مَبْلَغٍ عَمْرًا رَسُولًا * فَفَقْدَ ذَكْرَتٍ وَدَكَّ غَيْرَ نَاسِ

(١) سناه تسنية : سهله وفتح . (٢) طماس بالكسر : دارس . والأسمح : السحاب . والارتجاس :
الرعد . (٣) المعتقة : حبل في الرمل .

(٤) الاعبساس : بياض فيه كدرة . والسفع : يريد بها الأثافي . (٥) الهلاس : الضمور وهاب :
لونه لون الهباب . (٦) بلدة بالشام تنسب اليها الخمر .

فلم أَهْجُرْكَ هَجْرَ قَلِيٍّ وَلَكِنْ * نَوَائِبُ لَا تَزَالُ لَهَا تُقَاسِي
 نَوَائِبُ تَعِجْزُ الْأَدْبَاءُ عَنْهَا * وَيَعِيَا دُونَهَا اللَّيْقِنُ النَّطَاسِي
 وَقَدْ نَاخْتُ عَنْ أَحْسَابِ قَوْمٍ * هُمْ وَرَثُوا مَكَارِمَ ذِي نُوَّاسِ
 فَإِنْ تَكُ أَوْقَدْتَ لِلْحَرْبِ نَارًا * فَمَا غَطَّيْتُ خَوْفَ الْحَرْبِ رَاسِي
 سَأَلِي خَيْرَ مَا أَيْلَى مُحَامٍ * إِذَا مَا النَّبِيلُ أُلْحِمَ بِالْقِيَاسِ^(١)
 وَسَمْتُ الْوِائِلِينَ بِفَاقِرَاتٍ * بَهَنَ وَسَمْتُ رَهْطَ أَبِي فِرَاسِ
 وَقَالَتْ كَاهِلٌ وَبَنُو قُعَيْنٍ * حَنَانِكَ إِنَّا لَسْنَا بِنَاسِ
 فَمَا بِالِ النَّعَاجِ تَفَّتْ بِسَمِيٍّ * وَفِي زَمَعَاتِهِنَّ دُمُ الْفِرَاسِ
 وَمَا حَامَتْ عَنِ الْأَحْسَابِ إِلَّا * لَتَرْفَعُ ذِكْرَهَا بِأَبِي نُوَّاسِ

عارضه الحكم وهجاه ، فانقلب على التزارية وأدعى أنه من حاء وحكم ، فزجره يزيد بن منصور الحميريّ خال المهدي وقال له : أنت خوزي ، فمالك وحاء وحكم ! فقال له : أنا موالي لهم ، فتركوه ، وقال بعضهم لبعض : إنه لظريف اللسان غزير العلوم فدعوه ، وبهذا الولاء يتعصب لنا ويكيد عنا ويهجو التزارية ؛ فكان كما قالوا وكما ظنوا ، فانقلب الى اليمن وعدل عن كنيته بأبي فراس واكتفى بأبي نواس ، تشبهاً بكنية ذى نوّاس كما كانت اليمن تكتفى ، وندم على هجاء اليمن ، ووجدتهم له أنصر ولدعوته أقبل ، فاعتذر الى هاشم بن حديج الكندي من هجائه ، ومدح اليمن فقال :

أهَاشِمُ خَذْ مِنِّْي رِضَاكَ وَإِنْ أَتَى * رِضَاكَ عَلَى نَفْسِي فغَيْرُ مَلُومٍ
 فَأَقْسَمُ مَا جَاوَزْتُ بِالشِّتْمِ وَالِدِي * وَعِرضِي وَمَا مَرَّقْتُ غَيْرَ أَدِيمِي
 فَعُدْتُ بِحَقْوِي هَاشِمٍ فَأَعَاذَنِي * كَرِيمٌ أَرَاهُ فَوْقَ كُلِّ كَرِيمٍ
 وَإِنْ أَمْرًا أَعْضَى عَلَى مِثْلِ زَلَّتِي * وَإِنْ جَرَحْتُ فِيهِ لِحَدِّ حَلِيمٍ
 تَطَاوَلَ فَوْقَ النَّاسِ حَتَّى كَأَنَّمَا * يَرُونَ بِهِ نَجْمًا أَمَامَ نُجُومِ

إذا آتت الأحماسُ يوماً بأهلها * أناخ إلى عاديةٍ وصمى
إلى كلِّ معصوبٍ به التاجُ مقولٍ * إليه أيادي عامرٍ وتمم

وكان قبل أن ينتمى لليمن ويدعى لغاز يتعاجم في شعره، فمن ذلك قوله :

فاسقنيها وغرَّ صو * تأ، لك الخير، أعجبا

ليس في نعتِ دمنية * لا ولا زجر أشاما

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبي نواس شعرا يفضل هذه القصيدة وهي :

ودارِ ندَامى عطلوا وأدجوا * بها أئرمهم جديدٌ ودارسُ

مَسَاحِبُ من جرِّ الرِّقاقِ على الترى * وأضغاثُ ريحانٍ جنىً ويابسُ

حبستُ بها صحبي بحدتِ عهدهم * وإني على أمثال تلك لحابسُ

ولم أدر منهم غير ما شهدت به * بشرقِ ساباطِ الديارِ البساسِ

أقنا بها يوماً ويوماً وثالثا * ويوما له يومُ الترحلِ خامسُ

تُدار علينا الرأحُ في عسجدية * حبتها بأنواعِ التصاويرِ فارسُ

قرارتها كسرى وفي جنباتها * مها تدرىها بالقسيّ الفوارسُ

فألخمر ما زرت عليه جيوبها * وللاء ما دارت عليه القلائسُ^(١)

وقوله يصف كرمه وعبر عنها بالهجمة وهو يريد الدنان :

لنا هجمةٌ لا يدرك الذئبُ تخلفها * ولا راعها تزو الفحالة والخطر

إذا امتحنت ألوانها مالَ صفوها * إلى الكمت إلا أن أوبارها خضر

وإن قام فيها الحالبون اتقتمهم * بتجلاء ثقب الجوفِ دزنتها الخمر

مَسارحها الغربيُّ من نهرِ صرصر * ففطر بلُّ فالصالحية فالعقر

(١) يعني أن الخمر مصبوب فيها إلى حلق الصور صرفاً . وقوله : وللاء ، يعني أنهم صبوا الماء في مزجها حتى

تُرَاثُ أَبِي سَاسَانَ كَسْرِيٍّ وَلَمْ تَكُنْ * مَوَارِيثَ مَا أَبْقَتْ تَمِيمٌ وَلَا بَكْرُ
قَصْرَتْ بِهَا لَيْلِي وَلَيْلِ ابْنِ حُرَّةٍ * لَهُ حَسَبٌ زَالِكٌ وَلَيْسَ لَهُ وَفَرُ

وَفِي تَعَاجُمِ أَبِي نَوَاسٍ فِي شَعْرِهِ يَقُولُ الرَّقَاشِيُّ يَهْجُوهُ :

نَبَطِيٌّ فَإِذَا قِيلَ لَهُ * أَنْتَ مَوْلَى حَكَمٍ قَالَ أَجَلُ
هُوَ مَوْلَى اللَّهِ إِذْ كَانَ بِهِ * لِاحِقًا فَاللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُ
وَاضِعًا نَسَبَهُ حَيْثُ اشْتَهَى * فَإِذَا مَا رَأَاهُ رَبِّ رَحَلُ

فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ يَهْجُوهُ :

هَجَوْتُ الْفَضْلَ دَهْرِيٍّ وَهُوَ عِنْدِي * رَقَاشِيٌّ كَمَا زَعَمَ الْمَسْئُولُ
فَلَمَّا سُئِلْتُ عَنْهُ رَقَاشِيٌّ * لِنَعْلَمَ مَا تَقُولُ وَمَا يَقُولُ
وَلَمَّا أَنْ نَصَّصْنَاهَا لِيهَا * لِنَعْلَمَ مَا يُقَالُ وَمَا تَقُولُ
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَبَعَدَ مِنْ رَقَاشٍ * مِنَ الْأُنْثَى أَدَعَتْ فِيهَا الْفَيْسُولُ
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَكْرَمَ مِنْ رَقَاشٍ * لِأَنَّ الْفَضْلَ مَوْلَاهُ الرَّسُولُ

يُرِيدُ بِذَلِكَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنَا مَوْلَى مَنْ لَا مَوْلَى لَهُ» .

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

قُلْ لِلرَّقَاشِيِّ إِذَا جَنَّتْهُ * لَوْ مَتَّ يَا أَحْمَقُ لَمْ أَهْجُكَ
لَأَنْتَ أَكْرَمُ عَرَضِيٍّ وَلَا * أَقْرَبُهُ يَوْمًا إِلَى عَرَضِكَ
إِنْ تَهْجُنِي تَهْجُ فَنِي مَا جَدَا * لَا يَرْفَعُ الطَّرْفَ إِلَى مِثْلِكَ
دُونَكَ عَرَضِيٍّ فَاهْجُهُ رَاشِدًا * لَا تَدْنُسُ الْأَعْرَاضُ مِنْ هَجْوِكَ
وَاللَّهُ لَوْ كُنْتُ جَرِيرًا لَمَّا * كُنْتُ بِأَهْجِي لَكَ مِنْ أَصْلِكَ

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

يَا عَرَبِيًّا مِنْ صَنْعَةِ السُّوقِ * وَصَنْعَةُ السُّوقِ ذَاتُ تَشْقِيقِ
مَا رَأَيْكُمْ يَا زَارُ فِي رَجُلٍ * يَدْخُلُ فِيكُمْ مِنْ خَلْقِ مَخْلُوقِ

ويحمل الوطْبَ والعَلَابَ ولا * يصلح إلا للحمل ما بريق
 لقد ضربنا بالطبل أنك في السقوم صحيحٌ وصيحٌ في البوق
 قد أخذ الله من رِقَاشٍ على * تركهم المجد بالمواثيق
 فالناس يسعون للعلا قُدماً * وهم وراء مكسرو السوق
 هذا كذا كم وفي الهياج اذا * هيج فاشتت من بواشيق^(١)

وقال أيضا يهجوه :

أصبح الفضلُ ظاهرَ التَّيه * وذلك مذ صرتُ أهاجيه
 لله شعري، أي مفاوية * لكل من دوني قوافيه
 كم بين فضلٍ منذ هاجيته * وبينه قبل أهاجيه
 فالحمد لله وإن كنتُ لم * أحفل بقوم نصحوا فيه
 رَضيتُ أن يشتمني ساقطٌ * شسعي خيرٌ من مواليه

وكان أبو نواس في دعاويه يتماجن ويعبث ويخفى نسبه واسم أمه لئلا يهجي ، وذلك مشهور عنه . ولو غضب هو نفسه على أبيه لهجاه ولم يحتشم . والمذكور من أمره أنه كان مولى الحكيمين ، يقتخر بايمن ويمدحهم لذلك ، ويمدح العجم ويذكركم لأنه منهم ، فلذلك قال في العجم ما قال .

قال ابو الفرج الأصفهاني : كان أبو عبدة يقول : ذهب اليمنُ بجِدِّ الشعر وهزله : امرؤ القيس بجده ، وأبو نواس بهزله . وكان يقول : ذهب اليمنُ بجيد الشعر في قديمه وحديثه : امرؤ القيس في الأوائل ، وأبو نواس في المحدثين . وكان يقول : شعراء اليمن ثلاثة : امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس . وقال أيضا : أبو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين ، فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعاني وأرشدهم الى طريق الأدب والتصرف في فنونه . وكان يقول : يعجبني من شعر أبي نواس قوله :

(١) جمع باشق وهو اسم طائر، أجمعى معرب .

بَنِينَا عَلَى كَسْرِي سَمَاءَ مُدَامِيَّةٍ * مَكَلَّةٌ حَافِئُهَا بِنَجُومٍ
 فَلَوْرُدِّ فِي كَسْرِي بِنِ سَاسَانَ رُوحِهِ * إِذَا لِأَصْطَفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمٍ
 وَسئَلُ يَعْقُوبَ بِنِ السَّكَيْتِ عَمَّا يَخْتَارُ رِوَايَتَهُ مِنْ أَشْعَارِ الشُّعْرَاءِ، فَقَالَ: إِذَا أُرِدْتَ مِنْ
 الْجَاهِلِيَّيْنَ فَلَا مَرِيءَ الْقَيْسِ وَالْأَعَشَى، وَمَنْ الْإِسْلَامِيَّيْنَ فَلَجَرِيرٌ وَالْفِرْزَدِقُ، وَمَنْ الْمُحَدِّثِينَ
 فَلَأَبِي نَوَاسٍ خَسْبٌ. وَقِيلَ: لِلْعُتْبِيِّ مِنْ أَشْعُرِ النَّاسِ؟ قَالَ: عِنْدَ النَّاسِ أَمْ عِنْدِي؟ قِيلَ
 عِنْدَ النَّاسِ؟ قَالَ: أَمْرُ الْقَيْسِ؛ قِيلَ: فَعِنْدَكَ؟ قَالَ: أَبُو نَوَاسٍ.
 وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بِنِ مُحَمَّدِ بِنِ عَائِشَةَ: مَنْ طَلَبَ الْأَدَبَ فَلَمْ يَرَوْشِعْ أَبِي نَوَاسٍ فَلَيْسَ
 بِتَأَمِّ الْأَدَبِ. وَسئَلُ: مَنْ أَشْعُرُ الْمُحَدِّثِينَ؟ فَقَالَ: الَّذِي يَقُولُ:

كَأَنَّ شِيَابَهُ أَطْلَعُ * مِنْ مِنْ أَرْزَارِهِ قَمَرًا
 يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حَسَنًا * إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا
 بَعِينٌ خَالِطُ النَّفْتِيَّةِ * تَرُ مِنْ أَجْفَانِهَا الْحَوْرَا
 وَوَجْهٌ سَائِرِي لَوْ * تَصُوبُ مَأْوَهُ قَطْرًا
 وَقَدْ خَطَّتْ حَوَاضَتُهُ * لَهُ مِنْ عَنَبٍ طُرًّا

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بِنِ الْعَبَّاسِ الطَّوِيلُ: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَحْفَظُ شِعْرَ أَبِي نَوَاسٍ عَلِمْتَ أَنَّ
 ذَلِكَ عُنْوَانُ أَدَبِهِ وَرَأَيْتُ ظَرْفَهُ.

وَكَانَ أَبُو نَوَاسٍ يَقُولُ عَنِ نَفْسِهِ: سَفَلْتُ عَنِ طَبَقَةِ مَنْ تَقَدَّمَنِي مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعَلَوْتُ
 عَنِ طَبَقَةِ مَنْ مَعِيَ وَمَنْ يَجِيءُ بَعْدِي، فَأَنَا نَسِيحٌ وَحَدِيدِي.
 وَحَدَّثَ جَمَاعَةٌ مِنَ الرِّوَاةِ مَنْ شَهِدَ أَبَا نَوَاسٍ قَالُوا: كَانَ أَقْلًا مَا فِي أَبِي نَوَاسٍ قَوْلَ
 الشُّعْرَاءِ، وَكَانَ مُخْلًا رَاوِيَةً عَالِمًا.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: بَلَّغَنِي أَنَّ أَبَا نَوَاسٍ يَتَعَاطَى قَرَضَ الشُّعْرَ فَنَلْقَانِي وَهُوَ سَكَرَانٌ مَا طَرَّ
 شَارِبُهُ بَعْدًا، فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ فَلَانَ عِنْدَكَ؟ فَقَالَ: تَقِيلُ الظِّلَّ، جَامِدُ النَّسِيمِ؛ فَقُلْتُ:
 زِدْ؛ فَقَالَ: مَظْلَمُ الْمَوَاءِ؛ مَتْنُ الْفَنَاءِ، فَقُلْتُ: زِدْ، فَقَالَ: غَلِيظُ الطَّبَعِ، بَارِدُ الشُّكْلِ؛

قلت : زد ؛ فقال : وَخَمِ الطَّلَعَةَ ؛ عَسِرَ القَلْعَةَ ؛ قلت : زد ؛ قال : نَأَى الجَنَابَاتِ ، بارد
الحركات ؛ قال : نَخَفَّتُ عَنْهُ ؛ فقال : زدني سؤالاً ؛ أزدك جواباً ؛ فقلت : « كفى من
القلادة ما أحاط بالعنق » .

وقال سليمان بن أبي سَهْلٍ لأبي نَواصٍ : ما الذي اسْتَجِيدُ من أجناس شعرك ؟ فقال :
أشعاري في الخمر لم يُقَلِّ مثَلُها ، وأشعاري في الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أجد شعري
إن لم يزاحم غزلي ما قلته في الطرد .

وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رَوَيْتُ لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلي ،
فما ظنك بالرجال ؟ واني لأروى سبعمائة أرجوزة ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلْفًا في نظم الشعر ، فقال : لا آذَنُ لك في عمل الشعر إلا أن تحفظَ
ألفَ مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة ؛ فغاب عنه مدة وحضر اليه فقال
له : قد حفظتها ؛ فقال : أنشدُها ، فأنشده أكثرها في عدة أيام ، ثم سأله أن يَأْذِنَ له في نظم
الشعر ؛ فقال له : لا آذَنُ لك إلا أن تنسى هذه الألفَ أرجوزة كأنك لم تحفظها ، فقال له :
هذا أمر يصعب عليّ فإني قد أتقنت حفظها ، فقال له : لا آذَنُ لك إلا أن تنساها ، فذهب
إلى بعض الديرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتها حتى كأن
لم أكن قد حفظتها قط ؛ فقال له : الان فانظم الشعر .

وكان أبو نَواصٍ يقول : لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبة ، وأكون
في بستان مونتق ، وعلى حال أرتضيها من صيلة أوصل بها أو وعد بصلية ، وقد قلت وأنا على
غير هذه الحال أشعاراً لا أرضاها . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ، ثم يعرضها على نفسه
فيسقط كثيراً منها ويترك صافيها ، ولا يسره كل ما يقذف به خاطره . وكان يهمله الشعر
في الخمر فلا يعمله إلا في وقت نشاطه . ولم يكن في الشعر البطيء ولا بالسرير بل كان
في منزلة وَسْطَى .

وكان الأصمعي يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيتٌ واحد قد أجاد قائله وهو :

ضعيفةٌ كَرَّ الطَّرْفُ تحسَّبَ أنها * قريبةٌ عهدٍ بالإفاقة من سُقْمِ
وإني لآتي الأمرَ من حيث يُتَّقَى * ويعلمَ سَهْمِي حينَ أَنْزَعَ منْ أَرْمِي

قال العتّابي لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس : والله لو أدرك الخبيثُ الجاهليةَ ما فُضِّلَ عليه أحد .

وقال أبو عمرو والشيباني : أشعرُ الناس في وصف الخمر ثلاثة : الأعشى والأخطل وأبو نواس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعراً في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته ، وبعْدَ صِيتِهِ وظَرْفِ لسانِهِ .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : إذا أردتُ أن أجدَّ ، قلتُ مثل قصيدي « أيها المتأبُّ عن عُقرِهِ » ، وإذا أردت العبتَ قلتُ مثل قصيدي : « طاب الهوى لعبيده » ، فأما الذي أنا فيه وحدي وكلُّهُ جيدٌ فإذا وصفت الخمر .

وقال أبو ذؤان : كنا عند التوزي فذكرتُ عنده أبا نواس ، فوضع منه بعضُ الحاضرين ؛ فقال له التوزي : أتقول هذا لرجل يقول :

يخافُه الناسُ ويرجونه * كأنه الجنةُ والنارُ

ويقول :

فما جازه جودٌ ولا حلَّ دونَه * ولكن يصير الجودُ حيث يصيرُ

ويقول :

فتمشَّتْ في مفاصلهم * كتمشَّتْ البرءُ في السقمِ

قال ابن الأعرابي يوما جلسائه : ما أشعرُ ما قال أبو نواس في الخمر؟ فقال بعضهم : إذا عبَّ فيها شاربُ القومِ خلتَه * يُقبَلُ في داجٍ من الليلِ كوكبا

وقال آخر :

كَأَنَّ كُبْرَى وَصُغْرَى مِنْ فَقَّاعِهَا * حِصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقال آخر :

تَرَى حَيْثُ مَا كَانَتْ مِنَ الْبَيْتِ مَشْرِقًا * وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنَ الْبَيْتِ مَغْرِبًا

وقال آخر :

فَكَأَنَّ الْكَوْوَسَ فِينَا نَجُومٌ * دَائِرَاتٌ بَرُوجُهَا أَيْدِينَا

وقال آخر :

صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْإِحْرَانُ سَاحَتَهَا * لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّهُ سَرَّاءُ

فقال ابن الأعرابي : إن هذا كله لشاعر أنفرد بالإحسان فيه ، وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لَا يَنْزِلُ اللَّيْلُ حَيْثُ حَلَّتْ * فَدَهْرٌ شُرَّابُهَا نَهَارٌ

قال مسلم بن بهرام : لَقِيتُ أبا الْعَتَاهِيَةَ فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ ؟ قَالَ : تَرِيدُ

جَاهِلِيَّهَا أَوْ إِسْلَامِيَّهَا أَوْ مَوْلَدَهَا ؟ قَالَ : كُلُّهُ أَرِيدُ ، قَالَ : الَّذِي يَقُولُ فِي الْمَدِيحِ :

إِذَا نَحْنُ أَثْنِينَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ * فَأَنْتَ كَمَا نُنْثِي وَفَوْقَ الَّذِي نُنْثِي

وَإِنْ جَرَّتِ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمَدْحَةٍ * لَغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي

والذي يقول في الزهد :

أَلَا رَبَّ وَجْهِهِ فِي التُّرَابِ عَيْبِي * وَيَارَبَّ حُسْنٍ فِي التُّرَابِ رَقِيبِي

وَيَارَبَّ حَزْمٍ فِي التُّرَابِ وَنَجْدِي * وَيَارَبَّ رَأْيِي فِي التُّرَابِ وَوَيْبِي

فَقُلْ لِقَرِيبِ الدَّارِ إِنَّكَ رَاحِلٌ * إِلَى مَتْرَبٍ نَائِي الْمَحَلِّ سَبِيحِي

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ * وَدُوْنَسِي فِي الْمَالِكِينَ عَرِيقِي

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشِفَتْ * لَهُ عَن عَدُوِّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِي

وكان يقول : سبقني أبو نواس الى ثلاثة أبيات وددت أنى سبقته إليها بكل ما قلته
فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبير الذنب عفو اللد * ه من ذنبك أكبر

وقوله :

من لم يكن لله متبها * لم يمس محتاجاً الى أحد

وقوله :

إذا امتحن الدنيا ليبت تكشفت * له عن عدو في ثياب صديق

ثم قال : قلت في الزهد ستة عشر ألف بيت وددت أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النظم يقول ، وقد أنشد شعراً لأبي نواس : كأن هذا الفتى
بجمع له الكلام فاختار أحسنه . وقال بعضهم : كأن المعاني حُيست عليه ، فأخذ حاجته
وفترق الباقي على الناس . وقال أبو حاتم : كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدث الحسين بن الخصب الكاتب ، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كنتُ
أنا وعبد الله بن طاهر عند المأمون ، وهو مستلق على قفاه ، فقال لعبد الله بن طاهر :
يا أبا العباس ، من أشعر من قال الشعر في خلافة بني هاشم ؟ فقال : أمير المؤمنين أعرِفُ
بهذا وأعلى عينا ، فقال له المأمون : على ذلك قفيل ، تكلم أنت يا أحمد بن يوسف ،
فقال عبد الله بن طاهر : أشعرهم الذي يقول :

ويا قبرٍ معين كنت أول حُفرة * من الأرض خُطت للسباحة منزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب : فقلت : بل أشعرهم الذي يقول :

أشبهت أعدائي فصرتُ أحيهم * إذ كان حظي منك حظي منهم

فقال المأمون : يا أحمد أبيت إلا غزلا ! أين أتم عن الذي يقول :

يا شقيق النفس من حكم * نمت عن ليلى ولم أتم

فقلنا : صدقت يا أمير المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُئِلت الدنيا عن نفسها فنطقت ، لما وصفت نفسها
كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تَكشَّفَتْ * له عن عدوِّ في ثياب صديق
وَرَدَ على العتابي بحلبِ عِدَّةٍ من البِجَارِ من أهلِ قَنَسرينَ ، فدخلوا وسأموا ؛ وكان في يده
رُقعة ينظر إليها ، فقال لهم : لقد سلَّك صاحبُ هذه الرُقعة وادياً ما سلَّكه أحدٌ قبله ؛
فنظروا فإذا هو شعر أبي نواس في جنانِ جارية آل عبد الوهَّابِ الثقفى ، وهو قوله :

رَبِيعُ الكَرَى بينَ الحفونِ مُجِئِلُ * عَفَى عليه بُكَّى عليك طويلُ
يا ناظراً ما أفلعتُ لحظاته * حتى تشحطَ بينهن قتلُ
أحلتُ قلبي من هوائك محلةً * ما حلَّها المشروبُ والمأكولُ
بكالِ صورتك التي من دونها * يتخيرُ التشبيهُ والتمثيلُ
فوقَ القصيرةِ والقصيرةُ فوقها * دون السمينِ ودونها المهزولُ

ومما أنشده العتابي لأبي نواس فقال أحسن وأجاد :

متنايهُ بجماله صَليْفُ * لا يستطاع كلامه تيهَا
للحسنِ في وجناته يدعُ * ما إن يَمَلُّ الدرسَ قاريها
لو كانت الأشياءُ تعقله * أجلَّنه إجلالَ بارِها
لو تستطيعُ الأرضُ لآتقبضت * حتى يصير جميعه فيها

وقوله :

إن السحابَ لتسحبي إذا نظرتُ * الى ندادك فقاسته بما فيها
حتى تهَمَّ بإقلايح فيمنعها * خوفٌ من السُّخطِ من إجلالِ منشيها

قال محمد بن صالح بن بيَّس الكلابي : لما دخلتُ العراقُ صرْتُ الى مدينة السلام
فسألت عمن بها من الشعراء المحسنين ، وذلك في أيام خلافة الأُميين أو عند موته قبل
دخول المأمون بسير ، ف قيل لي : قد غلب عليهم فقيٌّ من أهل البصرة يقال له الحسن

ابن هانيء ويعرف بأبي نواس ، وقد كنت سمعتُ شيئاً من شعره ، فأتاني فتى كان من أهل الأدب ، فقلت له : هل تروى لأبي نواسكم هذا شيئاً؟ قال : أروى له أبياتاً في الزهد وليس هو من طريقته ، فقلت أنشدنيها ؛ فأنشدني :

أخى ما بال قلبك ليس يَنقَى * كأنك لا تظن الموتَ حقاً
ألا يا بنَ الذين فَنُوا وبادوا * أما والله ما ذهبوا لتَبَقَى
وما للنفس عندك من مُقام * إذا ما آستكملت أجلاً وِرِزْقاً
وما أحدٌ بزادك منك أَحظَى * ولا أحدٌ بذنبك منك أَشقى
ولا لك غيرَ تقوى الله زادٌ * إذا جعلتُ الى اللّهوات تَرَقَى

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشدك أحسن من هذا؟ قلت بلى ؛ فأنشدني في رثاء محمد الأمين :

طوى الموتُ ما بيني وبين محمد * وليس لما تطوى المنيةُ ناشرُ
فلا وصلَ إلا عبْرَةً تستديمُها * أحاديثُ نَفْسٍ مالها الدهرُ ذاكرُ
لئن عمّرتُ دورَ بمن لا أودّه * لقد عمّرتُ ممن أحبُّ المقابرُ
وكنْتُ عليه أحذرُ الموتِ وحده * فلم يبقَ لي شيءٌ عليه أُحاذِرُ

فقال : بحق ما غلب هذا على أهل الأدب وقدموه على غيره .

قال محمد بن جعفر الأصم : كذا عند أبي نُعَيْم ، فتسدا كرنا قول عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حين ذكرتُ شعرَ لبيد يريُّ أخاه أربد :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْفَاهِم * وَيَقِيْتُ فِي خَلْفِ بَجْلِدِ الْأَجْرِبِ

ولقد أنشدني أبو نعيم أبياتاً ، قلنا : أنشدناها ، فقال :

ذَهَبَ النَّاسُ فَاسْتَقَلُّوا وَصِرْنَا * خَلَقْنَا فِي أَرَاذِلِ النَّسَانِ
فِي أَنَاسٍ نَعُدُّهُمْ مِنْ عَدِيدٍ * فَإِذَا قُتِّشُوا فَلَيْسُوا بِنَاسِ

كلما جئتُ أبتغي الفضلَ منهم * بدروني قبل السؤالِ بيأس
وبكوا لي حتى تمنيتُ أني * مفلتٌ عند ذلك رأساً براس

ثم قال : أتدرون لمن الشعر؟ قلنا : لا، قال : للحسن بن هانيء .

قال أبو عبد الرحمن الضرير : رأيتُ مسلم بن الوليد يُجرجان وهو يتولأها، فسألني عن خَلْفَتُ من الشعراء؛ فقلت له : أما من الكوفيين فأبو نواس، وهو مقدمٌ عندهم؛ فقال : ويحك ! كيف يتقدم وهو يقول : رُوَيْدَكَ يَا إِنْسَانُ لَا أَنْتَ تَقْفِزُ أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ : « تَقْفِزُ » خرجتُ من بين فكي شاعِرٍ قط ! ثم قال : ويلك ! وكيف يكون كذلك وهو يُجِيلُ وَيَخْطِي من صفة المخلوق الى صفة الخالق؟ فقلت : مثل ماذا من قوله؟ قال : أما فيما أحال فكقولهُ : وَأَخَفَتَ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ * لَتَخَافُكَ النُّطْفُ التي لم تُخْلَقِ وهذا من الإغراق المستحيل في العقول ومما ليس على مذهب القوم ؛ وأما في تَخَطَّيهِ بصفة المخلوق الى صفة الخالق فكقولهُ :

يَجِلُّ أَنْ تَلْحَقَ الصِّفَاتُ بِهِ * فَكَلَّ خُلُقِي خُلُقَهُ مِثْلُ

وكقولهُ :

* بَرِيءٌ مِنَ الْأَشْبَاهِ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ *

ومما قيل عن أبي نواس إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يُحْسِنُهُمَا، وأجودُ شعره في الخمر والطرد، وأحسنُ ما فيهما مأخوذٌ ليس له وإنما سرَّقه، وحُسْبُكُ من رجل يريد المعنى لياخذهُ فلا يُحْسِنُ أَنْ يَبْنِي عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ بِهِ قَبِيحًا، مثل قوله : « وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ » أخذه من قول الأعشى : « وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا » والذي أخذه منه أحسن . ومنها أيضا قولهُ : « إِنَّ الشَّبَابَ مَطِيَّةُ الْجَهْلِ » أخذه من قول النابغة الجعدي : « فَإِنَّ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ » . وقولهُ : « كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ إِهَابِهِ » أخذه من قول أبي النجم : « كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ كِسَانِهِ » . ولكن رُزِقَ أَبُو نَوَاسٍ فِي شَعْرِهِ أَنْ سَارَ وَحَمَلَهُ النَّاسُ وَقَدَّمَهُ أَهْلُ عَصْرِهِ، وَإِنْ لَهُ عَلَى ذَلِكَ لِأَشْيَاءٍ حَسَنًا لَا يَدْفَعُهَا وَلَا يَطْرَحُهَا إِلَّا جَاهِلٌ بِالْكَلَامِ أَوْ حَاسِدٌ .

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل بن الربيع وهي :

وبلدة فيها زور * صغراء تحظى في صعر
 مرت إذا الذئب افتقر * بها من القوم الأثر^(١)
 كان له من الجزر * كل جنين ما اشتكر^(٢)
 ولا تعلاه شعر * ميت النساحي الثغر
 عسفتها على خطر^(٣) * وغرير من الغرر
 يبازل حين فطر * يهزه جن الأثر
 لا ممسك من سدر^(٤) * ولا قريب من خور
 كأنه بعد الضمر * وبعد ما جال الضفر^(٥)
 وأتمح في فخر : * جاب رباع المشفر^(٦)
 يحدو بحقب كالأكر * ترى بأبجاق القصر^(٧)
 منهن توشيم الجدر * رعين أبكار الخضر
 شهرى ربيع وصفر * حتى إذا الفحل جفر^(٨)
 وأشبه السنى الإبر * ونش أذخار النقر^(٩)
 قلن له : ما تأتمر؟ * وهن إذ قلن : أمر
 غير عواص ما أمر * كأنها لمن نظر
 ركب يسيمون مطر * حتى إذا الظل قصر

- (١) المرت : الأرض لا نبات فيها ، واقفر الأثر : افتقاه وتبعه . (٢) الجزر (بفتحين) : ما يذبح من الشاة ذكرا كان أو أنثى . واحدة : جزرة . وما اشكر : لم يثبت له السكر وهو الضعيف من الشعر الذي لا يكاد يظهر . (٣) عسفتها : سلكها متخططا ، والغرر : الخطر . (٤) السدر : التحير . (٥) الضمر (بالضم وبضمين) : الخزال . والضفر : جمع ضفار (بالفتح) وهو ما يشد به البعير من شعر مضفور . (٦) الجلب : الحمار الغليظ من حمر الوحش . (٧) الأبجاق جمع نبيج وهو وسط الشيء ، والقصر جمع قصرة وهي أصل العنق . (٨) جفر : امتنع عن الضراب . (٩) السنى : كل شجر له شوك ، ونش : نضب ، والنقر : جمع نقرة وهي الوهدة المستديرة من الأرض .

يَمَنَّ من جَنِّي هَجْر * أخضر طَمَّ العَكْر
 وبين أحقاف القتر * سار وليس للسمر
 ولا تلاوات السور * يمسح مِرَانًا^(١) يسر
 زمت بمشزور المرز * لأم مخلقوم النغر^(٢)
 حتى إذا صطف السطر * أهدى لها لو لم تجر
 دهباً يحدوها القدر * فإلك عنس لم تدر
 شهباً إذا الآل ظهر * إليك كلفنا السفر
 خصوصاً يجاذبن النظر * قد انطوت منها السر
 طى^(٣) القرارى الحبر * لم تتعدّها الطير
 ولا السنيح المزدجر * يافضل للقوم البطر
 إذ ليس في الناس عصر * ولا من الخوف وزر
 ونزلت إحدى الكبر * وقيل صماء الغير
 فالناس أبناء الحدر * فرجت هاتيك الغمر
 عنّا « وقد صابت بقر » * كالشمس في شخص بشر^(٤)
 أعياء مجاريك الخطر * أبوك جلى عن مضر
 يوم الرواق المحتضر * والخوف يقري ويدر
 لما رأى الأمر اقطر^(٥) * قام كريماً فانتصر
 كهزة العصب الذكر * ما مس من شيء هبر^(٦)

(١) المرمان : القوس . (٢) زمت : شدت ، ومشزور : مقبول ، والمر : جمع مرة وهي قوة الفتل ،

واللام : الشديد ، والنغر : كسر البليل . والعرب تشبه الدقيق بالأوتار ولاحقهم النغران . (٣) القرارى : الخياط

(٤) القر : القرار ، يقال إذا وقع الأمر موقعه : صابت بقر ووقت بقر . قال طرفة بن العبد البكري :

كنت منهم كالمغطى رأسه * فأنجلى اليوم غطائي ونجر

سادرا أحسب غي رشدا * فتناهيت وقد صابت بقر

(٥) اشتد . (٦) هبر : قطع .

وأنت تَتَقَاتُ الأَثَرَ * من ذى حُجُولٍ وُغِرَّ
 معيد وِرْدٍ وِصَدَرٍ * وإن علا الأَمْرَ أَقْتَدِر
 فأين أصحابُ الغَمْرِ * اذ شَرِبُوا كَأْسَ المِقْرِ^(١)
 وُقُصِرُوا فِيمَنْ قُصِرَ * هِيَاهُ لَا يَخْفَى القَمَرُ
 أَصْحَرَتْ اذ دَبَّوا الخَمْرَ * شَكَرًا، وَحَرًّا مَنْ شَكَرَ^(٢)
 فَاللهُ يُعْطِيكَ الشَّيْبَ * وَفِي أَعَادِيكَ الظَّفِيرُ^(٣)
 وَاللهُ مَنْ شَاءَ نَصَرَ * وَأَنْتَ إِنْ خِفْنَا الحِصْرُ^(٤)
 وَهَرَّ دَهْرٌ وَكَشَّرَ * عَنِ نَاجِدِيهِ وَبَسْرُ^(٥)
 أَغْنَيْتَ مَا أَغْنَى المَطَرُ * وَفِيكَ أَخْلَاقُ البَاسِرِ
 فَانْ أَبُوا إِلَّا العَسْرَ * أَمَرَّتْ حَبَلًا فَاسْتَمَرَّتْ^(٦)
 حَتَّى تَرَى تِلْكَ الزَّمْرَ * تَهْوِي لِأَذْقَانِ النَّغْرِ^(٧)
 مِنْ جَذِبِ الأَوَى لَوْ نَرَى * إِلَيْهِ طَوْدًا لِأَنَّا طَرَى^(٨)
 صَعِبٌ إِذَا لَاقَى أَبْرَ * وَإِنْ هَفَا القَوْمُ وَقَرَّ
 أَوْ رَهَبُوا الأَمْرَ جَمَرَ * ثُمَّ تَسَامَى ففَغَرَ
 عَنِ شَقِيقِ ثُمَّ هَدَرَ * ثُمَّ تَنَاجَى نَخَطَرَ^(٩)
 بِذِي سَيْبٍ وَعُدْرَ * يَمِضُ أَطْرَافَ الوَبْرِ^(١٠)
 هَلْ لَكَ وَالْمَلَّ خَيْرٌ * فِيمَنْ إِذَا غَبَتَ حَضْرُ^(١١)
 أَوْ نَالِكَ القَوْمُ نَارَ * وَإِنْ رَأَى خَيْرًا شَكَرَ
 * أَوْ كَانَ تَقْصِيرَ عَدْرَ *

- (١) المِقْرُ : المرء . (٢) أَصْحَرَتْ : برزت الى الصحراء . ودبوا الخمر : مشوا مخنفين . والخمر : ما سترك من شجر أو بناء أو نحوه . (٣) الخمر والقوة . (٤) الضيق . (٥) كثر أبدي عن ناجديه ، وبسر : عبس . (٦) أى أحكمت فئله . (٧) جمع نغرة وهى نغرة النحر . (٨) الألوى : الشديد الخوصومة . (٩) اعوج وانثنى . (١٠) السيب : شعر الذنب والعرف والناصية ، والعذر جمع عذار . (١١) قصد لفظ هل الاستفهامية فأدخل عليها الألف واللام .

ولما عمل أبو نواس القصيدة التي أولها : * ومستعبد إخوانه بثرانه * بلغت
 الأمين ، فبعث إليه ، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاصُّ بَطْرِ أُمِّهِ
 العاهرة ، ويا مدعى ولاءِ حاءَ وحكم ! أتدري يا بن الخنء من توليت والى من ادعيت ؟
 الى الأُمِّ قبيلتين في اليمن ، علُوچ باغين . أنت تكتسب بشعرك أوساخ أیدی الناس اللثام ،
 وتقول : * ولا صاحب التاج المحجَّب في القصر * أما والله ما نلتَ مني شيئاً بعد ذلك
 أبداً ! فقال له سليمان بن أبي جعفر : إي والله ! نعم هو مع هذا من كبار الثنوية^(١) (وكان يُرمي
 بذلك) ، فقال له محمد الأمين : وهل يشهد عليه شاهد بشيء من ذلك ؟ فأناه سليمان بعدة
 نَفَرٍ ، فشهدوا عليه أنه شرب في يوم مطير فوضع قدحَه تحت السماء في المطر فوقع فيه
 المطر ، فقالوا له : ما تصنع بذلك ويحك ؟ قال : أتم ترعُمون أنه يتزل مع كل قطرة
 ملك ، فكم تراني أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما في القدح ، فغضب محمد ، وأمر به
 الى السجن . فذلك قول أبي نَواس :

ياربِّ إنَّ القومَ قد ظموني * وبلا اقرارٍ معطلٍ حبسوني
 وإلى الجحود بما عرفت خلافة * ربِّي إلیك بِكذبهم نَسبوني
 ما كان إلا الجريُّ في ميدانهم * في كَلِّ خِزْيِ والمجانةِ ديني
 لا العذر يُقبل لي ويفرق شاهدي * منهم ، ولا يرضون حلفَ يميني
 ما كان — لو يدرون — أولَ محباً * في دار منقصة ومزل هُونِ
 أما الأمينُ فلستُ أرجو دفعه * عني ، فمن لي اليوم بالمأمون
 فبلغت أبياتهُ المأمونَ ، فقال : والله لئن لحقته لأغنيته عني لا يؤمله . فمات قبل دخول
 المأمون بغداد .

لما وصلت الخلافة الى محمد الأمين وولى الفضل بن الربيع الوزارة ، تفرغ محمد
 للهو والصيد والنزهة ، وكان لا يخرج إلا لصيد أول نزهة . فخرج ذات يوم وقد أمر الجند

(١) الثنوية أصحاب الاثنين الأزليين وهم الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان ، بخلاف الجحوس
 فانهم قالوا بحدوث الظلام .

والقواد فركبوا، ولبس ثيابه وتقلد سيفه ، وأعدت الحَرَاقَات والزَّلَاجَاتُ فِي دِجَلَةَ ؛
فقال له اسماعيلُ بنُ صُبَيْحٍ - وكان كاتبَ سِرِّهِ - : يا أمير المؤمنين ان قوادك وجندك وعامة
رعيته قد خُبَّتْ نفوسُهُمْ ، وساءت ظنونُهُمْ ، وكبرَ عندهم ما يرون من احتجائكِ عنهم ،
فلو جلستَ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن في ذلك تسكيناً لهم ومراجعة لآمالهم !
بجلس في مجاسه وأذن للناس عامةً فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباءُ فخطبوا ،
والشعراءُ فأنشدوا ، فلم يكن أحد منهم يتعدى الى الاطناب والتطويل ، الا أمر بالسكوت
ومُنِعَ من القول .

وقام فيمن قام أبو نواس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء الشعراءُ أهل حجرٍ ومدَر ،
وإبلٍ ووصيفٍ للبقرِ وبيوتِ الشَّعَر ، قد جَفَّتْ أَلْفَاظُهُمْ ، وغَلُظَتْ معانيهم ، ليس لهم
بَصَرٌ بمدح الخلفاء ونَشْرِ مكارمهم ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى في إنشاده فليفعل ،
فأذن له فأنشده :

أيا دارها بالماء حتى تُلِينَهَا * فلن تُسكَمَ الصَّهْبَاءُ حتى تُهَيِّنَهَا
أُغْلِي بها حتى اذا ما ملكتها * أهنتُ لإكرام الخليل مَصُونَهَا
وصفراءَ قبل المَرْجِ بيضاءَ بعده * كأنَّ شعاعَ الشمسِ يَلْقَاك دُونَهَا
ترى العينَ تستعفيك من لمعانها * وتَحْسُرُ حتى ما تُقِلَّ جفونَهَا
تُزْوِعُ بنفسِ المرءِ عما يَسُوهُ * وَيُجْذِلُهُ أَلَا يَزَالُ قَرِينَهَا
كَأَنَّ بواقيتنا روا كد حَوْلَهَا * وَزُرُقُ سَنَانِيهِ تَدِيرُ عِيُونَهَا
وَسَمَطَاءَ حَلِّ الدهرِ منها بِنَجْوَةٍ * دَلَفَتْ إليها فاستلَّتْ جَبِينَهَا
كَأَنَّ حُلُولَ بَيْنِ أَكْثَافِ رَوْضَةٍ * إِذَا مَا سَلَبْنَاهَا مع الليلِ طِينَهَا

الى أن أكمل القصيدة . فقال له محمد : ألم أنهك عن شرب الخمر ! قال : بلى
يا أمير المؤمنين ، والله ما شربتها منذ نهيتني عنها ومنعتني من شربها ، وأنا الذى أقول :

(١) الحَرَاقَات : ضرب من السفن فيها مراعى نيران يرمى بها العدو في البحر .

أيها الرائح باللوم لوما * لا أذوق المدام الا شميمًا
 نالني بالسلام فيها إمام * لا أرى لي خلافه مستقيمًا
 فاصرفها الى يسواى فإني * لست الا على الحديث نديمًا
 كبرحظي منها إذا هي دارت * أن أراها وأن أشم النسيما
 فكأني وما أزيين منها * قعدى^(١) يحسن التحكيما
 كل عن حمليه السلاح الى الحر * ب فأوصى المطيق ألا يقيا

فتبسم محمد، وقال له : أحسنت ! وقام بعض الشعراء فأنشد :

ترقى في فضائله الامين * وزاياله المشاكل والقارين
 وأورق زهرة التقوى وعزرت * خلافته وصدقته الظنون
 تمس منابر الخلفاء منه * يد بخلاف طاعتها المنون
 يخاف الخوف صولته ويرجو * نداء الجود فهو له خدين

فقال عتدة ممن حضر : قد أوجز وأجاد، أكرم الله أمير المؤمنين ! فقال أبو نواس : أشعر
 منه يا أمير المؤمنين الذى يقول :

ألا يا خير من رأيت العيون * نظيرك لا يحس ولا يكون
 وفضلك لا يحسد ولا يجارى * ولا تحوى حيازته الظنون
 فانت نسج وحدك لا شبيه * نحاشيه عليك ولا خدين
 خلقت بلا مشاكلة لشيء * فانت الفوق والثقلان دون
 كأن الملك لم يك قبل شيئاً * الى أن قام بالملك الامين

قال : ففضله محمد وأحسن جائزته . ويقال : إنه قالها بديها .

(١) القعدى من الخواج : الذى يرى رأى القعدة الذين يرون التحكيم حقا ، غير أنهم قعدوا عن الخروج

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحَرَاقَةَ الى الشَّماسِيَّة، واصطَفَتْ له الخيل وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وحَمِلَتْ معه المطايحُ والخزائن . وكان ركوبه حَرَاقَةَ^(١) على مثال الأسد . فما رأى الناس منظراً كان أبهى ولا مسيراً كان أحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه، فقال :

سَخَّرَ اللهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا * لَمْ تَسْخَرْ لِصَاحِبِ الْمِحْرَابِ^(٢)
فَإِذَا مَا رَكَابُهُ سِرْنَ بَحْرًا * سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْتَ غَايِ
أَسَدًا بَاسِطًا ذِرَاعِيهِ يَعْدُو * أَهْرَتَ الشَّدَقِ كَالِخِ الْإِنْيَابِ^(٣)
لَا يَعْانِيهِ بِالْبَجَامِ وَلَا السَّوِ * طِ وَلَا تَعْمَزُ رِجْلُهُ فِي الرَّكَابِ
تَحْجِبُ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صَو * رة لَيْتَ تَمَرُّ مَرَّ السَّحَابِ
سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سَرَّتْ عَلَيْهِ * كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتِ زَوْرٍ وَمَنْسِيرٍ وَجَنَاحِ * بَيْنَ تَشُقُّ الْعُبَابِ بَعْدَ الْعُبَابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا سَ * تَعَجَّلُوهَا بِجَيْثَةِ وَذَهَابِ
بَارَكَ اللهُ لِلْأَمِينِ وَأَبْقَا * هَ وَأَبْقَى لَهُ رَدَاءَ الشَّبَابِ
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ * هَائِمِيٌّ مُوَفَّقٌ لِلصَّوَابِ

ويقال : ان هذا الشعر قاله أبو نواس في محمد ، وقد ركب حرقته الدافين ، فقال له شيخٌ الى جانبه : إتق الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ ، إن الله لم يسخر لصاحب المحراب الدافين ، وقد سخر له ما هو خير من الدافين ، فأى شئ تنكر من هذا ؟

قل ابن حبيب : كنت مع مؤنس بن عمران ، ونحن نريد الفضل بن الربيع ببغداد ، فقال مؤنس : لو دخلنا على أبي نواس في السجن فسلمنا عليه ! ففعلنا ، فقال أبو نواس

(١) وذلك أنه كان للأمين ثلاث من السفن المعروفة بالحراقات لركوبه خاصة ، وهي الليث والعقاب

والدلفين . (٢) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه بنى بيت المقدس .

(٣) أهرت الشدق : واسعه . وكالخ الأنياب : كأشرها .

لمؤنس: أين تريد؟ فقال: أريد أبا العباس الفضل بن الربيع، قال فبلغه رقعة أعطيكها، قال: نعم، فأعطاه رقعة فيها:

ما من يدٍ في الناس واجدة * كيد أبو العباس مؤلاها
 نام البغاة على مضاجعهم * وسرى الى نفسي فأحياها
 قد كنت خفتك ثم آمنى * من أن أخافك خوفك الله
 فعموت عني عنو مقدر * وجبت له نقم فألغاها

فكانت هذه الأبيات سبب خروجه من السجن .

انصرف أبو نواس من بعض المواخير سكران، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة، فدخل فقام في الصف الأول، فقرأ الإمام: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فقال أبو نواس من خلفه: لبيك، فلما قضيت الصلاة لبّوه وقالوا له: يا كافر تشهد عليك بالكفر ودفعوه. فبلغ خبره الرشيد، فدعا له حمدويه صاحب الزندقة، وأحضر أبو نواس فقال له حمدويه: يا أمير المؤمنين، إن هذا ماجن، وليس هو بحيث يُظنّ، فقال له الرشيد: ويحك! إنه وقع في نقسى منه شيء، فامتحنه. قال: نخط له صورة ماني، وقال له: أبصق عليها، فأهوى أبو نواس بفيه ليقىء عليها، فقال له حمدويه: قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ماجن. قال: ودعا برجل من الزنادقة مشهور، وقال له: ابصق عليها، فقال: وما معنى البصاق! إنه من أخلاق الشرك ولا أفعله، وأبى أن يفعل. فقال الرشيد لبعض خدم القصر: امض بهذا (يعني أبو نواس) الى السندي، فقل له: أدبه وأطلقه،

(١) لبوه: أخذوا بلبيه، وهو موضع القلادة في الصدر. (٢) هو ماني بن فاتك الحكيم، الذي ظهر في زمن سابور ذي الاكثاف بن أزدشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى عليه السلام. اتخذ له ديناً بين المجوسية والصراية. وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق، وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم، أن الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور والأخر ظلمة، وأنهما أزيلان لم يزالا ولن يزالا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم، وأنهما لا يزالان قوتين حساستين سميعتين بصيرتين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادتان، وفي الحيز متعاذيتان تحاذى الشخص والظل.

(انظر الملل والنحل للشهرستاني)

وبهذا (يعني الزنديق) فقل له : احبسك قبلك الى أن تستتيبه ، فان تاب وإلا قتلناه .
 قال : فمضى بهما الخادم ، فلما صار في آخر الصحن ، قال أبو نواس للخادم : الى أين
 تذهب بنا ؟ قال : الى السندي ؛ قال : فما تقول له ؟ قال : أقول له : يحبسك قبلك
 حتى تُستتاب أو تُقتل ، ويؤدب هذا ويطلقه . قال : فرفع أبو نواس يده ولطمه ، وقال
 له : يا ابن الزانية ، من الساعة نسيت ! . وبصر بهم الرشيد ، فقال : ردوهم ؛ فقال
 لأبي نواس : ما هذا الذي رأيتُ منك ؟ قال : أراد والله أن يهلكني ويطرحني بحيث
 أنسى أبدا أو أبقى مخلدا ، سألته يا أمير المؤمنين عن الرسالة ، فاذا هو قد غيرها ؛ فضحك
 من أبي نواس وأطلقه .

قال رزّين الكاتب : اجتمعنا يوما أنا وأبو نواس وعلي بن الخليل في سوق الكرخ ،
 وكنا نجتمع وتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار وتحدث بها . فقال أبو نواس : أدبر من
 كان في نفسي وكان أسرع الخلق في طاعتي ، فما أدري ما أحتمل له ؟ فقال علي بن الخليل
 يمازحه : يا أبا علي ، سلّ شيخك وأستاذك يعطّقه عليك ؛ فقال له أبو نواس : من تعني ؟
 قال : من أنت في طاعته ليك ونهارك (يعني ابليس) فان لم يقض لك هذه الحاجة ،
 فما ينبغي لك أن تسأله مسألة ولا أن تُقر عينه بمعصية ؛ فقال : هو أسدُّ رأيه من أن يُجَلَّ
 بي أو يُخدّني ؛ واتقضى مجلسنا ذلك . فلما كان بعد أيام اجتمعنا في ذلك الموضع ، وأخذنا
 في أحاديثنا ، فضحك أبو نواس ؛ فقلنا له : ما أضحكك ؟ فقال : ذكرتُ قول علي بن
 الخليل يومئذ : سلّ شيخك يعطّفه عليك . حينئذ قد سأله يا أبا الحسن فقضى الحاجة ،
 وما مضت والله نائمة حتى أتاني من غير أن أبعث اليه ومن غير أن أستريه ، فعاتبني
 واسترضاني ، وكان الغضب منه والتجني ، وأحسب الشيخ (يعني ابليس) كان يتسمع علينا
 في وقت كلامنا ؛ وقد قلت أبيانا في ذلك ؛ فقلنا : هاتما ، فأشد :

لما جفاني الحبيبُ وامتنعتُ * عني الرسالاتُ منه والخبرُ

واشتد شوقي فكاد يقتلني * ذكر حبيبي والهَمْ والفِكرُ

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له * في حَلوةِ والدموعِ تتحدرُ :
 أما ترى كيف قد بُدِيتُ وقد * أفرحَ جَفْنِي البكاءُ والسهرُ ؟
 إن أنت لم تُلقِ لي المودةَ في * صدرِ حبيبي وأنت مقتدرُ
 لا قلتُ شعرا ولا سمعتُ غِنًا * ولا جرى في مفاصلي السُّكْرُ
 ولا آزالُ القرآنَ أدْرُسُهُ * أروح في دريسه وأبتكرُ
 وألزم الصومَ والصلاةَ ولا * أزال دهرى بالخير آتمرُ
 فما مضت بعد ذلك ثالثةٌ * حتى أتاني الحبيبُ يعتذرُ
 ويطلب الودَّ والوصالَ على * أفضل ما كان قبلَ يهجرُ
 فيألها مِنَّةً لقد عظمتُ * عندى لإبليس ما لها خَطَرُ

(١)

لما قدم أبو نواس على الخَصِيبِ بمصر أذن له وعنده جماعة من الشعراء فاستنشدته ، فقال له : هنا جماعة من الشعراء هم أقدم مني وأسنّ ، فأذن لهم في الإنشاد ، فان كان شعري نظير أشعارهم أنشدتُ وإلا أمسكتُ ، فاستنشدته الخَصِيبُ ، فأنشدوا مديحا في الخَصِيبِ ، فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعر أبي نواس ، فنبسّم أبو نواس ثم قال : أنشدك أيها الأمير قصيدةً هي بمنزلة عصا موسى لتلقف ما يافكون؟ قال هات ، فأنشده قصيدته التي أولها :
 أجارةً يبتئنا أبوكَ غَيُورُ * وميسورُ ما يُرجى لديكَ عَسِيرُ
 حتى أتى على آخرها ، فانفضّ الشعراء من حوله .

ويقال : إن أبا نواس كان خرج الى مصر في زِي الشُّطَّارِ وتقطيعهم بِطُرّةٍ قد صَفَّفَها وكَيَّنَ واسعين وذيل مجرور ونعل مطبق ، وكان خروجه مع سليمان بن أبي سهل ، فلما دخل على الخَصِيبِ بهذه الصورة ازدراه واستخفّ به ، وكان تُورد عليه كتبُ الحِلَّةِ من

(١) هو الخَصِيبُ بن عبد الحميد العجمي أمير مصر على الخراج . واليه تنسب منية الخَصِيبِ بالوجه القليل وليس بابن صاحب نهر أبي الخَصِيبِ ، ذلك عبد للنصور يقال له مرزوق . وكان هذا رئيسا في أراضيه .
 فانقل الى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازي ، ثم انتقل الى الامارة .
 (٢) الشُّطَّارُ : جمع شاطر وهو من أعيان أهله خبيثا .

باب السلطان، ووردت كتب أبي نواس فيها ققرأها ولم يستشده، فانصرف مهموما .

وجاء أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصيب، فاستحضره فأنشده :

أجارةً يَتَيْنَا أبوكَ غيورُ * وميسورُ ما يُرَجَى لَدَيْكَ عَسِيرُ
 (١) فان كنتِ لا خِلمًا ولا أنتِ زوجةٌ * فلا بِرَحْتِ دُونِي عَلَيْكَ سُتُورُ
 وجاورتُ قوما لا تراوَرُ بينهم * ولا وصلَ الآ أن يكونَ نُسُورُ
 فما أنا بالمشغوفِ ضربةً لازِب * ولا كلُّ سلطانٍ على قَدِير
 وآتى لَطْرَفِ العَيْنِ بالعينِ زاجرُ * فقد كدتُ لا يَخْفَى على ضميرِ
 كما نظرتُ والريحُ ساكنةٌ لها * عَقَابُ بَارساغِ اليدينِ نُدُورُ
 (٢) طوتُ ليلتينِ القوتَ عن ذى ضرورةٍ * أزيغِبَ لم يَنْبُتْ عليه شَكِيرُ
 (٣) فأوفتُ على عِلاءٍ حينَ بدا لها * من الشمسِ قرنٌ والضربُ يمورُ
 (٤) تَقَلَّبَ طرفًا في حِجَابِجَى مغارةٍ * من الرأسِ لم يدخلِ عليه دُرُورُ
 (٥)

ولما قال أبو نواس :

تقول التي من بيتها خَفَّ مركبي : * عزيزٌ علينا أن نراك تَسِيرُ
 أما دون مصيرٍ للغنى متطلبٌ ؟ * بلى إن أسباب الغنى لكثير
 فقلتُ لها واستعجلتها بوادرُ * جرتُ بَحْرَى في جَرْمِهنِ عَيبُ
 ذَرِينِي أَكْثَرَ حاسدِكِ بِرحلةٍ * إلى بَلَدٍ فِيهِ الخَصِيبُ أميرُ

قال له الخصيب : إذا يكثرُ حسادها وتبلغ أملها، وأمر له بالف دينار .

(١) الخلم : الصديق . (٢) الندور : خروج العظم من موضعه أو زواله وفي البيت من سوء التركيب ما فيه ، والتقدير فيه كما نظرت عقاب لها بأرساغ اليدين ندور والريح ساكنة . (٣) أزيغب تصغير أزيغب وهو الفرخ ذوالزغب أى الريش الدقيق اللين . والشكير : الريش أول ما ينبت . (٤) الضريب : الثلج أو الجليد . ويمور : يطوك أو يجي . ويذهب أو يسيل على وجه الأرض . (٥) الهجاءان مثنى هجاء وهو العظم الذى ينبت عليه شعر الحاجب . والدرور : ما يذور في العين من الدواء .

وتامها :

اذا لم تَزُرْ أَرْضَ الخَصِيبِ رِكَابُنَا * فإيَّ قَتَى بَعْدَ الخَصِيبِ تَزُورُ !
 فما جازَه جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ * وَلَكِنْ يَصِيرُ الجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ
 قَتَى يَشْتَرِي حَسَنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ * وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَائِرَاتِ تَدُورُ
 وَلَمْ تَرَ عَيْنِي سُوْدَدًا مِثْلَ سُوْدِدِ * يَحِلُّ أَبُو نَصْرِيرَ بِهِ وَيَسِيرُ
 وَأَطْرَقَ حَيَاتِ البِلَادِ حَلِيَّةِ * خَصِيْبِيَّةِ التَّصْمِيمِ حِينَ تَسُورُ^(١)
 سَمَوْتُ لِأَهْلِ الجُورِ فِي حَالِ أَمْنِهِمْ * فَاصْحَوْا وَكُلُّ فِي الوَثَاقِ أُسِيرُ
 إِذَا قَامَ غَتَّتَهُ عَلَى السَّاقِ حَلِيَّةٌ * لَهَا خَطُّوهُ عِنْدَ القِيَامِ قَصِيرُ
 فَمَنْ يَكُ أَمْسَى جَاهِلًا بِمِقَالَتِي * فَانْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرُ^(٢)
 فَمَا زِلْتُ تُؤَلِّيه النَّصِيحَةَ يَافِعَا * إِلَى أَنْ بَدَأَ فِي العَارِضِينَ قَتِيرُ
 إِذَا غَالَهُ أَمْرٌ نَاقِمًا كَفَيْتَهُ * وَإِنَّمَا عَلَيْهِ بِالكِفَاءِ تُسِيرُ
 إِلَيْكَ رَمَتْ بِالقَوْمِ هُوجٌ كَأَنَّمَا * جَمَاجِمَهَا تَحْتَ الرِّحَالِ قَبُورُ
 رَحَلْنَا بِنَا مِنْ عَقْرَقُوفٍ وَقَدْ بَدَأَ * مِنْ الصَّبْحِ مَفْتُوقُ الأَدِيمِ شَهِيرُ
 فَمَا تَجِدْتُ بِالْمَاءِ حَتَّى رَأَيْتُهَا * مَعَ الشَّمْسِ فِي عَيْنِي أَبَاغٌ تَغُورُ^(٣)
 وَعُمَّرْنَا مِنْ مَاءِ النَّقِيبِ بِشَرِيَّةِ * وَقَدْ حَانَ مِنْ دَيْكَ الصَّبَاحِ زَمِيرُ
 وَوَأَقَيْنَ إِشْرَاقًا كَأَنَّسَ تَدْمِي * وَهَنَ إِلَى رُغْنِ المَدْحَنِ صُورُ^(٤)
 يُؤْمِنُ أَهْلُ الغُوطَيْنِ كَأَنَّمَا * لَهَا عِنْدَ أَهْلِ الغُوطَيْنِ نُورُ
 وَأَصْبَحْنَا بِالجُولَانِ يَرْضَعْنَ صَخْرَهَا * وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَجْرَاحِنَ شَطُورُ
 وَقَاسَيْنَ لَيْلًا دُونَ بَيْسَانَ لَمْ يَكِدْ * سَنَّا صَبِيحَةَ لِلنَّاطِرِينَ نِيرُ^(٥)
 وَأَصْبَحْنَا قَدْ فُوزْنَا مِنْ نَهْرِ فَطْرِيسَ * وَهَنَ عَنِ البَيْتِ المَقْدَسِ زُورُ^(٦)

(١) تسور : تب . (٢) القنير : الشيب . (٣) عقرقوف : اسم موضع .

(٤) نجدت : عرقت .

(٥) صور : مائلات . (٦) يرضعن : يكسرن . (٧) زور : جمع زورا ، بمعنى مائلة .

طوالب بالرُّبَّانِ غرة هاشم * وفي القَرَمَا من حَاجِهِن شُقُور^(١)
ولما أتت فسطاط مصر أجارها * على ركبها أن لا تزال مجيرُ
من القوم بَسَامُ كَأَن جبينه * سَنَا الفَجْرَ يَسْرِي ضوؤه وينيرُ
زها بالخصيب السيف والريح في الوَعَى * وفي السَّلْم يزهو منبر وسريرُ
جواد إذا الأيدي كففت عن الندى * ومن دون عورات النساء غيورُ
له سَلَفٌ في الأعجمين كأنهم * إذا استؤذنوا يوم السلام بدورُ
وإني جدير إذ بلغتك بالمنى * وأنت بما أملت منك جديرُ
فإن توليتني منك الجميل فأهله * وإلا فإني عاذرٌ وشكُورُ

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوكة ثلاثة ما منهم * إن حصَّلُوا إلا أغرَّ قَربِيعُ
ساد الربيعُ وساد فضلٌ بعده * وعالتُ بعباسٍ الكريم فروعُ
عباسٌ عباسٌ إذا احتدم الوَعَى * والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ

وقال يعاتب عمر الوراق :

يا من جفاني وملا * نسبت أهلاً وسهلاً
ومات مرحبُ لما * رأيت مالى قلاً
اني أظنك تحيى * فيما فعلت القيرلى^(٢)
تلقاه في الشريئناى * وفي الرخا يتدللى

وله في عزة النفس :

ومستعبد إخوانه يثرأته * لبست له كبراً أبر على الكبر
إذا ضمّني يوماً وإياه محفلاً * يرى جانبي وعراً يزيد على الوعر

(١) جمع شقر وهو الأمر المنتصق بالقلب المهم له .

(٢) القرلى : كان لحمير وكان لا يسمع لأحد شيئاً إلا جاء إليه ودخله ولا يخلف عن طعام لأحد ، وإذا سمع

بخصوصة لم يقرب ذلك ، فضرب به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء يوق عليه : القرلى .

أخالفه في شكله وأجره * على المنطق المبرور والنظر الشَّرِير
وقد زادني تيمًا على الناس أني * أراني أغناهم وإن كنتُ ذا فقير
فوالله لا يُبدي لساني بلجاجة * إلى أحد حتى أُغيب في قبري
فلا يطعمن في ذلك مني طامع * ولا صاحبُ التاج المحجَّب في القصر
فلو لم أَرِثُ نَخْرًا لكانت صيأتي * عن الناس حسبي من سؤالي من الفخر
دخل أبو نواس بعد ما نسك على قوم من إخوانه عندهم شرابٌ ومغنٌ، فعرضوا عليه
الجلوس فأبى، وأخذ الدواة والقرطاس وكتب :

إذا لم تنه نفسك عن هواها * وتُحسِّن صونها فإليك عني
فإني قد شيعتُ من المعاصي * ومن إدامتها وشيعن مني
ومن أسوا وأقبح من لبيب * يرى متطرزا في مثل سني

ومن شعر أبي نواس :

عنى المصلى وأقوت الكُتُب * مني فلمز بدان فاللهب
منازلٌ قد عمَّرتُها يفعًا * حتى بدا في عذارى الشهب
في فتية كالسيوف هزهم * شرح شباب وزانهم أدب
ثم أراب الزمان فاقسموا * أيدى سبًا في البلاد فانشعبا
لن يُخلف الدهر مثلهم أبدا * على هيات شأهم عجب
لما تيقنت أن روحهم * ليس لها ما حييت منقلب
أبليت صبرا لم يُيله أحد * واقسمتني مآرب شعب
لذلك أتى إذا رزئتُ أخا * فليس يئني وبينه نسب
فقطربل مرعي ولي بقري ال * كرخ مصيف وأمي العنب
ترضعني درها وتلحفني * بطلها والهجير يلتب
إذا ننته الغصون جلتي * فينان^(١) ما في أديمه جرب

(١) الفينان : الغل الكثيف، والجرب، أي لا خلل فيه .

تَبَيَّتْ فِي مَأْتَمِ حَمَائِمِهِ * كَمَا تَرَأَى الْفَوَاقِدُ السُّلْبُ
يَهْبُ شَوْقِي وَشَوْقُهُنَّ مَعًا * كَأَنَّمَا يَسْتَخْفِنَا الطَّرْبُ
فَقَمْتُ أَحْبُو إِلَى الرِّضَاعِ كَمَا * تَحَامَلُ الْوَالِدُ مَسَّهُ السَّغْبُ
حَتَّى تَخْرِتُ بِنْتَ دَسَكْرَةَ * قَدْ عَجَمَتْهَا السَّنُونُ وَالْحَقْبُ
هَتَكَتْ عَنْهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكُرًا * مَهْلَهُلُ النَّسِجِ مَالَهُ هُدْبُ
مَنْ تَسْجَحُ حَرْقَاءُ لَا تَسْتَدْلُهَا * أَخِيَّةٌ فِي الشَّرَى وَلَا طَنْبُ
ثُمَّ تَوَجَّاتُ خَضْرَاهَا بِسَبَابِهَا * بِإِسْنِي بَخَاءَتِ كَأَنَّهَا هَبُّ
فَاسْتَوْسَقَ الشَّرْبُ لِلنَّدَامِ وَأَجِدُ * رَاهَا عَلَيْنَا الْجُنَيْنُ وَالغَرْبُ^(١)
أَقُولُ لِمَا تَحَاكَا شَبَابًا * أَيُّهُمَا لِلتَّشَابِهِ الذَّهَبُ
هُمَا سَوَاءٌ وَقَرُوقُ بَيْنَهُمَا * أَنَّهُمَا جَامِدٌ وَمَنْسِكِبُ
مَلَسٌ وَأَمَّا هَا مُحْفَرَةٌ * صُورٌ فِيهَا الْقُسُوسُ وَالصُّلْبُ
يَتَلَوْنَ إِنْجِيلَهُمْ وَفَوْقَهُمْ * سَمَاءٌ نَحْمِرُ نَجْمُومَهَا حَبُّ
كَأَنَّهَا لَوْلُؤُ تَبَدَّدَهُ * أَيَّدِي عَدَارَى أَفْضَى بِهَا اللَّعْبُ

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأيمن من شرب الخمر، وذلك أن المأمون أمر الخطباء
بخراسان أن يعيبوا الأيمن بشعر أبي نواس ويقولوا هو جلسه ونديمه وينشدوا على المنابر
شعره، فمنعه الأيمن فقال :

غَنَّا بِالطَّلُولِ كَيْفَ بَلَيْنَا * وَأَسْقِنَا نَعِطِكَ النَّوَاءَ الثَّمِينَا
مَنْ سَلَّافٍ كَأَنَّهُ كُلُّ طَيْبٍ * يَتَمَنَّى مَخْبِرٌ أَنْ يَكُونَا
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا * وَتَبَقَّى لُبَّابَهَا الْمَكْنُونَا
ثُمَّ تُجَبَّتْ فَاسْتَضَحَكَتْ عَنْ لَأَلٍ * لَوْ تَجَمَّرَ فِي يَدٍ لَأَقْتِنِينَا
وَإِذَا مَا لَمَسَهَا فَهَبَاءٌ * تَمْنَعُ الْكَفِّ مَا يُبَدِّحُ الْعِيُونَا

(١) الغرب : الذهب .

في كؤوس كأنهن نجوم * جاريات بروجها أيدينا
 طالعات من السقاة علينا * فاذا ما غربن يغربن فينا
 لو ترى الشرب حولها من بعيد * قلت قوم من قرة يضلونا
 وغزال يديرها بنان * ناعمت يزيدها العسر لينا
 ذاك عيش لو دام لي غير أني * عفته مكرها وخفت الأيما
 أدرك الكأس حان أن تسقيننا * وأنقر العود إنه يلهينا
 ودع الذكر للطلول إذا ما * دارت الكأس يسرة ويمينا

ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر:

غرد الديك الصدوح * فاسقني طاب الصبوح
 اسقني حتى تراني * حسنا عندي القبيح
 قهوة تذكر نوحا * حين شاد الفلك نوح
 نحن نخفيها ويأبى * طيب عرف فيفوح
 فكان القوم نهبي * بينهم مسك ذبيح
 أنا في دنيا من العب * اس أغدو وأروح
 هاشمي عبدلي * عنده يغلو المديح
 علم الجود كتاب * بين عينيه يلوح
 كل جور يا أميري * ما خلا جودك ريح
 إنما أنت عطايا * أبدا ما تستريح
 يح صوت المال مما * منك يشكو ويصبح
 ما لهذا أحد فو * ق يديه أو نصيح
 جدت بالأموال حتى * قيل ما هذا صحيح
 فهو بالمال جواد * وهو بالعرض شحيح
 صور الجود مثالا * وله العباس روح

قال محمد بن عيينة : اقيمت أبا نُوَاسٍ بعسكرٍ مُكْرَمٍ فقلت له : أحب أن تشدني من

شعرك شيئاً تَضَنَّ به على غيري ، فأنتشدي :

يَكْفِي الكَرِيمَ مِنَ الكَلَا * مَ لَمَنْ يَحَادِثُهُ أَقْلُهُ
والشئُ شئٌ لَمْ يَزَلْ * بَادِقَهُ يَأْتِي أَجَلُهُ
إِنْ لَمْ يُصَبِّكَ مِنَ الكَرِيرِ * سَمِ الحُرِّ وَابِلُهُ فَطَلُّهُ
يُبِيدِي مَكَارِمَهُ كَمَا * يُبِيدِي فِرْنَدَ السَّيْفِ سَلَّهُ
وَالنَّذْلُ يُوقِعُ نَفْسَهُ * مَتَعَمَّداً فَيَا يُذِلُّهُ
وَالحُرُّ يَكْرِمُ نَفْسَهُ * بِالصَّفْحِ عَمَّنْ لَا يُجِلُّهُ

وقال أبو نواس يمدح الأمين :

صَبَبْتُ عَلَى الأَمِينِ ثِيَابَ مَدْحِي * فَكُلُّ النِّاسِ حَسَنٌ وَأَسْتَجَادَا
وَلَوْلَا فَضْلُهُ مَا جَادَ شِعْرِي * وَلَا أَعْطَيْتِي النِّفْطَنُ القِيَادَا
وَقَالُوا قَدْ أَجَدْتَ فَقُلْتُ إِنِّي * وَجَدْتُ القَوْلَ يَمَكِّنِي بَخَادَا

ومن نغمياته :

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بِسُحْرَةِ فَارْتَاخَا * وَأَمَلَهُ دَبْكُ الصَّبَاحِ صِيَاخَا
أَوْقَى عَلَى شَرَفِ الجِدَارِ بِسُدْفَةٍ * غَرْدًا يَصْفَقُ بِالجَنَاحِ جَنَاحَا
فَادِرٌ صَبَاحَكَ بِالصَّبُوحِ وَلَا تَكُنْ * كَمُسُوفِينَ غَدَّوْا عَلَيْكَ شِحَاخَا
إِنْ الصَّبُوحَ جَلَاءَ كُلِّ نَمْرٍ * بَدَرْتُ يَدَاهُ بِكَاسِهِ الإِصْبَاحَا
وَحَدِيدِ لَذَاتِ مَعَلِّ صَاحِبِ * تَقَاتُ مِنْهُ فَكَاهَةٌ وَمَزَاخَا
نَهَيْتُهُ وَاللَّيْلُ مَلْتَبَسٌ بِهِ * وَأَزْحَتْ عَنْهُ نُعَاسُهُ فَآزَاخَا
قَالَ ابْنُ المِصْبَاحِ ، قُلْتُ لَهُ أَتَيْدُ * حَسَنِي وَحَسْبُكَ ضَوْوُهَا مِصْبَاحَا
فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزَّجَاجَةِ شَرْبَةً * كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاخَا

من قهوةٍ جاءتكِ قبل مزاجِها * عطُلاً فألبسها المزاجُ وشاحاً
شكَّ الزَّالُّ فؤادها فكأنها * أهدتُ اليك بريحتها تُفاحاً
صفراء تفرسُ النفوسَ فلا ترى * منها بهنَّ سوى السُّبَاتِ جراحاً

ومنها :

لا تَبِكِ لَيْلَى ولا تطربِ الى هند * وأشربُ على الورد من حمراء كالوردِ
كأساً اذا انحدرتُ في حلقِ شاربيها * أجدته حمرتها في العين وانحدتُ
فانلمر ياقوتهُ والكأسُ لؤلؤةٌ * من كف لؤلؤة ممشوقة القدِّ
تسقيك من طَرفِها نمرًا ومن يدها * نمرًا فما لك من سكرين من بدِّ
لى نشوتانٍ وللنَّدمان واحدةٌ * شيءٌ خُصِّصتُ به من دونهم وخذى

كان الأصمعي يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة :

أما ترى الشمسَ حَلَّتِ الحَمَلَا * وطاب وقتُ الزمانِ واعتدلاً
وغنَّتِ الطيرُ بعد عَجْمَتِها * واستوفتِ الخمرُ حَوْلَهَا كَمَلَا
واكتسبتِ الأرضُ من زخارفِها * وشئى ثيابِ تخالهِ حُلَلَا
فاشربُ على جِدَّةِ الزمانِ فقد * أصبح وجهُ الزمانِ مقتبلاً
من قهوةٍ تُذهِبُ الهمومَ فلا * أرهبُ فيها الملامَ والعدلاً
كِرْخِيَّةٍ تتركُ الطويلَ من العيد * ش قصيراً وتبسُّطِ الأملَا
تلمعُ لمعَ السرابِ في قَدَحِ الـ * تقوم اذا ما حبابُها اتصلا
يقول صرَّف اذا مزجتُ له * من لم يكن للكثير محتملا
فَسَقِّ هذا بقدر طاقته * وأحملُ على ذا بقدر ما احتملا
عُجْنًا بشيئين من طبائِها * حسنٍ وطيبٍ ترى به المشلا

كان أبو نواس لا يُسْتَشَدُّ شيئاً من شعره إلا أنشد هذه القصيدة :

وَحَيْمَةَ نَاطُورٍ بِرَأْسِ مُنِيفَةٍ * تَهْمُ يَدًا مِنْ رَامِهَا بَزَائِلِ (٢)
 إِذَا عَارَضَتْهَا الشَّمْسُ فَأَنَّ ظِلَّهَا * وَإِنْ وَاجَهَتْهَا آذَنْتُ بِدُخُوبِ
 حَطَطْنَا بِهَا الْأَنْقَالَ فَلَ هَيِّيرَةٍ * عَبُورِيَّةٌ تُدَكِّي بِغَيْرِ فَيْئِيلِ (٣)
 تَأْتَتْ قَلِيلًا ثُمَّ فَاءَتْ بِمَذْقَةٍ * مِنْ الظِّلِّ فِي رَثِّ الْأَبَاءِ صَائِيلِ (٤)
 كَأَنَّا لَدَيْهَا بَيْنَ عِطْفِي نَعَامَةٍ * جَفَا زورُهَا عَنْ مَبْرَكٍ وَمَقِيلِ
 حَلَبْتُ لِأَصْحَابِي بِهَا دِرَّةَ الصَّبَا * بِصَهْبَاءَ مِنْ مَاءِ الكَرُومِ سُمُولِ
 إِذَا مَا أَنْتَ دُونَ اللَّهْيَةِ مِنَ الْفَتَى * دَعَا هُمُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيلِ
 فَلَمَّا تَوَقَّى الشَّمْسَ جَنَحَ مِنَ الدُّجَى * تَصَابَيْتُ وَأَسْتَجَمْتُ غَيْرَ جَمِيلِ
 وَعَاطَيْتُ مِنْ أَهْوَى الْحَدِيثِ كَمَا بَدَا * وَذَلَّتْ صَعْبًا كَانَ غَيْرَ ذَلِيلِ
 فَعَنِّي وَقَدْ وَسَدْتُ يُسْرَى خَدَّهُ * أَلَا رَبِّمَا طَالِبْتُ غَيْرَ مُنِيلِ
 وَأَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِحَقْوِي مُسَاعِدِ * وَإِنْ كَانَ أَدْنَى صَاحِبِ وَخِيلِ
 وَأَصْبَحْتُ أَلْحَى السُّكْرَ وَالسُّكْرُ حَسِينِ * أَلَا رَبِّ إِحْسَانٍ عَلَيْكَ ثَقِيلِ
 كَفَنِي حَزَنًا أَنْ الْجَوَادَ مَقْتَرِ * عَلَيْهِ وَلَا مَعْرُوفَ عِنْدَ بَجِيلِ
 سَأَبِغِي الْغَنَى إِمَّا جَلِيسَ خَلِيفَةٍ * يَقُومُ سِوَاءَ أَوْ مَخِيفِ سَبِيلِ
 بِكُلِّ فِتْنَى لَا يُسْتَطَارُ جَنَانُهُ * إِذَا نَوَّهَ الرَّحْفَانَ بِاسْمِ قَيْبِيلِ
 لَنْخَمِسَ مَالَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ * أُنْحَى بِطَنَةِ اللَّطِيَّاتِ أَكُولِ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ عَوْنٌ عَلَى النَّدَى * وَليْسَ جِوَادٌ مَقْتَرٌ كَبَخِيلِ

(١) الناطور : حافظ النخل والكرم والزروع وفي البارع : الناطر والناطور بالطاء المهملة حافظ الزرع ، من كلام أهل السواد وليس بعربي محض . (٢) الزليل مصدر كالزلل . (٣) أى منهزمى هاجرة ، وعبورية نسبة الى الشعري العبور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) يعنى الشمس ، أى توقفت في الجوع عند زوالها . وقامت بمذقة ، أى دخلت عليهم من تلك الخيمة الخلقفة التى ثبتت على الأباه الضعيف من القصب الرث فلم تقو الشمس عليهم لم تمنعهم الخيمة بسكوقى فيصير ظلا ولكنه شمس وظل ، فشبهت بالمذوق من اللبن ، أى المنزوع .

فإن استريد أنشد هذه القصيدة الأخرى :

كان الشباب مطية الجهل * ومحسن الضحكات والهزل
 كان الجمال إذا أردت به * ومشيت أخطر صيت النعل
 كان البليغ إذا نطقت به * وأصاحت الآذان للملي
 كان المشفع في مآربه * عند الفتاة ومدرك التبيل
 والآمري حتى إذا عزمت * نفسي أعان يدي بالفعيل
 فالآن صرت إلى مقاربة * وحططت عن ظهر الصبارحلي
 والراح أهواها وإن رزأت * بلغ المعاش وقالت فضلي
 صفراء مجدها مرازبها * جلت عن النظراء والمثيل
 ذخرت لآدم قبل خلقته * فتقدمته بحظوة القبيل
 فأناك شيء لا تلاميسه * إلا بحسن غيرزة العقل
 فترود منها العين في بشر * حر الصفيحة ناصع سهل
 فاذا علاها الماء ألبسها * حبيبا شبيهة جلاجل الجبل
 حتى إذا سكنت جوامعها * خطت بمثل أكارع النمل
 خطين من شتى ومجتمع * غفل من الإعجام والشكل
 فاعذر أخاك فإنه رجل * مرنت مسامعه على العدل

ومن طيب شعره، والشرط الأول من القصيدة لفظ ابن الدمينية :

أعاذل ما على وجهي قوم * ولا عرضي لأول من يسوم
 يفضني على الفتيان أنى * أبيت فلا ألام ولا ألوم
 أعاذل إن يكن برداي رثا * فلا يعدمك بينهما كريم
 شققت من الصبا واشتق منى * كما اشتقت من الكرم الكروم
 فلست أسوم للذات نفسي * مياومة كما دفع الغريم

ومتصلٍ بأسباب المعالي * له في كل مكرمةٍ قديمٌ
 رفعتُ له النداءَ بقم نخدُها * وقد أخذت مطالعها النجومُ
 بتفديتهِ تزال النفسُ فيها * وتتمنن الخؤولةُ والعمومُ
 فقام وقتٌ من أخوينِ هاجا * على طربٍ وليهما بهيمُ
 أجز الرِّق وهو يحتر رجلا * يحور به التعاسُ ويستقيمُ
 سَلِ النَّدمان ما أولتهِ منها * وسلها ما احتوى منها الكريمُ
 كلا الشخصينِ متصِفٌ ولكن * قضت وطراً وذا منها سقيمُ

وقال :

إني صرفتُ الهوى الى قَرير * لم تتذله العيونُ بالنظرِ
 اذا تأملتَه تعاطمك آل * بإقرار أنه من البشرِ

ومن قـوله :

يا شقيقَ النفسِ من حَكَم * نمتَ عن ليلَى ولم أتم
 فأسقيني البكرَ التي آختمرتُ * بنخمار الشيبِ في الرِّحمِ
 نمتُ أنصاتَ الشبابِ لها * بعد ما جازتُ مدى الحَرمِ
 فهمي لليومِ التي بزلتُ * وهي تَربُ الدهرِ في القَدمِ
 عَنقتُ حتى لو أتصلتُ * بلسانِ ناطقٍ وقَمِ
 لأحبتُ في القومِ ماثلةً * ثم قصتُ قصَّةَ الأُمِ
 فرعتها بالمزاجِ يَدُ * خُلقتُ للسيفِ والقلمِ
 في نَدامى سادَةِ زُهَير * أخذوا اللذاتِ من أَمِ
 فتمشَّتُ في مفاصلهم * كتمشَّى البُرءِ في السَّقمِ
 فعلتُ في البيتِ اذ مُزجتُ * مثلَ فعلِ الصبحِ في الظُّلمِ
 فاهتدى سارى الظلامِ بها * كاهتداءِ السَّفَرِ بالعلمِ

ومن طَرْدِيَّاتِ أَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ الْكَلْبِ :

أَنَعْتُ كَلْبًا أَهْلُهُ مِنْ كَدِّهِ * قَدْ سَعِدْتُ جُدُودَهُمْ بِجَدِّهِ
فَكُلُّ خَيْرٍ عِنْدَهُمْ مِنْ عِنْدِهِ * وَكُلُّ رِفْدٍ نَالَهُمْ مِنْ رِفْدِهِ
يَظَلُّ مَوْلَاهُ لَهُ كَعَبْدِهِ * بَيْتُ أَدْنَى صَاحِبٍ مِنْ مَهْدِهِ
وَإِنْ عَرَى جَلَّاهُ بِبُرْدِهِ * ذَا غُرَّةٍ مَحْجَّلاً بِزِنْدِهِ
تَلَذُّ مِنْهُ الْعَيْنُ حَسْنَ قَدِّهِ * يَا حُسْنَ شِدْقِيهِ وَطَوَّلَ قَدِّهِ
تَلَقَى الطَّبِيبُ عَتًّا مِنْ طَرْدِهِ * يَشْرَبُ كَأَسَا شُدَّهَا مِنْ شُدِّهِ
* يَا لَكَ مِنْ كَلْبٍ نَسِيحٍ وَحِيدِهِ *

أَبُو نُوَاسٍ وَجَنَّانُ

قال أبو الفرج : كانت جنان هذه جارية آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي ، وكانت حلوة جميلة المنظر أديبة ، ويقال : إن أبا نواس لم يصدق في حب امرأة غيرها ، وقيل له يوما إن جنان قد عزمت على الحج ، فكان هذا سبب حجه وقال : أما والله لا يفوتني المسير معها والحج عامي هذا إن أقامت على عزيمتها ، وقال وقد حج وعاد :

ألم تر أنني أفنيت عمري * بمطلبها ومطلبها عسير
فلما لم أجد سبباً إليها * يقربني وأعيثني الأمور
حججت وقلت قد حججت جنان * فيجمعني وإياها المسير

قال من شاهده حين حج مع جنان وقد أحرم : لما جنه الليل جعل يلبي بشعر ويحدو به ويطرَب ، فغنى به كل من سمعه وهو قوله :

الهنأ ما أعدلك * مليك كل من ملك
ليتك قد لبيت لك * ليك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك * والليل لما أن حلك

والساحبات في الفلك * على مجارى المنسلك
 ما خاب عبد أملك * انت له حيث سلك
 لولاك يا رب هلك * كل نبي وملك
 وكل من أهل لك * سبح أو لبي فلك
 يا مخطئا ما أغفلك * عجل وبادر أجلك
 واختم بخير عملك * لبيك ان الملك لك
 والحمد والنعمة لك * والعز لا شريك لك

وفيها يقول :

جفن عيني قد كاد يس * قط من طول ما اختلج
 وفؤادي من حرج * بك والهجير فد نضح
 خبرني فدتك نف * سى وأهلى متى الفرج
 كان ميعادنا خرو * ج زياد فقد نخرج
 أنت من قتل عائد * بك في أضييق الحرج

قال الأصفهاني : قال محمد بن ابراهيم بن كثير الصوفي : دخلنا على أبي نواس نعوده في علته التي مات فيها ، فقال له علي بن صالح الهاشمي : يا أبا علي ، أنت في أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، وبينك وبين الله عز وجل هنأت ، فنب الى الله عز وجل ، فبكي ساعة ثم قال : ساندوني ساندوني ، ثم قال : الأخوف بالله عز وجل وقد حدثني حماد ابن مسلم عن زيد الرقاشي عن أنيس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل نبي شفاعَةٌ واني اختبأتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة » أفتراني لا أكون منهم ؟

ومن قوله في مرض موته :

دَبَّ فِي السَّقَامِ عُلُوًّا وَسُفْلًا * وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فُعُضْوًا
 لَيْسَ تَمِضِي مِنْ لِحْظَةٍ بِي إِلَّا * نَقَصْتَنِي بِمَرِّهَا فِي جُرُؤًا
 ذَهَبْتُ جِدَّتِي بِحَاجَةِ نَفْسِي * وَتَطَلَبْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نِضْوًا
 لَهْفَ نَفْسِي عَلَى لَيْلٍ وَأَيَا * مِ تَجَاوَزْتُهُنَّ لِعِبَاءٍ وَلَهْوًا
 قَدْ أَسَانَا كُلَّ الإِسَاءَةِ فَالِد * هُمْ صَفْحًا عَنَا وَعَفْرًا وَعَفْوًا

ثم قال :

شِعْرٌ حَىَّ أَتَاكَ مِنْ لَفْظِ مَيِّتٍ * صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقْفًا
 قَدْ بَرَتْ جِسْمَهُ الْخَوَادِثُ حَتَّى * كَادَ عَنْ عَيْنِ الْخَلَائِقِ يَخْتَفِي
 لَسُو تَأْمَلْتَنِي لِتُبْصِرَ وَجْهِي * لَمْ تَبْنِ مِنْ كِتَابِ وَجْهِي حَرْفًا
 وَلَكِرَّرْتَ طَرْفَ عَيْنِكَ فِيهِنَّ * قَدْ بَرَاهِ السَّقَامِ حَتَّى تَعْفَى

وكان عمر أبي نواس تسعا وخمسين سنة ، وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينة

السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ - العتّابي^(١)

قال أحمد بن سَهْل: تذاكرنا شعرَ العتّابي فقال بعضنا: فيسه تكلف، ونصره بعضنا،

فقال: شيخ حاضر، ويحك! أيقال إن في شعره تكلفاً وهو القائل:

رُسُلُ الضمير اليك تترى * بالشوق ظالمةً وحسرى
مترجّيات ما ينيدي * ن على الوجان بعد مسرى^(٢)
ما جفّ للعينين بعد * يدك يا قير العين مجرى
فاسلمّ سلمت مبرأ * من صبوتي أبدا معرى

(١) هو كوثوم بن عمرو بن أيوب العتّابي التغلبي من ولد عتاب بن أسيد ثم من بني تغلب بن وائل، شاعر مرسى يبلغ مطبوع متصرف في فنون الشعر مقدّم، من شعراء الدولة العباسية، وكان منقطعاً إلى البرامكة فوصفوه للرشيدي ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت فوائده منه.

وكان حسن الاعتدال في شعره ورسائله وله مصنفات في المنطق والأدب واللغة وكان يقيم في رأس عين بعيسدا عن دور الخلفاء والأمراء. وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إشخاصه إليه بغناء ونايه قبص غليظ وفروة ونخف، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل، فلما رفع الخير بقدمه إلى الرشيد أمر بأن تفرش له حجره وتقام له وظيفة ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدمت إليه أخذ منها رفاقة وملحاً وخلط الملح بالتراب فأكلها، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض، وانخدم يتفقدونه ويتعجبون من فعله. وسأل الرشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقبلي وهو في منزله فسلم عليه واتسب له فرحب به وقال له «ارتفع» فقال «لم آتك لجلوس» قال «فا حاجتك» قال «دابة أبلغ عليها إلى رأس عين» فقال: يا غلام، أعطه الفرس الفلاني: فقال: لا حاجة لي في ذلك ولكن تأمر أن تشتري لي دابة أتبلغ عليها: فقال لغلامه «امض معك فابتع له ما يريد» فمضى معه فعدل به العتّابي إلى سوق الحمير فقال الغلام: إنما أمرني أن ابتاع لك دابة: فقال له: انه أرسلك معي ولم يرسلني معك فان عملت ما أريد والا انصرف: فمضى معه فاشتري حماراً بمائة وخمسين درهماً وقال: ادفع إليه ثمته: فدفعه إليه فركب الحمارة بما يرشحه عليه وبردعة وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد «فضحتني! أمثل يحمل مثلك على هذا!» فضحك وقال «ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك» ومضى إلى رأس عين.

توفي سنة ٢٢٠ هـ وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٢ ص ٢) وقوات الوفيات (ج ٢ ص ١٣٧).

(٢) أي متبلمات بالقليل حتى يصلن إليك.

إن الصبابة لم تدع * منى سوى عظيم مبرى
ومدامع عبرى على * كبد عليك الدهر حرى

أو يقال إنه متكلف وهو الذى يقول :

فلو كان للشكر شخص يبين * إذا ما تأمله الناظر
لمثله لك حتى تراه * لتعلم أنى أمرؤ شاكر

وجد الرشيد على العتابي فدخل سرا مع المنتظمين بغير إذن، فبطل بين يدى الرشيد وقال له : يا أمير المؤمنين، قد آذنتي الناس لك ولنفسى فيك، وردنى آبتلاؤهم الى شركك، وما مع تذرك قناعة بغيرك، ولنعم الصائئ لنفسى كنت لو أعاننى عليك الصبر، وفى ذلك أقول :

أخضنى المقام الغمر إن كان غررى * سنا خلب أو زلت القدمان
أتركنى جذب المعيشة مقترأ * وكفالك من ماء الندى تكفان
وتجعلنى سهم المطامع بعد ما * بللت يمينى بالندى ولسانى

فأعجب الرشيد قوله، ونحرج وعليه الخلع، وقد أمر له بجائزة .

كلم العتابي يحيى بن خالد فى حاجة بكلمات قليلة، فقال له يحيى : لقد نزر كلامك اليوم وقل، فقال له : وكيف لا يقل وقد تكنفى ذل المسألة وحيرة الطلب وخوف الرد؟ فقال : والله لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده، وقضى حاجته .

قال يحيى بن خالد البرمكى لولده : إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابي فضلا عن رسائله وشعره، فإن تروا أبدا مثله .

وقف العتابي بباب المأمون يلتمس الوصول اليه، فصادف يحيى بن أكرم جالسا ينتظر الإذن، فقال له : إن رأيت أعزك الله أن تذكر أمرى لأمر المؤمنين إذا دخلت فافعل، قال له : لست أعزك الله بحاجبه، قال : فإن لم تكن حاجبا فقد يفعل مثلك ما سألت، واعلم أن الله عز وجل جعل فى كل شى زكاة، وجعل زكاة المال رقد المستعين، وزكاة الجاه إغاثة الملهوف، واعلم أن الله عز وجل مقبل عليك بالزيادة إن شكرت، أو التغيير إن كفرت .

وإني لك اليوم أصلح منك لنفسك، لأني أدعوك إلى آزيد نعمتك وأنت تأتي، فقال له يحيى: أفعل وكرامة، ونرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن استأذن المأمون للعتابي، فأذن له .

وقيل له: لو تزوجت، فقال: إني وجدت مكابدة العقبة أيسر على من الاحتيا لمصلحة العيال .

قال دُعيل: ما حسدت أحدا قط على شعركا حسدت العتابي على قوله:

هَيْبَةُ الْإِخْوَانِ قَاطِعَةٌ * لِأُنْحَى الْحَاجَاتِ عَنْ طَلْبِهِ

فَإِذَا مَا هَيْبَتْ ذَا أَمَلٍ * مَاتَ مَا أَمَلَتْ مِنْ سَبِيهِ

كان العتابي جالسا ذات يوم ينظر في كتاب، فتر به بعض جيرانه، فقال: أيش ينفع العلم والأدب من لا مال له؟ فأنشد العتابي قوله:

يَا قَاتِلَ اللَّهِ أَقْوَامًا إِذَا تَمَقَّفُوا * ذَا اللَّبِّ يَنْظُرُ فِي الْآدَابِ وَالْحِكْمِ

قَالُوا وَلَيْسَ بِهِمْ إِلَّا نَفَاسَتُهُ^(١) * أَنَافِعُ ذَا مِنْ الْإِقْتَارِ وَالْعُدْمِ

وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَا الْحِظُّ الَّذِي حُرُمُوا * - لِحَاهِمُ اللَّهُ - مِنْ عِلْمٍ وَمَنْ فَهَمَ

ومن قوله أيضا:

لَئِنْ كَانَتْ الدُّنْيَا أَنَا لَتُنْكَ ثَرْوَةٌ * فَأَصْبَحْتَ ذَا يُسْرٍ وَقَدْ كُنْتَ ذَا عُسْرِ

لَقَدْ كَشَفَ الْإِثْرَاءُ مِنْكَ مَخَازِيًا * مِنْ اللُّؤْمِ كَانَتْ تَحْتَ سِتْرِ مِنَ الْفَقْرِ

وقال أيضا:

رَحَلَ الرَّجَاءُ إِلَيْكَ مَغْتَرِبًا * حُسِدَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ

رَدَّتْ إِلَيْكَ نَدَامَتِي أَمَلِي * وَشَا إِلَيْكَ عَيْنَانِي شُكْرِي

وَجَعَلَتْ عَيْنَكَ عَتَبَ مَوْعِظَةٍ * وَرَجَاءَ عَمُوكَ مِنْتَهَى أَمَلِي

لما سعى منصور الثمري بالعتابي إلى الرشيد أغتاض عليه فطلبه، فسأره جعفر بن يحيى

عنه مدة وجعل يستعطفه عليه حتى استل ما في نفسه وأمنه، فقال يمدح جعفر بن يحيى:

مازلت في غمرات الموت مُطَرَّحًا * قد ضاق عني فسيح الأرض من حيلي
ولم تزل دائبًا تسعى بلطفك لي * حتى آخلتست حياتي من يدي أَجَلِي
عاد عبد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم بن مُصعب كلثوم بن عمرو العتّابي في علة
أعتلها، فقال الناس : هذه خَطرة خَطَرَتْ ، فبلغ ذلك العتّابي ، فكتب الى عبد الله بن
طاهر :

قالوا الزيارة خَطرة خَطَرَتْ * ويحارُّ بِرِّك ليس بالخطُّر
أَبْطَلُ مقالهم بثانية * تستنِفِد المعروف من شكري
فلما بلغت أبياته عبد الله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو وإسحاق فعاداه مرة
ثانية .

كانت له امرأة من باهلة ، فلما مضى الى رأس عين قالت له : هذا منصور التّرى :
قد أخذ الأموال فحلى نساءه وبني داره وأشترى ضياعاً وأنت ههنا كما ترى ، فأنشأ يقول :

تلوم على ترك الغني باهليّة * ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها التسوان يرقلن في الثرى * مقلّدة أعناقها بالقلائد
أسرك أنى نلت ما نال جعفر * من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصني * مغمصهما بالمسرّهفات البوارد
رأيت رفيفات الامور مشوبة * بمستودعات في بطون الأسود
دعيني تجنّني ميتي مطمئنة * ولم اتجشم هول تلك الموارد

لما قدم العتّابي مدينة السلام على المأمون أذن له ، فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم
الموصلى ، وكان العتّابي شيخاً جليلاً نبيلاً ، فسلم فردّ عليه وأدناه وقربه حتى قُرب منه ، فقبل
يده ، ثم أمره بالجلوس فجلس ، وأقبل عليه يسأله عن حاله وهو يجيبه بلسان ذلّقى طلّقى ،
فاستظرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح ، فظن الشيخ أنه استخفّ به ، فقال :
يا أمير المؤمنين ، الإبناس قبل الإبناس^(١) ، فاشتبه على المأمون قوله ، فنظر الى إسحاق مستفهما ،

(١) الإبناس : دعوة الناقة الى الحلب .

فأوما إليه وغمزه على معناه حتى فهم، فقال: يا غلام، ألف دينار، فأتى بذلك، فوضع بين يدي العتّابي وأخذوا في الحديث، وغمز المأمونُ إسحاقَ بن إبراهيم عليه، فجعل العتّابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه إسحاق، فبق العتّابي متعجبا، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سل، فقال لإسحاق يا شيخ، من أنت وما اسمك؟ قال: أنا من الناس وأسمى كلِّ بصل، فتهبّس العتّابي وقال: أما أنت فعروف وأما الاسم فمُنكر، فقال إسحاق: ما أقلّ إنصافك! أتتكر أن يكون اسمي كلِّ بصل، وأسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتّابي: لله دذك! فما أسجك، أتأذن لي يا أمير المؤمنين في أن أصله بما وصلتني به؟ فقال المأمون: بل ذلك موفّر عليك ونأمر له بمثله: فقال له إسحاق: أما إذ أقررت بهذه فتوهمني تجدني، فقال: ما أظنك إلا إسحاق الموصلي الذي يتناهى إلينا خبره، قال: أنا حيث ظننت، وأقبل عليه بالتحية والسلام، فقال المأمون — وقد طال الحديث بينهما —: أما إذ قد آتفتما على المودة فانصرفا متنادمين، فانصرف العتّابي إلى منزل إسحاق فأقام عنده.

قال عثمان الوراق: رأيت العتّابي يأكل خبزا على الطريق بيباب الشام، فقلت له: ويحك! أما تستحي؟ فقال لي: رأيت لو كنا في دار بها بقر كنت تستحي وتحشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا، قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوعظ وقص ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال لهم: روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبه أنه لم يدخل النار، فما بقي أحد إلا أخرج لسانه يومئذ به نحو أرنبه أنه ويقدره حتى يبلغها أم لا، فلما تفرقوا قال لي العتّابي: ألم أخبرك أنهم بقر؟

قال الفضل: رأيت العتّابي بين يدي المأمون وقد أسنّ، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد للشيخ على المأمون، فما زال المأمون يُنهضه رويدا رويدا حتى أقبله فنهض.

وكتب كلثوم بن عمرو العتّابي الى صديق له يستجديه :

أما بعد — أطل الله بقاءك وجعله يمتدّ بك الى رِضوانه والجنّة — فإنك كنت
عندنا روضة من رياض الكرم، تبهج النفوس بها، وتستريحُ القلوب اليها؛ وكنا نغفينا
من النجعة^(١) آستاماً لزهرتها، وشفقةً على خضرتها، وأذخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سنةٌ
كانت عندي قطعة من سني يوسف آشتد علينا كلبها، وغابت قِطّتها، وكذبنا غيومها،^(٢)
وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك . وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة
عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد،^(٣) وأنت تغطّي عين الحاسد . والله يعلم أني ما أعدك
إلا في حومة الأهل^(٤) . وأعلم أن الكريم اذا آستحيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير،
لم يُعرف جوده ولم تظهر همته . وأنا أقول في ذلك :

اذا تكومت عن بذل القليل ولم * تقدر على سعة لم يظهر الجود

بث السؤال ولا تمنع قلبه * فكل ما سدد فقرا فهو محمود

قيل فشاطره جميع ماله .

(١) النجعة : طلب الكلاب في موضعه .

(٢) الكلب : القمط وبلاء الشتاء ومرض يصيب

الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة هنا : الجماعة والطائفة .

٣ - دَعْبِل^(١)

شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذونباهة أحسن إليه أم لم يُحسن، ولا أفلت منه كبيراً أو صغيراً .
 وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل الى على صلوات الله عليه . وقصيدته : «مدارس آيات خلت من تلاوة» من أحسن الشعر وفانح المدائح المقلّدة في أهل البيت عليهم السلام ، وقصد بها أبا على بن موسى الرضا بخراسان ، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه وخلع عليه خلعة من ثيابه ، فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم ، فلم يبيعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها ، فقال لهم : إنها إنما تُراد لله عز وجل وهي محرمة عليكم ، فدفعوا اليه ثلاثين ألف درهم ، فخلّف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في كفته ، فأعطوه فردكم ، فكان من أكفانه .

قال ابراهيم بن المهدي للمأمون قولاً في دعبل يحرضه عليه ؛ فضحك المأمون وقال :
 إنما تحرضني عليه لقوله فيك :

يا معشر الأجناد لا تقنطوا * وأرضوا بما كان ولا تسخطوا
 فسوف تُعطون حنينية^(٢) * يلتذها الأمرد والأثمط
 والمعبديات^(٣) لقوادكم * لا تدخل الكيس ولا تُربط
 وهكذا يرزق قوادده * خليفة مصحفه البربط

(١) هو دعبل بن على بن رزين من نخاعة ، أصله من الكوفة وجاء بغداد بطلب من الرشيد . وهو شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان ، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذونباهة أحسن إليه أولم يُحسن ، ولا أفلت منه كبيراً أو صغيراً ، فكان الناس يخافونه ويتقونه حتى المأمون فإنه هجاء شديداً واحتمل ذلك منه . توفي سنة ٢٤٦ هـ . وتجد أخباره في الأغانى ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء ص ٥٣٩ والفهرست (ص ١٦١) .
 (٢) يريد أصواتاً منسوبة الى حنين الطيرى المعنى .
 (٣) يريد أصواتاً منسوبة الى معبد المعنى .

قد ختم الصك بأرزاقكم * وصحح العزم فلا تسخطوا
بيعة ابراهيم مشئومة * يقتل فيها الخلق أو يقحطوا

فقال له ابراهيم : فقد والله هجالك أنت يا أمير المؤمنين ؛ فقال : دع هذا عنك فقد عفوت عنه في هجائه إياي لقوله هذا، وضحك . ثم دخل أبو عباد، فلما رآه المأمون من بعد قال لإبراهيم : دعبل يحسر على أبي عباد في الهجاء ويحجم عن أحد! فقال له : وكان أبا عباد أبسط يدا منك يا أمير المؤمنين ؛ قال : لا ! ولكنه حديد جاهل لا يؤمن ، وأنا أحلم وأصفح ، والله ما رأيت أبا عباد مقبلا إلا أضحكني قول دعبل فيه :

أولى الأمور بضيعة وفساد * أمر يدبره أبو عباد
نحرق على جلسائه فكأنهم * حضروا الملحمة ويوم جراد
يسطو على كتابه بدواته * فمضخ بدم ونضح مِداد
وكانه من دير هرقل مفلت * حرد يجز سلاسل الأقياد
فاشدد أمير المؤمنين وثاقه * فأصح منه بقية الحداد

وكان «بقية» هذا مجنونا في البجارستان .

قال أبو خالد الخزازي لدعبل : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعا ، فأنت دهرلك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كفت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك ! فقال : ويحك ! انى تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يتنفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالي الشاعر وإن كان مجيدا اذا لم يخف شره ، ولمن يتقيك على عرضه أكثر من يرغب اليك في تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالحد والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه أنتفع بقولك ، فاذا رأك أوجعت عرض غيره وفضحت آتقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر ، ويحك يا أبا خالد ! إن الهجاء المقذع أخذ بضيع الشاعر من المديح المضرب ؛ فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حتف أنفه .

كان سببُ خروجِ دعبِل من الكوفة أنه كان يتشطرَّ ويصحب الشُّطار، فخرج هو ورجل من أئبج فيما بين العشاء والعتمّة، فجلسا على طريق رجل من الصيارفة، وكان يروح كل ليلة بكيسه الى منزله، فلما طلع مقبلا اليهما وثبا اليه بفرحاه وأخذ ما في كُبه، فاذا هي ثلاث رُمّانات في خرقة، ولم يكن كيسه ليلتذ معه، ومات الرجل مكانه، وأسترد دعبِل وصاحبه وجَد أولياء الرجل في طلبهما وجدَّ السلطانُ في ذلك، فطال على دعبِل الأستتار فاضطر الى أن هرب من الكوفة، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد.

قال أحمد بن خالد: كما يومًا بدار صالح بن علي من عبد القيس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا، فسقط على سطح البيت ديك طار من دار دعبِل، فلما رأيناه قلنا: هذا صبيدنا، فأخذناه، فقال صالح: ما نضع به؟ قلنا: نذبجه، فذبجناه وشويناها. وخرج دعبِل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط في دار صالح، فطلبه منا فوجدناه وشربنا يومنا، فلما كان من الغد خرج دعبِل فصلى الغداة ثم جلس على باب المسجد— وكان ذلك المسجد يجمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويتأهبهم الناس— فجلس دعبِل على باب المسجد وقال:

أَسْرَ الْمُؤَدَّنَ صَاحُحٌ وَضِيُوفُهُ * أَسْرَ الْكَيِّ هَفَا خِلَالَ الْمَاقِطِ

بَعَثُوا عَلَيْهِ بَيْنَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ * مِنْ بَيْنِ نَاتِفِيَةٍ وَأَخْرَ سَامِطِ

يَتَنَازَعُونَ كَأَنَّهُمْ قَدِ أَوْتَقَوْا * خَاقَانَ أَوْ هَزَمُوا قَبَائِلَ نَاعِطِ

نَهَّشُوهُ فَاتَّرَعَتْ لَهُ أَسْنَانُهُمْ * وَتَهَشَّمَتْ أَفْقَاؤُهُمْ بِالْحَائِطِ

فكتبتا الناس عنه ومضوا، فقال لي أبي، وقد رجع الى البيت: ويحك! ضاقت عليكم المآكل فلم تجدوا شيئا تاكلونه سوى ديك دعبِل! ثم أنشدنا الشعر، وقال: لا تدع ديكا ولا دجاجة تقدر عليه إلا أشريته وبعثت به الى دعبِل وإلا وقعنا في لسانه، ففعلت ذلك. قال أحمد بن أبي كامل: كان دعبِل ينشدي كثيرا هجاء له، فأقول له فيمن هذا؟ فيقول ما أستحقه أحد بعينه بعد، وليس له صاحب، فاذا وجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر اسمه في الشعر.

(١) قبيلة من ممدان، وأصله جبل نزلوا به فسموا اليه.

كان دعبيل يختلف الى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو نحرجه وفهمه وأدبه، فظهر له منه جفاء وبلغه أنه يعيبه ويذكره وينال منه، فقال يهجوهُ :
يا بُؤس للفضل لو لم يأت ما عابهُ * يستفرغ السمّ من صماء قرصابه
ما إن يزال وفيه العيبُ يجمعه * جهلا لأعراض أهلِ المجد عيابه
إن عابني لم يعبُ إلا مؤدّبهُ * ونفسه عاب لما عاب أذابه
فكان كالكلب صرّاه مكّلبهُ * لغيره فعدا فاصطاد كلابهُ
كان دعبيل يقول : ما كانت لأحد قط عندى منّة إلا تمّيتُ موته .

كتب دعبيل الى أبي تهشبل بن حميد الطوسي قوله :

إنما العيشُ في مُنادمة الإخوا * ن لا في الجلوس عند الكعاب
ويصرفُ كأنها ألسُن البر * قي اذا استعرضت رقيق السحاب
إن تكونوا تركتمُ لذة العيد * ش حذار العقاب يوم العقاب
فدعوني وما ألدّ وأهوى * وأدفعوا بي في صدر يوم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغاني : سمعت دعبلا يقول في كلام جرى «لَيْسَك» فأنكرته عليه ؛ فقال : دخل زيد الخليل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : «يا زيد ما وُصف لي رجل إلا رأيتُهُ دون وصفه لَيْسَك» يريد غيرك .

قال عمرو بن مسعدة : حضرتُ أبا دُلف عند المأمون وقد قال له المأمون : أى شيء تروى لأخى خُزاعة يا قاسم؟ فقال : وأى أخى خُزاعة يا أمير المؤمنين؟ قال : ومنّ تعرف فيهم شاعرا؟ فقال : أما من أنفُسهم فأبو الشَّيص ودعبيل وابن أبي الشَّيص وداود بن أبي رزين ، وأما من مواليتهم فظاهر وأبنة عبد الله ، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبيل ! هات أى شيء عندك فيه ؛ فقال : وأى شيء أقول في رجل لم يسلم عليه أهلُ بيته حتى هجّاهم ، فقرن إحسانهم بالإساءة وبذّلمهم بالمنع وجودهم بالبخل ، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه ؛ قال : حين يقول ماذا؟ قال : حين يقول في المطّلب بن عبد الله

أبن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منه، وقد وفد إليه الى مصر فأعطاه الخزير
وولاه، ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

إِضْرِبْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلْحَاتِ مِتِّدَا * بِلُؤْمِ مَطْلَبٍ فِينَا وَكُنْ حَكِيمَا
تُخْرِجُ خُرَاعَةً مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ * فَلَا تَحْسَبْ لَهَا لُؤْمًا وَلَا كَرَمًا

فقال المأمون : قاتله الله ! ما أغوصه وألطفه وأدهاه، وجعل يضحك . ثم دخل عبد الله
أبن طاهر فقال : أى شيء تحفظ يا عبد الله لدعبل ؟ فقال : أحفظ أبياتا له فى أهل بيت
أمير المؤمنين ؛ قال : هاتها ويحك ! فأنشده :

سَقِيًّا وَرَعِيًّا لِأَيَّامِ الصَّبَابَاتِ * أَيَّامِ أَرْقُلٍ فِي أَثْوَابِ لَذَائِنِ
أَيَّامِ غَضَنِ رَطِيبٍ مِنْ لِيَانَتِهِ * أَصْبُو إِلَى غَيْرِ جَارَاتٍ وَكُنَّاتِ
دَعِ عَنكَ ذِكْرَ زَمَانٍ فَاتِ مَطْلَبُهُ * وَأَقْذِفْ بِرَحْلِكَ عَنِ مَتْنِ الْجَهَّالَاتِ
وَأَقْصِدْ بِكُلِّ مَدِيحٍ أَنْتَ قَائِلُهُ * نَحْوِ الْهُدَاةِ بَنَى بَيْتَ الْكِرَامَاتِ

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالا فقال ، ونال ببعيد ذكرهم ما لا يناله فى وصف غيرهم .

ومن قول دعبل وفيه غناء :

أَيْنَ الشَّبَابِ وَأَيَّةَ سَلَاكَ * لَا أَيْنَ يُطَلَبُ ضَلَّ مِنْ هَلَاكَ
لَا تَعْجَبِي يَا سَلَمَ مِنْ رَجُلٍ * ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
يَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ يَوْمُكُمْ * يَا صَاحِبِي إِذَا دَمِي سَفِكَ
لَا تَأْخُذُوا بِظُلَامَتِي أَحَدًا * قَلْبِي وَطَرْفِي فِي دَمِي أَشْتَرَا

قال إبراهيم بن المدبر : لقيت دعبل بن على فقلت له : أنت أجسر الناس عندى

وأقدمهم حيث تقول :

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيُوفُهُمْ * فَتَلَّتْ أَخَاكَ وَشَرَّفَتْكَ بِمَقْعَدِ
رَفَعُوا مَحَلَّكَ بَعْدَ طَوْلِ نَحْوِهِ * وَأَسْتَنْقِذُوكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ

وأولها :

أخذ المشيبُ من الشباب الأغيْدُ * والناثباتُ من الأنامِ بمَرصِدِ
فقال : يا أبا اسحاق ، أنا أحملُ خَشْبتي منذ أربعين سنة ، فلا أجد من يصلبني عليها .

كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى ، وكانت
الشراة والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرون به ، وكان إذا لقيهم وضع
طعامه وشرابه ودعاهم إليه ودعا بغلاميه : نغف وشعف ، وكانا مغنيين ، فأقعدهما يغنيان
وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم ، فكانوا قد عرفوه وألقوه لكثرة أسفاره ، وكانوا يواصلونه
ويصلونه . وأنشد دعبل لنفسه في بعد أسفاره :

حللت محلاً يقصر البرقُ دونه * ويعجز عنه الطيفُ أن يتجسماً

قال البهتري : دعبل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد ، لأن كلام دعبل
أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم ، وكان يتعصب له .

كان المعتصم يغيض دعبلا لطول لسانه . وبلغ دعبلا أنه يريد اغتياله وقتله ، فهرب
إلى الجبل ، وقال يهجوه :

بكي ليشات الدين مكتئب صب * وفاض بقرط الدمع من عينه غرب
وقام إمام لم يكن ذا هداية * فليس له دين وليس له أب
وما كانت الأنبياء تأتي بمثله * يملك يوماً أو تدين له العرب
ولكن كما قال الذين تتابعوا * من السلف الماضين اذ عظم الخطب
ملوك بني العباس في الكتب سبعة * ولم تأتسأ عن ثامن لهم كتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة * خياراً اذا عدوا وثامنهم كلب
وإني لأعلي كلهم عنك رفعة * لأنك ذو ذنب وليس له ذنب
لقد ضاع ملك الناس اذ ساس ملكتهم * وصيف وأشناس وقد عظم الكرب
وقضل بن مروان يسلم ثلثة * يظل لها الإسلام ليس له شعب

لما مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيات يرثيه :

قد قلتُ إذ غَيَّبوه وأنصرفوا * في خير قبرٍ لخيرٍ مدفون

لن يجبر الله أمةً فقدت * مثلك إلا بمثل هارون

فقال دعبل يعارضه :

قد قلتُ إذ غَيَّبوه وأنصرفوا * في شرِّ قبرٍ لشرِّ مدفون

إذهب إلى النار والعذاب فما * خلقتك إلا من الشياطين

مازلت حتى عقدت بيعةً من * أضرت بالمسلمين والدين

وقال في ذلك وفي قيام الواثق :

الحمد لله لا صبرٌ ولا جلدٌ * ولا عزاءٌ إذا أهلُّ البلاء رقدوا

خليفة مات لم يحزن له أحد * وآخر قام لم يفرح به أحد

ولقد أحسن في وصف سفر سافره، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه :

ألم يأنٍ للسفر الذين تحملوا * إلى وطنٍ قبل الممات رجوع

فقلت ولم أملك سوا بقِ عبرة * نطقن بما صممت عليه ضلوع

تبيّن فكم دارٍ تفرق شملها * وتتمل شيت عاد وهو جميع

كذلك اللبالي صرّفهن كما ترى * لكل أناس جُدبه وربيع

ثم قال : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري وهجراي ومسلتي

حتى أعود .

ومن قول دعبل وفيه غناء :

سرى طيف ليلى حين آن هبوبٌ * وقضيت شوقا حين كاد يذوب

فلم أر مطروقا يحل برحلة * ولا طارقا يقري المنى ويثيب

ومن قوله :

لقد عجبت سأمي وذاك عجيبٌ * رأت بي شيبا عجلته خطوبٌ

وما شيبني كبرة غير أنني * بدهرٍ به رأسُ الفطيم يثيب

وقال في صالح بن عطية الأصم وكان من أفبح الناس وجها، وخطب فيها المعتصم :

قل للإمام إمام آل محمد * قول امرئ حديب عليك حُمام
أنكرت أن تفتّر عنك صنيعة * في صالح بن عطية الحجّام
ليس الصنائع عنده بصنائع * لكنهن طوائل الإسلام
أضرب به جيش العدو فإنه * جيش من الطاعون والبرسام

قال أبو تمام : ما زال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقترًا بأستاذيته، حتى ورد عليه

بجران بخفاه مسلم، وكان فيه بخل، فهجره دعبل وكتب اليه :

أبا محمد كنا عقيدي مودة * هوأنا وقلبانا جميعا معا
أحوطك بالغيب الذي أنت حاطي * وأجزع إشفافا من أن تتوجعا
فصيرتني بعد اتكائك متهما * لنفسى عليها أرهب الخلق أجمعا
غششت الهوى حتى تداعت أصوله * بنا وأبتذلت الوصل حتى تقطعا
وأزلت من بين الجوانح والحشى * ذخيرة ود طالما قد تمتعا
فلا تلحيني ليس لي فيك مطمع * تخزقت حتى لم أجسد لك مرقعا
فهبك يميني استاكت فقطعتها * وجشمت قلبي صبره فتشجعا
ثم تهاجرا فما ألتقيا بعد ذلك .

اجرى الرشيد على دعبل رزقا سنيا، فكان أول من حرّضه على قول الشعر . فوالله ما بلغه

أن الرشيد مات حتى كافاه على فعله من العطاء السنّي والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمول
بأفبح مكافأة، وقال فيه يهجو من قصيدة مدح بها أهل البيت عليهم السلام :

وليس حتى من الأحياء نعلمه * من ذى يمان ومن بكر ومن مضير
إلا وهم شركاء في دماهم * كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة * فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمة معذورين إن قتلوا * ولا أرى لبني العباس من عدو

أَرَبُّ يَطُوسَ عَلَى الْقَبْرِ الزَّكِيِّ إِذَا * مَا كُنْتُ تَرَبِّعُ مِنْ دِينَ عَلَى وَطْرِ
 قَبْرَانِ فِي طَوْسٍ خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ * وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنَ الْعِبَرِ
 مَا يَنْفَعُ الرَّجْسَ مِنْ قَبْرِ الزَّكِيِّ وَلَا * عَلَى الزَّكِيِّ بِقَبْرِ الرَّجْسِ مِنْ ضَرَرِ
 هِيَاهُ، كُلِّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِمَا كَسَبَتْ * لَهُ يَأْخُذُ مَا شِئْتَ أَوْ فَدَّرَ

استدعى بعض بني هاشم دعبلًا وهو يتولى للمعتم من ناحية من نواحي الشام، فقصدته إليها فلم يقع منه بحسن ظن وجفاه، فكتب إليه دعبل :

دَلَيْتِي بَغْرُورٍ وَعَدُكَ فِي * مُتَلَاظِمٍ مِنْ حَوْمَةِ الْعَرَقِ
 حَتَّى إِذَا شِمْتَ الْعَدُوَّ وَقَدْ * شُهِرَ آتِقَاصُكَ شَهْرَةَ الْبَلَقِ
 أَنْشَأْتَ تَحْلَفُ أَنْ وَدَكَ لِي * صَافٍ وَحِبْلِكَ غَيْرِ مَنْحَدِقِ
 وَحَسْبَتِي فَقَعًا بِقَرْقَرَةٍ * فَوَطِئْتَنِي وَطْأًا عَلَى حَنْقِ
 وَنَصَبْتَنِي عَلَمَا عَلَى غَرَضٍ * تَرْمِينِي الْأَعْدَاءُ بِالْحَدَقِ
 وَظَنَنْتَ أَرْضَ اللَّهِ ضَيْقَةً * عَنِّي وَأَرْضَ اللَّهِ لَمْ تَضِقْ
 مِنْ غَيْرِ مَا جُرِّمَ سِوَى ثِقَةٍ * مَنِّي بُوْعَدُكَ حِينَ قَلْتَ ثِقِ
 وَمُودَةٍ تَحْنُو عَلَيْكَ بِهَا * نَفْسِي بِلَا مَنٍّ وَلَا مَلَقِ
 فَتَنِي سَأَلْتُكَ حَاجَةً أَبَدًا * فَاشْدُدْ بِهَا قُفْلًا عَلَى غَلَقِ
 وَقَفَّ الْإِحَاءُ عَلَى شَقَا جُرْفٍ * هَارٍ فَبِعَهُ بَيْعَةَ الْخَلَقِ
 وَأَعِدْ لِي قُفْلًا وَجَامِعَةً * فَاشْدُدْ يَدِي بِهَا إِلَى عُنُقِ
 أَعْفِيكَ مِمَّا لَا تَحِبُّ بِهَا * وَأَسُدُّ عَلَى مَذَاهِبِ الْأُفُقِ
 مَا أَطْوَلَ الدُّنْيَا وَأَعْرَضَهَا * وَادَّأَنِي بِمَسَالِكِ الطَّرُقِ

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو ببغداد :

جِئْتُ بِلا حُرْمَةٍ وَلَا سَبَبٍ * إِلَيْكَ إِلَّا بِجُرْمَةِ الْأَدَبِ
 فَاقْضِ دِمَامِي فَإِنِّي رَجُلٌ * غَيْرُ مُلَائِحٍ عَلَيْكَ فِي الطَّلَبِ

فانتقل عبد الله ودخل الحرم ووجهه اليه بصره فيها ألف درهم ، وكتب اليه :

أعجلتنا فأناك عاجلٌ برِّنا * ولو أنتظرت كثيره لم يقلل

نخذ القليل وكن كأنك لم تقل * ونكون نحن كأننا لم نفعل

مات دعبل بقرية من قرى السوس ، بعث اليه مالك بن طوق من ضرب ظهره

بعكاز لها زجٌ مسموم فمات من غد .

٤ - حسين بن الضحَّاك^(١)

(٢) « شاعرٌ ظريفٌ شديدُ الظُّرفِ ، ربما آتقَطعَ نظيرهُ في شعراءِ العصرِ العباسيِّ كلِّه ، وهو معَ ظُرفه وإسرافه في المحجُون ، قليلُ الفحشِ في اللفظ . غيرَ مُتَهالكٍ على القولِ الآثِمِ والألفاظِ المنكَّرةِ ، لا يتخيَّرُها ولا يقصدُ اليها ، وإنما يعرِضُ لها إذا أضطَّرَّ اليها أضطُّراراً وهو على ظُرفه ورقةٌ حاشيته وحِرْصه على نَفَاءِ اللفظِ وطُهره شاعرٌ بالمعنى الصحيحِ لهذه الكلمةِ ، مجوِّدٌ إذا فكَرَ ، مظفَّرٌ إذا بحث ، موَفِّقٌ إلى اللفظِ المتينِ ، والأسلوبِ الرِّصينِ في غيرِ جفوةٍ ولا غِلظةٍ ، لا يعرفُ التكلفَ في لفظٍ ولا معنى ، وإنما ينطلقُ لسانه معَ سجيته ، وسجيته سهلةٌ مرسلةٌ غنيَّةٌ غزيرةُ المادةِ ، لا تكادُ تنضُبُ ، ولا ينالها إعْياءٌ أو كلالٌ ، وحياته كلها عبرٌ وعظاتٌ ولكنها عبرٌ وعظاتٌ مبتسمةٌ ليست بالمظلمةِ ولا العابسةِ ولا بالتِي تردُّك وتنفرك ، وتجعلُ للحزنِ والأسى إلى قلبك سبيلاً ، ولعلك لا تجدُ من شعراءِ هذا العصرِ رجلاً مثله ، تقرأ أخباره فتظنُّ مبتسماً منذُ ابتدئَ إلى أن تنتهي دونَ أن تعيسَ أو تقطب . وربما تجاوزتَ الأبتسامَ إلى الإغراقِ في الضحكِ من حينٍ إلى حينٍ ، ولكلكَ لن تتركَ الأبتسامَ إلى الحزنِ الشديدِ . وربما أعترضتكَ في طريقك سحابةٌ محزنةٌ ولكن هذه السحابةُ رقيقةٌ هادئةٌ هيئةً ، فهي أضعفُ من أن تزيلَ آبتسامتَكَ . وكان هذا الشاعرُ من المعمرينِ ، بلغَ المائةَ أو كادَ ، وعاصرَ طبقاتٍ من الشعراءِ ، وألواناً من حاشيةِ الخلفاءِ ، ولكنه ظلَّ محتفظاً بشخصيتهِ الوادعةِ المبتسمةِ ، تغيرَ الناسُ وأختلفتِ الظروفُ ، وظلَّ هو واحداً

(١) هو مولى باهلة ، ولد في البصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاءَ من بني العباسِ ، وكان خليعاً فاسداً وكان مع ذلك حسن التصرف في النظم ولشعره قبول ورواق ، فهو من المتفنين وله معان جديدة في الخمر كان أبو نواس يأخذها عنه ، ومع أن أبو نواس مات سنة ١٦٨ هـ ، والضحَّاك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تعاصرا لأن مولدهما متقارب لأن ابن الضحَّاك عمره كثيراً . وهو أوَّل من نادى الأمين وله فيه مدائح كثيرة ، وعمرهما طويلاً حتى قارب مائة السنة ومات في خلافة المستعين أو المنتصر . وتجد أخباره في الأغاني (ج ٦ ص ١٧٠) وابن خلكان (ج ١ ص ١٥٤) .

(٢) من بحوث صديقي الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لم يتغير. كان خليعا، بل كان يُعرف بالخليع، وكان كثير المجون مُسرفا فيه، وما أحسب أن أبا نواس سبقه الى لذة أو برز عليه في مآثم، ولكنه على خلاعته وإسرافه في المجون وهالكه على اللذات، احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجودة الأصل، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه انزلاقا دون أن تترك فيها أثرا باقيا، وإنما كانت الآثار التي تركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعبث، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التي سأظهرك على طرف منها.

فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين إنما كانوا يصلون الى الخلفاء بعد الجهد والكد، وبعد التلطف وحسن الحيلة، وإنما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديدا، يعاشرهم ويرافقهم ويتدخل في حياتهم الخاصة، وربما تدخل الى أكثر مما ينبغي. وكان الخلفاء يبحثون عنه، ويحرصون على عشرته ويبدلون في ذلك غير قليل من الإحاح والعطاء، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء «

فترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب ظريف مطبوع، حسن التصرف في الشعر حلو المذهب، لشعره قبول ورونق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبة الناس الى أبي نواس، وله معان في صفتها أبداع فيها، وهاجى مسلم بن الوليد فانتصف منه، وله غزل كثير جيد، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلف.

قال: أنشدت أبا نواس قصيدتي التي قلتها في الخمر وهي:

بُدلتَ من نَفحاتِ الوردِ بالآءِ^(١) * ومن صَبوحِ دَرِّ الإبلِ والشَّاءِ

فلما انتهيتُ منها الى قولي

حتى إذا أُسِنِدتِ في البيتِ وأحْضِرْتِ * عند الصَّبوحِ بَسَامِينِ أَكْفَاءِ

فُضِّتْ خواتمها في نَعْتِ واصفها * عن مثل رَقراقَة في جفنِ مَرهَاءِ^(٢)

(١) الآء: ثمر شجر واحدة آءة. (٢) المرهءاء: التي لا تكتمل.

فصُغِقْ صَعْقَةً أَفْرَعْتَنِي وَقَالَ : أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ يَا أَشْقَرَ ، فَقُلْتَ : وَيْلَكَ يَا حَسَنَ ، إِنَّكَ أَفْرَعْتَنِي وَاللَّهِ ، فَقَالَ : بَلَى وَاللَّهِ أَنْتَ أَفْرَعْتَنِي وَرُعْتَنِي ، هَذَا مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي كَانَ فِكْرِي لِأَبَدٍ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهَا أَوْ غَوَّصَ عَلَيْهَا وَأَقْوَلُهَا ، فَسَبَقْتَنِي إِلَيْهِ وَاخْتَلَسَتْهُ مِنِّي ، وَسَتَعَلِمُ مَنْ يُرَوِّى أَلِي أَمْ لَكَ ؟ فَكَانَ وَاللَّهِ كَمَا قَالَ ، سَمِعْتُ مِنْ لَا يَعْلَمُ يَرَوِّيهَا لَهُ :

لَمَّا قَدِمَ الْمَأْمُونُ مِنْ خِرَاسَانَ أَمَرَ بِأَنْ يُسَمَّى لَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ لِجِبَالِسُوهُ وَيَسَامِرُوهُ ، فَذَكَرَ لَهُ جَمَاعَةٌ فِيهِمُ الْحُسَيْنُ بْنُ الضَّحَّاكِ ، وَكَانَ مِنْ جُلَسَاءِ مُحَمَّدِ بْنِ الْخَلْوَعِ ، فَلَمَّا رَأَى اسْمَهُ قَالَ : أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ :

هَلَا بَقِيَتْ لَسَدٌ فَاقْتَنَا * أَبَدَا وَكَانَ لَغَيْرِكَ التَّلَفُّ

فَلَقَدْ خَلَفْتَ خَلَائِفًا سَلَفُوا * وَلَسَوْفَ يُعْوِزُ بِعَدْلِكَ الْخَلَفُ

لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، وَاللَّهِ وَلَا يَرَانِي أَبَدًا إِلَّا فِي الطَّرِيقِ ، وَلَمْ يَعَاقِبِ الْحُسَيْنُ عَلَيَّ مَا كَانَ مِنْ هِجَائِهِ لَهُ وَتَعْرِيزِهِ بِهِ ، وَأَخَذَ حُسَيْنٌ إِلَى الْبَصْرَةِ فَأَقَامَ بِهَا طَوِيلَ أَيَّامٍ الْمَأْمُونُ .

قَالَ أَبُو صَالِحِ بْنِ الرَّشِيدِ : دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الْمَأْمُونِ وَمَعِيَ بَيْتَانِ لِلْحُسَيْنِ بْنِ الضَّحَّاكِ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ مِنِّي بَيْتَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْشِدْهُمَا ، فَأَنْشَدْتُهُمَا :

حَمَدْنَا اللَّهَ شُكْرًا إِذْ حَبَّانَا * بِنَصْرِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

فَأَنْتَ خَلِيفَةُ الرَّحْمَنِ حَقًّا * جَمَعْتَ سَمَاحَةً وَجَمَعْتَ دِينَا

فَقَالَ : لِمَنْ هَذَانِ الْبَيْتَانِ ؟ فَقُلْتُ : لِعَبْدِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حُسَيْنُ بْنُ الضَّحَّاكِ ، قَالَ : قَدْ أَحْسَنَ ، فَقُلْتُ : وَلَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجُودُ مِنْ هَذَا ، فَقَالَ : وَمَا هُوَ ؟ فَأَنْشَدْتُهُ قَوْلَهُ :

أَجْرُنِي فَإِنِّي قَدْ ظَمِئْتُ إِلَى الْوَعْدِ * مَتَى تُنَجِّزُ الْوَعْدَ الْمُؤَكَّدَ بِالْعَهْدِ

أَعِيدُكَ مِنْ خُلْفِ الْمُلُوكِ وَقَدْ بَدَا * تَقَطَّعَ أَنْفَاسٌ عَلَيْكَ مِنَ الْوَجْدِ

أَيُخْلِفُ فَرْدُ الْحَسَنِ عَنِّي بِنَائِلٍ * قَلِيلٌ وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ بِهَوَى فَرْدِ

رَأَى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ * فَمَلَّكَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَبْدِ

أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عَصْمَةٌ * مُمَيِّزَةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرُّشْدِ

فَأَطْرَقَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : ' مَا تَطْيِبُ نَفْسِي لَهُ بِخَيْرٍ بَعْدَ مَا قَالَ فِي أُنْحَى مُحَمَّدٍ مَا قَالَ .

ومن قوله يرثي محمدا الأمين :

أَطْلَ حَزْنَا وَأَبِكِ الْإِمَامَ مُحَمَّدًا * بجزن وإن خِفَتِ الحِسامُ المَهْنَدَا
فَلَا تَمَّتِ الْأَشْيَاءُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ * وَلَا زَالَ شَمَلُ الْمَلِكِ مِنْهَا مُبْتَدَا
وَلَا فَرِحَ الْمَأْمُونُ بِالْمَلِكِ بَعْدَهُ * وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا طَرِيدَا مُشْرَدَا

ولحسين في محمدا الأمين مراثٍ كثيرةٌ جيادٌ، وكان كثير التحقق به والمولاة له لكثرة إفضاله عليه، وميله إليه، وتقديمه إياه، وبلغ من جزعه عليه أنه خُوِطَ فكان يُنكر قتله لما بلغه ويدفعه ويقول: إنه مستتر وأنه قد وقف على دُعَاته في الأمصار يدعوون إلى مراجعة أمره والوفاء ببيعة ضنًا به وشفقة عليه .

ومن جيد مراثيه إياه قوله :

سَأَلُونَا أَنْ كَيْفَ نَحْنُ؟ فَقُلْنَا * مِنْ هَوَى نَجْمِهِ فَكَيْفَ يَكُونُ؟
نَحْنُ قَوْمٌ أَصَابَنَا حَدُّ الدَّهْرِ * رَ فظَلْنَا لِرَيْبِهِ نَسْتَكِينُ
نَقَمْنِي مِنَ الْأَمِينِ إِيَابَا * لَهْفَ تَمْسِي وَأَيْنَ مَنَى الْأَمِينِ

ومن جيد قوله في مراثيه إياه .

أَعَزَّيْ يَا مُحَمَّدُ عَنْكَ نَفْسِي * مَعَاذَ اللَّهِ وَالْأَيْدِي الْحِسامِ
فَهَلَّا مَاتَ قَوْمٌ لَمْ يَمُوتُوا * وَدُفِعَ عَنْكَ لِي يَوْمَ الْحِمامِ
كَأَنَّ الْمَوْتَ صَادَفَ مِنْكَ غُنْمًا * أَوْ آسَتْ شَفِي بِقَرَبِكَ مِنْ سَقَامِ

وقال أيضا يرثيه :

يَا خَيْرَ اسْرْتِهِ وَإِنْ زَعَمُوا * إِنِّي عَلَيْكَ لَمُثَبَّتٌ أَسْفُ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ لِي كَكَبِدَا * حَرَى عَلَيْكَ وَمَقَلَّةٌ تَكْفُ
وَلَيْنَ شَجِيحَتُ بِمَا رَزَيْتُ بِهِ * إِنِّي لِأَضْمُرُ فَوْقَ مَا أَصْفُ
هَلَّا بَقِيَتْ لَسَدٌ فَاقْتَنَا * أَبَدَا وَكَانَ لَغَيْرِكَ التَّلْفُ
فَلَقَدْ خَلَقْتَ خَلَاتِفًا سَلَفُوا * وَلَسَوْفَ يُعْوِزُ بِعَدَاكَ الْخَلْفُ

لا بات رهطك بعد هفوتهم * إني لرهطك بعدها شنيف^(١)
 هتكوا بجرمتك التي هتكت * حرم الرسول ودونها السجف
 وثبتت أقاربك التي خذات * وجميعها بالذل معترف
 لم يفعلوا بالشط إذ حضروا * ما تفعل الغيرة الأنف
 تركوا حريم أبيهم نقلا * والمحصنات صواريخ هتف
 أبدت مخاضها على دهش * أبكارهن ورنت النصف
 سلبت معايرهن وأجتليت^(٢) * ذات النقاب ونوزع الشنف
 فكأنهن خلال منتهب * در تكشف دونه الصدف
 ملك تخوف ملكه قدر * فوهى وصرف الدهر مختلف
 هيات بعدك أن يدوم لنا * عز وأن يبقى لنا شرف
 لا هيوا صخفا مشرفة * للغادرين تحتها الحدف
 أفعد عهد الله تقتله * والقتل بعد أمانة سرف
 فستعرفون غدا بعاقبة * عز الإله فأوردوا وقفسوا
 يامن يحون نومه أرق * هدت الشجون وقلبه لطف
 قد كنت لي أملا غنيت به * فمضى وحل محله الأسف
 مريج النظام وعاد منكرنا * عرفا وأنكر بعدك العرف
 فالشمل منتشر لفقذك وال * دنيا سدى والبال منكسف

وقال أيضا يرثيه :

إذا ذكر الأمين نعى الأمينا * وإن رقد الخلى حى الجفونا
 وما برحت منازل بين بصرى * وككواذى مهيج لى شجونا
 عراض الملك حاوية تهادى * بها الأرواح تنسجها فنونا

(١) مبعض منكر . (٢) جمع معجر بالسر وهو ثوب تعجز به المرأة أى تشده على رأسها .

تَخُونُ عِزَّ سَاكِنِهَا زَمَانٌ * تَلْعَبُ بِالْقُرُونِ الْأَوَّلِينَ
 فَشَتَّتْ شَمْلَهُمْ بَعْدَ اجْتِمَاعِ * وَكُنْتُ بِحَسَنِ الْفَتَمِ ضَمِينَا
 فَلَمْ أَرِ بَعْدَهُمْ حُسْنًا سِوَاهُمْ * وَلَمْ تَرَهُمْ عِيُونَ النَّاطِرِينَ
 فَوَاسِفًا وَإِنْ شَمَّتِ الْأَعَادَى * وَآهٍ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 أَضَلَّ الْعُرْفَ بَعْدَكَ مُتَّبِعُوهُ * وَرَفَقَهُ عَنِ مَطَايَا الرَّاعِبِينَ
 وَكُنَّ إِلَى جَنَابِكَ كُلِّ يَوْمٍ * يَرْحُنَ عَلَى السَّعُودِ وَيَقْتَدِينَا
 هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي هُوَتِ الْمَعَالَى * لِهَدْتَهُ وَرَبِيعَ الصَّالِحُونَ
 سَتَدْبُ بَعْدَكَ الدُّنْيَا جَوَارًا * وَتَدْبُ بَعْدَكَ الدِّينَ الْمُصَوَّنَا
 فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَةِ كُلِّ شَيْءٍ * وَعَادَ الدِّينَ مَطْرُوحًا مَهِينَا
 تَعْقُدُ عِزُّهُ مُتَّصِلٌ بِكُسْرَى * وَمِلَّتَهُ وَذَلَّ الْمَسَامُونَا

وقال أيضا يرثيه :

أَسَفًا عَلَيْكَ سَلَكَ أَقْرَبُ قُرْبَةً * مَنَى وَأَحْزَانِي عَلَيْكَ تَزِيدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي: حسين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول:

أَيُّ دِيَابِجَةٍ حُسَيْنٍ * هَيَّجَتْ لَوْعَةً حَزْنِي
 إِذْ رَمَانِي الْقَمَرُ الزَّا * هَرَمَ عَنْ فَتْرَةِ جَفْنِي
 بِأَبِي شَمْسٍ نَهَارٍ * بَرَزْتُ فِي يَوْمِ دَجْنِي
 قَرَّبْتَنِي بِالْمَنَى حَتَّى * مَيِّ إِذَا مَا أَخْلَفْتَنِي
 تَرَكْتَنِي بَيْنَ مَيْعَا * دِ وَخُلْفٍ وَتَجَنَّنِي
 مَا أَرَى فِي مَنْ الصَّبِّ * مَوَةَ إِلَّا حَسَنَ ظَنِّي
 إِنَّمَا دَامَتْ عَلَى الْغَدِ * رَلِمَا تَعْرِيفَ مَنِّي
 أَسْتَعِذُّ اللَّهَ مِنْ إِعْرَا * ضَمْنٍ مِنْ أَعْرَضَ عَنِّي

لما ولى المعتصم أمر بمكاتبة بالقدوم عليه ، فلما دخل وسلم استأذنه في الإنشاد ،
فأذن له ، فأنشده قوله :

هَلَا سَأَلْتَ تَلَذُّذَ الْمَشْتَاقِ * وَمَنْذَتَ قَبْلَ فِرَاقِهِ بِتَسْلَاقِ
إِنْ الرِّقِيبَ لِيَسْتَرِيبَ تَنْفُسًا * صُعْدَا إِلَيْكَ وَظَاهِرَ الْإِقْلَاقِ
وَلَيْثُنَ أَرَبْتُ لَقَدْ نَظَرْتُ بِمَقَالَةٍ * عَبْرِي عَلَيْكَ سَخِينَةَ الْآمَاقِ
نَفْسِي الْفِدَاءُ لِحَائِفِ مَرْتَقِيبٍ * جَعَلَ الْوَدَاعَ إِشَارَةً بَعِنَاقِ
إِذْ لَا جَوَابَ لِمُفْجَمٍ مَتَحَيِّرٍ * إِلَّا الدَّمُوعَ تُصَانُ بِالْإِطْرَاقِ

حتى انتهى الى قوله :

خَيْرُ الْوَفُودِ مَبَشِّرٌ بِخِلَافَةٍ * خَصَّتْ بِبَهْجَتِهَا أَبَا إِسْحَاقِ
وَافَتِهِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ سَلِيمَةً * مِنْ كُلِّ مَشْكَالَةٍ وَكُلِّ سِحْقِاقِ
أَعْطَتْهُ صَفْقَتَهَا الضَّائِرُ طَاعَةً * قَبْلَ الْأَكْفُفِ بِأَوْكَدِ الْمِيثَاقِ
سَكَنَ الْأَنْامُ إِلَى إِمَامٍ سَلَامِيَةٍ * عَفَّ الضَّمِيرَ مَهْدَبَ الْأَخْلَاقِ
غَمِي رَعِيَّتِهِ وَدَافِعَ دُونَهَا * وَأَجَارَ مُمْلَقَهَا مِنَ الْإِمْلَاقِ

حتى أتمها ، فقال له المعتصم : آذنُ مني ، فدنا منه ، فملا فمه جوهرًا من جوهر كان بين
يديه ، ثم أمره بأن يخرج من فمه ، فأخرجه وأمر بأن يُنظَّم ويدفع اليه ويخرج الى الناس
وهو في يده ، ليعلموا موقعه من رأيه ، ويعرفوا فضله ، فكان أحسن ما مُدِح به يومئذ .

ومن شعره قوله :

أَمِينَ اللَّهِ يُقَى بِاللَّهِ * لَهُ تُعْطَى الصَّبْرَ وَالنُّصْرَةَ
كِلِ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ * كَلَّاكَ اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ
لَنَا النَّصْرَ بَعُونَ اللَّهِ * وَالْعَكْرَةَ لَا الْفَرْزَةَ
وَاللُّسْرَاقَ أَعْدَا * نَكَ يَوْمَ السُّوءِ وَالذَّبْرَةَ
وَكُلَّ مَن تَلْفِظَ الْمَوْتَ * كَرِيهَ طَعْمُهَا مَرَّةً

سَقُونَا وَسَقِينَاهُمْ * وَلَكِنْ بِهِمِ الْحِرَّةُ
كَذَلِكَ الْحَرْبُ أَحْيَانًا * عَلَيْنَا وَلَنَا مَرَّةٌ

ومن قوله في غضب حِطْيَةَ للوائق من زيارته أخرى في نوبتها :

غَضِبْتُ أَنْ زَرْتُ أُخْرَى خِلْسَةً * فَلَهَا الْعُتْسَى لَدَيْنَا وَالرِّضَا
يَا فَدْتُكَ النَّفْسُ كَانَتْ هَفْوَةً * فَاعْفِرْهَا وَأَصْفَحْ عِمَا مَضَى
وَأَتْرَكَ الْعَدْلَ عَلَى مَنْ قَالَهُ * وَأَنْسَى جَوْرِي إِلَى حَكْمِ الْقَضَا
فَلَقَدْ نَهَيْتَنِي مِنْ رَفَقَتِي * وَعَلَى قَلْبِي كَعِيرَانَ الْعَضَا

كان اللوائق يتحطى جارية له فماتت ، فجزع عليها وترك الشراب أياما ، ثم سلاها وعاد
الى حاله ، فدعا الحسين ليلية وقال له : رأيت فلانة في النوم فليت نومي كان طال قليلا
لا تمتع بلقائها ، فقل في هذا شيئا ، فقال :

لَيْتَ عَيْنَ الدَّهْرِ عَنَا غَفَلْتُ * وَرَقِيبَ اللَّيْلِ عَنَا رَقَدَا
وَأَقَامَ النَّوْمُ فِي مَدَّتِهِ * كَالَّذِي كَانَ وَكَمَا أَبَدَا
بِأَبِي زَوْرٌ تَلَفَّتْ لَهُ * فَتَنَفَّسْتُ إِلَيْهِ الصُّعَدَا
بَيْنَمَا أَضْحَكَ مَسْرُورًا بِهِ * إِذْ تَقَطَّعْتُ عَلَيْهِ كَعِيدَا

لما أعيته الحيلة في رضا المأمون عنه رمى بأمره الى عمرو بن مسعدة وكتب اليه :

أَنْتَ طَوْدِي مِنْ بَيْنِ هَذِي الْهَضَابِ * وَشِهَابِي مِنْ دُونَ كُلِّ شِهَابِ
أَنْتَ يَا عَمْرُو قُوَّتِي وَحَيَاتِي * وَلِسَانِي وَأَنْتَ ظُفْرِي وَنَابِي
أُرَانِي أَنْسَى أَيْدِيكَ إِلَيْهِ * ضَ إِذَا أَسْوَدَ نَائِلُ الْأَصْحَابِ
أَيْنَ أَخْلَافِكَ الرِّضِيَّةَ حَالَتْ * فِي أَمِّ أَيْنَ رِقَّةَ الْكُتَّابِ؟
أَنَا فِي ذِنَّةِ السَّحَابِ وَأَطْمَأ؟ * إِنَّ هَذَا لَوْصَمَةٌ فِي السَّحَابِ
فَمَ إِلَى سَيِّدِ الْبَرِيَّةِ عَنِي * قَوْمَةٌ تَسْتَجِرُّ حُسْنَ الْخَطَابِ
فَلَعَلَّ الْإِلَهِ يُطْفِئُ عَنِّي * بِكَ نَارًا عَلَى ذَاتِ الْتِهَابِ
فَلَمْ يَزَلْ عَمْرُو يُطِيفُ لِلْمَأْمُونِ حَتَّى أَوْصَلَهُ إِلَيْهِ وَأَدْرَأَ رِزْقَهُ .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحضاره، فلما حضر سلم، فرد عليه السلام ردًا جافياً، ثم أقبل عليه فقال: أخبرني عنك، هل عرفت يوم قُتل أخى محمد هاشمية قُتلت أو هُتكت؟ قال: لا، قال: فما معنى قولك:

وَسِرْبُ ظَبَاءٍ مِنْ ذُوَابَةِ هَاشِمٍ * هَتَفُنْ بِدَعْوَى خَيْرِ حَى وَمَيِّتٍ
أَرَدُّ يَدًا مَنَى إِذَا مَا ذَكَرْتُهُ * عَلَى كَبِدِ حَرَى وَقَلْبٍ مُقَتَّتِ
فَلَا بَاتَ لَيْلُ الشَّامَتَيْنِ بِغَبِطَةٍ * وَلَا بَلَغَتْ أَمَاهُمَ مَا تَمَّتِ

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعة غلبتني، وروعة فاجأتني، ونعمة فقدتها بعد أن عمرتني، وإحسان شكرته فأنطقني، وسيد فقدته فأقلقني، فإن عاقبت فبحقك، وإن عطفت فبفضلك، فدمعت عينا المأمون وقال: قد عفوت عنك، وأمرت بإدراار رزقك، وإعطائك ما فات منه، وجعلت عقوبتك امتناعي من استخدامك.

ومن قوله:

وَكَالْوَرْدَةِ الْجَمْرَاءِ حَيَا بِأَحْمَرٍ * مِنَ الْوَرْدِ يَمْشِي فِي قَرَاطِقِ كَالْوَرْدِ
لَهُ عِبَائَةٌ عِنْدَ كُلِّ تَحِيَّةٍ * بَعَيْنِهِ تَسْتَدْعِي الْحَلِيمَ إِلَى الْوَجْدِ
تَمَنَيْتُ أَنْ أَسْقَى بِكَفَيْهِ شَرِبَةً * تَزْكُرُنِي مَا قَدْ نَسِيْتُ مِنَ الْعَهْدِ
سَقَى اللَّهُ دَهْرًا لَمْ أَتْ فِيهِ لَيْلَةٌ * خَلِيًّا وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ عَلَى وَعْدِ

ومن قوله:

وَإِيَّابِي مُفْحَمٌ لِعَزَّتِهِ * قُلْتُ لَهُ إِذَا خَلَوْتُ مَكْتَمًا
تُحِبُّ بِاللَّهِ مِنْ يَخْصُكَ بِالِ * وَدُفَمَا قَالَ لَا وَلَا نَعْمًا
ثُمَّ تَوَلَّى بِمُقَلَّتِي خَيْجَلٍ * أَرَادَ رَجْعَ الْجَوَابِ فَاحْتَمَا
فَكُنْتُ كَأَلْبُنِي بِحَيْلَتِهِ * بُرَاءً مِنَ السُّقْمِ فَابْتَدَأَ سَقَا

وقال في هوّى له:

عَالِمٌ بِحَيِّيهِ * مَطَرِيقٌ مِنَ النَّيِّهِ
يُوسُفُ الْجَمَالِ وَفِر * عَوْنٌ فِي تَعَدِّيهِ

لا وحقُّ ما انا فيه * ه من عطفِ أَرْجِيهِ
 ما الحياةُ نافعة * لى على تَأْبِيهِ
 النعيمُ يَسْغَلُهُ * والجمالُ يُطْفِيهِ
 فهو غيرُ مكترث * للذى الأَاقِيهِ
 تَأْتِيهِ تَرْهَدُهُ * في رغبتي فِيهِ

ومن قوله فى هوى له :

إن من لا أرى وليس يرانى * نُصِبَ عيني مُثَمِّلٌ بالأمانى
 أبى من ضميره وضميرى * أبدا بالمغيب يتجيان
 نحن شخصان إن نظرت ورو * حان اذا ما آخبرت يمترجان
 فاذا ما هممتُ بالأمر أو همَّ * بشيء رأته وبدانى
 كان وفقاً ما كان منه ومتى * فكأنى حكيته وحكافى
 خَطَرَاتُ الجفون منا سواء * وسواء تحرك الأبدان

ومن قوله :

فَدَيْتُ من قال لى على خَفَرِهِ * وَغَضَّ من جفنه على حَوَرِهِ
 سمع بأشعارك المليح فما * يَنفَكُ شادها على وَتَرِهِ
 حسبك بعضُ الذى أذعت ولا * حَسْبُ لِيَصَّبَ لم يَقْضِ من وَطَرِهِ
 وقلت يا مستعير سالفة الـ * يَخْشِفُ وحسنِ القُتُور من نَظَرِهِ
 لا تترك الحبيب من طَرَبٍ * عاود فيك الصبا على كبره

ومن قوله :

سائل بطيفك عن ليلى وعن سهرى * وعن نتاج أنفاسى وعن فكرى
 لم يَحُلْ قلبى من ذكراك إذ نظرت * عيني اليك على صحوى ولا سكرى
 سقياً ليوم سرورى إذ تنازعنى * صفوا المدامة بين الأأس والحفر

وَفَضْلُ كَأْسِكَ يَا تَبْنِي فَأَشْرِبُهُ * جَهْرًا وَتَشْرِبُ كَأْسِي غَيْرَ مُسْتَتِرٍ
وَكَيْفَ أَشْمِلُهُ لَثْمِي وَأَلْزِمُهُ * نَحْرِي وَتَرْفَعُهُ كَفْتِي إِلَى بَصْرِي
فَلَيْتَ مُدَّةَ يَوْمِي إِذْ مَضَى سَلْفًا * كَانَتْ وَمُدَّةَ أَيَّامِي عَلَى قَدَرٍ
حَتَّى إِذَا مَا أَنْطَوْتَ عَنَّا بِشَاشَتِهِ * صِرْنَا جَمِيعًا كَذَا جَارَيْنِ فِي الْحُقْرِ
وَمَنْ قَوْلُهُ لَهْوِي كَانَ لَهُ :

تَعَزَّ بِبِأْسٍ عَنِ هَوَايَ فَإِنِّي * إِذَا أَنْصَرَفْتَ نَفْسِي فَهِي هَاتِ عَنْ رَدِّي
إِذَا خُنْصَمْتُ بِالْغَيْبِ وَدَى فَمَالِكُمْ * تُدَلُّونَ إِدْلَالَ الْمَقِيمِ عَلَى الْعَهْدِ
وَلِي مِنْكَ بَدٌّ فَاجْتَنِبْنِي مَدْمَمًا * وَإِنْ خِلْتَ أَنِّي لَيْسَ لِي مِنْكَ مِنْ بَدٍّ
لَمَّا وَلِيَ الْوَائِقِ الْخِلَافَةَ أَنْشَدَهُ حَسِينُ :

أَكْتَمْتُ وَجْدِي فَمَا يَنْكُتُمْ * بِنِ لَوْ شَكُوتُ إِلَيْهِ رَحِمٌ
وَإِنِّي عَلَى حَسَنِ ظَنِّي بِهِ * لِأَحْذَرُ إِنْ بُوْحْتُ أَنْ يَحْتَسِمَ
وَلِي عِنْدَ لِحْظَتِهِ رَوْعَةٌ * تَحْقُقُ مَا ظَنَّهَ الْمُتَمِّمَ
وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنِّي لَهُ * مَحَبٌّ وَأَحْسَبُهُ قَدْ عَلِمَ
وَإِنِّي لَمُغِيضٌ عَلَى لَوْعَةٍ * مِنْ الشُّوقِ فِي كَبْدِي تَضْطَرِّمَ
عَشِيَّةً وَدَعَتُ عَنْ مَقَلَّةٍ * سَفُوحَ وَزْفَرَةَ قَلْبِي سِدِّمَ
فَمَا كَانَ عِنْدَ النَّوَى مُسْعِدٌ * سِوَى الْعَيْنِ تَمْزِجُ دَمْعًا بِدَمِ
سَيِّدِ كَرَمٍ مِنْ بَانَ أَوْطَانَهُ * وَيَسْكِي الْمَقِيمِينَ مِنْ لَمْ يَقُمْ

كتب إلى الحسن بن رجا في يوم شك، وقد أمر الواثق بالإفطار، فقال :

هَزَزْتُكَ لِلصَّبُوحِ وَقَدْ نَهَانِي * أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الصِّيَامِ
وَعِنْدِي مِنْ قِيَانِ الْمِصْرِ عَشْرٌ * تَطِيبُ بَهْرَ عَاتِقَةِ الْمَدَامِ
وَمِنْ أَمْثَالِهِنَّ إِذَا أَنْتَشِينَا * تَرَانَا نَجْتَنِي تَمْرَ الْغَرَامِ
فَكَيْنَ أَنْتَ الْجَوَابُ فَلَيْسَ شَيْءٌ * أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ حَذْفِ الْكَلَامِ

فوردت رقعته ، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْحَرَّ ووجهه إليه بغلامٍ نظيف الوجه
ومعه ثلاثة غلّمة أقران حسان الوجه ، ومعهم رُقعة كتبها كما تكتب المناشير ، وختمها
في أسفلها وكتب فيها يقول :

سِرُّ على أسم الله يا أش * كل من غصن بلحِين
في ثلاث من بنى الرو * م إلى دار حسين
أشخص الكهل الى مو * لأك يا قرة عيني
أره العنّف اذا أستع * صى وطالبه بدّين
ودع اللفظ وخاطب * ه بغمز الحاجبين
واحذر الرجعة من وج * مك في حقيّ حنين

فضى معهم .

ومن قوله لمن اعرض عنه :

تّيبه علينا أنّ رزقت ملاحه * فهلا علينا بعض تيهك يا بر
لقد طال ما كنا ملاحا وربما * صددنا وتمنا ثم غيرنا الدهر

وله في هوى حجب عنه :

ظنّ من لا كان ظنّ * ا بحبيبي فمآه
أرصد الباب رقيدي * ن له فاكنتفاه
فإذا ما اشتاق قربي * ولقائي منعه
جعل الله رقيدي * ه من السوء فداه
والذي أفرح في الشا * دن قلبي ولواه
كلّ مشتاق اليه * فمن السوء فداه
سيّما من حالت الأح * راس من دون منهاه

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه ، فلم يطق ذلك لكبر سنه ، فقال للمتوكل بعض من حضر عنده : هو يطبق الذهاب الى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك ؛ فبلغه ذلك ، فدفع الى أحمد بن حمدون أبياتا قالها وسأله إيصالها ، فأوصلها الى المتوكل ، وهي :

أما في ثمانين ووفيتها * عذير وإن أنا لم اعتذر
فكيف وقد جزتها صاعدا * مع الصاعدين يتسع أثر
وقد رفع الله أقلامه * عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصر على فتنة * وألحد في دينه أو كفر
وإني لمن أسراء الإل * به في الأرض نصب صروف القدر
فإن يقض لي عملا صالحا * اثاب وإن يقض شرًا غفر
فلا تلح في كبر هتدي * فلا ذنب لي أن بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب * فمن ذا يلوم إذا ما عذر
وإني لنتي كنيف مغدق * وعز بنصر أبي المتصر
يأري الرياح بفضل السما * ج حتى تبدد أو تتحير
له أكد الوحي مراثه * ومن ذا يخالف وحى السور
وما للفسود وأشباهه * ومن كذب الحق إلا الحجر

فلما أوصلها شيعها بكلام يعذره وقال : لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها ؛

فقال المتوكل : صدقت ، وأمر له بعشرين ألف درهم .

(١)
٥ - محمد بن عبد الملك الزيات

كان محمد شاعرا مجيدا لا يُقاس به أحد من الكتاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك ، فإن إبراهيم مُقلِّ وصاحب قصار ومقطعات . وكان محمد شاعرا يُطيل فيجيد ، ويأتي بالقصار فيجيد ؛ وكان بليغا حسن اللفظ اذا تكلم واذا كتب .

ولما تولى محمد الوزارة اشترط ألا يلبس القباء ، وأن يلبس الدرّاعة ويتقلد عليها سيفا بجائل ، فأجيب الى ذلك .

وكان يقول : الرحمة خور في الطبيعة ، وضعف في المنّة ، ما رحمت شيئا قط ؛ فكانوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول ، فلما وُضع في الثقل والحديد قال : آرحموني ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فترحم ؟ هذه شهادتك على نفسك وحكّمك عليها .

لما ماتت أمّ ابنه عمر ورثاها بقصيدة منها :

يقول لي الخللان لو زرت قبرها * فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر

على حين لم أحدث فأجهل قبرها * ولم أبلغ السن التي معها الصبر

ومن شعره قوله :

ما أعجب الشيء ترجوه فتحرّمه * قد كنت أحسب أني قد ملات يدي

مالي اذا غبت لم أذكر بصالحه * وإن مريضت فطال السقم لم أعد

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة واشتهر بابن الزيات لأن جده (أبان) كان يجلب الزيت من مواضعه الى بغداد ، وكان أدبيا شاعرا عالما بالنحو واللغة ، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة ، وكان في أول أمره من جملة الكتاب ثم صار وزيرا للعتصم ولأبيه الواثق . ولما تولى المتوكل قبض عليه وأمر بإدخاله في نور من حديد كان ابن الزيات أعده لتعذيب المصادر بن وأرباب الدوا من المطالبين بالاموال وقيدته بحزمة عشر رطلا من حديد ، ثم أمر بانجازه بعد أن مكث فيه أربعين يوما ، فوجدوه ميتا وذلك سنة ٢٣٣ هـ . ويجد ترجمته في الأغاني (ج ٢٠ ص ٤٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ٧٨) .

ومن شعره قوله :

ألم تعجب لمكتئبٍ حزيرٍ * خدين صبايةٍ وحليفٍ صبرٍ
يقول إذا سألت به بخيرٍ * وكيف يكون مهاجورٌ بخيرٍ

وكان لمحمد بردون أشهب لم ير مثله فراهة وحسنا، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم

ووصف له فراهته، فبعث اليه المعتصم فأخذه منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :

كيف العزاء وقد مضى لسبيله * عنا فودعنا الأحسم الأشهبُ
دبَّ الوشاةُ فأبعدوك وربما * بعد الفتي وهو الأحبُّ الأقرب
لله يومَ نأيت عني ظاعنا * وسُلبتُ قربك أيّ علق أُسلب
نفسٌ مفرقةٌ أقام فريقها * ومضى لطيبته فريقٌ يُحِبُّ
فالآن اذ كُملت أداتك كلها * ودعا العيونَ اليك لونٌ مُعجِبُ
وأختير من سِرِّ الحدائدِ خيرها * لك خالصا ومن الحليّ الأغرِبُ
وغدوتَ طنانَ الجمامِ كأنما * في كلِّ عضوٍ منك صنَجٌ يضربُ
وكان سرجك إذ علاك غمامةٌ * وكأنما تحت الغمامة كوكبُ
ورأى على بك الصديقُ جلاله * وغدا العدوُّ وصدْرُهُ يتلهبُ
أنسالك لا زالت إذا منيته * نفسى ولا زالت يمينى تتكبُ
أضمرتُ منك اليأس حين رأيتنى * وقوى حبالى من قواك تقضبُ
ورجعتُ حين رجعتُ منك بحسرة * لله ما فعل الأحسم الأشهبُ

ومثا وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة آقترض من مياسير التجار مالا، فأخذ من

عبد الملك أبي محمد عشرة آلاف درهم وقال له : أنا أردتها إذا جاءنى مال، ولم يتم أمره،
فأستخفى ثم ظهر ورضى عنه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم، فقال : إنما أخذتها للمسلمين
وأردت قضاءها من فيهم، والأمر الآن الى غيرى، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة
خاطب فيها المأمون وبغضى الى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطنى

المال الذي اقترضته من أبي لأوصلان هذه القصيدة الى المأمون، نخاف أن يقرأها المأمون
فيتدبر ما قاله ، فيوقع به ، فقال له : خذ مني بعض المال ونجِّم عليّ بعضه ، ففعل ؛
والقصيدة قوله :

ألم تر أن الشيء للشيء علة * تكون له كالنار تُقدح بالزُّند
كذلك جرّبت الأمور وإنما * يدُّك ما قد كان قبل على البعد
وظني بإبراهيم أن مكانه * سيّعت يوما مثل أيامه النُّكد
رأيت حسينا حين صار محمداً * بغير أمان في يديه ولا عقيد
فلو كان أمضى السيف فيه بضربة * فصيره بالقاع مُنعِفَ الحَدِّ
إذا لم تكن للجنود فيه بقيّة * فقد كان ما بلّغت من خبر الجنيد
هم قتلوه بعد أن قتلوا له * ثلاثين ألفاً من كُهل ومن مُرد
وما نصره عن يد سلفت له * ولا قتلوه يوم ذلك عن حقد
ولكنه الغدر الصُّراخ وخفة الـ * حلوم وبعْد الرأى عن سنن التّصد
فذلك يوم كان للناس عبرة * سبق بقاء الوحى في الحجر الصّلد
وما يوم إبراهيم إن طال عمره * بأبعد في المكروه من يومه عندى
تذكر أمير المؤمنين مقامه * وأيمانه في الهزل منه وفي الحدِّ
أما والذي أمسيت عبداً خليفة * له شرّ إيمان الخليفة والعبد
إذا هنّ أعواد المنابر بأسنّته * تغنى بليلى أو يمّية أو هند
فوالله ما من توبة نزعت به * اليك ولا ميلى اليك ولا ود
ولكن إخلاص الضمير مقرب * الى الله زلنى لا تبيد ولا تُكدي
أناك بها كرها اليك بأنفسه * على رَغْمه وأسأثر الله بالحمد
فلا تتركّن للناس موضع شبهة * فإنك مجزى بحسب الذي تُسدى
فقد غلطوا للناس في نصب مثله * ومن ليسر للنعصور باين ولا المهدي

فكيف بمن قد بايع الناس وألتقت * ببيعةه الرُكبان غورا الى نجد
 ومن سَكَ تسلُّمُ الخلافة سمعه * يُنادى به بين السماطين من بعد
 وای امرئ سَمَّى بها قط نفسه * ففارقها حتى يُغيب في اللحد
 وترعم هَذي النَّبِيَّةُ أنه * إمام لها فيما تُسرّ وما تُبدي
 يقولون سُنِّي وَايَةُ سُنَّة * تَمُّ بَصْعَلِ الرَّاسِ جَوْنِ الْقَفَا جَعْد
 وقد جعلوا رُخْصَ الطعام بعهده * زعيا له بائمين والكوكب السَّعيد
 اذا ما رأوا يوما غَلاءَ رأيتهم * يَحْنُونُ تَحْنَانًا الى ذلك العهد
 وإقباله في العيد يُوجِفُ حوله * وَجِيفَ الْجِيَادِ وَاصْطَكَكَ الْقَنَا الْجُرْد
 وَرَجَالَهُ يَمْشُونَ بِالْبَيْضِ قَبْلَهُ * وَقَدْ تَبَعُوهُ بِالْقَضِيبِ وَبِالْبُرْد
 فإن قلتَ قد رامِ الخِلافةَ قَبْلَهُ * فلم يُؤْتِ فيما كان حاول من جدِّ
 فلم أَجْزِهِ إِذْ خِيبَ اللهُ سَعِيه * على خطأ إذ كان منه على عَمْد
 ولم أَرْضَ بعد العفو حتى رَفَعْتُهُ * وَللَعَمْرُأى بِالْتَقَمُدِ وَالرَّفْدِ
 فليس سَواءً خَارِجِيٌّ رَمَى به * اليك سَفَاهَ الرَّأْيِ وَالرَّأْيِ قَدْ يُرْدَى
 تَعَادَتْ لَهُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ عَصَابَةٌ * متى يُوردوا لا يُصدروه عن الوِردِ
 ومن هو في بَيْتِ الخِلافةِ تَلْتَقِي * به وبك الآباءُ في ذِرْوَةِ المَجْدِ
 فمولاك مولاهُ وَجُنْدُكَ جُنْدُهُ * وهل يَجْمَعُ القَيْنِ الحُسَامِينَ فِي عَمْدِ
 وقد رَأَيْتُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ أَنِّي * رأيتُ لهم وَجْداً به أَيَّما وَجْدِ
 يقولون لا تُبْعَدُ مِنْ آبِنِ مُلَيْسَةٍ * صَبُورٍ عَلَى اللّأَوَاءِ ذِي مِرَّةٍ جَلْدِ
 فدانا وهانت نفسه دون مُلْكَنا * عليه لدى الحال التي قَلَّ مَنْ يَفْدَى
 على حينِ أعطَى النَّاسُ صَفْقَ أَكْفِهِمْ * على بن موسى بِالوِلايَةِ وَالْعَهْدِ
 فما كان فينا من أَبِي الضَّمِيمِ غَيْرُهُ * كَرِيمٍ كَفَى ما في القَبُولِ وَفِي الرَّدِّ
 وَجَدَ إِبراهِيمَ لِلبُوتِ نَفْسَهُ * وأبدي سِلاحاً فوق ذِي مَيْعَةٍ نَهْدِ

وأبلى ومن يبلغ من الأمر جهده * فليس بمذموم وإن كان لم يُحْدِ
فهذى أمور قد يخاف ذوو النهى * مغبتها والله يهديك للرشيد
وكانت الخلافة في أيام الواثق تدور على إيتاخ وكتبه سليمان بن وهب ، وعلى أشناس
وكتبه أحمد بن الخصيب ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها الى الواثق على أنها
لبعض أهل العسكر، وهي :

يا بن الخلائف والأملك إن نُسبوا * حُرِّتِ الخِلافةَ عن آباءك الأول
أَجْرَتْ أم رقدت عيناك عن حُجَب * فيه البرية من خوف ومن وهَل
وَلَيْتَ أربعةَ أمر العباد معا * وكلُّهم حاطِبٌ في حبل مُحْتَبِل
هذا سليمانٌ قد ملكت راحته * مشارق الأرض من سهل ومن جبل
ملكته السند فالشَّحْرُين من عدن * الى الجزيرة فالأطراف من ملل
خِلافةٌ قد حواها وحده فمَضَّتْ * أحكامه في دماء القوم والنقل
وَأبن الخِصِيب الذي ملكت راحته * خِلافةَ الشَّام والغازين والقفل
فَيْبُلُ مِصرَ فبحرُ الشَّام قد جَرَّيَا * بما أراد من الاموال والحُلل
كأنهم في الذي قَسَمَتْ بينهم * بنو الرشيدي زمانَ القَسَمِ للدُّوَل
حَوَى سليمانٌ ما كان الأُمِينُ حوى * من الخِلافة والتبليغ للأمل
وأحمدُ بن خِصِيب في إمارته * كالفاسم بن الرشيدي الجامع السُّبُل
أصبحت لا ناصحٌ يأتيك مستترا * ولا عِلايَةَ خوفا من الحِيل
سل بيتَ مالك أين المال تعرفه * وسل نَراجك عن أموالك الجُمَل
كم في حُبوسك ممن لا ذنوب لهم * أسرى التَّكذِب في الأقياد والجُكَل
سميت باسم الرشيدي المرتضى فيه * تُسمى الأمور التي تُنحَى من الزَّلَل
عِثَ فيهم مثل ما عاثت يدها معا * على البرامك بالتهديم للقُلَل

فلما قرأ الواثق هذا الشعر غاظه ، ونكب سليمان بن وهب وأحمد بن الخصيب ،
وأخذ منهما ومن أسبابهما ألفي دينار فجعلها في بيت المبال .

٦ - ابن البواب^(١)

لما أتى المأمون بشعر ابن البواب الذي يقول فيه :

أَيخَلَّ فَرْدُ الحَسَنِ فَرْدُ صِفَاتِهِ * عَلَى وَقْدِ أَفْرَدْتُهُ بهَوَى فَرْدِ
رَأَى اللهُ عَبْدَ اللهِ خَيْرَ عِبَادِهِ * فَمَلَّكَهُ اللهُ أَعْلَمَ بالعَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا المَأْمُونُ للنَّاسِ عِصْمَةٌ * مُمَيِّزَةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ والرَّشْدِ

فقال المأمون : أليس هو القائل :

أَعْنَى جُودًا وَأَبِيكَأ لِي مُحَمَّدًا * وَلَا تَذَنَّرَا دَمْعًا عَلَيْهِ وَأَسْعِدَا
فَلَا فِرْحَ المَأْمُونُ بِالمَلِكِ بَعْدَهُ * وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا شَرِيذًا مُطَوَّرًا

واحدة بواحدة، ولم يصله بشيء . ولما سخط عليه قال قصيدة يمدحه بها، ودس من غناه في بعضها لما وجد منه نشاطا، فسأل: من قائلها، فأخبر به، فرضى عنه وردّه إلى رسمه من الخدمة، وهي :

هَلْ لِلحَبِّ مُعِينٌ * إِذْ شَطَّ عَنْهُ القَرِينُ
فَلَيْسَ يَبْكِي لِشَجْوِ الِ * حَزِينٍ إِلَّا الحَزِينُ
يَا ظَاعِنَا غَابَ عَنَّا * غَدَاةَ بَانَ القَطِينُ
أَبْكَى العَيُونَ وَكَانَتْ * بِهِ تَقَرَّرَ العَيُونَ
يَا أَيُّهَا المَأْمُونُ الِ * مَبَارَكُ المَيْمُونُ
لَقَدْ صَفَّقَتْ بِكَ دُنْيَا * لِلسَّامِعِينَ وَدِينُ
عَلَيْكَ نُورٌ جَلالٌ * وَنُورُ مُلْكٍ مُبِينُ

(١) هو عبد الله بن غتاب من أهل بخارى، ورجى بجمته وجماعة معه رهبة إلى الحاج بن يوسف، فنزلوا عنده بواسطة، فأقطعهم سكة بها، فاقتطعها ونزلوها طول أيام بن أمية، ثم انقطعوا من الدولة العباسية إلى الربيع نخدموه، وكان عبد الله بن محمد هذا يخلف الفضل بن الربيع على حجة الخلفاء، وكان صالح الشعر قليله وراوية لاخبار الخلفاء طالما بأمرهم .

• بيئاته مبيحة : ص ١١١ (١)

القولُ منك فعّال * والظنُّ منك يقين
 ما من يديك شمال * ككتا يديك يمين
 كأنما أنت في الجو * د والتقى هارون
 مَنْ نال من كل فضل * ما ناله المأمون
 تألف الناس منه * فضلٌ وجود ولين
 كالبدر يبدو عليه * سكينَةٌ وسكون
 فالرزق من راحتيه * مقسّم مضمون
 وكل خصلة فضل * كانت فمنه تكون

ومما يغني فيه قوله :

أفنى أيها القلب المعبذب كم تصبؤ؟ * فلا النأي عن سمالك يسلى ولا القربُ
 أقول غداة استخبرت ميم علي؟ * من الحب كربٌ ليس يشبهه كرب
 اذا أبصرتك العين من بعد غاية * فأدخلت شكافيك أثبتك القلب
 ولو أن ركبا يمموك لققاهم * نسيمك حتى يستدل بك الركب

أملق ابن البواب حين جفاه الخليفة وعلت سنه عن الخدمة، فرحل الى أبي دلف
 القاسم بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها الى بغداد، فما
 نفدت حتى مات، وهي قوله :

طرقتك صائدة القلوب رباب * ونأت فليس لها اليك ماب
 وتصرمت منها العهود وغلقت * من دون نيل طلابها الأبواب
 فلا صدق عن الهوى وطلابه * فالحب فيه بليّة وعذاب
 وأخص بالمدح المهذب سيّدا * نفحاته للجدّين^(١) رغب
 والى أبي دلف رحلت مطيتي * قد شفها الإرقال والإتباب

(١) الأرقال : ضرب من الحب .

تعلو بنا قُلَلُ الجبال ودونها * مما هَوَتْ أهويةً وشِعَاب
 فاذا حَلَّتْ لدى الأمير بأرضه * نلتُ المنى وتقضتِ الآرابُ
 مَلِكٌ تَأْتِلُ عن أبيه وجدده * مجَّدًا يقصِّر دونه الطُّلَابُ
 وإذا وَزَّنتِ قديمَ ذى حَسَبٍ به * خَضَعَتْ لفضل قديمه الأحسابُ
 قومَ علُوا أملاكَ كلِّ قبيلة * فالناسُ كلَّهم له أذنانُ
 ضَرِبَتْ عليه المكرماتُ قِبابها * فعلا العمودُ وطالت الأطنابُ
 عَقِمَ النساءُ بمثله وتعطلت * من أن تُضَمَّنَ مثله الأَصْلَابُ

٧ - الخُرَيْمِيُّ (١)

كان متصلاً بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وله فيه مدائح جَيَاد، ثم رثاه بعد موته، فقيل له : يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مرثيتك وأجود، فقال : كَمَا يَوْمُئِذْ نَعْمَلُ عَلَى الرَّجَاءِ، وَنَحْنُ الْيَوْمَ نَعْمَلُ عَلَى الْوَفَاءِ، وَبَيْنَهُمَا بَوْنٌ بَعِيدٌ . وهو القائل في عينيه :

أُصْغِي إِلَى قَائِدِي لِيُخْبِرَنِي * إِذَا التَّقِينَا عَمَّنْ يُحْيِينِي
أُرِيدُ أَنْ أُعِدِلَ السَّلَامُ وَأَنْ * أَفْضَلَ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالذُّونِ
أَسْمَعُ مَا لَا أَرَى فَأَكْرَهُ أَنْ * أَخْطِئُ وَالسَّمْعُ غَيْرُ مَا مَوْنِ
لِلَّهِ عَيْنِي الَّتِي يُجْعَتُ بِهَا * لَوْ أَنَّ دَهْرًا بِهَا يُوَاتِينِي
لَوْ كُنْتُ خَيْرَتْ مَا أَخَذْتُ بِهَا * تَعْمِيرَ نُوْحٍ فِي مَلِكِ قَارُونِ
حَقٌّ أَخْلَانِي أَنْ يَعودُونِي * وَأَنْ يُعْزُوا عَنِّي وَيَبْكُونِي

وهو القائل :

إِذَا مَا مَاتَ بَعْضُكَ فَبِكَ بَعْضًا * فَإِنَّ الْبَعْضَ عَنِ الْبَعْضِ قَرِيبٌ
يُمْنِنِي الطَّيِّبُ شِفَاءَ عَيْنِي * وَهَلْ غَيْرُ الْإِلَهِ لَهَا طَيِّبٌ

(١) هو إسحاق بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من العجم، وهو القائل :

إِنَّ أَمْرًا مِنْ سِرَاةِ الصَّفَدِ أَلْبَسَنِي * عَرَقَ الْأَعَاجِمِ جِلْدًا طَيِّبَ الْخَبْرِ

وكان مولى ابن خريم الذي يقال لأبيه : خريم الناعم . وهو خريم بن عمرو بن بنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . وعنى أبو يعقوب الخريمي بعد ما أسن، وكان يقول في ذلك شعرا، فنه قوله :

فَإِنَّ تَكْ عَيْنِي خَبَا نُورَهَا * فَكَمْ قَبْلَهَا نُورَ عَيْنِ خَبَا
فَلَمْ يَعْمَ قَلْبِي وَلَكِنَّمَا * أَرَى نُورَ عَيْنِي إِلَيْهِ مَرَى
فَأَسْرَجَ فِيهِ إِلَى نُورِهِ * سَرَاجًا مِنَ الْعِلْمِ شَفَى الْعَمَى

وقال يذكر بغداد والفتنة التي كانت بها :

قالوا ولم يلعب الزمانُ بيغ * مداد وتَعَثَّرُ بها عواثرُها
 إذ هي مثلُ العروسِ بادِئُها * مَهْوَلٌ للفتى وحاضِرها
 جَنَّةٌ دنيا ودارٌ مَغْبَطَةٌ * قَلَّ مِنَ النَّائِبَاتِ وَأَثَرُهَا^(١)
 دَرَّتْ خُلُوفُ الدنِيا لساكنِها * وَقَلَّ مَعسُورُها وَعاسِرُها
 وَأَتَجَرَّجَتْ بالنِّعَمِ وَأَتَجَمَّعَتْ * فِيها بِلدائِها حِواضِرُها
 فَالِقُومٌ مِنْها في رِوضَةِ أَثْف * أَشْرَقَ غِيبُ القِطارِ زاهِرها
 مِنْ غَرَّةِ العِيشِ في بُلَهينَةٍ * لو أَنِ دنِيا يَدُومُ عامِرُها
 دارُ مالوكِ رَسَتْ قِواعِدُها * فِيها وَقَرَّتْ بِها مَنابِرُها
 أَهلُ العِلا والثرى وَأَندِيَةِ الـ * ففِخْرٌ إِذا عُدَّتْ مِفاخرُها
 أَفراخُ نَعَمِي في إرثِ مَمْلَكَةٍ * شَدَّ عُرُها لَها أَكارِها
 فلم يزلِ والزمانُ ذُو غَيْرِ * يَقَدَحُ في مَلِكِها أَصاغِرُها
 حَتى تَساقَتْ كَأَسا مُمْتَلِةً * مِنْ فَننَةٍ لا يُقالُ عاثرُها
 وَأَقترَقَتْ بَعْدَ أُلْفَةٍ شِيعاً * مَقْطُوعَةً بَيْنَها أواصِرُها
 يا هَلْ رَأَيْتَ الأَمالِكَ ما صَنَعَتْ * إِذْ لَمْ يَزَعِها بِالنِّصْحِ زاجِرُها
 أوردَ أَمالِكُنَا نَفوسَهُمْ * هُؤَوةً عَنى أَعْيَتِ مِصادِرُها
 ما صَـرَّها لو وَفَّتْ بِمَوثِقِها * وَأَسْتَحَكَّتْ في التَّقِي بَصارِها
 وَلَمْ تُسافِكِ دِماءَ شِيعَتِها * وَتَبَعِلَ فِتيةً تُكابرُها
 وَأَفْتَعَتْها الدنِيا التي جُمِعَتْ * لَها وَرَغَبُ النِّفوسِ ضائِرُها
 ما زالَ حَوضُ الأَمالِكَ [...] * مَسجُورُها بِالمُهوى وَساجِرُها
 تُبقي فُضُولَ الدنِيا مُكاثِرَةً * حَتى أُبَيحَتْ كَرَّها ذِخائِرُها

(١) مفرغها وذاعها .

تبيع ما جمّع الأبوّة له * أبناء لا أربحت متاجرها
 يا هل رأيت الحنان زاهرة * يروق عين البصير زاهرها
 وهل رأيت القصور شارعة * تُمكن مثل الدمي مقاصرها
 وهل رأيت القرى التي غرس الـ * أملاك مُحضرة دساكرها
 محضوفة بالكروم والتخل والـ * تریحان قد دميت محاجرها^(١)
 فإنها أصبحت خلايا من الـ * بإنسان قد دميت محاجرها^(١)
 قفراً خلاء تعوى الكلاب بها * ينكر منها الرسوم دائرها
 وأصبح البؤس ما يفارقها * إلقاها والسرور هاجرها
 بزند ورد والياسرية والـ * شطّين حيث آتته معايرها
 وبالرحى والخيزرانية الـ * عليا التي أشرفت قناطرها
 وقصر عبديه عبرة وهدي * لكل نفس زكت سرائرها
 فإين حراسها وحارسها * وأين مجبورها وجايرها
 وأين خصيانها وحشوتها * وأين سكانها وطامرها
 أين الحرادية الصقالب والـ * أحبش تعدو همدلا مشايرها
 ينصدع الجند عن مواكبها * تعدوها سرباً ضوامرها
 بالسند والهند والصقالب والـ * نوبة شيت بها برابرها
 طيراً أبايل أرسلت عبثا * يقدم سودانها أحامرها
 أين الظباء الأبقار في روضة الـ * ملك تهادى بها غرائرها
 أين غضاراتها ولذتها * وأين مجبورها وحابرها
 بالمسك والعنبر اليماني والـ * ييلنجوج مشبوبة مجامرها
 يرفلن في الخنز والمجاسد والـ * موثى مخطومة مزامرها

(١) كذا في الطبري في حوادث سنة ١٩٧ هـ، طبع بلاق وطبع أوربا.

- فأين رقاصها وزامرها * يُجِين حيث آتته حناجرها
 تكاد أسمعهم تُسَل إذا * عارض عيدانها مزاهرها
 أمست بحوف الحمار خالية * يسعرها بالمحجم ساعرها
 كأنما أصبحت بساحتهم * عادٌ ومستم صرصرها
 لا تعلم النفس ما يبأيتها * من حادث الدهر أو يبأكرها
 تُضحى وتسمى درية غرضا * حيث استقرت بها شراشرها
 لأسهم الدهر وهو يرشقا * مُحِطُها مرة وبقايرها
 يابؤس بغداد دار مملكة * دارت على أهلها دوائرها
 مأمهلا الله عاقبها * لما أحاطت بها كبايرها
 بالخسف والقذف والحريق وبال * حرب التي أصبحت تُساورها
 كم قد رأينا من المعاصي بها * كالعاهر السوء
 حلت ببغداد وهي آمنة * داهية لم تكن تُحاذرها
 طالعها السوء من مطالعه * وأدركت أهلها جرائرها
 رقى بها الدين وأستخف بذى ال * غضل وعز النسك فاجها
 وخطم العبد أنف سيده * بالزغم وأستعبدت مخادرها
 وصار رب الحيران فاسقهم * وأبتر أمر الدروب ذاعرها
 من ير بغداد والجنود بها * قد ربقت حولها عساكرها
 كل طحون شهباء بأسلة * تُسقط أجبالها زماجرها
 تلقى بغي الردى أو انسها * يرهقها لقاء طاهرها
 والشيوخ يعدو حزما كائبه * يُقدم أعجازها يعاورها
 ولزهير بالقول مأسدة * مرقومة صلبة مكاسرها
 كتائب الموت تحت ألوية * أبرح منصورها وناصرها

الدكتور أحمد
 زيد
 ٥١
 Parker

يعلم أن الأقدار واقعة * وقعا على ما أحب قادرها
 فتلك بغداد ما بين من ال * مدله في دورها عصارها
 مخوفة بالردى منطقة * بالصقر محصورة جبارها
 وبين شط الفرات منه الى * دجلة حيث آتته معابرها
 كهادي السفراء نافره * تركض من حولها أشاقرها
 يحرقها ذا وذلك يهدمها * ويشتنى بالنهاب شاطرها
 والكركخ أسواقها معطلة * يستن عيارها وعارها
 أخرجت الحرب من سواقطها * آساد غيل غلبا ثساورها
 من البواري ترأسها ومن ال * خوص اذا استلامت مغافرها
 تغدو الى الحرب في جواشنها ال * صوف اذا ما عدت أساورها
 كتائب الهرش تحت رايته * ساعد طرارها مقاسرها
 لا الرزق تبغى ولا العطاء ولا * يحشرها للقاء حاشبرها
 في كل درب وكل ناحية * خطارة يستهل خاطرها
 بمنزل هام الرجال من فلق ال * صخر يزود المقلاع باثرها
 كأنما فوق هامها عدف * من القطا الكدر حاج نافرها
 والقوم من تحتها لم زجل * وهي ترمى بها خواطرها
 بل هل رأيت السيوف مصلته * أشهرها في الأسواق شاهرها
 والخيال تستن في أزقتها * بالترك مسنونة خناجرها
 والنفظ والنار في طرائقها * وهابيا للدخان عامرها
 والنهب تعدو به الرجال وقد * أبدت خلايلها حرارها
 معصوبات وسط الأزقة قد * أبرزها للعيون ساترها
 كل رعود الصبحي تحبأة * لم تبد في أهلها هاجرها

بَيْضَةٌ خَدْرٌ مَكْنُونَةٌ بَرَزَتْ * للناس منشورةٌ غدائرها
 تعثُرُ في ثوبها وتُعجِلها * كَبَّةٌ خَيْلٌ زَيْعَتُ حَوَافِرُهَا
 تسأل أين الطريق والهمة * والنار من خلفها تبادرها
 لم تجتَلِ الشمسُ حسنَ بهجتها * حتى آجتلتها حربٌ تُبَاشِرُهَا
 يَاهِلْ رَأَيْتِ التَّسْكِيَّ مُوَلْوِلَةً * في الطُّرُقِ تَسْعَى وَالْجَهْدُ بَاهِرُهَا
 في إثر نعشٍ عليه واحدا * في صدره طعنة يساورها
 فِرْغَاءٌ تُلْقِي النَّشَارَ مِنْ يَدِهَا ^(١) * يَهْرُزُهَا بِالسَّيْفَانِ شَاجِرُهَا
 تنظر في وجهه وتهتف بال * شكل وعِزِّ الدَّمُوعِ خَامِرُهَا
 غَرَّغِرَ بِالنَّفْسِ ثُمَّ أَسْلَمَهَا * مَطْلُوعَةٌ لَا يُخَافُ نَائِرُهَا
 وَقَدْ رَأَيْتِ الْفَيْتَانَ فِي عَرَصَةِ الْ * مَعْرَكِ مَعْفُورَةٌ مَنَاحِرُهَا
 كُلِّ فَتَى مَنَاعٌ حَقِيقَتَهُ * تَشْقَى بِهِ فِي الْوَعْيِ مَسَاعِرُهَا
 بَاطَتْ عَلَيْهِ الْكِلَابُ تَهَشُّهُ * مَخْضُوبَةٌ مِنْ دِمِّ أَظَافِرُهَا
 أَمَا رَأَيْتِ الْخِيُولَ جَائِلَةً * بِالْقَوْمِ مَنَكُوبَةً دَوَائِرُهَا
 تَعَثَّرُ بِالْأَوْجِهِ الْحَسَانِ مِنْ الْ * قَتْلِ وَغُلَّتْ دَمًا أَشَاعِرُهَا
 يَطَّأَنَّ أَكْبَادَ فِتْيَةٍ مُجِيدٍ * يَفْلِقُ هَامَاتِهِمْ حَوَافِرُهَا
 أَمَا رَأَيْتِ النِّسَاءَ تَحْتَ الْمَجَا * نِيْقِ تَعَادَى شُعْنًا ضَفَائِرُهَا
 عَقَائِلَ الْقَوْمِ وَالْعَجَائِزِ وَال * مَعْنَسِ لَمْ تُخْتَبِرْ مَعَاصِرُهَا
 يَحْمِلْنَ قَوَاتَا مِنَ الطَّحِينِ عَلَى الْ * أَكْتِافِ مَعْصُوبَةٍ مَعَاجِرُهَا
 وَذَاتَ عَيْشٍ ضَنْكَ وَمُقْعَسَةٍ * تَشْدُخُهَا صَخْرَةٌ تُعَاوِرُهَا
 تسأل عن أهلها وقد سلبت * وَأَبْتَرٌ عَنْ رَأْسِهَا غَفَائِرُهَا
 يَا لَيْتَ مَا وَالِدُهَا ذُو دُوبٍ * تُرْجَى وَأُخْرَى تُخْشَى بُوَادِرُهَا

(١) كذا في هامش النسخة الأوربية من الطبري . وفي نسخة بولاق وأوربا (في صلبها) :

* فِرْغَاءٌ نِيْقِ الشَّارِ مَرِيدَةٌ * . وهي رواية ظاهر عليها التحريف وفساد المعنى .

هل ترجعن أرضنا كما غنيت * وقد تناهت بنا مصايرها
 من مبلغ ذا الرياستين رسا * لات تأنى للنصح شاعرها
 بأن خير الولاة قد علم الذ * سأس اذا عُددت ماثرها
 خليفة الله من بريته ال * حامون سائسها وجابرها
 سمّت اليه آمال أمته * منقادة برّها وفاجرها
 شاموا حيا العدل من تحايله * وأضحرت بالتقى بصايرها
 وأحمدوا منك سيرة جلّت ال * شك وأخرى صحّت معاذرها
 وأستجمعت طاعة برفقك لل * حامون تجديها وغايرها
 وأنت سمع في العالمين له * ومقالة ما يكّل ناظرها
 فاشكر لذى العرش فضل نعمته * أوجب فضل المزيد شاكرها
 وأحذر فداء لك الرعية وال * أجناد مأمورها وأمرها
 لا تردن غمرة بنفسك لا * يصدر عنها بالرأى صادرها
 عليك صحّاحها فلا تليج ال * غمر متجّة زواجرها
 والقصد إن الطريق ذو شعب * أشامها وعمّها وجايرها
 أصبحت في أمة أوائلها * قد فارقت هديها أوأجرها
 وأنت سرسورها وسائسها * فهل على الحق أنت قاسرها
 أدب رجالا رأيت سيرتهم * خالف حكم الكتاب سائرها
 وأمّدت الى الناس كف مرحة * تُسدّ منهم بها مفاقرها
 أمكك العدل إذ هممت به * وواقفت مده مقادرها
 وأبصر الناس قصد وجههم * وملكت أمة أخايرها
 تُسرّع أعناقنا اليك اذا ال * بادات يوما بجمت عشائرها
 كم عندنا من نصيحة لك في اللد * به وقربى عزبت زوافرها

وحرمة قُرْبَتِ أَوَاصِرِهَا * منك وأخرى هل أنتَ ذاكِرها
 سَعَى رَجَالٍ فِي الْعِلْمِ مَطْلُبُهُمْ * رَائِحَتُهَا بَاكِرٌ وَبَاكِرُهَا
 دُونَكَ غِرَاءٌ كَالْوَذْيَالَةِ لَا * تَفْقَدُ فِي بِلْدَةِ سَوَائِرِهَا
 لَا طَمَعًا قَلْبُهَا وَلَا بَطْرًا * لِكُلِّ نَفْسٍ نَفْسٌ تُؤَامِرُهَا
 سَيَّرَهَا اللَّهُ بِالنَّصِيحَةِ وَالْ * خَشْيَةِ فَاسْتَدْمَجَتْ مَرَاتِرُهَا
 جَاءَتْكَ تَحِيَّاتُكَ لِكَ الْأُمُورِ كَمَا * يَنْشُرُ بَزَّ التَّجَارِ نَاشِرُهَا
 حَمَلَتْهَا صَاحِبًا أَحَا ثِقَةٍ * يَظَلُّ عَجْبًا بِهَا يُحَاضِرُهَا

ومن جيد شعره قوله :

النَّاسُ أَخْلَافُهُمْ شَتَّى وَإِنْ جُبِلُوا * عَلَى تَسَابُهُ أَرْوَاحٍ وَأَجْسَادِ
 لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَهْلٌ وَكَلُّوا بِهِمَا * كَلُّ لَهُ مِنْ دَوَاعِي نَفْسِهِ هَادِ
 مِنْهُمْ خَلِيلٌ صَفَاءٌ ذُو مَحَافِظِيَّةٍ * أَرْمَى الْوَفَاءُ أَوْأَخِيهِ بِأَوْتَادِ
 وَمُشْعَرُ الْغَدْرِ مَحْنَى أَضَالُهُ * عَلَى سَرِيرَةٍ تَحْمُرُ غَلَّهَا بَادِ
 مُشَاكِسٌ خَدِيعٌ جَمَّ غَوَائِلُهُ * يُبْدِي الصَّفَاءَ وَيَخْفِي ضَرِبَةَ الْهَادِي
 يَأْتِيكَ بِالْبَغْيِ فِي أَهْلِ الصَّفَاءِ وَلَا * يَنْفَكَ يَسْمَعِي بِإِصْلَاحِ لِإِفْسَادِ

ومن جيد شعر الخريبي قوله :

أَضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِزْزَالِ رَحْلِهِ * وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلَّ جَدِيدِ
 وَمَا لِحِصْبِ الْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى * وَلَكِنَّا وَجْهَ الْكَرِيمِ خَصِيبِ

ومن جيد شعره قوله :

زَادَ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي عِظْمًا * أَنَّهُ عِنْدَكَ مَحْمُورٌ صَغِيرِ
 وَتَبَاسِيهِ كَانَ لَمْ تَأْتِهِ * وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرِ

وهو القائل :

وَإِنْ أَشَدَّ النَّاسِ فِي الْحَشْرِ حَسْرَةً * لَمْ يُورِثْ مَا لِي غَيْرَهُ وَهُوَ كَاسِبُهُ
 كَفَى سَفَهًا بِالْمَكْهَلِ أَنْ يَتَّبَعَ الصَّبَا * وَأَنْ يَأْتِيَ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ عَائِبُهُ

وَيُسْتَجَادُ لَهُ قَوْلُهُ :

وَدُونَ النَّسْدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ ثَنِيَّةٌ * لَهَا مَصْعَدٌ وَعَرٌّ وَمُنْحَدَرٌ سَهْلٌ
 وَوَدَّ التَّقَى فِي كُلِّ نَيْلٍ يُنِيلُهُ * إِذَا مَا أَنْقَضَى لَوْ أَنَّ نَائِلَهُ جَزَلٌ
 وَأَعْلَمَ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ * لِكُلِّ أَنَاسٍ مِنْ ضَرَائِبِهِمْ شَكْلٌ
 وَأَنَّ أَحْيَاءَ الزَّمَانِ غَنَائِهِمْ * قَلِيلٌ إِذَا الْإِنْسَانُ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ
 تَرَوُّدٌ مِنَ الدُّنْيَا مَتَاعًا لغيرِهَا * فَقَدْ شَمَرَتْ حَدَاءٌ وَأَنْصَرَمَ الْحَبْلُ
 وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا هَامَةٌ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ * لِكُلِّ أَنَاسٍ مِنْ طَوَارِقِهَا الْتَكْلُ

وَفِي هَذَا الشَّعْرِ يَقُولُ :

أَبَا لَصْغَدٍ بِأَسٍّ إِذْ تَعَيَّرَنِي جُمْلُ * سَفَاهًا وَمِنْ أَخْلَاقِ جَارَتِي أَبْجَهْلُ
 فَإِنْ تَفَخَّرِي يَا جَمَلٌ أَوْ تَجَمَّلِي * فَلَا نَخْرَ إِلَّا فَوْقَهُ الدِّينَ وَالْعَقْلُ
 أَرَى النَّاسَ شَرْعًا فِي الْحَيَاةِ وَلَا يُرَى * لِقَبْرِ عَلِيٍّ قَبْرَ عِلَاءٍ وَلَا فَضْلُ
 وَمَا ضَرَّتْنِي أَنْ لَمْ تَلِدْنِي يُحَايِرُ * وَلَمْ تَسْتَمَلْ جَرْمٌ عَلَيَّ وَلَا عُكْلُ

وَهُوَ الْقَائِلُ :

مَا أَحْسَنَ الْغَيْبَةِ فِي حِينِهَا * وَأَقْبَحَ الْغَيْبَةِ فِي كُلِّ حِينِ
 مَنْ لَمْ يَزَلْ مَتَّبِعًا عَرْسَهُ * مُنَاصِبًا فِيهَا لِرَيْبِ الظَّنُونِ
 أَوْشَكَ أَنْ يُغْرِبَهَا بِالَّذِي * يَخَافُ أَنْ يُبْرِزَهَا لِلْعَيُونِ
 حَسْبُكَ مَنْ تَحْصِينَهَا وَضَعُهَا * مِنْكَ إِلَى عَرِيضِ صَحِيحِ وَدِينِ
 لَا تَطَّلِعْ مِنْكَ عَلَى رَيْبَةٍ * فَيَتَّبِعُ الْمُقْرُونُ حَبْلَ الْقَرِينِ

٨ - عبد الله بن طاهر^(١)

كان محلّ من علو المنزلة وعِظَم القَدْر ولُطْف مكان من الخلفاء، يُستغنى به عن التقريظ له والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهورٌ عند الخاصّة والعامّة، وله في الأدب مع ذلك المحلّ الذي لا يُدفع، وفي السباحة والشجاعة ما لا يقاربه فيه أحدٌ.

وكان أديبا ظريفا جيّد الغناء، نسب إليه صاحب الأغاني أصواتا كثيرة أحسن فيها وتقلّها أهل الصنعة عنه، وله شعر رائع ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله :

نحن قومٌ تُليّننا الحَدَقُ النُّججُ * لُ على أننا نُلين الحديدَا

طَوْعُ أیدی الطُّبَاء تفتادنا العید * بن وفتناد بالطَّعان الأسودَا

تَمَلِّك الصَّيْد ثم تملکنا الیہ * صُص المصوناتُ أعیننا وخدودَا

تَنقَى سَخَطنا الأسود ونخشی * سَخَط الحِشْف حين یُیدی الصدودَا

فقرانا یوم الکریهه أحرا * را وفي السَّلم للغوانی عیبدا

أعطاه المأمون مآل مصر لسنة، نَحَرَجَهَا وِضَاعَهَا، فوهبه كلّه وفرّقه في الناس ورجع صِفْرا من ذلك، فغَاظَ المأمونَ فعله، فدخل إليه يوم مقدّمه، فأنشدّه أبياتا قالها في هذا المعنى، وهي :

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق كان سيدا نبيلًا على الهمة شهما، وكان المأمون كثير الاعتد عليه، حسن الالتفات إليه لذاته ورعاية لحق والده وما أسلفه من الطاعة في خدمته، وكان واليا على الدينور فلما خرج بابك الخرمي على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثروا فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون بعث إلى عبد الله وهو بالدينور يأمره بالخروج إلى خراسان، فخرج إليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور في رجب سنة ٢١٥ هـ. وكان المطر قد انقطع عنها تلك السنة، فلما دخلها مطرت مطرا كثيرا، فقام إليه رجل برأز من حانوته وأنشده :

قد لحظ الناس في زمانهم * حتى إذا جثت جثت بالدرر

غيثان في ساعة لنا قدما * فرحبا بالأمر والمطر

تولى الشام والعراق ومصر. وتوفي سنة ٢٣٠ هـ. ومجد ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٩) والأغاني

(ج ١١ ص ١١) . .

نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَعْنَاقُ خَاضِعَةٌ * لِلنَّائِبَاتِ أَيْبًا غَيْرَ مُهْتَمِّمٍ
 إِلَيْكَ أَقْبَلْتُ مِنْ أَرْضِ أَقْمُتْ بِهَا * حَوْلَيْنِ بَعْدَكَ فِي شَوْقِي وَفِي أَلَمِ
 أَقْفُو مَسَاعِيكَ اللَّائِي خُصِّصَتْ بِهَا * حَدُّو الشَّرَاكِ عَلَى مِثْلِ مِنَ الْأَدَمِ
 فَكَانَ فَضْلِي فِيهَا أَنْتَى تَبَعٌ * لِمَا سَنَنْتَ مِنَ الْإِنْعَامِ وَالنِّعَمِ
 وَلَوْ وُكِّلْتُ إِلَى نَفْسِي عَيْنَتْ بِهَا * لَكِنْ بَدَأَتْ فَلَمْ أَعْجِزْ وَلَمْ أَلَمِ

فضحك المأمون وقال : والله ما نَفِسْتُ عليك مَكْرَمَةٌ نَلَّتْهَا ، ولا أَحْدُوثَةٌ حَسُنَ عِنْدَكَ ذِكْرُهَا ، ولكن هذا شيء إذا عَوَّدْتَهُ نَفْسَكَ افْتَقَرْتَ ، ولم تقدر على لَمِّ شَعْنِكَ وإصلاح حالك . وزال ما كان في نفسه .

لَمَّا فَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ مِصْرَ سَوَّغَهُ الْمَأْمُونُ تَخْرَاجَهَا ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى أَجَازَ بِهَا كُلَّهَا ثَلَاثَةَ آلَافٍ أَلْفِ دِينَارٍ أَوْ نَحْوِهَا ، فَأَتَاهُ مُعَلَّى الطَّائِي وَقَدْ أَعْلَمُوهُ مَا صَنَعَ بِالنَّاسِ فِي الْجَوَائِزِ وَكَانَ عَلَيْهِ وَاجِدًا ، فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَحْتَ الْمِنْبَرِ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، أَنَا مُعَلَّى الطَّائِي وَقَدْ بَلَغَ مِنِّي مَا كَانَ مِنْكَ مِنْ جَفَاءٍ وَغِلَظٍ ، فَلَا يَغْلُظَنَّ عَلَى قَلْبِكَ ، وَلَا يَسْتَخْفِنَكَ الَّذِي بَلَغَكَ ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ :

يَا أَعْظَمَ النَّاسِ عَفْوًا عِنْدَ مَقْدِرَةٍ * وَأَظْلَمَ النَّاسِ عِنْدَ الْجُودِ لِلْمَالِ
 لَوْ أَصْبَحَ النَّيْلُ يَجْرِي مِائَةً ذَهَبًا * لَمَّا أَشْرَتَ إِلَى تَخْرِبِ بِيْمَثْقَالِ
 تُغْلِي بِمَا فِيهِ رِقِّ الْحَمْدِ تَمْلِكُهُ * وَليْسَ شَيْءٌ أَعَاضَ الْحَمْدَ بِالْغَالِي
 تَفُكَّ بِالْيُسْرِكَفِّ الْعُسْرِ مِنْ زَمَنِ * إِذَا اسْتَطَالَ عَلَى قَوْمٍ بِإِقْلَالِ
 لَمْ تَحُلْ كُفُوكَ مِنْ جُودٍ مُتَحَبِّطِ * وَمُرْهَفِ قَاتِلِ فِي رَأْسِ قَتَالِ
 وَمَا بَثَّتْ رَعِيْلَ الْخَيْلِ فِي بَلَدٍ * إِلَّا عَصَفْنَ بِأَرْزَاقِ وَأَجَالِ
 إِنْ كُنْتُ مِنْكَ عَلَى بَابٍ مَنَنْتَ بِهِ * فَإِنَّ شَكَرَكَ مِنْ قَلْبِي عَلَى بَالِ
 مَا زَلْتُ مُقْتَضِبًا لَوْلَا بَجَاهِرَةٌ * مِنْ أَلْسِنِ خُضْنٍ فِي صَدْرِي بِأَقْوَالِ

فضحك عبد الله وسرَّ بما كان منه وقال : يا أبا السَّعْرَاءِ، أَقْرِضْنِي عَشْرَةَ آلَافٍ دِينَارٍ فَمَا
أَمْسَيْتُ أَمْلِكُهَا، فَأَقْرِضْهُ فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ .

كان موسى بن خاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر، وكان نديمةً وجليسةً، وكان له مؤثراً
مقدماً، فأصاب منه معروفًا كثيرًا وأجازه بجوائز سنوية هناك وقبل ذلك، ثم إنه وجد عليه
في بعض الأمر بخفاه وظهر له منه بعض ما لم يجبه، فرجع حينئذ إلى بغداد وقال :

إِنْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ خَلَّانَا * لَا مُبْدَأُ عُرْفًا وَإِحْسَانَا
خَسْبُنَا اللَّهُ رَضِينَا بِهِ * ثُمَّ بَعْدَ اللَّهِ مَوْلَانَا

يعني به المأمون، وغنت فيه جاريته وسمعه المأمون، فاستحسنه ووصله وإياها، فبلغ
ذلك عبد الله بن طاهر، فغاظه ذلك وقال : أَجَلْ ! صنعنا المعروف إلى غير أهله فضاغ .

ولعبد الله أُلْحَانٌ صَاغَهَا، فَنَهَا وَمِنْ مَخْتَارِهَا وَصُدُورِهَا وَمَقْدَمِهَا لِحْنُهُ فِي شِعْرِ أُخْتِ
عَاصِيَةٍ فَإِنَّهُ صَوْتٌ نَادِرٌ جَيِّدٌ صَحِيحٌ الْعَمَلُ مُزْدَوِجُ النِّعَمِ، بَيْنَ لَيْنٍ وَشِدَّةٍ عَلَى رَسْمِ الْحُدَاقِ
مِنَ الْقُدَمَاءِ، وَهُوَ :

هَلَّا سَقَيْتُمْ بَنِي سَهْمٍ أَسِيرَكُمْ * نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ذِي غُلَّةٍ صَادِي
الطاعنُ الطعنةَ النجلاءَ يتبعها * مُضَرَّحٌ بَعْدَ مَا جَادَتْ بِإِزْبَادِ

ومن غنائه أيضا :

رَاحَ صَحْبِي وَعَاوَدَ الْقَلْبَ دَاءُ * مِنْ حَيْبِ طَلَابِهِ لِي عَنَاءُ
حَسَنُ الرَّأْيِ وَالْمَوَاعِيدِ لَا يُؤْتِي لَشَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ وَفَاءُ
مَنْ تَعَزَّى عَمَّنْ يَحِبُّ فَإِنِّي * لَيْسَ لِي مَا حَيْثُ عَنْهُ عَزَاءُ

ما قيل في هجاء الأمين ورثائه

قيل في هجائه :

لم نُبَيِّكْ لِمَاذَا لِلطَّرَبِ * يا أبا موسى وترويح اللّعب
 ولترك الخمس في أوقاتها * حرصاً منها على ماء العنب
 وشنيف أنا لا أبكى له * وعلى كوثر لا أخشى العطب
 لم تكن تعرف ما حدّ الرضا * لا ولا تعرف ما حدّ الغضب
 لم تكن تصالح للملك ولم * تُعطك الطاعة بالملك العرب
 أيها الباكي عليه لا بكت * عين من أبكاك إلا للعجب
 لم نبكيك لما عرّضتنا * للجانيق وطورا للسلب
 ولقوم صيرونا أعبداً * لهم يبدو على الرأس الذنب
 في عذاب وحصار مجهد * سدّد الطرق فلا وجه طلب
 زعموا أنك حي حاشر * كل من قد قال هذا قد كذب
 ليت من قد قاله في وحدة * من جميع ذاهب حيث ذهب
 أوجب الله علينا قتله * فاذا ما أوجب الأمر وجب
 كان والله علينا فتنه * غضب الله عليه وكتب

وقال عبد الرحمن بن أبي الهذاهد يرثيه :

يا غرّبُ جودي قدبت من وذمه * فقد فقدنا العزير من ديمه
 ألوت بدنيك كف نائبة * وصرت مغضى لنا على نقمه
 أصبح للموت عندنا علم * يضحك سنّ المنون من علمه
 ما استزلت ذرة المنون على * أكرم من حلّ في ترى رحمه
 خليفة الله في بريته * تقصر أيدي الملوك عن شيمه

يَفْتَرُ عَنْ وَجْهِهِ سَنَا قَمَرٍ * يَنْشَقُّ عَنْ نُورِهِ دُجَى ظُلَمِهِ
 زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ مِنْ جَوَانِبِهَا * اذْ أُوْلِعَ السَّيْفُ مِنْ نَجِيعِ دَمِهِ
 مَنْ سَكَتَتْ نَفْسُهُ لِمَصْرَعَةٍ * مِنْ عُمَمِ النَّاسِ أَوْ ذَوَى رَحْمِهِ
 رَأَيْتُهُ مِثْلَ مَا رَأَاهُ بِهِ * حَتَّى تَذُوقَ الْأَمْرَ مِنْ سَقَمِهِ
 كَمْ قَدْ رَأَيْتُنَا عَزِيزَ مَمْلُوكَةٍ * يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِهِ وَعَنْ خَدَمِهِ
 يَا مَلِكًا لَيْسَ بَعْدَهُ مَلِكٌ * لِحَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ فِي أُمَّهِ
 جَادَ وَحَى الَّذِي أَقْسَمَتْ بِهِ * سَخَّ غَزِيرِ الْوَكَيْفِ مِنْ دِيمِهِ
 لَوْ أَحْجَمَ الْمَوْتُ عَنْ أَخِي ثِقَةٍ * أُسْوَى فِي الْعِزِّ مُسْتَوَى قَدَمِهِ
 أَوْ مَلِكٍ لَا تَرَامُ سَطْوَتُهُ * إِلَّا مَرَامَ الشَّتِيمِ فِي أُجْمِهِ
 خَلَّدَكَ الْعِزُّ مَا سَرَى سَدْفٌ * أَوْ قَامَ طِفْلُ الْعَشَى فِي قَدَمِهِ
 أَصْبَحَ مُلْكًا إِذَا آتَرْتَهُ بِهِ * يَقْرَعُ سِنَّ الشُّقَاةِ مِنْ نَدَمِهِ
 آتَرْدُو الْعَرْشَ فِي عِدَاكَ كَمَا * أَتَرُ فِي عَادِهِ وَفِي إِمْرَمِهِ
 لَا يُبْعَدُ اللَّهُ صَيُورَةَ تَلِيَّتِ * لَخَيْرِ دَائِعِ دَعَاةِ فِي حَرَمِهِ
 مَا كُنْتُ إِلَّا كَلْمُ ذِي حُلْمٍ * أَوْ لِحِ بَابِ السَّرُورِ فِي حُلْمِهِ
 حَتَّى إِذَا أَطْلَقْتَهُ رَقْدَتُهُ * عَادَ إِلَى مَا آعْتَرَاهُ مِنْ عَدَمِهِ

وقال أيضا يرثيه :

أقول وقد دنوت من الفرار * سُقِيتَ الْغَيْثَ يَا قِصْرَ الْقَرَارِ
 رَمْتِكَ يَدُ الزَّمَانِ بِسَهْمِ عَيْنٍ * فَصِرْتَ مُلُوحًا بِدُخَانِ نَارِ
 أَيْنَ لِي عَنْ جَمِيعِكَ أَيْنَ حَلَّوَا * وَأَيْنَ مِزَارِهِمْ بَعْدَ الْمَزَارِ
 وَأَيْنَ مُحَمَّدٌ وَأَبْنَاهُ مَالِي * أَرَى أَطْلَاهُمْ سُودَ الدِّيَارِ
 كَأَنْ لَمْ يُؤْتَسُوا بِأَنْبَسِ مُلْكٍ * يَطْوِلُ عَلَى الْمُلُوكِ بِخَيْرِ جَارِ
 إِمَامٌ كَانَ فِي الْحَدَثَانِ عَوْنًا * لَنَا وَالْغَيْثُ يَمْنَحُ بِالْقِطَارِ

لقد ترك الزمانُ بني أبيه * وقد غمرتهم سُود البحار
 أضعوا شمسهم بخرت بنحيس * فصاروا في الظلام بلا نهار
 وأجلوا عنهم قمرًا منيرا * ودأستهم خيولُ بني الشرار
 ولو كانوا لهم كفوًا ومثلا * إذا ما توجوا تيجانَ عار
 ألا بأن الأمامُ ووآرثاه * لقد ضرم الحشى منابنار
 وقالوا الخلدُ بيع فقلتُ ذلًا * يصير بيائعيه الى صغَار
 كذلك الملكُ يتبع أوليئه * إذا قُطِعَ القرار من القرار

وقال مقدس بن صيفي يرثيه :

خليلي ما أنتك به الخطوبُ * فقد أعطاك طاعته النحيبُ
 تدلت من شماريخ المنايا * منايا ما تقوم لها القلوبُ
 خلالَ مقابر البستانِ قبر * يُجاور قبره أسدٌ غريب
 لقد عظمت مصيبتَه على من * له في كل مكرمة نصيب
 على أمثاله العبراتُ تُدرى * ومهتك في ماتمه الجيوبُ
 وما آذرت زُبيدة عنه دمعا * تُخص به النسبية والنسب
 دعوا موسى ابنه لبكاء دهر * على موسى ابنه دخل الحزيب
 رأيتُ مشاهد الخلفاء منه * خلاء ما بساحتها مجيب
 ليهنك أني كهلٌ عليه * أذوبُ وفي الحشى كيد تدوب
 أصيب به البعيد نخرَ حزنا * وعارين يومه فيه المرئيب
 أنادي من بطون الأرض شخصًا * يحركه النداء فما يُجيب
 لئن نعت الحروبُ إليه نفسًا * لقد جُعت بمصرعه الحروبُ

وقال نخزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخيرِ أُمَامٍ قام من خيرِ عُصْرٍ * وأفضَلِ سَامٍ فوق أَعْوَادِ مِنبِرِ
لِوَارِثِ عِلْمِ الأوَّلِينَ وفهمهم * ولِلْمَلِكِ المَأْمُونِ من أُمِّ جَعْفَرِ
كُتِبَتْ وَعَيْنِي مُسْتَهْلٌ دَموعُهَا * اليك أبن عمي من جفوني ومججري
وقد مَسَّنِي ضُرٌّ وذلُّ كَابِيَةٍ * وأرَّقَ عيني يا ابن عمي تفكري
وهمتُ لِمَا لاقيتُ بعد مصابه * فأمرى عظيم مُنكَرٍ جدُّ مُنكَرِ
سَأَشْكُو الذي لاقيتُه بعد فقده * اليك شِكَاةُ المُسْتَهَامِ المُقَهَّرِ
وأرجو لِمَا قد مرَّ بي مذ قدُّتُه * فأنت لبسِي خير رَبِّ مَغِيرِ
أتى طَاهِرٍ لاطهَر اللهُ طَاهِرَا * فما طاهرٍ فيما أتى بِمُطَهَّرِ
فأخرجني مكشوفةً الوجه حاسِرا * وأُنْهَبَ أموالِي وأحرق أدري
يَعِزُّ علي هَارُونَ ما قد لقيتُه * وما مرَّ بي من ناقص الخلق أعور
فان كان ما أسدى بأمر امرته * صَبَرْتُ لأمرٍ من قدير مُقَدَّرِ
تذكر أمير المؤمنين قراحي * فديتُك من ذى حرمة مُتَدَكَّرِ

وقال أيضا يرثيه :

سبحان ربك رب العزة الصمد * ماذا أصبنا به في صُبْحَةِ الأَحَدِ
وما أصيب به الإسلام قاطبة * من التَّضَعُّعِ في رُكْنَيْهِ والأَوَدِ
من لم يُصَبْ بأمر المؤمنين ولم * يُصْبِحَ بِمَهْلَكَةِ وَالْمُهِمِّ في صُعدِ
فقد أصبتُ به حتى تبيّن في * عقلي وديني وديناي وفي جسدي
يا ليلَةَ يَشْتَكِي الإسلامُ مُدَّتْهَا * والعالمون جميعا آخر الأَبَرِ
عَدَرَتِ بِالْمَلِكِ الميمون طائرُه * وبالإمام وبالضُرْغامة الأَسَدِ
سارت إليه المنايا وهي تُرهبُه * فواجهتُه بأوغادِ ذوى عَدَدِ
بِشُورَجِينٍ وأغتَامٍ يقودهم * قُرَيْشُ بالبَيْضِ في قُفُصِ من الزَّرَدِ

فصادفوه وحيداً لا معين له * عليهم غائب الأ نصار بالمدد
 فخرعوه المنايا غير مُمتنع * فردا فيالك من مُستسلم فرد
 يلقى الوجوه بوجه غير مُبتدل * أبهى وأنقى من القوهية الجدد
 واحسرتا وقرئش قد أحاط به * والسيف مُرتعد في كف مُرتعد
 فما تحرك بل ما زال متصببا * منكس الرأس لم يبدى ولم يعد
 حتى اذا السيف وافى وسط مفرقه * أذرتة عنه يداه فعل مُتبد
 وقام فاعتقت كفاه لبتة * كضيق شرس مستسيل ليد
 فاجتره ثم أهوى فاستقل به * للأرض من كف ليث مُخرج حرد
 فكاد يقتله لو لم يُكاثره * وقام منقلبا منه ولم يكد
 هذا حديث أمير المؤمنين وما * نقصت من أمره حرفا ولم أزد
 لا زلت أندبه حتى الممات وإن * أخنى عليه الذي أخنى على بُند

وذكر عمر بن شبة أن محمد بن أحمد الهاشمي حدثه أن لبابة ابنة علي بن المهدي قالت

البيتين الآتين وقيل أنهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مملكة بمحمد :

أبيك لا للنعم والأُس * بل للعالي والرحم والترس

أبكي على هالك جُعت به * أرماني قبل ليسة العرس

هجاء يحيى بن أكنم^(١)

وعدناك في المجلد الأول أن نذكر مثلاً من الهجاء قاله بعض الشعراء في يحيى بن أكنم، وها هو ذا :

أَرْقَهُ بَرِّحَ الْمَوَى وَسَدِمُهُ * وَمَلَّهُ الْحَبُّ فَبَاتَ يَأْمُهُ
 طَوْرًا يُعَانِيهِ وَطَوْرًا يَسْتَمُهُ * مِثْلَ الْحَرِيْقِ فِي الْحَشَا يُضْرَمُهُ
 ففَاضَتِ الْعَيْنُ بِدَمْعٍ تَسْجِمُهُ * نَمَتْ عَلَيْهِ كُلُّ شَوْقٍ يَكْتُمُهُ
 وَبَاحَ بِالْحَبِّ الَّذِي يُجْجِمُهُ * وَبَاتَ وَالْقَلْبُ يُسَامِي هِمَمُهُ
 مِنْ لِحْيٍ قَدْ تَرَاهُ بِرَحْمِهِ * أَصْبَحَ بِالْبِأْسَاءِ عَارٍ أَنْعَمُهُ
 طَالَ تَصَابِيهِ وَطَالَ سَقَمُهُ * وَبَلَى الْجِسْمَ وَرَقَّتْ أَعْظَمُهُ
 يَشْهَدُنِي اللَّهُ عَلَى مَنْ يَظْلِمُهُ * يَمْنَعُهُ طَعْمَ الْكُرَى وَيَحْرِمُهُ
 وَأَهَّا لَهُ يَصِيرُ مَنْ لَا يَصِيرُهُ * أَصْبَحَ هَذَا الدِّينَ رَثًّا رِمُهُ
 عَظَلَهُ الْجَوْرَ وَطَالَ قَدَمُهُ * سَحَّتْ مِنَ الْجَوْرِ عَلَيْهِ دِيمُهُ
 قَبَادَ مَغْنَى رَبْعِهِ وَأَرْسَمُهُ * إِلَّا بَقَايَا قَوْمِهِ وَجَمَمُهُ
 أَوْطَنَهُ الْجَوْرَ فَاضْحَى مَعْلَمُهُ * يَرُودُ فِيهِ شَاؤُهُ وَنَعَمُهُ
 مِنْ يَشْهَدُ الْجَوْرَ فَتَحْنُ نَعْلَمُهُ * أَنْوَكَ قَاضٍ فِي الْبِلَادِ نَعْلَمُهُ
 يَقُولُ حَقًّا لَا تُعَيِّتُ تَرْحَمُهُ * مَذَّوَلِي الْحَكْمَ أُبِيحَ حَرَمُهُ
 وَاتَّهَيْتُ مِنَ الْقَضَاءِ حَرَمُهُ * وَأَضْطَرَبْتَ أَرْكَانَهُ وَدَعَمُهُ
 وَاللَّهُ يَبْدِيهِ وَنَحْنُ نَهْدِمُهُ * يَا لَيْتَ يَحْيَى لَمْ يَلِدْهُ أَكْنَمُهُ
 وَلَمْ تَطَأْ أَرْضَ الْعِرَاقِ قَدَمُهُ * مَلْعُونَةٌ أَخْلَاقُهُ وَشِمَمُهُ^(٢)

(١) أنظر ما كتبتاه عن يحيى بن أكنم في المجلد الأول (ص ٤٤٠) . (٢) حذفنا بعد هذا البيت أربعة أبيات رأينا أنها تنافي الآداب الهامة .

والله والله لقد حلّ دمه * لو أن للدين عمادا يدعّمه
 يعيدل عنه الميل أو يقومه * لكان قدرن عليه مائة
 أرجو ويقضى الله لا يسأله * من وجهه هذا ولكن يقصمه

* بالسيف إذ حلت عليه نغمه *

وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب وتحريق وتخريب وقتنة شعواء وقتل ودماء،
فانا نترك الكلمة في ذلك لشعراء ذلك العصر .

قال الأعمى يصف دمار الحرب :

تقطعت الأرحام بين العشائر * وأسلمهم أهل التقى والبصائر
فذلك آتقاً الله من خلقه بهم * لما آجرتهم من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة * ولا نحن أصلحنا فساد السرائر
ولم نسمع من واعظ ومدكّر * فينجع فينا وعظ ناه وأمر
فابك على الإسلام لما تقطعت * عراه ورجى ضره كل كافر
فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم * فمن بين مقهور عزيز وقاهر
وصار رئيس القوم يحل نفسه * وصار رئيسا فيهم كل شاطر
فلا فاجر للبر يحفظ حرمة * ولا يستطيع البر دقعا لفاجر
تراهم كأمشال الذئاب رأث دما * فأمنته لا تلوى على زجر زاجر
وأصبح فساق القبائل بينهم * تسل على أقرانها بالخناجر
فابك لقتلى من صديق ومن أخ * كريم ومن جار شفيق مجاور
ووالدة تبكى بجزين على أنها * فيبكي لها من رحمة كل ظائر
وذات حليل أصبحت وهي أيم * وتبكي عليه بالدموع البوارد
تقول له قد كنت عزا وناصرا * فغيب عنى اليوم عزى وناصرى
وأبك لإحراق يوهدم منازل * وقتل وإنهاب اللهمي والذخائر

وإبراز ربّات الخدور حواسرا * نخرجن بلا نُخْمِرٍ ولا بِمَآزِرِ
 تَراها حَيَارَى لَيْسَ تَعْرِفُ مَذْهَبًا * نَوَافِرَ أَمْشَالِ الطُّبَاءِ النُّوَافِرِ
 كَأَن لَمْ تَكُنْ بَغْدَادُ أَحْسَنَ مَنظَرًا * وَمَلَهَى رَأْيَهُ عَيْنٌ لَآهٍ وَنَاطِرِ
 بَلَى هَكَذَا كَانَتْ فَأَذْهَبَ حَسَنَهَا * وَبَدَدَ مِنْهَا الشَّمْلَ حَكْمَ الْمَقَادِرِ
 وَحَلَّ بِهِمْ مَاحِلَ بِالنَّاسِ قَبْلَهُمْ * فَاضْحَوْا أَحَادِيثًا لِبَادٍ وَحَاضِرِ
 أَبْغِدَادُ يَا دَارَ الْمُلُوكِ وَمُحْتَمَى * صُرُوفِ الْمَنَايَا مُسْتَقَرَّ الْمَنَابِرِ
 وَيَا جَنَّةَ الدُّنْيَا وَمَطْلَبَ الْغِنَى * وَمُسْتَنْبِطَ الْأَمْوَالِ عِنْدَ الضَّرَائِرِ
 أَبْنِي لَنَا أَيْنَ الَّذِينَ عَاهَدْتُهُمْ * يَحْلُونَ فِي رَوْضٍ مِنَ الْعَيْشِ زَاهِرِ
 وَأَيْنَ مَلُوكٍ فِي الْمَوَاكِبِ تَقْتَدِي * تُسَبِّهُ حَسَنًا بِالنَّجُومِ الزُّوَاهِرِ
 وَأَيْنَ الْقَضَاةِ الْحَاكِمُونَ بِرَأْيِهِمْ * لِيُورِدَ أُمُورَ مَشْكَالَاتِ الْأَوَامِرِ
 أَوْ الْقَائِلُونَ النَّاطِقُونَ بِحِكْمَةٍ * وَرَضِيفِ كَلَامٍ مِنْ خَطِيبٍ وَشَاعِرِ
 وَأَيْنَ مِرَاحٍ لِلْمُلُوكِ عَاهِدْتُهَا ^(١) * مِنْ خَرْفَةٍ فِيهَا صَنُوفُ الْجَوَاهِرِ
 تُرْتَضَى بِمَاءِ الْمَسْكِ وَالْوَرْدِ أَرْضُهَا * يَفُوحُ بِهَا مِنْ بَعْدِ رِيحِ الْمَجَامِرِ
 وَرُوحَ النَّدَامَى فِيهِ كُلُّ عَشِيَّةٍ * إِلَى كُلِّ قِيَاضٍ كَرِيمِ الْعُنَاصِرِ
 وَأَيْنَ قِيَانٍ تَسْتَجِيبُ لِنَعْمِهَا * إِذَا هُوَ لِبَاها حَتِينُ الْمَزَامِرِ
 وَأَيْنَ الْمُلُوكِ الْغُرُّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ * وَأَشْيَاعِهِمْ فِيهَا اِكْتَفَوْا بِالْمَعَاذِرِ
 يَرْوِحُونَ فِي سُلْطَانِهِمْ وَكَأَنَّهُمْ * يَرْوِحُونَ فِي سُلْطَانِ بَعْضِ الْعِشَائِرِ
 يَجَادِلُ عَمَّا نَالَهُمْ كِبْرًا وَهُمْ * فَنَالَتْهُمُ بِالْكُرْهِ أَيْدِي الْأَصَاغِرِ
 فَاقْسَمَ لَوْ أَنَّ الْمُلُوكَ تَنَاصَرُوا * كَزَلَّتْ لَهَا خَوْفًا رِقَابُ الْجَبَابِرِ

(١) كذا في الأصل ولعلها صروح .

وقال عمرو بن عبد الملك الوراق يبكى بغداد ويهجو طاهرا ويعترض به :

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعين * ألم تكوني زمانا قُترة العين
 ألم يكن فيك أقوامٌ لهم شرف * بالصالحات والمعروف يلقون
 ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم * وكان قُربهم زينا من الزين
 صاح الزمانُ بهم بالبين فانقرضوا * ما ذا الذي جفعتني لوعسة البين
 أستورعُ الله قوماً ما ذكرتهمو * ألا تحذر ماء العين من عيني
 كانوا ففرقهم دهرٌ وصدعهم * والدهر يصدع ما بين الفريقين
 كم كان لي مُسعِد منهم على زمني * كم كان منهم على المعروف من عون
 لله در زمان كان يجعنا * أين الزمان الذي ولي ومن أين
 يا من يُخرب بغداداً ليعمرها * أهلكت نفسك ما بين الطريقين
 كانت قلوبُ جميع الناس واحدة * عينا وليس يكون العين كالدين
 لما استديتهمُ فرقهم فرقا * والناس طراً جميعاً بين قلبين

ولبعض فتیان بغداد :

بكيتُ دماً على بغداد لما * فقدتُ غَضارة العيش الأنيق
 تبدلنا هموماً من سرور * ومن سعة تبدلنا بضيق
 أصابتها من الحساد عين * فأفنت أهلها بالمنجنيق
 فقومٌ أحرقوا بالنار قسراً * وناحمةً تتوح على غريق
 وصاحمةً تُنادى وأصباحا * وباكيةً لفقدان الشفيق
 وحوراء المدامع ذات دَل * مضمخةً الجاسد بالخَلوق
 تَفتر من الحريق الى اتهاپ * ووالدها يفتري الى الحريق

وَمَسَالِبَةُ الْغَزَالَةِ مُقَاتِلَتِهَا * مَضَاحِكُهَا كَلَّاءُ لَأَةِ الْبُرُوقِ
 حَيَارَى كَالْهَدَايَا مُبَكِّرَاتِ * عَلِيْنَ الْقَلَائِدِ فِي الْحُلُوقِ
 يُنَادِيَنِ الشَّفِيقَ وَلَا شَفِيقًا * وَقَدْ فُقِدَ الشَّفِيقُ مِنَ الشَّفِيقِ
 وَقَوْمٌ أُحْرِجُوا مِنْ ظِلِّ دُنْيَا * مَتَاعُهُمْ يُبَاعُ بِكُلِّ سُوقِ
 وَمُغْتَرِبٌ قَرِيبُ الدَّارِ مُلَقًى * بِلَا رَأْسٍ بِقَارَعَةِ الطَّرِيقِ
 تَوْسَطَ مَنْ قِتَالَهُمْ جَمِيعًا * فَمَا يَدْرُونَ مِنْ أَى الْفَرِيقِ
 فَلَا وَلَدٌ يُقِيمُ عَلَى أَبِيهِ * وَقَدْ هَرَبَ الصَّدِيقُ مِنْ صَدِيقِ
 وَمَهْمَا أَنَسَ مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى * فَإِنِّي ذَاكَرُ دَارِ الرَّقِيقِ

بيان المصادر العربية والافرنجية الهامة

التي عولنا عليها في المراجعة لكتاب عصر المأمون

ثبت لك هنا الهام من مراجع الكتاب عدا دواوين الشعراء ومعجمات اللغة التي أشرنا إليها في مواضعها من الكتاب وهوامشه . وهي :

المصادر باللغة العربية :

- | | |
|---|---|
| ✓ تاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط . | ✓ تاريخ الطبري ، طبعة مصر وليدن . |
| ✓ تاريخ المشاركة لصليبا بن يوحنا ، مخطوط . | ✓ تاريخ الكامل لابن الأثير، طبعة مصر . |
| ✓ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، مخطوط . | ✓ تاريخ مروج الذهب للسعودي ، طبعة مضمرو باريس . |
| ✓ تاريخ بغداد لابن طيفور (الجزء السادس طبعة أوروبا) . | ✓ تاريخ يعقوبى ، طبعة ليدن بأشراف المسيوهتسا . |
| ✓ تاريخ التشريع الاسلامي للرحوم الخضرى بك ، طبعة مصر . | ✓ تاريخ أبى الفدا لللك المؤيد ، طبعة الأستانة . |
| ✓ تاريخ الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا ، طبعة أوروبا . | ✓ تاريخ علماء الأندلس لأبى الوليد عبدالله محمد بن يوسف ، طبعة أوروبا . |
| ✓ تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغريردى ، طبعة أوروبا . | ✓ تجارب الأمم لابن مسكويه ، طبعة مصر . |
| ✓ البدء والتاريخ لأبى زيد البلخى ، طبعة باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو» . | ✓ تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون ، طبعة مصر . |
| ✓ الآثار الباقية للبيروني ، طبعة ليسك . | ✓ الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ، طبعة ليدن . |
| | ✓ نظم الجوهر لابن البطريق ، طبعة أكسفورد سنة ١٦٥٩ للستشرق ادوار بوكوك . |

- مختصر تاريخ الدول لأبي الفرج الملقب،
طبعة بيروت .
- تاريخ الاسحاق، طبعة أوروبا .
- فتوح الشام للواقدي، طبعة مصر .
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، طبعة
مصر .
- ولاية مصر وقضاتها للكندي، طبعة
بيروت .
- مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي،
طبعة مصر .
- كشف الظنون لحاجي خليفة، طبعة
الأستانة وليسك ومصر .
- المستطرف للابن شيبه، طبعة بولاق .
- معجم البلدان لياقوت الحموي، طبعة
ليسك ومصر .
- المزهر للسيوطي، طبعة بولاق .
- الأحكام السلطانية للساوري، طبعة
أوروبا .
- أعلام الناس للاتيدي، طبعة مصر .
- كتاب المعارف لابن قتيبة، طبعة أوروبا .
- معجم الأدياء لياقوت الرومي، طبعة
مصر واشراف مرجليوث .
- الفهرست لابن النديم، طبعة ليسك .
- طبقات الأئمة لابن صاعد، طبعة بيروت .
- طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة،
طبعة مصر .
- تراجم الحكماء للقفطي، طبعة مصر .
- طبقات الأدباء لعبد الرحمن الأنباري،
طبعة مصر .
- وفيات الأعيان لابن خلكان، طبعة
مصر .
- وفات الوفيات لابن شاكر الكتبي،
طبعة مصر .
- الملل والنحل للشهرستاني، طبعة مصر .
- ألف باء ليوسف البلوي، طبعة مصر .
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري،
طبعة دار الكتب .
- فتوح البلدان للبلاذري، طبعة لندن .
- كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني،
طبعة لندن .
- كتاب البلدان لليعقوبي، طبعة لندن .
- مسالك الممالك للاصطخري، طبعة
لندن .
- المسالك والممالك لابن حوقل، طبعة
لندن .
- أحسن التقاسيم للقدسي، طبعة لندن .
- المسالك والممالك لابن خردادبه، طبعة
لندن .
- الأعلاق النفيسة لابن رسته، طبعة لندن .
- حسن المحاضرة للسيوطي، طبعة مصر .
- بلوغ الأرب في أحوال العرب للأوسمي
طبعة بغداد .
- مقدمة الياذة هو ميروس تعريب البستاني
طبعة مهر .

- ١ حضارة الاسلام في دار السلام لجميل
مدقور، طبعة مصر .
- ٢ كتاب الأغاني للاصبهاني، طبعة بولاق
والساسي .
- ٣ الجزء الأول من كتاب الأغاني، طبع
مطبعة دار الكتب المصرية .
- ٤ نهاية الأرب، طبع مطبعة دار الكتب
المصرية والنسخة الفتوغرافية
بالدار .
- ٥ صبح الأعشى، طبع مطبعة دار الكتب
المصرية .
- ٦ كتاب التاج المنسوب للجاحظ، طبع
مطبعة دار الكتب المصرية .
- ٧ كتاب الأمانى لأبي علي القالي، طبع
مطبعة دار الكتب المصرية .
- ٨ كتاب الكامل للبرد، طبعة مصر .
- ٩ كتاب البيان والتبيين للجاحظ، طبعة
مصر .
- ١٠ العمدة لابن رشيق، طبعة مصر .
- ١١ كتاب المحاسن والمساوي للبيهقي، طبعة
فردرك شوالى .
- ١٢ كتاب المحاسن والاضداد للجاحظ، طبعة
ليدن .
- ١٣ كتاب البخلاء للجاحظ، طبعة مصر .
- ١٤ كتاب الحيوان للجاحظ، (نسخة
فتوغرافية محفوظة بدار الكتب
المصرية) .
- ١٥ كتاب الكشكول للعاملى، طبعة مصر .
- ١٦ سراج الملوك للطرطوشى، طبعة مصر .
- ١٧ كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، طبعة
ليدن .
- ١٨ كتاب الخراج لأبي يوسف، طبعة
بولاق .
- ١٩ تاريخ الوزراء المنسوب للصولى، طبعة
بيروت .
- ٢٠ أشهر مشاهير الاسلام، للرحوم رفيق
العظم بك، طبعة مصر .
- ٢١ كتاب نفع الطيب، طبعة مصر وأوربا .
- ٢٢ مفاتيح العلوم للخورزمى، طبعة مصر .
- ٢٣ مفيد العلوم للخورزمى، طبعة مصر .
- ٢٤ كتاب المواهب الفتحية للرحوم
الشيخ حمزة فتح الله، طبعة مصر .
- ٢٥ كتاب السيرة لابن هشام، طبعة مصر .
- ٢٦ مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر .
- ٢٧ خطط الشام للاستاذ محمد كرد علي،
طبعة دمشق .
- ٢٨ مجموعة مجلة المشرق، طبعة بيروت .
- ٢٩ مجموعة مجلة المجمع العلمى، طبعة دمشق .
- ٣٠ مجموعة مجلة الهلال، طبعة مصر .
- ٣١ مجموعة مجلة المقتطف، طبعة مصر .
- ٣٢ بعض فصول ومباحث من المجلة
الأسبوية .
- ٣٣ حديث الأرباء للدكتور طه حسين،
طبعة مصر .

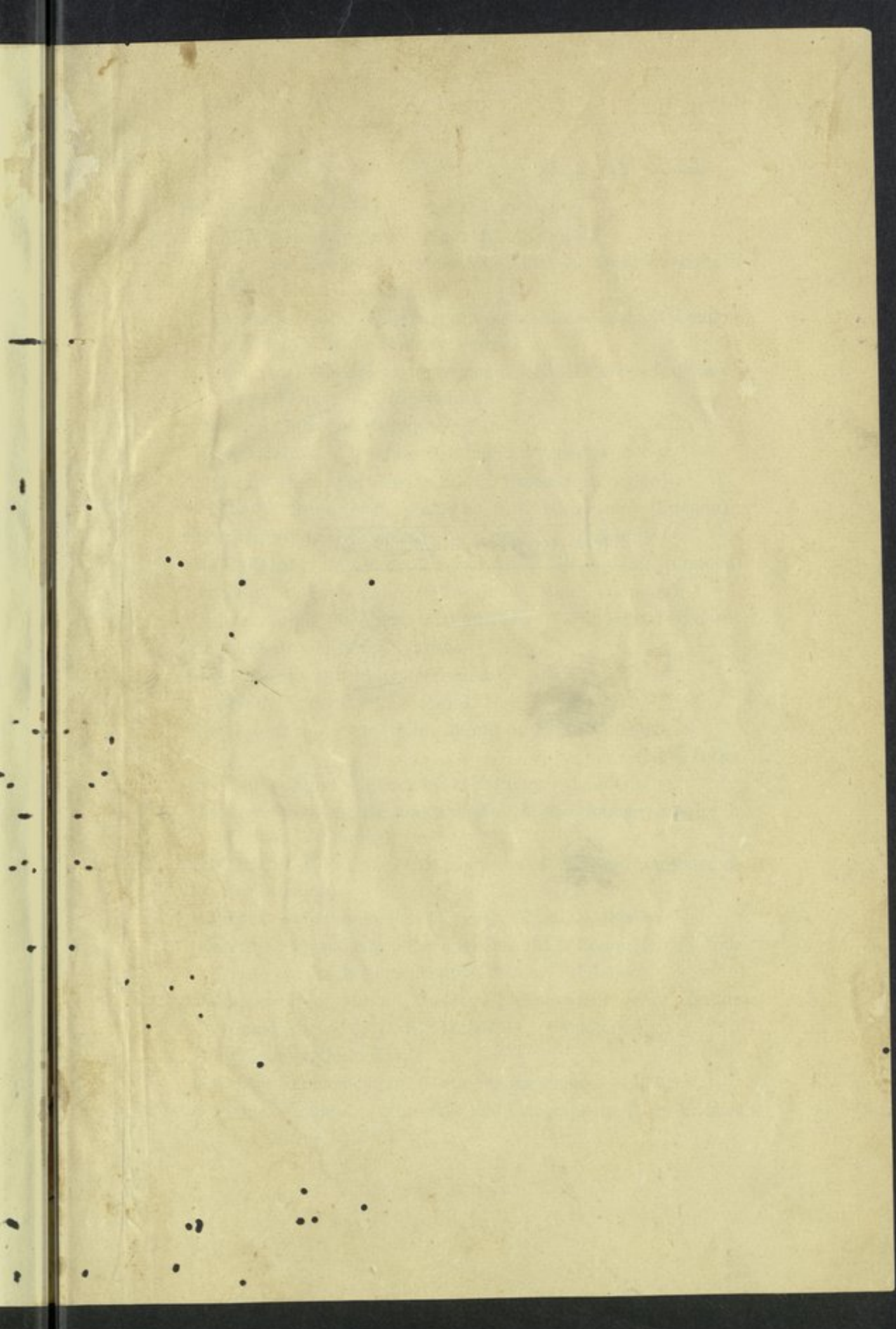
- منهل الرقاد في علم الانتقاد لقسطاكي
الخصى بك، طبعة مصر .
- محاضرات الأستاذ الاسكندري
المدرس بدار العلوم، طبعة مصر .
- الوسيط للأستاذ الاسكندري المدرس
بدار العلوم، طبعة مصر .
- أدبيات اللغة العربية للأستاذ مصطفى
صادق الراجحي، طبعة مصر .
- أدبيات اللغة العربية للمرحوم عاطف
بركات بك وزملائه، طبعة مصر .
- مهدب الأغاني للمرحوم الخضرى بك ،
طبعة مصر .
- بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف ،
طبعة مصر .
- الشعر والشعراء لابن قتيبة، طبعة ليدن .
- طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ،
طبعة ليدن ومصر .
- كتاب الأذكياء لابن الجوزى ، طبعة
مصر .
- العقد الفريد للملك السعيد، طبعة مصر .
- العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة
مصر .
- لطائف المعارف للثعالبي، طبعة ليدن .
- عيون الأخبار لابن قتيبة ، طبعة
دار الكتب وأوربا .
- حلبة الكيت ، طبعة بولاق .
- خزانة الأدب لابن حجة الحموي ، طبعة
بولاق .
- خزانة الأدب للبغدادى ، طبعة بولاق .
- محاضرات الفلسفة استتلائه بالجامعة
المصرية .
- محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية
للسنيور كرونليو، طبعة روما .
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة
لطاشكبرى زاده ، طبعة
حيدرآباد .
- محاضرات الشيخ عبد الوهاب النجار
بالجامعة المصرية .
- محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدي
بالجامعة المصرية .
- محاضرات الأستاذ الخضرى بك في تاريخ
الأمم الاسلامية، طبعة مصر .
- محاضرات الأستاذ الخضرى بك في تاريخ
الدولة الأموية، طبعة مصر .
- التمدن الاسلامى للمرحوم جورجى بك
زيدان، طبعة مصر .
- تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم
جورجى بك زيدان، طبعة مصر .
- طبقات ابن سعد، طبعة أوربا .
- طبقات الشافعية للسبكي، طبعة مصر .
- المنثور والمنظوم لابن طيفور .
- رسالة بنى أمية للمحافظ خطية .

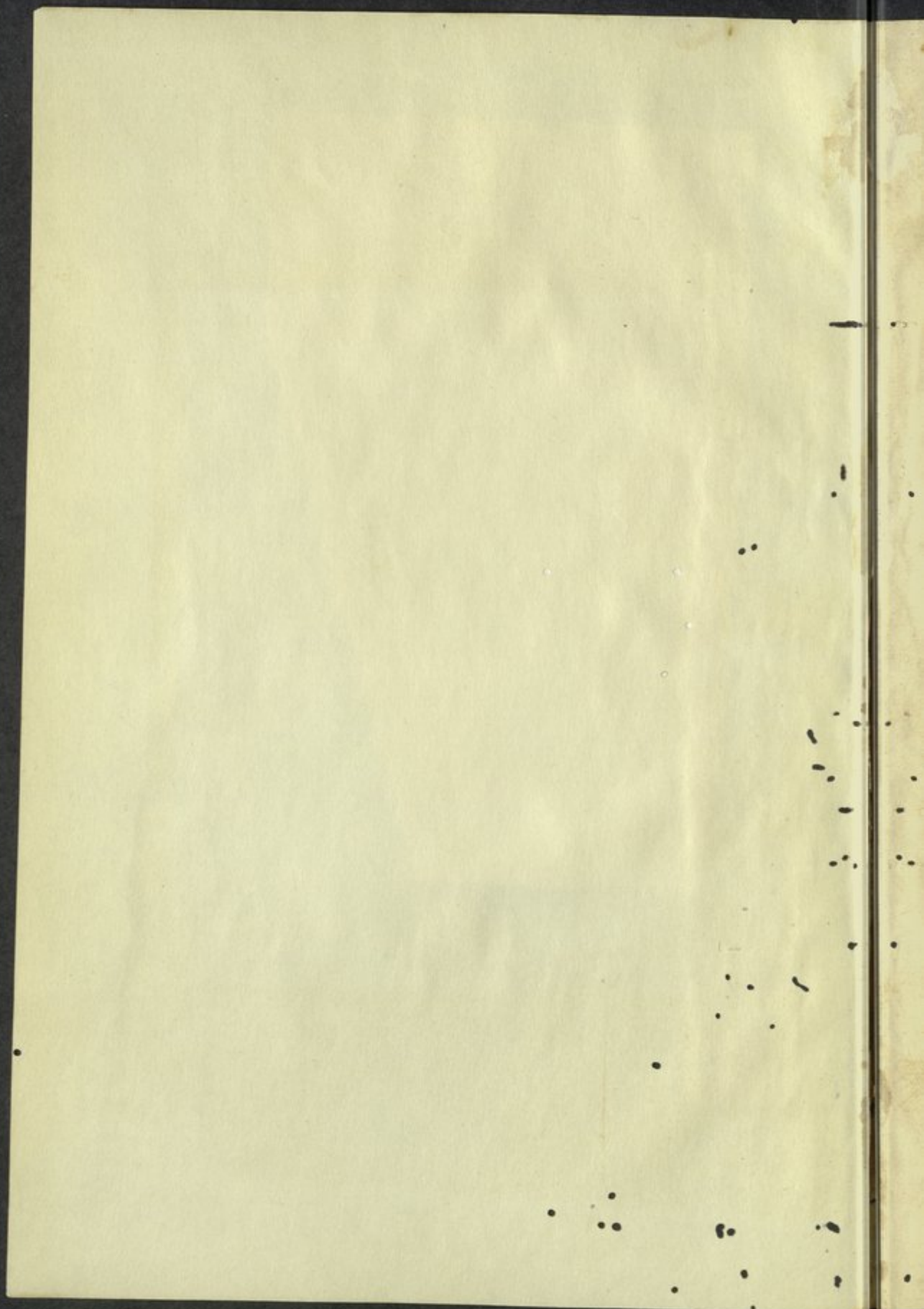
- رسائل البغاء للأستاذ محمد كرد علي ،
 طبع مصر .
- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد ، طبعة
 مصر .
- المفضليات للضبي ، طبعة مصر .
- حماسة البحترى ، طبعة بيروت .
- الصناعتين لأبي هلال العسكري ، طبعة
 مصر .
- الموشى لابي الطيب ، طبعة أوروبا .
- ديوان الحماسة لأبي تمام ، طبعة مصر .
- مجانى الأدب وشرحه ، طبعة بيروت .
- مختارات البارودى ، طبعة مصر .
- حياة الحيوان للدميرى ، طبعة مصر .
- عيون التواريخ لابن شاعر الكتبي
 (أجزاء منه محفوظة بدار الكتب
 المصرية) .
- الفرج بعد الشدة للتونجى ، طبعة مصر .
- كتاب الوزراء والكتاب لأبي عبد الله
 محمد بن عبدوس الجهشيارى طبعة
 فينا سنة ١٩٢٦
- كتاب الاشتقاق لابن دريد الازدى
 طبعه جوتيجن سنة ١٨٥٤
- الأوراق للصولى ، خطية .
- مطبوعات تذكارات جيب الانجليزية
 وخاصة مؤلفات الأستاذين
 مرجليوث وبرون .
- زهر الآداب للحصرى ، طبعة مصر .
- المشتبه فى أسماء الرجال للذمبى ، طبعة
 أوروبا .
- الوافى بالوفيات للصفدى (المحفوظ
 بدار الكتب المصرية تحت
 رقم ١٢١٩) .
- أخبار أبى نواس لابن منظور ، طبعة
 مصر .

المصادر الإفريقية :

- Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris.
- Life of Mohamet by Sir W. Muir. (London).
- The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by Ameer Ali. (London).
- D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London) in "Heroes of the Nations' Series".
- H. Lammens: "Etudes sur les régnes des Califs Omayyades Moawia 1^{er} et Yasid 1^{er}". (Beyrouth).
- Library of Universal History (N. Y.).
- History of Arabic Literature: Cl. Huart. (London).
- A Literary History of Persia: Ed. G. Browne. (London).
- A Literary History of the Arabs by R. A. Nicholson. (London).
- Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London).
- The Caliphate: its rise decline and fall by Sir W. Muir. (London).
- Annals of the Early Caliphate by Sir W. Muir. (London).
- Baghdad during the Abbasid Caliphate by G. le Strange. (Oxford).
- Encyclopaedia of Islam. (Luzac).
- Encyclopaedia Britannica. (London).
- La Grande Encyclopédie. Paris.
- The Historians' History of the World by H. S. Williams. (New York).
- Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings. (London).
- The History of the Decline and Fall of the Roman Empire by Gibbon. (London).
- The History of Philosophy in Islam by J. de Boer translated by Jones. (London).
- Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle).
- Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Andalusie par les Almoravides by R. Dozy. (London).
- Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory by D. B. Macdonald. (London).
- Margoliouth's Works Etc.
- R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes. 1927.
- Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen: Hans V. Mzik. (Leipzig).

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٣١٥٠)





DATE DUE

[REDACTED]

رفاعي، احمد فريد

عصر المأمون

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011075



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

